

# التفسير الموضوعي

## لسور القرآن العظيم

تأليف

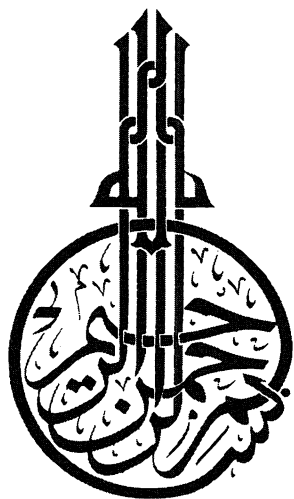
عبد الحميد محمود طه

المجلد الخامس :

ويحتوي على تفسير هذه السور

الكهف - مريم - طه - الأنبياء - الحج - المؤمنون

دار القراء  
دمشق



التفسير الموضوعي  
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أسَّسَهَا:  
مُحَمَّدُ عِيسَى وَوَلَدَتَهُ  
سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم  
دمشق

الطبعة الثانية  
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٢٨ ص.ب: ٤٥٢٣

[www.alkalam-sy.com](http://www.alkalam-sy.com)

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

## تفسير سورة الكهف

### العَوَاصِمُ مِنَ الْفِتَنِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد خاتم النبيين وأشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن عصرنا هذا من أشد العصور فتناً، وأكثرها محناً، يتعرّض المسلمون فيه لشتى أنواع البلاء من فتنٍ ومحنٍ، وإنّ من أوجب الواجبات أن نبحث عن طريق السلامة في ديننا، وسبيل العافية في حياتنا.

ولابدّ لنا لنعرف طريق السلامة من الرجوع إلى كتاب ربنا، وإلى سنّة نبينا محمد ﷺ، فهما كهفُ السلامة والعافية في الدين والدنيا، وسبيلُ السعادة في الآخرة.

ويمكن لنا أن نتبيّن طريقَ السلامة وسبيلَ العافية من خلال سورة كريمة من سور القرآن الكريم، هي سورة الكهف، على ضوء الصّحيح الثابت من سنّة رسول الله ﷺ.

وقد جاء تفسير هذه السورة في ستة فصول بعد هذه المقدمة:

- الفصل الأول: مقدمة في الفتن: تعريفها، المراد منها، أسبابها، سبل الوقاية منها.
  - الفصل الثاني: سورة الكهف: فضلها، وموضوعها، وصلتها بأسباب السلامة من الفتن.
  - الفصل الثالث: قصة أصحاب الكهف.
  - الفصل الرابع: قصة الغني والفقير.
  - الفصل الخامس: قصة موسى والخضر عليهما السلام.
  - الفصل السادس: قصة ذي القرنين.
- وجاءت خاتمة السورة للتعقيب الأخير المنسجم مع موضوع السورة، للتأكيد على ارتباط آيات السورة ببعضها ارتباطاً محكماً.
- وإنني لأسأل الله العلي القدير أن يحفظني من الفتن، ويجنبني الزلل والخطأ، وأن يثبتني على دينه، ويديم عليّ نعمة العافية، وأن يعفو عني ويسترني بستره الجميل.
- وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



## الْفُضَيْلُ الْإِزْنُ

## مُقَدِّمَةٌ فِي الْفِتَنِ

## تَعْرِيفُهَا، الْمُرَادُ مِنْهَا، أَسْبَابُهَا، سُبُلُ الْوَقَايَةِ مِنْهَا

## ● تعريف الفتن:

الفتن: جمع فتنة، ولها في اللغة عدة معانٍ، أهمها:

## ١ - الابتلاء والاختبار:

وأصل هذا المعنى مأخوذٌ من قولك: فتنتُ الفضةَ والذهبَ، إذا أذبتُهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت] أي: لا يبتلون ولا يختبرون. وقال ﷺ أيضاً: ﴿ إِنَّمَا حُنُّ فِتْنَةٍ فَلَا تَكْفُرُ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: نحن ابتلاء واختبار.

وقال ﷺ أيضاً: ﴿ أَوْلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة: ١٢٦] أي: يختبرون.

ولمَّا كانت الأموال والأولاد اختباراً للإنسان وامتحاناً، قال الله سبحانه فيهم: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وتأتي الفتنة أيضاً بمعنى قريب من معنى الابتلاء والاختبار، وهو معنى الإحراق، وجاء في هذا قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣].

## ٢ - الإعجاب بالشيء:

وتأتي الفتنة بمعنى الإعجاب بالشيء، ولهذا يقال: فتنة: أي جعل فيه فتنةً، وأفتنه: أوصل الفتنة إليه، وفتن الرجلُ بالمرأة: إذا أعجبته وأحبَّها، وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأةُ، وأهل نجد يقولون: أفتنته، وجاء قوله تعالى بهذا

المعنى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] أي: لا تظهرهم علينا فيعجبوا ويظنوا أنهم خير منا.

### ٣ - الميل عن الحق:

وتأتي الفتنة بمعنى الميل عن الحق، والفاتن: المضلُّ عن الحق، كما في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفِتْنِينَ﴾ [الصفات: ١٦٢] أي: مضلِّين عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي: يميلونك ويزيلونك.

فكل ما يؤدِّي إلى الميل عن الحق من كفر وضلال وإثم يُسمَّى فتنة، وجاء بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَسْأَلُكَ لِي وَلَا نَفْتِنِي﴾ [التوبة: ٤٩] أي: لا تؤثمني، وردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] أي: في الإثم والضلal.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] أي: الكفر والإثم والضلal.

### ٤ - الاختلاف والافتتال:

وتأتي الفتنة أيضاً بمعنى الاختلاف والافتتال الذي يقع بين الناس، وبهذا المعنى جاء قول رسول الله ﷺ حين أشرف على أطم من أطام المدينة ثم قال: «هل ترون ما أرى؟ إنني أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر» [رواه البخاري (١٨٧٨) ومسلم (٢٨٨٥)] أي: القتل والحروب والاختلاف.

تلك هي أهم المعاني اللغوية للفتن التي ذكرها اللغويُّ المشهور ابن منظور في كتابه «لسان العرب»، ولا يخفى على المتأمل فيها أن بينها صلة، فالإعجاب بالشيء يؤدِّي إلى الميل عن الحق، وهذا يوقع الناس في الفتنة، التي هي بمعنى الاختلاف والافتتال، أو يوقعهم في الفتنة التي هي بمعنى الكفر والإثم والضلal، والإعجاب بالشيء نتيجة اختبار الله لنا وابتلائه بما خلق لنا في هذه الحياة من أسباب الابتلاء والاختبار.

### ● المراد من الفتن:

ونحن لا نقصد بالفتن تلك التي تكون من الله سبحانه على وجه الابتلاء



والاختبار، وإنما نعني بالفتن ما يكون للعبد فيها كسبٌ واختيارٌ، وهي التي تُميله عن الحقِّ، وتُضِلُّه عنه، وتوقعه بالإثم والضلال والكفر، وتسبب الاختلاف والافتتال بين الناس.

### • أسباب الفتن:

وأَسباب هذه الفتن يكون من التغيير والتبديل والانحراف عن دين الله سبحانه، وقد بَوَّب الإمام البخاري في أول [٩٢] كتاب الفتن في «صحيحه» فقال:

١ - باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وما كان النبي ﷺ يحدث من الفتن.

٧٠٤٨ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ عَمَرَ<sup>(١)</sup>، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: قَالَتْ أَسْمَاءُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَنَا عَلَى حَوْضِي أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ، فَيُؤْخَذُ بِنَاسٍ مِنْ دُونِي، أَقُولُ: أُمَّتِي، فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي، مَشَوْا عَلَى الْقَهْقَرِيِّ».

قال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ نُفْتَنَ.

٧٠٤٩ - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مَغِيرَةَ، عَنْ أَبِي وائِلٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ<sup>(٣)</sup> عَلَى الْحَوْضِ، لِيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لَأَنَا وَلَهُمْ اخْتَلِجُوا<sup>(٤)</sup> دُونِي، فَأَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَصْحَابِي! فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ».

٧٠٥٠، ٧٠٥١ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بَكِيرٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا

(١) هو نافع بن عمر الجمحي المكي، أحد الأثبات.

(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أي: سابقكم.

(٤) أي: أبعدوا عني.

فَرَطُّكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ».

قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلًا؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدريّ لسمعته يزيد فيه؛ قال: «إِنَّهُمْ مِنِّي؟» فيقال: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ: سَحَقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي».

قال ابن حجر رحمته الله: «قوله: «وما كان النبي ﷺ يحدث من الفتن» يشير إلى ما تضمنته حديث الباب من الوعيد على التبديل والإحداث، فإنَّ الفتن غالباً تنشأ عن ذلك... وحاصل ما حُمل عليه حال المذكورين أنهم كانوا ممن ارتدَّ عن الإسلام، فلا إشكال في تبري النبي ﷺ منهم وإبعادهم، وإن كانوا ممن لم يرتد لكن أحدث معصية كبيرة من أعمال البدن أو بدعة من اعتقاد القلب، فقد أجاب بعضهم بأنه يحتمل أن يكون عرض عنهم، ولم يشفع لهم اتباعاً لأمر الله فيهم حتى يعاقبهم على جنائهم، ولا مانع من دخولهم في عموم شفاعته لأهل الكبائر من أمته، فيُخرجون عند إخراج الموحدين من النار. والله أعلم»<sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن أبي شيبة [٣٨٤٤٧] عن حذيفة رضي الله عنه قال: لا تضرُّك الفتنَةُ ما عرفتَ دينك، إنّما الفتنَةُ إذا اشتبه عليك الحقُّ والباطل.

#### • أسباب السلامة من الفتن:

إذا كان التغيير والتبديل في دين الله والانحراف عن صراطه المستقيم منشأ الفتن، فإنَّ أسباب السلامة منها تكون بالتمسك بدين الله سبحانه الذي شرعه لنا دون تغيير أو تبديل، وبالاستقامة عليه، وذلك بالمداومة على تطبيقه، والسير على منهجه، وهذا يستدعي متاً عدة أمور:

أولها: العلم بالإسلام عقيدة وتشريعاً وأحكاماً:

حتى نكون على بصيرة ودراية، بحيث نميّز بين ما هو من الدين حقيقةً، وبين ما ليس منه من البدع والضلالات وأسباب الزيغ والانحراف.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٧/١٣.

وقد تكفلَ اللهُ سبحانه بحفظ دينه، وإبقائه في الأرض حجة على الناس، بعد أن ختم النبوة والرسالة ببعثة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، فحفظ أصوله ومصادره الأساسية، وذلك بحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولم يتأت هذا الحفظ لأي دين سماوي آخر غير الإسلام، ولهذا فإن التمسك بالكتاب والسنة تمسكٌ بدين الإسلام، وأكبر عاصم يعصم الإنسان من الزيغ والانحراف والابتداع، وبالتالي من مباشرة الفتن أو أسبابها.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوصي أمته من بعده بأن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ففي «الموطأ» عن الإمام مالك رحمته الله قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «تركْتُ فيكم أمرين لئن تَضِلُّوا ما تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كتابَ اللهِ تعالى، وسُنَّةَ رسولي ﷺ».

وفي سنن أبي داود [٤٦٠٧] والترمذي [٢٦٧٦]: عن العرْباضِ بن سارية رضي الله عنه قال: صَلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يوم، ثم أقبلَ علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغةً ذرَفَتْ منها العيونُ، ووجلَّتْ منها القلوبُ، فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ كأنَّ هذه موعظةٌ مودِّعٌ، فماذا تعهدُ إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى اللهِ تعالى، والسمع والطاعة، وإنَّ كانَ عبداً حَبَشِيًّا، فإنَّه مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المهديين، تمسَّكوا بها، وعصوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ».

والعلم لا يكونُ إلا بالتعلُّم على يد معلِّمٍ عليم بالكتاب والسنة، خبير بكيفية استنباط الأحكام منهما، مؤتمن على دين الله، يخشى الله ويتقيه، قال تعالى: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وما أرسل اللهُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا معلِّمين ومرشدين وهادين، قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ لَكَّ الْإِلَهَ أَنْ تَرَكَّ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَهْدَيْكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَّشْتَنِي ﴿١٩﴾ [النازعات].

وقال أيضاً: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: دليل يذلُّهم ويرشدهم ويهديهم إلى دين الله وشرعه.

ولهذا فَإِنَّ التَّفَقُّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَلَى يَدِ فُقَيْهِ بِصِيرٍ بِأَحْكَامِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَهْمِ الضَّرُورَاتِ وَأَعْظَمِ سَبِيلٍ لِلْوُصُولِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَالْعَصْمَةُ مِنَ الْفِتَنِ وَالْمَنْكَرَاتِ، قَالَ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» [رواه مسلم (١٠٣٧)].

إِنَّ الرَّجُوعَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ دُونَ دِرَايَةِ وَخَبْرَةِ بَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ، وَمِنْ غَيْرِ اعْتِمَادٍ عَلَى أَصُولٍ وَضَوَابِطٍ وَقَوَاعِدٍ تَحْدُدُ طَرِيقَةَ اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ؛ يُؤَدِي إِلَى الْوُقُوعِ فِي التَّعَارُضِ وَالخِطْبِ فِي دِينِ اللَّهِ خِطْبَ عَشْوَاءٍ، كَمَا تُوَدِي فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ، إِلَى التَّشَكُّكِ وَالانْسِلَاحِ عَنِ الدِّينِ وَالْمَرْوِقِ مِنْهُ.

وَالْجَهْلُ بِالدِّينِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الْفِتَنِ، وَكَلَّمَا أَزْدَادَ النَّاسُ جَهْلًا بِدِينِهِمْ أَزْدَادَتِ الْفِتْنُ بَيْنَهُمْ، وَكَثُرَتْ أَسْبَابُهَا، فَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ مِنْ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: قَلَّةُ الْعِلْمِ، وَانْتِشَارُ الْجَهْلِ، وَكَثْرَةُ الْفِتَنِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» [٧٠٦٢]: مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامًا يُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ» - الْهَرْجُ: الْقَتْلُ - فَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ بَيْنَ كَثْرَةِ الْفِتَنِ بِكَثْرَةِ الْقَتْلِ، وَبَيْنَ انْتِشَارِ الْجَهْلِ وَقَلَّةِ الْعِلْمِ فِي دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ.

ثَانِيهَا: الْحِرْصُ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْعَمَلُ بِهَا، وَإِحْيَاءُ مَا أَنْدَسَ مِنْهَا: فَالرَّسُولُ ﷺ أَمَانٌ مِنَ الْفِتَنِ، وَلِهَذَا كَانَ عَصْرُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْضَرَ الْعُصُورِ وَأَزْكَاهَا وَأَنْقَاهَا، كَمَا أَنَّهُ كَانَ أَبْعَدَهَا عَنِ الْفِتَنِ، تَمَّ الدِّينُ بِهِ ﷺ، وَكَمَلَتْ بِهِ نِعْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَكَانَ مَوْتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ النِّقْصِ، وَحَدَّثَتْ فِتْنَةُ الرَّدَّةِ نَتِيجَةَ ذَلِكَ.

وَلَكِنَّ وَجُودَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَحِرْصَهُمُ الشَّدِيدَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهِ ﷺ أَغْلَقَ بَابَ الْفِتْنَةِ، وَقَمَعَ الرَّدَّةَ، وَرَدَّ دَعَاةَ الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ إِلَى جُحُورِهِمْ خَاسِئِينَ، وَهَذَا يَفْسِّرُ لَنَا سِرَّ حِرْصِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى تَطْبِيقِ السُّنَّةِ تَطْبِيقًا كَامِلًا، وَإِصْرَارِهِ الشَّدِيدِ عَلَى تَنْفِيزِ وَصِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنْ يَبِيعَتْ جَيْشَ أَسَامَةَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، مَعَ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ، بَعْدَ أَنْ

ذَرَّ قَرْنَ الْفِتْنَةِ فِي عَامَةِ الْبِلَادِ مِنْ حَوْلِهَا، وَقَدْ خَالَفَهُ عَامَةُ الصَّحَابَةِ، وَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِتَأْخِيرِ بَعْثِ جَيْشِ أَسَامَةَ، وَلَكِنَّهُ ﷺ أَصْرًا عَلَى تَنْفِيزِ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ فِي هَذَا الْخَيْرِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ تَمَكَّنَ ﷺ مِنْ قَمْعِ فِتْنَةِ الرَّدَّةِ، وَأَعَادَ لِلدِّينِ شَبَابَهُ، وَلِلْإِسْلَامِ قُوَّتَهُ وَجَمَالَه، بِبُرْكَاتِهِ بِسُنَّتِهِ ﷺ وَحِرْصِهِ الشَّدِيدِ عَلَى تَنْفِيزِ وَصِيَّتِهِ.

وَكَانَ مَوْتُ الصَّحَابَةِ ﷺ وَرَحِيلُهُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَخَلْوُ الْأَرْضِ مِنْهُمْ ثَلَمَةٌ كَبِيرَةٌ فِي الْإِسْلَامِ، لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ فَهْمًا فِي دِينِ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةً بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَمَسُّكًا بِهَا، وَكَانَ عَصْرُهُمْ خَيْرَ الْعَصُورِ بِشَهَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَمَا قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» [رواه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣)].

فوجود الصحابة ﷺ أمانٌ للأمة المسلمة من الفتن، كما كان وجوده ﷺ أماناً لأصحابه من الفتن، وقد جاء هذا في حديث نبوي صحيح: عن أبي بردة، عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلِّي معه العشاء، فخرج علينا فقال: «ما زلتم هاهنا؟» قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلِّي معك العشاء، قال: «أحسنتم أو أصبتم» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: «النجوم أمانةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم، أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمانةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يُوعَدُونَ، وأصحابي أمانةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعَدُونَ».

وقد أخرج هذا الحديث الإمام مسلم في «صحيحه»، وبوّب له باباً مستقلاً فقال: باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمانٌ لأصحابه، وبقاء أصحابه أمانٌ للأمة [رقم (٢٥٣١)].

قال العلماء: الأمانة والأمن والأمان بمعنى واحد، ومعنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية، فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم، وتناثرت يوم القيامة، انشقت السماء وذهبت، والنبي ﷺ أمانٌ لأصحابه من الفتن والاختلاف والارتداد، والصحابة أمانٌ للأمة من الفتن والاختلاف وظهور البدع والحوادث، وقد وقع كل ذلك كما أخبر ﷺ.

وجاء التحذير من مخالفة سنَّته ﷺ، وأنَّ ذلك يُوَدِّي إلى وقوع الفتن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فما من فتنةٍ أصابت المسلمين بعده عليه الصلاة والسلام إلا بسبب مخالفتهم لأمرٍ من أوامره، أو تركهم لسنةٍ من سننه، ولهذا كان للمتمسك بالسنة عند انتشار الفساد في الأمة أجرٌ مئة شهيد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجرٌ مئة شهيد» [رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٤١٤)]. كما أن العمل على إحياء سنة من سننه ﷺ من أعظم العبادات وأرفع القربات، لأنَّ إحياء السنة يدرأ عن الأمة سبباً من أسباب الفتن، ويرفع عنها بعض أنواع البلاء.

كما أن إحياء سنَّته عليه الصلاة والسلام دليلٌ على محبته، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ غَشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ، يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْبَبَنِي، وَمَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ» وفي رواية بلفظ: «فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة» [رواه الترمذي (٢٦٧٨) وحسنه].

قال ابنُ شهاب الزُّهري رضي الله عنه: بلغنا عن رجالٍ من أهل العلم قالوا: الاعتصامُ بالسنة نِجاةٌ<sup>(١)</sup>.

وقال عبد الله بن منازل: لم يضيع أحدٌ فريضةً من الفرائض إلا ابتلاه الله بتضييع السنن، ولم يُبَلَّ أحدٌ بتضييع السنن إلا أوشك أن يُبتلى بالبدع. ثالثها: اللجوء إلى الله سبحانه بالإكثار من عبادته وذكره ودعائه:

فيجب على المسلم عندما يواجه الفتن بأن يلجأ إلى الله سبحانه، فيقبل بعد أداء الفرائض على نوافل العبادات، ويكثر من الصلاة في جوف الليل، فإنَّ فيها استدراراً لفضل الله ورحمته، وسبباً لحفظه من الفتن والنجاة منها، فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها زوج

(١) شرح الشفاء، للقاري.

النبي ﷺ قالت: استيقظ رسولُ الله ﷺ ليلةً فرعاً يقول: «سبحانَ الله ماذا أنزلَ اللهُ مِن الفِتنَةِ، وماذا أنزلَ مِن الخزائنِ؟! مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ (يريد أزواجه لكي يصلين) يا رَبُّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخِرَةِ» [رواه البخاري (١١٢٦)].

قال ابن حجر: «وفي الحديثِ الندبُ إلى الدعاءِ والتضرُّعِ عند نزولِ الفتنَةِ، ولاسيما في الليلِ لرجاءِ وقتِ الإجابةِ لتكشفَ، أو يسلمَ الداعي ومن دعا له»<sup>(١)</sup>. وقال رسولُ الله ﷺ أيضاً: «إنَّ اللهُ تعالى قال: مَنْ عادَى لي ولياً فقد آذنتُهُ بالحربِ، وما تقربَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أحبُّه، فإذا أحببتهُ كنتُ سمعُهُ الذي يسمعُ به، وبصرُهُ الذي يبصرُ به، ويدهُ التي يبطشُ بها، ورجلهُ التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّهُ، ولئن استعاذني لأعيذنَّهُ...» [رواه البخاري (٦٥٠٢)].

فنوافل العباداتِ ترفعُ الإنسانَ إلى مقامِ محبةِ الله سبحانه، ورعايته، فإذا سألَ اللهُ أعطاه، وإن استعاذَ به أعاده.

وثوابُ العبادةِ أيامَ الفتنِ كبيرٌ وعظيم، يعدلُ ثوابَ هجرةِ إلى النبي ﷺ، قال رسولُ الله ﷺ: «العبادةُ في الهرجِ كهجرةِ إليَّ» [رواه مسلم (٢٩٤٨)]. والهرج: الفتنَةُ التي تؤدِّي إلى كثرةِ القتلِ.

وسبب كثرةِ ثوابِ العبادةِ أيامَ الفتنَةِ أن أكثرَ الناسِ يغفلون عن العبادةِ، ويشتغلون عنها بما ابتلوا به من الفتنِ، ولا ينصرفُ لها إلا القليلُ من الأفراد<sup>(٢)</sup>.

#### • باب الفتن:

و شاءتْ حكمةُ اللهُ أن يكونَ للفتنِ التي حدثتْ بينَ المسلمين ولا زالت قائمةً بينهم في ازديادٍ، بابٌ كانَ في أولِ الأمرِ مغلقاً حائلاً بينَ المسلمين وبينَ الفتنِ، وقد بدأَ النقصُ والحلُّ يظهرُ بوضوحٍ في جسمِ الأمةِ المسلمةِ بفتحِ هذا البابِ، وفتحِه كانَ بموتِ أميرِ المؤمنينِ عمر بن الخطابِ ﷺ غيلةً.

(١) فتح الباري.

(٢) انظر كتاب: فتنة الهرج، للدكتور عبد العزيز دخان، ط مكتبة الصحابة - الشارقة (ن).

وقد أخبر النبي ﷺ في بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة: أن وجودَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يدفع عن الأمة المسلمة الفتن، وأن موته يفتح على الأمة باب الفتن، فهو رضي الله عنه الباب الذي كان يمنع الفتن أن تدخل إلى مجتمع الأمة المسلمة. ولعلَّ السبب في ذلك ما كان يتَّصفُ به رضي الله عنه من صلابة في دين الله، وحرص شديد على سنة رسول الله ﷺ، وتبصُّر بالأُمور، وتقدير للعواقب، فهو الذي أشار على رسول الله ﷺ في عددٍ من القضايا، ونزل الوحي موافقاً لرأيه، وهو الذي قال عنه رضي الله عنه: «قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ» [رواه مسلم (٢٣٩٨)].

وقال ابن وهب: «محدِّثون»: ملهمون.

وهو الذي شهد له النبي ﷺ بكمال الدين، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائمُ رأيتُ الناسَ يعرضون وعليهم قمصٌ، منها ما يبلغُ الثديَّ، ومنها ما يبلغُ دونَ ذلك، ومرَّ عمرُ بنُ الخطابِ وعليه قميصٌ يجرُّه» قالوا: ماذا أولتَ ذلك يا رسولَ الله؟ قال: «الدين» [رواه البخاري (٢٣) ومسلم (٢٣٩٠)].

ولقد ألبسه الله ثوبَ مهابةٍ ووقارٍ بسبب كمال دينه وصلابته في الحق، وشدته فيه، ودفع عنه بهذا مكرَ الماكرين، وكيدَ الكائدين، حتى الشيطان كان يهابُ عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه، ويتبعُدُ عن طريقه، أخبر بذلك رسول الله ﷺ بقوله مخاطباً عمرَ رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطانُ قطُّ سالكاً فجأً إلاَّ سلكَ فجأً غيرَ فجكٍ» [رواه البخاري (٣٢٩٤) ومسلم (٢٣٩٦)].

وقد أثر عنه رضي الله عنه أنه كان يقول: «لستُ بالخبِّ، ولا الخبُّ يخذعني» والخبُّ: الماكرُ المحتالُ.

#### • خير الفتن يتحدَّث:

و شاءت حكمة الله وإرادته أيضاً أن يُكسِّرَ بابُ الفتن على الأمة الإسلامية كسراً، ممَّا جعله لا يغلقُ بعد ذلك، لأنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه قُتلَ غيلةً بخنجر



أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة، حَدَّثَ بهذا أمينٌ سرُّ رسول الله ﷺ حذيفةُ بنُ اليمانِ <sup>(١)</sup> الذي كان رسولُ الله ﷺ يَأْتَمِنُهُ على أسرارِهِ، فكان يقولُ: واللهِ إني لأعلمُ الناسَ بكلِّ فتنةٍ هي كائنةٌ فيما بيني وبينَ الساعةِ، وما بي إلا أن يكونَ رسولُ الله ﷺ أسراً إليَّ في ذلكَ شيئاً لم يحدثهُ غيري، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ قال وهو يحدثُ مجلساً أنا فيه عن الفتنِ: «منهنَّ ثلاثٌ لا يكذَنَ يَدْرَنَ شيئاً، ومنهنَّ فتنٌ كرياحِ الصيفِ، منها صغارٌ ومنها كبارٌ» قال حذيفةُ: فذهبَ أولئك الرهط كلهم غيري. [رواه مسلم (٢٨٩١)].

وتحدَّثَ حذيفةُ <sup>(٢)</sup> عن كسرِ بابِ الفتنةِ فقال: كُنَّا عندَ عمرَ <sup>(٣)</sup>، فقال: أَيُكْمُ يحفظُ حديثَ رسولِ الله ﷺ في الفتنةِ كما قال؟ فقلتُ: أنا، قال: إنك لجرِيءٌ، وكيفَ قال؟ قلتُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «فتنةُ الرجلِ في أهلهِ ومالهِ ونفسِهِ وولدهِ وجارِهِ، يكفِّرُها الصيامُ والصلاةُ والصدقةُ والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ».

فقال عمرُ: ليسَ هذا أريدُ، إنَّما أريدُ التي تموجُ كموجِ البحرِ. فقلتُ: ما لك ولها يا أميرَ المؤمنين، إنَّ بينَكَ وبينها باباً مُغلَقاً. قال: أفيكسرُ البابُ أم يُفتحُ؟ قلتُ: لا، بل يُكسرُ. قال: ذلكَ أحرى أن لا يُغلَقَ أبداً.

فقلنا لحذيفة: هل كان عمرُ يعلمُ مِنَ البابِ؟

قال: نعم كما يَعْلَمُ أنَّ دونَ غدِ الليلةِ، إنِّي حدثته حديثاً ليسَ بالأغاليطِ. قال شقيقُ الذي روى الحديثَ عن حذيفة: فهبنا أن نَسألَ حذيفةً: مِنَ البابِ؟ فقلنا لمسروق: سألُهُ، فسأله فقال: عَمَرُ. [رواه البخاري (١٨٩٥)] ومسلم (١٤٤) واللفظ له].

(١) حذيفة بن اليمان: من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وهو معروف في الصحابة بصاحب سر رسول الله ﷺ، مات سنة (٣٦هـ). كما في: الاستيعاب، لابن عبد البر.

## ● هلاك المسلمين بالفتن فيما بينهم:

قَدَّرَ اللهُ ﷻ أَنْ يَكُونَ بِأَسْ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ يَبْتَلِيَ بَعْضَهُمْ بَعْضَ أَكْثَرِ مِنْ ابْتِلَائِهِمْ بِتَسْلِيْطِ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، أَخْبَرَ بِهَذَا النَّبِيُّ ﷺ فِي عَدَدٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ ذَكَرَ بَعْضَهَا الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيْحِهِ» فِي بَابِ مُسْتَقَلِّ بِعَنْوَانِ: (بَابُ هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا).

مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: مَا رَوَاهُ ثَوْبَانٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى (جَمَعَ) لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيْتُ الْكَنْزِينَ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٍ عَامَةٍ (بِقِحْطِ يَعْصِمُهُمْ)، وَأَلَّا يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيْحُ بِيضَتَهُمْ (أَي: جَمَاعَتَهُمْ وَأَصْلَهُمْ)، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قِضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أُعْطِيْتُكَ لِأَمْتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكُهُمْ بَسَنَةٍ عَامَةٍ، وَأَلَّا أَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيْحُ بِيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» [٢٨٨٩].

قَوْلُهُ: «الْكَنْزِينَ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ» الْمُرَادُ بِالْكَنْزِ الْأَحْمَرَ الذَّهَبَ وَهُوَ كَنْزٌ قِيَصِرُ، وَالْأَبْيَضَ الْفِضَّةَ وَهُوَ كَنْزٌ كَسْرِي، إِذْ غَلَبَ عَلَى الرُّومِ التَّعَامُلَ بِالذَّهَبِ، وَغَلَبَ عَلَى الْفَرَسِ التَّعَامُلَ بِالْفِضَّةِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الْفَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ [الأنعام: ٦٥].  
قَالَ الْبَخَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي «صَحِيْحِهِ»: يَلْسِكُمْ: يَخْلُطُكُمْ مِنَ الْإِلْتِبَاسِ، يَلْبَسُوا: يَخْلُطُوا، شَيْعًا: فِرْقًا.

ثُمَّ رَوَى بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْفَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذِهِ أَهْوُنُ - أَوْ أَيْسَرُ» [٤٦٢٨].

وأخرج أحمد [١/١٧٠] والترمذي [٣٠٦٨] وحسنه: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا...﴾ فقال النبي ﷺ: «أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد» وقد جاء تأويلها كما أخبر النبي ﷺ، ولا يزال بأس الأمة المسلمة بينها قائماً منذ أن كُسر باب الفتنة بقتل عمر رضي الله عنه.

### ● فتنة الدجال:

وهي من أعظم الفتن التي تكون بين يدي الساعة، والدجال رجل مشوه الخلق، ناقص البنية، يدعي لنفسه صفة الألوهية، ويغتر به كثير من الناس، ويصدقونه ويتابعونه، رغم العور الظاهر في عينه، الذي يدل على عجزه ونقصه، ويتنافى مع ما يدعيه من صفات الألوهية والربوبية، لكنه يخدع الناس ببعض خوارق العادات التي تُجرى على يديه.

وبسبب كثرة الذين يضلون به، ويفتنون بدعوته، كانت فتنته من أعظم الفتن، التي تمر على البشرية في تاريخها، حتى جاء في الحديث الشريف: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من الدجال» [رواه الحاكم (٤/٥٢٨)]. وكثيراً ما حذر النبي ﷺ من الافتتان به، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب: كافر» [رواه البخاري (٧٤٠٨)].

وأدلة الحدوث التي تتنافى مع دعوى الربوبية والألوهية كثيرة وظاهرة في الدجال، وإنما اقتصر النبي ﷺ منها بقوله: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور» لكون العور أثراً محسوساً يدركه العالم والعامي الذي لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، فإذا ادعى الربوبية وهو ناقص الخلق، والإله يتعالى عن النقص؛ عُلِمَ أنه كاذب<sup>(١)</sup>.

وقد رآه النبي ﷺ في منامه، ورؤيا الأنبياء وحي وحق، فوصفه بقوله: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم، سبط الشعر، ينطف رأسه ماء، قلت: من هذا؟ قالوا: ابن مريم، ثم ذهب ألتفت، فإذا رجل جسيم أحمر جعد

(١) انظر: فتح الباري.

الرأس، أَعورُ العَيْنِ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَنبَةٌ طَافِيَةٌ، قالوا: هذا الدَجَّالُ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبْهًا ابْنُ قَطَنِ، رَجُلٌ مِنْ خُرَاعَةَ» [رواه البخاري (٣٤٤١)].

وأول ما يظهر الدجال من جهة المشرق من أصبهان، حيث يصدقه يهود أصبهان ويتابعونه، ثم ينتشر ذكره في الأرض، ويسير فيها حتى يغلب على كل المدن إلا مكة والمدينة، فإنَّ الله سبحانه يحميها من شره، حتى ينزل عيسى عليه السلام من السماء، فيقتله في باب لُدٍّ من مُدُن فلسطين، وهذا يدل على أنَّ ظهوره من علامات الساعة الكبرى، لأنَّ نزولَ عيسى عليه السلام من أسرار الساعة الكبرى.

روى الإمام مسلم في «صحيحه» [٢٩٠١]: عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: أطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات» فذكر: «الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسوف بالمشرق، وخسوف بالمغرب، وخسوف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم».

وروى البخاري [١٨٨١] ومسلم [٢٩٤٣]: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس من بلد إلا سيطوه الدجال إلا مكة والمدينة، ما من نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، فينزل السبخة، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر و منافق».

وروى مسلم [٢٩٤٤]: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة الخضراء».

ويجب حمل هذه النصوص على الحقيقة دون المجاز، فما دامت الحقيقة ممكنة في ذاتها، فإنَّ المصير إليها متعين، كما قال الشيخ محمد الحامد رحمته الله: «وما ضلَّ مَنْ ضلَّ من الباطنية وأضرابهم إلا بتحويل النصوص إلى معاني لا صلة لها بها، وإلغاء المرادات القطعية منها، فكان الزيغ وكان الضلال»<sup>(١)</sup>.



(١) انظر كتاب: ردود على أباطيل، للشيخ محمد الحامد رحمته الله.



## الْفَضْلُ الثَّانِي سُورَةُ الْكَهْفِ

فَضَائِلُهَا، سَبَبُ نَزُولِهَا، مَوْضُوعُهَا،  
وَصِلَتُهَا بِأَسْبَابِ السَّلَامَةِ وَالْعِصْمَةِ مِنَ الْفِتَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِجَابًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ  
وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾  
وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ  
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِخُجُوعِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذِهِ  
الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا  
لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُثًا ﴿٨﴾﴾

### • فضائل سورة الكهف:

ويقودنا الحديث عن فتنة الدجال إلى بيان فضائل سورة الكهف، إذ جاء في حديث النبي ﷺ عن الدجال قوله: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ» [رواه مسلم (٢١٣٧)].

فمن فضائل سورة الكهف: أن فيها وقايةً وعصمةً من فتنة الدجال، وقد تأكد هذا في عددٍ من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، وبوّب الإمام مسلم في «صحيحه» باباً مستقلاً لهذا فقال: (باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي).

ثم روى بسنده [٨٠٩]: عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ».

وروى هذا الحديث أيضاً الإمام أحمد [٤٤٩/٦] وأبو داود [٤٣٢٣] والنسائي [١٠٧١٩] والترمذي [٢٨٨٦] وابن حبان [٧٨٥]، وجاء في بعض رواياتهم بلفظ: «عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ».

كما رواه الإمام مسلم بسند آخر [٨٠٩] بلفظ: «مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ».

ورواية النسائي [١٠٧١٩]: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْكَهْفِ».

كما أخرج النسائي [١٠٧٢٠]: عن ثوبان رضي الله عنه، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ فَإِنَّهُ عَصِمَهُ لَهُ مِنَ الدَّجَالِ».

ولا تعارض بين الروايات، فمن قرأ مِنْ أَوَّلِهَا أو آخِرِهَا أو مِنْ أَيِّ مَكَانٍ فِيهَا حَفِظَهُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ.

ومن فضائل سورة الكهف أيضاً: أَنَّ اللهُ سَبَّحَانَهُ يَنْوِّرُ قَلْبَ قَارِئِهَا، فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهِ: عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ قَدَمِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، يَضِيءُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجَمْعَتَيْنِ» [انظر: كنز العمال (١/٥٧٦)].

وروى غير واحدٍ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» [رواه البيهقي في «السنن» (٣/٢٤٩)].

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يقرأها كل ليلة.

وأخرج ابن مردويه: عن عبد الله بن مَعْقَلٍ مرفوعاً: «الْبَيْتُ الَّذِي تُقْرَأُ بِهِ سُورَةُ الْكَهْفِ لَا يَدْخُلُهُ شَيْطَانٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ» [انظر: جامع الأحاديث (١٠٥٢٨)].

وذهب غير واحدٍ من الأئمة إلى سُنِّيَةِ قِرَائَتِهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَتِهَا، وَقَالُوا: يَنْدُبُ تَكَرُّارَ قِرَائَتِهَا<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: تفسير روح المعاني، للالوسي.

وذكر العلامة ابن عابدين قراءة سورة الكهف في جملة ما اختص به يوم الجمعة .  
وقال ابن قدامة في كتابه «المغني»: يستحبُّ قراءة الكهف يوم الجمعة .

### • سبب نزول السورة:

وقد كان سببُ نزول سورة الكهف ابتلاءً واختباراً لرسول الله ﷺ من قبل أhabar المدينة، ليكشفوا حقيقة أمره، ويعرفوا صحَّة نبوته .

روى ابن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثت قريشُ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أhabar يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلُّوهم عن محمَّد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنَّهم أهلُ الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجوا حتى أتيا المدينة، فسألوا أhabar يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وبعض قوله، وقالوا: إنَّكم أهلُ التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالوا لهم: سلُّوه عن ثلاثٍ نأمرُكم بهنَّ، فإنَّ أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسلٌ، وإلَّا فرجلٌ متقولٌ، فترا فيه رأيكم: سلُّوه عن فتية ذهبوا في الدهرِ الأوَّل، ما كان من أمرهم؟ فإنَّهم قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ، وسلُّوه عن رجلٍ طوافٍ بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلُّوه عن الرُّوح ما هو؟ فإنَّ أخبركم بذلك فهو نبيٌّ فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنَّه رجلٌ متقولٌ! فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريشٍ فقالوا: يا معشر قريشٍ، قد جئناكم بفصلٍ ما بينكم وبين محمَّد، قد أمرنا أhabar يهود أن نسأله عن أمور . . فأخبروهم بها، فجاءوا رسولَ الله ﷺ، فسألوه عمَّا أمرهم به، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «أخبركم غداً عما سألتُم عنه» ولم يستثن - أي: لم يقل: إن شاء الله - فانصرفوا عنه .

ومكث رسولُ الله ﷺ خمسَ عشرة ليلة لا يُحدِّثُ الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريلُ عليه السلام، حتى أرجف أهلُ مكة وقالوا: وعدنا محمَّدُ غداً، واليوم

خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيءٍ عما سألناه عنه! وحتى أحزن رسولَ الله ﷺ مُكثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهلُ مكة، ثم جاءه جبريلُ ﷺ من الله ﷻ بسورة أصحابِ الكهفِ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من خبرِ الفتية، والرجل الطَّوَّافِ، وقول الله ﷻ: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] (١).

### • موضوع سورة الكهف:

إذا تدبرنا الآياتِ الأولى في سورة الكهف ظهرَ لنا الموضوع الأساس للسورة، فالآياتُ تقرر أنَّ الحمد لله وحده، الذي أنزلَ أعظمَ نعمةٍ أنعمها على خلقه، وهي نعمة القرآن الكريم، عندما أنزله على النبي ﷺ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾

فهو سبحانه المستحق للحمد، لأنه أنزلَ القرآن الكريم، الذي يهدي العباد إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وليس في القرآن الكريم شيءٌ من العوج، لا في ألفاظه ومبانيه، ولا في أخباره ومعانيه، أخباره كلُّها صدق وحق، وأحكامه عدلٌ، سالمٌ من جميع العيوبِ والخللِ في ألفاظه ومعانيه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وبعد أن قررت الآية الأولى في سورة الكهف استحقاق الله سبحانه للحمد، ونفت عن القرآن الكريم النقص والخلل؛ أثبتت للقرآن الكريم الاستقامة، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَيَمَّا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾

﴿فَيَمَّا﴾، أو أخبرت أنه فيمِّ بمصالح الخلق الدينية والدينية، وهذا يعني أنَّ

(١) انظر: تفسير ابن كثير.



القرآن الكريم كاملٌ بنفسه، ومكملٌ لمنْ يتمسك به، ويسير على هديه ومنهجه.  
وأَنْزَلَ اللهُ سبحانه القرآنَ أيضاً:

﴿لِنُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي: لينذرَ الذين كفروا عذاباً شديداً من عند الله.  
وحُذِفَ المفعول الأول لأنَّ القرينة تدل عليه، وحتى يقتصرَ على بيان حكمة إنزال القرآن الكريم.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة.

﴿مَكَانٍ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٣)

أي: بلا انقطاع.

ثم كرر إنذار الذين قالوا اتخذ الله ولداً، وخصَّهم بالذكر استعظاماً لكفرهم وقبح قولهم الذي لم يكن ناشئاً عن علم وتفكير ونظر، فقال:

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤)

وشأنهم في هذا شأن آبائهم الذين قالوا مثل قولهم.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٥)

وكان رسول الله ﷺ يحزنُ عندما يرى إعراضَ المشركين عن الإيمان بالله وعبادته، وهم يتمسكون بكفرهم وشركهم، ولهذا التفتت الآيات الكريمة إلى النبي ﷺ تقول له:

﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦)

أي: لا تهلك نفسك حزناً بسبب إعراضهم عن الإيمان، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

## ● الحياة في الدنيا ابتلاء واختبار:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ .

جعل الله كلَّ ما على الأرض زينةً للأرض، فما مِنْ شيءٍ خلقه الله إلا وفيه حكمةٌ، وله دورٌ في زينةِ الأرض، وقد تخفى هذه الحكمةُ عنَّا، لقصورِ عقولنا عن إدراكها.

والحكمةُ الكبرى مِنْ جعل ما على الأرض زينة لها هي الابتلاء والاختبار للمكلفين من المخلوقات؛ وقد بيَّن الله تبارك وتعالى هذا المعنى في عدة آيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾﴾ [الملك].

وبعد أن يتم الابتلاء والاختبار، يجعل الله كلَّ ما على الأرض من زينة تراباً لا نبات فيه:

﴿وإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُثًا ﴿٨﴾﴾ .

فشأن ما على الأرض من أسباب الزينة كشأن النبات، لا تدومُ خضرته، ولا تبقى نضرته.

وما أكثر ما ذكر الله هذا المعنى في آيات التنزيل الحكيم، منها قوله تعالى في سورة الكهف نفسها: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ .

هذا هو الموضوع الأساس الذي تدورُ في فلكه آيات سورة الكهف، وفي استفتاح السورة بذكر فضل الله سبحانه على العباد بإنزال القرآن الكريم بياناً لطريق النجاح والفوز في الاختبار والابتلاء، فالمعلم الماهر الحكيم هو الذي يبيِّن لتلاميذه العلوم التي سيختبرون بها، كي يجدوا ويجهدوا فيها، ليكونوا من الناجحين والفائزين.

ومن رحمته ﷺ بخلقه وعظيم حكمته أنه بيّن لهم أولاً طريق السلامة والنجاح قبل أن يمتحنهم ويختبرهم، وهذا من فضله العظيم سبحانه على الناس، وصف لهم الدواء قبل أن يبيّن الداء.

فالحياة كلها ابتلاء واختبار، وليست الدنيا دار نعيم، وكل ما على الأرض من زينة في هذه الدنيا فتنة للإنسان في حياته، وكلما كان تعلّقه بهذه الزينة كبيراً، كانت فتنته فيها أعظم وأكبر: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال في سورة الأنفال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَأَلْتُمْ وَأَوْلَدْتُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾.

#### • كهف السلامة:

وطريق السلامة والنجاح في الكتاب الكريم المنزّل الكامل في نفسه، والمكمل لغيره، وفي سنة النبي ﷺ الذي أنزل الله عليه الكتاب، والذي كاد أن يهلك نفسه أسفاً وحرصاً على نجاحنا في الاختبار وسلامتنا من الفتن.

إنّ حرص النبي ﷺ على سلامتنا ونجاحنا يُلزِمنا بوجوب التمسك بسنته، فالخطر كبير، والامتحان عظيم، ولهذا كان أسفه ﷺ شديداً وكبيراً على أولئك المعرضين عن الكتاب والسنة، المفتونين بالزينة الباطلة الزائلة، وما أكثرها، وما أشدّ خطرها! ولن نجد في غير الكتاب والسنة السلامة والنجاة، فهما كهف السلامة من أخطار الفتن المحرقة بنا.

وكما كان كهف الجبل سبباً لسلامة أصحاب الكهف من كيد الكافرين ومكرهم، فالكتاب والسنة كهف السلامة والأمان لكل إنسان من فتن الحياة الدنيا، وهما سبيل السعادة في الدنيا والآخرة: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّلاً﴾ [الكهف: ٢٧] أي: ملجأ ومأوى.

وكما كان رذم ذي القرنين سبباً لرذّ المفسدين وحماية الناس من شر أهل الشر والفساد، فإنّ الكتاب والسنة سبب لحماية المتمسكين بهما من الفتن في

الحياة الدنيا، وسيأتي معنا أن أيَّ خرقٍ يحدث في السدِّ يمكن المفسدين من الفساد والشر بين العباد، وكذلك فإنَّ أيَّ خرقٍ لأحكام الكتاب والسنة ومجازة حدودهما يؤدِّي إلى التعرُّض للفتن، والوقوع في الشر، ويعطي المفسدين في الأرض فرصة للفساد والإفساد.

والجديرُ بالذكر أن سورة الكهف جاء ترتيبها في المصحف بعد سورة الإسراء التي تحدّثت بعض آياتها عن بني إسرائيل ودورهم الكبير في نشر الفساد في الأرض.

ففي سورة الكهف بيانٌ لأسباب السلامة من فتن الحياة الدنيا، ولهذا سنَّ النبي ﷺ قراءتها كل يوم جمعة، وهو أفضل أيام الأسبوع عند المسلمين، وأكثرهم يريخ نفسه في يوم الجمعة من عناء العمل الدنيوي، فقراءة سورة الكهف فيه مناسبة طيبة لتخلية النفس والقلب عن صدأ الغفلة عن الله سبحانه بسبب شدة الاهتمام بالدنيا ومشاغلها وهمومها ومشكلاتها، وفي قراءة سورة الكهف أيضاً تنويرُ القلب والنفس بنور التلاوة وهدى النبوة، وتحصينُهما بالمعاني الطيبة الكريمة التي ركزت آيات السورة عليها.

وما دام الإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو معرضٌ للابتلاء والافتتان في كل لحظة من لحظات حياته، والفتنُ معروضةٌ عليه بأشكال مختلفة وأنماط متعددة، تارة بعد تارة، ولحظة بعد لحظة، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نَكْتَةٌ بِيضَاءٌ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلَ الصِّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مِرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مَنكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه مسلم (١٤٤)].

فما دامت الفتنُ تعرضُ دائماً على الإنسان في حياته الدنيا، فعليه أن يداوم على قراءة سورة الكهف، متدبراً آياتها، ممعناً النظر في معانيها، كي ينور الله سبحانه قلبه، فيكون أبيض مثل الصفا، وهو الحجرُ الأملس الذي لا يعلقُ به شيءٌ،

وَالْأَصَارِ قَلْبُهُ بِسَبَبِ تَأْثِيرِ الْفِتَنِ عَلَيْهِ أَسْوَدَ مِرْبَادًا كَالْكُوزِ مَجْحِيًّا، أَي: مَنكُوسًا لَا خَيْرَ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يَنْكُرُ مَنكِرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهِ.

كما تَضَمَّنَتِ السُّورَةُ ذَكَرَ أَهَمَّ أَسْبَابِ الْفِتَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبَيَّنَّتْ مَوَاقِفَ الْمُؤْمِنِ مِنْهَا، وَشَرَعَتْ لَهُ أَسْبَابَ السَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ بِأَسْلُوبِ الْقِصَّةِ، فَكَانَتْ فِي مَوْضُوعِهَا مَوَافِقَةً لِاسْمِهَا كَهْفِ السَّلَامَةِ وَالْأَمَانِ.

كما عَرَضَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ عِدَّةَ قِصَصٍ اسْتَعْرَقَتْ مَعْظَمَ آيَاتِهَا تَثْبِيثًا لِمَا ذَكَرْتَهُ فِي آيَاتِهَا الْأُولَى، وَتَمَكِينًا لِمَوْضُوعِهَا الْأَسَاسِ فِي نَفُوسِ قَارِئِهَا، وَعَقَّبَتْ بَعْدَ كُلِّ قِصَّةٍ بِتَعْقِيبٍ، يُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى وَيَقْوِيهِ، فَفِي أَوَّلِهَا عَرَضَتْ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، ثُمَّ ثَنَّتْ بِقِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، ثُمَّ ذَكَرَتْ قِصَّةَ آدَمَ مَعَ إِبْلِيسَ بِإِخْتِصَارٍ، ثُمَّ قِصَّةَ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ، وَقَبْلَ أَنْ تَخْتَمَ آيَاتِ السُّورَةِ عَرَضَتْ قِصَّةَ ذِي الْقَرْنَيْنِ. وَلِكُلِّ قِصَّةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ اتِّصَالٌ وَثِيقٌ بِمَوْضُوعِهَا الْأَسَاسِ كَمَا سَيَأْتِي مَعْنَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



## الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

## قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ

﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَيْهِمْ آدَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّاوْا إِلَى الْكَهْفِ بِشَرِّ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ فَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٧﴾ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ

أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ

سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهْرًا  
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ  
اللَّهُ وَأَذْكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلِئِشْوَاءِ فِي  
كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَشْوَأَ لَهُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ  
إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ .

### • مصادر القصة:

القرآن الكريم هو المصدر الوحيد لقصة أصحاب الكهف لعدة أسباب؛ منها:  
أولاً: قول الله سبحانه للنبي ﷺ في سورة الكهف [١٣]: ﴿تَحْنُ نَفْصُ عَلَيَّكَ  
نَبَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وإن في قوله سبحانه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن هناك من يقصُّ نبأ  
أصحاب الكهف بغير حق، ولهذا لو تتبعنا ما ذكره كثير من المفسرين من أخبار  
أصحاب الكهف المأخوذة عن بني إسرائيل، لوجدنا فيها تعارضاً وتناقضاً، ممَّا  
يجعلها أخباراً ساقطة، ليس لها أيُّ قيمة علمية.

ثانياً: ذكر الله سبحانه في سياق قصة أصحاب الكهف صورةً من صور  
اختلاف رواة قصتهم، تلك هي صورة اختلافهم في تحديد عدد أصحاب  
الكهف، فقال ﷺ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا  
بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ  
فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وهذا يدلُّ على أن جدلاً كبيراً قام حول عدد أصحاب الكهف، وأن  
الأقوال والروايات فيهم كثيرة، ولا فائدة من هذا الجدل، فمهما كان عددهم  
فإن أمرهم موكل إلى الله سبحانه، وعلمهم عند الله العليم الخبير، وعند الفتنة  
القليلة من الناس الذين شهدوا أمرهم عند حدوثه، والعبرة في قصتهم لا في  
عددهم، ولهذا نرى القرآن الكريم يوجِّه النبي ﷺ حتى لا يجادل في عددهم،

ولا يستفتي أحداً من المتجادلين فيهم، صيانةً لطاقة الإنسان العقلية أن تهدرَ في غير فائدة، واكتفاءً بما ذكره القرآن الكريم من أخبارهم وقصتهم، وقد عوّدنا الله سبحانه في كتابه الكريم ألا يذكر من القصة إلا ما فيه فائدة وعبرة وموعظة.

وقوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ بعد ذكر قولين من أقوال المتجادلين في عددهم يدلُّ على أنهما قولان غير صحيحين، لأن معنى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يقولون قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يصيبه، والرجم: القول بالظن، وبعد أن ذكرت الآية الكريمة القول الثالث فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَأَبْنائِهِمْ﴾ سكتت عنه، ولم تعلق عليه بشيء، فدلَّ هذا على أنه القول الصحيح في عددهم.

#### • فوائد وحكم:

في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة وحكم جليلة:

- منها: أنها تعلمنا الأدب مع الله سبحانه، بأن نردّ العلم إليه سبحانه، فهو العليم الخبير: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾؛ فعلينا أن نردّ علم الأشياء إلى خالقها جلّ وعلا وإن علمنا بها، أدباً مع الله سبحانه.

- ومنها: أن المجادلة لإظهار الحق وإبطال الباطل ليست مكروهة ولا مذمومة، بل هي ممدوحة ومطلوبة إذا ترتب عليها إظهار الحق ودحض الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أما المجادلة المكروهة فهي التي تكون في أمور فيها شك وتردد، ولا يقصد منها سوى إظهار الجدل، وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ والممارة: المحاجة فيما فيه مرية، أي: تردد وشك، والمعنى المراد في الآية: فلا تجادل في شأن أصحاب الكهف إلا جداولاً ظاهراً، بأن تقصّ عليهم ما في القرآن الكريم من غير تجهيل لهم ولا تعنيف.

- ويعلمنا الله سبحانه في هذه الآية أيضاً: أدباً من آداب السؤال في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فالسؤال إمّا للاسترشاد، وهو جائز، وإمّا



للتعنت، وهو مكروه، وكلاهما غير لائق بمقامه ﷺ، فكأن الآية تقول للنبي ﷺ: لا تسأل أحداً منهم عن قصة أصحاب الكهف، فإن فيما أوحى إليك لمدوحة عن غيره، مع أنهم لا علم لهم بها، ولا تسألهم سؤال متعنت تريد فضح المسؤول وتزييف ما عنده، فإنه مخلٌ بمكارم الأخلاق<sup>(١)</sup>.

أما السؤال للتعليم والإرشاد كما يسأل المعلم تلميذه عن مسألة، ثم يذكرها له، فلا مانع منه، وهو فنٌ من فنون التعليم، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يستعمله مع أصحابه.

#### • الآيات البيّنات:

إن قصة أصحاب الكهف - وإن استعظمها الناس وعجبوا منها - ليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه، وعظيم صنعته، وبديع حكمته، فإن خلق السماوات والأرض، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم، وجعل ما على الأرض زينة لها، وتحويلها بعد ذلك إلى صعيد جرز لا نبات فيه: آياتٌ بيّناتٌ أعظم وأعجب من آية الله في أصحاب الكهف، ولهذا قدّم الله لقصة أصحاب الكهف بقوله قبلها:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

وكلمة (أم) معناها: بل، وهي للإضراب والانتقال من كلام إلى كلام آخر، له تعلق بما قبلها بواسطة المعنى، فقصة أصحاب الكهف لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلق الله سبحانه في السماوات والأرض، فخلق السماوات والأرض أعظم من خلق جميع الناس: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال أيضاً: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَعْمَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ [النازعات].

والكهف: الثقب الواسع في الجبل، فإن لم يك واسعاً فهو غار. واختلف العلماء في الرقيم على أقوال؛ منها: أنها اسم بلدة أصحاب

(١) انظر: تفسير البيضاوي، وحاشية الشهاب عليه.

الكهف، أو اسمُ الجبل الذي فيه الكهفُ، والأظهرُ أنَّ الرقيمَ معناه المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول، من قولك: رقمت الكتاب: إذا كتبتَه، ومنه: قوله تعالى: ﴿كُنِبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] فهو كتابٌ كتبت فيه أسماءُ أصحاب الكهف وأنسابهم، وسبب خروجهم من بلادهم واختفائهم<sup>(١)</sup>.

والخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وأريدَ به غيره لأنه عليه الصلاة والسلام كان يعرفُ من قدرة الله تعالى ما يجعله لا يتعاضمُ خبر أصحاب الكهف، والآية تؤكد سبب النزول الذي سبق ذكره<sup>(٢)</sup>.

### • صفات أصحاب الكهف:

ذكر الله ﷻ عدة صفات لأصحاب الكهف، فقال:

﴿إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةً وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا  
رَشَدًا﴾ (١١) ﴿٣﴾.

فهم (فتية) جمع فتى، وهو من جموع القلة، ممَّا يدل على قلة عددهم، والفتى: الطري من الشبان. وهذا يدل على أنهم كانوا شباباً في مقتبل أعمارهم. وهم مؤمنون بالله سبحانه وحده، فقد وصفهم الله بالإيمان فقال:

﴿لَحْنٌ نَّقْضُ عَلَيْكَ نَبَاهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٢) ﴿٤﴾.

فقد زادهم سبحانه هدى. وفهم من الآية الكريمة أنَّ مَنْ آمَنَ بربه وأطاعه زاده ربُّه هدى، لأنَّ الطاعة سبب للمزيد من الهداية والرشاد. ويبدو أنَّ هؤلاء الفتية كانوا من أسرٍ عريقة ذات جاه وثراء في بلادهم، فبعد

(١) انظر: تفسير أضواء البيان.

(٢) انظر: تفسير روح المعاني.

(٣) انظر: تفسير الآية (١١) في ص ٤١، والآية (١٢) في ص ٤٦، وقد أحرث تفسير بعض الآيات وقدمت بعضها على بعض ليتسق لي عرض القصة متسلسلة.

أن خرجوا فراراً بدينهم افتقدهم أهل البلد، وبحثوا عنهم وطلبوهم، ولما يسوا من وجودهم كتبوا أسماءهم، ورقموها في لوح، ووضعوه في مكان بارز في البلد، فلم يكن هؤلاء الفتية نكراتٍ مجهولةً، بل كانوا معروفين ومشهورين في مجتمعهم.

وكان لهم ثراء ومال، وقد حملوا بعض هذا المال معهم إلى الكهف، دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩]. والورق: النقود الفضية.

ووجودُ كلبٍ معهم يدلُّ على ثرائهم، لأنَّ الكلبَ يُقتنى عادةً للصيد أو للحراسة، وهما شأنُ أصحاب الجاه والثراء، وقد أضافته الآية الكريمة إليهم: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]؛ فالكلبُ كلبهم، وخاصٌّ بهم، وليس كما ذكرت بعض الروايات والحكايات أنه كلبُ راعٍ تبعهم وانضمَّ إليهم.

#### • رَبُّطُ اللَّهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ:

وقد تعرَّض هؤلاء الفتية لخطر كبير، ووعيد شديد، يصل إلى حد رجمهم بالحجارة حتى الموت، بسبب إيمانهم بالله، وعبادته وحده سبحانه، فثبتوا على دينهم، وتمسكوا بعقيدتهم، وواجهوا باطل وكفر قومهم بشجاعة وثبات وقوة أمدهم الله بها:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (٤).

وإنَّ قوله تعالى:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يدل على أنَّ الفتنة التي تعرَّضوا لها فتنةٌ كبيرةٌ وشديدة، وأنَّ المحنة التي وقعوا بها محنةٌ عصبيةٌ وأليمةٌ، لأنَّ معنى ربطنا على قلوبهم: ثبتنا قلوبهم وقويناها على الصبر، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من قول

الحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين إلى كهفٍ في جبلٍ موحشٍ لا ماء فيه ولا طعام.

فالربط على القلب لا يكون إلا عند الأحداث الكبيرة المخيفة المرعبة، التي تنزل لها القلوب، وتجزع فيها النفوس، كحال أصحاب رسول الله ﷺ عند مواجهتهم لجيش الكفار في بدر، وقد كانوا أكثر عدداً وعدة من المسلمين، فثبتهم الله ﷻ، وربط على قلوبهم، وأخبر عن ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ اللَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وكحال أم موسى ﷺ عندما سمعت أن ولدها أصبح في يد فرعون وملئه، فخافت عليه خوف الأم على ولدها، وكادت أن تظهر أمرها وأمره، ولكن الله ﷻ ثبتها وربط على قلبها، وقال تعالى في ذلك: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

وأصل معنى الربط لغة: الشد المعروف، تقول: ربطت الدابة: شدتها برباط، واستعمل في الآية على سبيل المجاز، ربط الله على قلبه إذا ثبته وصبره. وثبت أصحاب الكهف على دينهم، وصبروا على فراق أهلهم وأوطانهم، بسبب ربط الله سبحانه على قلوبهم، وقاموا يواجهون باطل قومهم، ويعلنون الحق في وجوههم:

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾.

ألا ما أشد ثباتهم! وما أعظم نعمة الله عليهم بربطه على قلوبهم، فالنفي بـ (لن) أبلغ من النفي بغيرها، لأنها تفيد استغراق الزمان كل الزمان، فلن يتجهوا بالعبادة إلى غيره سبحانه أبداً، لأنه وحده المستحق للعبادة.

﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي: قولاً ذا شطط، أي: بعيد عن الحق، مفرط

بالبعد، أو قولاً هو عين الشطط، وهو من فعل: شطط؛ إذا أفرط في البعد.

ومن نتائج ربط الله سبحانه على قلوبهم أيضاً أنهم أنكروا على قومهم عقيدتهم الفاسدة وعبادتهم لغير الله سبحانه:

﴿هُنَالَى قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ  
مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٥).

﴿هُنَالَى قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلهَةً﴾ فكلامهم عن قومهم إخبارٌ بمعنى الإنكار. ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ و(لولا) هنا للتحضيض والطلب مع الإنكار، و(السلطان البين): الدليل القاطع الظاهر، فالعقيدة يجب أن تكون مستندة على دليل ظاهر وبرهان واضح، والعقيدة التي لا دليل عليها مردودة ومرفوضة، والتقليد في أمر العقيدة غير جائز.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أظلم ممن يكذب على الله، وينسب له الشريك والولد، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

#### • الخروج إلى الكهف:

ولابدَّ لهؤلاء الفتية المؤمنين أمام التهديد والوعيد برجمهم بالحجارة حتى الموت أن يفروا بدينهم، فهم لا يستطيعون مواجهة قوّة وجبروت أصحاب السلطة من قومهم، وهم بضعة شباب في مقبل أعمارهم، لا حول لهم ولا قوة إلا قوة إيمانهم، وثقتهم بربهم، فخرجوا من بلدهم، وهجروا أهلهم وقصورهم، ولجئوا إلى كهفٍ في جبل بعيد عن العمران، لا ماء فيه ولا طعام، ولا وطاء ولا غطاء:

﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ  
وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (١٦).

وفي الآية دليل على حُسن الهجرة لسلامة الدين، وقُبْح المقام في دار

الكفر أو في بلد لا تستطيع أن تعبد الله فيه، فالعزلة لسلامة الدين أمر واجب في الإسلام في مثل هذه الظروف، وأرض الله واسعة، ووطن المسلم حيث يستطيع أن يعبد الله: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرين فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة»<sup>(١)</sup>.

فعلى المسلم أن يفارق الكافرين، ويبتعد عنهم، وإن له حيثما ذهب مندوحة وملجأ يتحصن فيه، ويأمن به على دينه ونفسه وعرضه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

وجاء في السنة الشريفة عدد من الأحاديث النبوية تحض المسلم على اجتناب مواطن الفتن عند وقوعها:

منها قوله ﷺ: «ستكون فتن؛ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعد به» [رواه البخاري (٣٦٠١) ومسلم (٢٨٨٦)].

ومنها أيضاً قوله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف قمم الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» [رواه البخاري (١٩) وأبو داود (٤٢٦٧) والنسائي (١٢٤/٨) وابن ماجه (٣٩٨٠)].

وقد تعرض أصحاب الكهف لأعظم الفتن، وهي الفتنة في الدين، إذ حاول قومهم أن يفتنوه عن دينهم، فقررروا اعتزال قومهم، وهجرة بلدهم وأهلهم، وقال بعضهم لبعض:

﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على الضمير المنصوب في ﴿اعْتَرَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: وإذا اعتزلتم القوم ومعبوديهم إلا الله، فإنهم كانوا يعبدون الله، ويعبدون

(١) تفسير ابن كثير.

الأصنام كسائر المشركين، ويجوزُ أن تكونَ (ما) مصدرية على تقدير: وإذ اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله، ويحتمل أن تكون (ما) نافية، وتكونُ جملة ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إخباراً من الله تعالى عن عقيدة الفتية، وعبادتهم الله وحده، والجملةُ على هذا المعنى معترضة بين (إذ) وجوابها (فأوا) (١).

### • منطلق المغرورين:

ولا ينبغي لمن يتعرَّضُ لمثل ما تعرَّضَ له أصحابُ الكهف أن يغرَّ بِنفسه، وأن يستجيبَ لنزغات الشيطان: بأنك قوي الإيمان، يمكنك الثبات ومواجهة الفتنة، ذلك محضُ الخطأ، وهو منطقُ المغرورين المخدوعين بأنفسهم، المستجيبين لنزغات شياطينهم، فمهما كنتَ قويَّ الإيمان فلستَ أقوى إيماناً من أصحاب الكهف، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] والذين ربط الله على قلوبهم كما مرَّ معنا ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

ولك في السابقين الأولين إلى الإسلام من أصحاب رسول الله ﷺ قدوة طيبة، وأسوة حسنة، فقد هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، ثم هاجروا بعد ذلك إلى المدينة المنورة، لينضموا إلى رسول الله ﷺ في دار الهجرة، فأين إيمانك من إيمان المهاجرين، الذين شهد الله لهم بصدق الإيمان، وأثنى عليهم بقوله الكريم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾ [الحشر: ٨]؟!.

### • في داخل الكهف:

وكان للفتية المؤمنين ثقةً كبيرةً بفضل الله سبحانه، ورجاء برحمته الواسعة، فتوكلوا عليه سبحانه، وسلّموا إليه أمرهم، وفوّضوا إليه شأنهم، وقال بعضهم لبعض: ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ﴾ التّجئوا إلى الكهف، واتخذوه مأوى لكم.

(١) انظر: تفسير البيضاوي.

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبِّكُمْ﴾ ييسط لكم ويوسع عليكم ربكم .

﴿مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ﴾ يسهل .

﴿لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذي أُنتم فيه، وهو الفرارُ بالدين، واعتزال الأهل والمال

والوطن .

﴿مَرْفَقًا﴾ ما ترتفقون وتتفعون به .

وجاء جوابُ فعل الأمر: ﴿فَأَوْأُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَنْشُرْ﴾ مجزوماً، وهذا

يدلُّ على نصوص يقينهم، وصفاء إيمانهم، وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

ورحم الله سيد قطب عندما قال في ظلال هذه الآية: «وهنا ينكشفُ العجبُ

في شأن القلوبِ المؤمنةِ، فهؤلاء الفتيةُ الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون

ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجرّدون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء

الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، هؤلاء يستروحوون رحمة الله،

ويحسّون هذه الرحمة ظليّة فسيحة ممتدة: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، ولفظة

﴿يَنْشُرْ﴾ تلقي ظلال السعة والحبوحة والانفساح، فإذا الكهفُ فضاءً فسيحٌ

رحيبٌ وسيعٌ، تنتشر فيه الرحمة، وتتسع خيوطها، وتمتد ظلالها، وتشملهم

بالرفق واللين والرخاء... إنّ الحدودَ الضيقةَ لتتزاخ، وإنّ الجدرانَ الصلدةَ

لترقُّ، وإنّ الوحشةَ الموغلةَ لتشفُّ، فإذا الرحمةُ، والرفقُ، والراحةُ،

والارتفاعُ، إنّه الإيمانُ، وما قيمةُ الظواهرِ؟! وما قيمةُ القيمِ والأوضاعِ

والمدلولات التي تعارفَ عليها الناسُ في حياتهم الأرضية؟! إنّ هنالك عالماً

آخر في جنبات القلب المعمور بالإيمان المأنوس بالرحمة، عالماً تطلُّه الرحمةُ

والرفقُ والاطمئنانُ والرضوان»<sup>(١)</sup>.

### • نومهم في الكهف:

ونام الفتية في الكهف متوكلين على الله تعالى، ومفوضين أمرهم إليه، ثقة

(١) في ظلال القرآن .



برحمته، واعتماداً على فضله، وشاءت حكمته ﷻ وإرادته أن يمتد نومهم ويطول حتى يتجاوز حدود الليالي والشهور إلى السنين والقرون:

﴿فَضْرِبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ ﴿١١﴾

وضربه جلّ وعلا على آذانهم كناية عن كونه سبحانه أنامهم، ومفعول (ضربنا) محذوف، أي: ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع، فلا يسمعون شيئاً يوقظهم، والمعنى: أنماهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات. وعبر بالضرب ليدلّ على قوّة المباشرة واللصوق واللزوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اللَّذَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا﴾ [آل عمران: ١١٢].

وذكر الجارحة التي هي الآذان لأن منها يكون السمع، ولا يستحکم نومٌ إلّا مع تعطل السمع، ومن ثقل نومه واستحکم، حتى منعه من القيام إلى صلاة الصبح يكون كما قال عنه النبي ﷺ: «ذاك رجلٌ بال الشيطان في أذنيه» [رواه البخاري (١١٤٤) ومسلم (٧٧٤)]<sup>(١)</sup>.

ولم تبيّن الآية هنا مدة نومهم، وذكر الله تبارك وتعالى في آيةٍ أخرى مدّة نومهم فقال:

﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ﴿٢٥﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي: تسع سنين، فإنه إذا سبق عددٌ مفسّرٌ، وعطف عليه ما لم يُفسّر، حُمِل تفسيره على السابق، فمدّة نوم أصحاب الكهف ثلاثمئة وتسع سنين بالتوقيت القمريّ، وثلاثمئة سنة بالتوقيت الشمسي. وهذا هو الحقّ الصحيح الذي لا يحومُ حوله شكٌ، فلا يعلمُ مدة نومهم إلّا الله ﷻ الذي ضربَ على آذانهم، ولهذا جاء التعقيبُ على الإخبار بمدّة نومهم بقوله سبحانه:

(١) انظر: أضواء البيان.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه الذي يعلم غيب السماوات والأرض، أي: جميع ما غاب فيهما، فالغيب مصدر بمعنى الغائب والخفي.

﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ﴾ أي: ما أبصره وما أسمعاه جلَّ وعلا! فعلم الغيب أمرٌ عظيم، من شأنه أن يتعجب منه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْفُطُ مِنْ رِقَّةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والسمع والبصر صفتان من صفات الله سبحانه غير صفة العلم، وبصره وسمعه سبحانه لا يشبهان بصر المبصرين ولا سمع السامعين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فإن اللطيف والكثيف، والصغير والكبير، والجلِّي والخفي، والسر والعلن على حدٍّ سواء في عدم الاحتجاب عن بصره وسمعه تبارك وتعالى<sup>(١)</sup>.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: ما للفتية ولي يتولى أمرهم، فهو سبحانه وليهم كما هو سبحانه ولي المؤمنين الصالحين: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِينَ نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

#### • الحكم لله وحده:

وختم الله الآية بقوله:

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ فالحكم لله وحده، يحكم ما يريد، ولا حكم لغيره سبحانه، فالحلال ما أحله الله تعالى، والحرام ما حرّمه، والدين ما شرعه،

(١) روح المعاني.

والقضاء ما قضاه وقدّره، وكما أنّ الخلقَ له، فالأمرُ له أيضاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾<sup>١</sup> بَبَارِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأعراف: ٥٤].

ويفهم من هذه الآية: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ومن أمثالها أن متّبعي أحكام المشرّعين غير ما شرعه الله مشركون بالله إن استحلّوا ذلك، وفضّلوا هذه الشرائع الوضعية على شريعة الله، وقد جاء هذا المفهوم مبيناً في آيات أُخر، كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤُوهَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فصرّح بأنهم مشركون بطاعتهم الشياطين، وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس].

قال الشيخ الشنقيطي رحمته الله بعد أن ذكرَ عدداً من الآيات القرآنية في هذا المعنى: «وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أنّ الذين يتّبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه جلّ وعلا على السنة رسله ﷺ، أنه لا يشك في شركهم وكفرهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم»<sup>(١)</sup>.

● من آيات الله سبحانه:

وإذا العناية راقبتك عيونها نَمَ فالحوادثُ كلُّهنَّ أمانٌ ونشر الله سبحانه رحمته على الفتية وهم نائمون في الكهف، وتولّاهم بعنايته، وحفظهم هذه المدّة الطويلة بحفظه ورعايته، فلم تمتد إليهم يد البلى، ولا نالت منهم رطوبة الأرض وبرودتها، ولا أثّرت فيهم حرارة الشمس ويبوستها، ولم يطلّع عليهم إنسانٌ، ولا اقترب منهم حيوانٌ، كانوا طول مدّة

(١) انظر: أضواء البيان.

نومهم محفوظين بحفظ الله تعالى الذي لا يُرام، محروسين بعينه سبحانه التي لا تنام.

حبس الله عنهم بقدرته شعاع الشمسِ فما مسَّهم، ولا أصاب أجسادهم:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: تميلُ عنهم إلى جهةِ يمينِ الكهفِ، فلا يقعُ شعاعُها عليهم فيؤذيهم.

﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ أي: تعدلُ عنهم إلى شمالِ الكهفِ. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ وهم في وسطِ الكهفِ بحيثُ ينالُهم الهواءُ، ولا يؤذيهم حرُّ الشمسِ.

وصرفُ أشعةِ الشمسِ عنهم من الأمورِ الخارقةِ للنواميسِ الكونيةِ، وهو من الآياتِ الدالةِ على قدرةِ الله ﷻ، ولهذا قال بعدها: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي: مَنْ يدلُّه اللهُ سبحانه على الحقِّ، ويوفقه للعمل به.

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الفائز والناجح في الدنيا والآخرة، وهذا ثناءٌ من الله سبحانه على أصحابِ الكهفِ، فقد هداهم اللهُ سبحانه، ووقفهم ونشر رحمته عليهم، وجعلَ لهم في الكهفِ مرفقاً.

﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ ومَنْ يخذله اللهُ ويصرفه عن الحقِّ.

﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾.

#### • الحارس الأمين:

وطول النوم يستدعي عادةً تغييراً في جسد الإنسان من استرخاء وهيئات خاصة يكونُ عليها النائم، فما بالكَ إذا طالَ النومُ، وامتدَّ إلى سنين وقرون!

ومع ذلك فإنَّ الله سبحانه حفظهم بحفظه، وأحاطهم بعنايته ولطفه، فلم تتغيَّر أجسادهم، ولم يطرأ عليهم طولٌ مدَّة نومهم ما يؤثر فيها، حتى إنَّ الناظر إليهم يظنُّهم مستيقظين لا نائمين:

﴿وَحَسَبَهُمْ آيْكَافًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنَقَلْبُهُمْ دَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَنَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْت مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾﴾ .

﴿وَحَسَبَهُمْ آيْكَافًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنَقَلْبُهُمْ دَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وهذا تأكيدٌ لقدرة الله سبحانه وعنايته بهم وحفظه لهم، فالفتية طولٌ مدَّة نومهم كانوا أحياء نائمين لا أمواتاً هامدين، فقد كانوا يتحرَّكون ويتقلَّبون.

ونام كلُّهم أيضاً مثلهم:

﴿وَكَلبُهُمْ بَنَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ في مدخل الكهف.

وإنَّ ذِكْرَ الآيَةِ لكلبهم يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ جميع أسباب الحفظ والحراسة الأرضية التي يلجأ إليها الإنسان، وهو في مثل حال أصحاب الكهف قد تعطلت وتوقفت، فقد نام حارسهم، ولم يبقَ ثمَّة أحدٌ يحرسهم، وليس ثمَّة بابٌ يُغلق دونهم، ولا جدران تمنعهم، ولا عمران يحيط بهم، فمن يتولَّى حراستهم دون طوارق الليل في هذا الجبل البعيد المقفر؟! .

إنها عنايةُ الله، وإنهم في كنف الله، سخر الله لهم جندياً من جنوده تولَّى حراستهم على مدى ثلاثة قرون كاملة، لم يغفل خلالها، ولم ينم، ولم يتبدَّل أو يتغيَّر، حرسهم الله بالرعب:

﴿لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْت مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ ألقى الله عليهم وعلى كهفهم من الهيبة والجلال والرعب بحيث لم يجرؤ أحدٌ من إنسانٍ ولا حيوانٍ يدنو منهم، والرعب من جنود الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقد سخر الله الرعبَ لئيبه ﷺ، ونصره به على أعدائه، وبينه وبينهم مسيرة شهر، فبعد أن جمع الرومُ جموعهم في تبوك، وحشدوا فيها جيوشهم،

تراجعوا، وانسحبوا خائفين مذعورين عندما سمعوا بخروج النبي ﷺ من المدينة إلى حربهم وقتالهم، ولَمَّا وصل النبي ﷺ إلى تبوك لم يَلْقَ جيشاً يقاتله، ولا عدوًّا يحاربه، نصره الله ﷻ بجندي واحد من جنوده على أكبر دول الأرض حينئذٍ وأقواها عدداً وُعُدداً، قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

وواضح ما في الآيات من الدلالات المتعددة على ثبوت الكرامات للأولياء والصالحين، فلا شك في ولاية أصحاب الكهف وصلاتهم، وما أكرمهم الله به من خوارق العادات دليلٌ واضحٌ على ثبوت الكرامات لأهل الولاية والصالح.

#### • البعث من النوم:

وبعد أن ضرب الله على آذانهم فناموا ثلاثة قرونٍ كاملة، أيقظهم الله سبحانه بقدرته، فبعثهم من نومهم، وأثارهم من رقادهم، فكما أظهر الله سبحانه كمال قدرته بضربه على آذانهم سنين عدداً، أظهر سبحانه أيضاً كمال قدرته ببعثهم من نومهم، وترتب على ذلك أيضاً بيان كمال علمه سبحانه بمدّة نومهم، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٧﴾﴾

فمن حَكَمَ بَعَثَ اللهُ سبحانه أصحاب الكهف من نومهم أن يبيّن للناس أي الحزبين المختلفين في مدّة لبثهم أحصى لذلك وأضبط له، وقد سكنت الآيات الكريمة عن الحزبين المذكورين، فلم تبيّن شيئاً عنهما، فلا يسعنا إلاّ السكوت والإمساك عن الخوض فيهما التزاماً لما سبق ذكره في فقرة (مصادر قصة أصحاب الكهف)<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: ص ٣١ - ٣٢، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

وإنَّ المفسرينَ الذين حاولوا الكشَفَ عن حقيقة الحزين المذكورين لم يصلوا إلى شيء مفيد، وجاءت أقوالهم مختلفة ومضطربة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنعلم اختلاف الحزين واقعاً وحادثاً كما سبق أن تعلق به علمنا منذ الأزل، فليس في الآية ما يدلُّ على أنه سبحانه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم، فهو سبحانه عالمٌ بكل ما سيكون قبل أن يكون، لا يخفى عليه شيءٌ، كما سبق بيانه ودلَّت عليه آيات كثيرة.

#### • محاورة بعد النوم:

ومن الطبيعي أن يتساءل الفتية بعد بعثهم من النوم عن مدة نومهم، وأن تختلف آراؤهم:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١٩).

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ لامُ العاقبة، فبعد أن بعثهم الله من نومهم، تساءلوا بينهم، وليست لامُ التعليل، فلم يبعثهم الله ليتساءلوا.

والحوارُ الذي حدث بينهم بعد استيقاظهم حول مدة نومهم يدلُّ على أنه سبحانه حفظ أجسادهم طول هذه المدة من التغيير، فلم تطل شعورهم وأظفارهم، ولم تصفرَّ وجوههم وتبلى ثيابهم، كما زعم بعض المفسرين، فلو كان أصحابُ الكهفِ بتلك الصفات لأنكروا أحوالهم عند استيقاظهم، ولم يقولوا: ﴿لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (١).

(١) انظر: روح المعاني.

وإن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ يدل على عدم حدوث التغيير في أجسامهم، لأن معناها: كما أنماهم وحفظنا أجسامهم طول هذه المدة؛ بعثناهم<sup>(١)</sup>.

### • النقود الفضية:

وصرفهم الإحساس بالجوع عن التفكير في مدّة نومهم إلى التفكير في تدبير طعام يسدّون به جوعهم، فأحضر أحدهم نقوداً فضية كانت معهم وقال:

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ المعهودة التي عاشوا بها، وخرجوا منها.

﴿فَلْيَنْظُرِ آيَهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ فليبحث عن أحلّ الطعام وأطيبه.

﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: من ذلك الطعام.

وهكذا أرسلوا واحداً منهم بالنقود الفضية التي كانت معهم ليُخْضِرَ لهم طعاماً من المدينة، وأوصوه بالحدَرِ، وأن يحسِنَ التخفّي، حتى لا ينكشف أمرهم، ويفتضح شأنهم:

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

وأكدوا وصيتهم له ببيان ما يترتّب على انكشاف أمرهم من الخطر على حياتهم أو عقيدتهم:

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة حتى الموت.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ وهذا يدلّ على أنّ الفتية كانوا حذرين خائفين أن ينكشف أمرهم، ولم يعلموا أنّ الأعوام قد كرّت، وأنّ عجلة الزمان قد دارت، وأنّ أجيالاً قد تعاقبت، وأنّ معالم المدينة التي يعرفونها قد

(١) لباب التأويل، للخازن.



تغيّرت، وأنّ دولة الظالمين والمتسلّطين التي كانوا يخافون منها قد دالت، وأنّ قصتهم أصبحت خبراً من أخبار التاريخ يتناقله الخلف عن السلف. ويبدو أنّ تلك النقود الفضية كانت سبب انكشاف أمرهم، وظهور حقيقتهم.

### ● إظهار الحقيقة:

﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وكما ضرب الله سبحانه على آذان أصحاب الكهف فجعلهم ينامون طيلة ثلاثة قرون متوالية، أطلع الناس عليهم، وكشف لأهل مدينتهم حقيقتهم.

فالإعثار: معناه الاطلاع والعرفان، لأنّ العاثر الذي يسقط لوجهه ينظر إلى موضع عثرته، وكان الإعثار مفاجأة كبيرة لأصحاب الكهف، عرفوا بعدها أنّ الدنيا تغيّرت كثيراً من حولهم، وأنهم من جيل قديم مضت عليه قرون، وأنهم أصبحوا أعجوبة في نظر الناس، وأنّ كلّ ما يربطهم بجيلهم من قرابات وصلات ومعاملات ومشاعر وعادات انقطع وانتهى، فسألوا الله سبحانه أن يميّتهم، واستجاب الله دعاءهم، فماتوا، والناس خارج كهفهم يتنازعون في أمرهم.

وقد بيّنت الآية الكريمة الحكمة العظمى والعبرة الكبرى من إظهار حقيقة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فالحكمة من إظهار أمرهم: أن يعلم الناس أنّ وعد الله حق، وأن يوم القيامة آت لا ريب فيه، إذ دلّت قصة أصحاب الكهف على بعث الناس يوم القيامة بمثل واقعي محسوس، يقرب للناس حقيقة يوم القيامة، ولهذا بعث الله سبحانه الفتية من نومهم، وكشف شأنهم للناس؛ فمن قدّر على حفظ أجسام

أصحاب الكهف مدة ثلاثة قرونٍ متواليةٍ من التفتت والتعفن والتحلل، مع تعرضهم للحر والبرد، والشمس والهواء، وحاجتهم إلى الطعام والشراب، صحت قدرته على إعادة الأجساد بعد موتها، وتفرق أجزائها.

والبعث من الموت يشبه البعث من النوم، النوم قبض جزئي للروح، بينما الموت قبض كامل للروح، وفصل لها عن جسدها: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

#### • مسجد على الكهف:

﴿إِذِ يَنْتَظِرُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ويبدو أن نزاعاً واختلافاً حصل بين الناس بعد انكشاف أمر أصحاب الكهف؛ فبعضهم أراد أن يسد باب الكهف ببناء: ﴿فَقَالُوا أَبْنَاؤُهُمْ بَيْنَنَا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾.

ورأى آخرون - وهم أصحاب الكلمة المسموعة الذين إذا أرادوا أمراً لم يتعسر عليهم - بناء مسجدٍ عند الكهف:

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

ولا تدلُّ الآية على جواز بناء المساجد على قبور الصالحين، فليس فيها سوى حكاية رأي فريقٍ من الناس كانوا في عصر انكشاف حال أهل الكهف، إذ ليس في الآية مدحٌ لهم وحضٌ على التأسّي بهم<sup>(١)</sup>.

وقد صحَّ: أن النبي ﷺ نهى عن بناء المساجد على القبور؛ ففي «صحيح مسلم» [٥٢٨]: عن عائشة رضي الله عنها: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرا لرسول الله ﷺ كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئك إذا كان

(١) انظر: روح المعاني.

فيهم الرجلُ الصالحُ فماتَ؛ بنوا على قبره مَسْجِدًا، وصوروا فيه تلكَ الصورَ، أولئك شِرَارُ الخلقِ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ» .

وروى مسلم في «صحيحه» [٥٢٩، ٥٣٠] أيضاً: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «لعنَ اللهُ اليهودَ والنصارى؛ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» قالت: فلولا ذاك أبرز قبره غيرَ أنه خشي أن يتخذَ مَسْجِدًا.

ومن المعلوم: أن رسولَ الله ﷺ دفنَ حيثُ توفي في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، وكانت خارجَ المسجدِ، ولما احتيجَ إلى توسعةِ المسجدِ ضُمَّتِ الحجراتُ إلى المسجدِ في عهدِ الخليفةِ الأموي الوليد بن عبد الملك، وأصبحتِ الحجرةُ النبويةُ داخلَ المسجدِ النبويِّ الشريفِ.

وَحَتَمَتِ الآيَاتُ الكريمةُ قصَّةَ أصحابِ الكهفِ بحكايةٍ بعضِ ما وقعَ بينَ الناسِ من تنازعٍ حولَ عددهم كما سبق بيانه <sup>(١)</sup>:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَتَأْمُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢).

ثم التفتت الآياتُ إلى النبي ﷺ تأمرُهُ أن يردَّ علمَ ذلكِ إلى الله سبحانه: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ فقصةُ أصحابِ الكهفِ طواها الزمنُ، وأصبحتُ من الغيبِ الموكولِ إلى علمِ الله سبحانه.

#### • تأديب وتعليم:

وكما أن الماضي غيبٌ بالنسبة للإنسان، فالمستقبلُ أيضاً غيبٌ بالنسبة له، لا يدري الإنسانُ عنه شيئاً، وهو أيضاً موكولٌ إلى علمِ الله ومشيئته، فعلى الإنسانِ

(١) انظر: ص ٣١ - ٣٣ في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

ألا يقطع بأمر سيفعله في المستقبل، إلا أن يعلّقه على مشيئة الله تعالى، فكلُّ شيءٍ فيه مرهونٌ بإرادته سبحانه، ولا يعلم الإنسان شيئاً وراء اللحظة الحاضرة التي يعيش فيها، وعينه عاجزةٌ أن ترى ما وراء لحظة الحاضر الذي هو فيه:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنِي إِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنِي إِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا النهي تعليمٌ من الله تعالى للنبي ﷺ، فعندما سُئل عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين قال ﷺ: «غداً أخبركم» ولم يستثن، أي: لم يقل: إن شاء الله، كما مرَّ معنا في سبب النزول<sup>(١)</sup>.

والمعنى: لا تقولنَّ لأجل شيء تعزمُ على فعله في المستقبل: إني فاعلٌ ذلك الشيء غداً: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا قاتلاً ذلك، أي: معلقاً بمشيئة الله، والمراد بـ (الغد): ما يُستقبلُ من الزمان لا خصوص الغد، فمن أساليب العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان، ومنه قول الشاعر زهير بن أبي سلمى:

وأعلمُ علمَ اليومِ والأمسِ قبله  
ولكنني عن علمٍ ما في غدٍ عم

ففي الآية الكريمة تأديبٌ من الله تعالى للنبي ﷺ وتعليم، ممَّا يدل دلالةً قاطعةً على أن القرآن الكريم كلامُ الله، منزَّلٌ على رسول الله ﷺ، ومع أن الخطاب للنبي ﷺ فحكمها عام لجميع المكلفين.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: اذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء، فكأنَّ ترك الاستثناء ذنبٌ يستدعي التوبة والاستغفار.

﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي﴾ أن يوفقني.

﴿لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف يدلُّ

على صحة نبوتي، ويرشد إلى صدق رسالتي.

(١) انظر: ص ٢٣ - ٢٤، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

وقد فعل ﷺ ذلك، فأعطى النبي ﷺ كثيراً من الآيات البينات كقصص الأنبياء المتباعدة في الماضي، والإخبار عن كثير من الحوادث المستقبلية، ففي الآية تهوينٌ من الله ﷻ لقصة أصحاب الكهف، وهذا ينسجم مع تهوينه لها أولاً في قوله سبحانه: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] (١).

وقد نبه سيد قطب رحمه الله في ضلال هذه الآية الكريمة إلى أمر هام فقال: «ليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ولا يفكر في أمر المستقبل، ولا يدبر له، وأن يعيش يوماً بيوم، ولحظةً بلحظة، وألاً يصل ماضي حياته بحاضره وقابله... كلا، لكن معناه أن يحسب حساب الغيب، وحساب مشيئة الله التي تدبره، وأن يعزم ما يعزم، ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يد الله فوق يده، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فيها ونعمت، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن، ولم ييأس، لأن الأمر لله أولاً وآخراً» (٢).

وما أجمل قول النبي ﷺ في هذا المعنى: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا، كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لَوْ) تفتح عمل الشيطان» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

#### ● تعقيب:

لقد نجى الله سبحانه أصحاب الكهف من الفتنة التي تعرّضوا لها في دينهم، حين التجؤوا إلى الله وحده، فلم يسألوا سواه سبحانه، ولم يستعينوا بغيره كما مر معنا، ولهذا جاء التعقيب على قصتهم بأمر النبي ﷺ بتلاوة القرآن الكريم، والتوجه إلى الله سبحانه، والاستعانة به، فلا يوجد غير حمى الله، وقد التجأ إليه

(١) انظر: روح المعاني.

(٢) في ضلال القرآن.

أصحابُ الكهف، فشمّلهم برحمته وحمايته وهُداه، ونجّاهم من الفتنة الكبرى في دينهم، وجعلهم آيةً وعبرةً لغيرهم:

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ وهو أمرٌ من التلاوة بمعنى القراءة .  
أو: يكون أمرًا من التلو، بمعنى الاتباع؛ أي: اتَّبِعْ ما أُوْحِيَ إِلَيْكَ، والزمِ العملَ به<sup>(١)</sup> .

وقد يكونُ كلا المعنيين مراداً، فالأمرُ يتناولُ التلاوةَ والاتباعَ، والخطابُ وإن كان للنبيِّ ﷺ فهو شاملٌ لجميع المكلفين .

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا يقدرُ أحدٌ على تبديل كلمات القرآن الكريم غيره سبحانه .  
﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ولن تجدَ عندَ غيرِ الله ملجأً تلجأُ إليه عند نزول نازلةٍ، فكهفُ السلامةِ في كتابِ الله تلاوةً واتباعاً، وفي سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، ففيهما السلامةُ والسلامُ، والأمنُ والأمانُ عند مواجهة النوازل والفتن، أعاذنا الله منها .



(١) روح المعاني .

## الْفَصْلُ الرَّابِعُ

## قِصَّةُ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ نَظْمِرْهُنَّ مِن شَيْءٍ وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاءً وَّهَاءً غُورًا فَلَن يَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلِبْ كَقَبِيهِ عَلَىٰ مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ نُّوَابًا وَخَيْرٌ عَقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا ءَاتَيْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا

﴿٤٤﴾ أَمْأَلِ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْأَلًا ﴿٤٤﴾  
 وَيَوْمَ نُسِرَ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ  
 جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ  
 مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا  
 وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا  
 إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ  
 بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَخْجَدًا  
 الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا  
 بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ  
 صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ  
 أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا  
 ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَعَلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحَضُوا بِهِ  
 الْحَقُّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا  
 قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ  
 يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ  
 لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِقًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا  
 لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴿٥٩﴾ .

### • تمهيد: فتنة الغنى وفتنة الفقر:

التفاوت بين الناس من أعظم أسباب الاختلاف والفتن، وخاصة التفاوت بينهم بالغنى والفقر، فالأغنياء فتنة كبرى للفقراء، والفقراء كذلك فتنة كبرى للأغنياء، هكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يكون الناس بعضهم لبعض فتنة، لأنه سبحانه جعل الحياة ابتلاء واختباراً كما سبق بيانه، قال ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].



وقد كان فقراء الصحابة رضي الله عنهم من السابقين الأولين إلى الإسلام فتنة لأغنياء المشركين، وجاء بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وطلبوا منه أن يجلس معهم وحدهم، ولا يجالسهم بفقراء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخبّاب وابن مسعود رضي الله عنهم، فقد روي أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك، فإن ريح جبابهم تؤذينا، فنزلت هذه الآية:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبسها وثبتها.

﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: مع الذين يعبدون الله ويحمدونه ويكبرونه ويسبّحونه في أول النهار وآخره.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يريدون رضاه صلى الله عليه وسلم، فلا يعبدونه رياءً ولا سمعةً، ففي هؤلاء الخير كل الخير، وبهم قامت دعوة الله، لأنهم لم يعتنقوها للأطماع وليكون لهم أتباع.

وبعد أن أمرت الآية النبي صلى الله عليه وسلم أن يحبس نفسه ويثبتها مع فقراء أصحابه، نهته أن يصرف نظره عنهم إلى غيرهم:

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تصرف عينك النظر عنهم إلى غيرهم.

فالمرادُ نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزدري بفقراء المؤمنين، وتعلو عينه عن رثاثة زيهم، طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَاكَ مِنْ حَيْثُ نَبَقْنَا﴾ [طه: ١٣١].

وقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

## ● الغفلة عن ذكر الله:

إنَّ فتنَةَ الإنسانِ بِالْمَالِ مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ، لَأَنَّهَا تَصْرِفُ قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِ رَبِّهِ إِلَى مَالِهِ وَشَهْوَاتِهِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَوْلِيَاءَ الْمُشْرِكِينَ الْمَفْتُونِينَ بِمَالِهِمْ وَغَنَاهُمْ، وَالْمُتَكَبِّرِينَ عَلَى فَقَرَاءِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ:

﴿وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَي: لَا تَطْعُ مَنْ جَعَلْنَا قَلْبَهُ غَافِلًا عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وَهَذَا هُوَ سَبَبُ غَفْلَتِهِ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَحِينَ اتَّجَهَ قَلْبُهُ إِلَى مَالِهِ وَشَهْوَاتِهِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَتَسَعٌ لَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْقَلْبُ الَّذِي يَنْشَغَلُ بِهَذِهِ الشَّوَاغِلِ، وَيَجْعَلُهَا غَايَتَهُ لَا جَرَمَ يَغْفَلُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَيَزِيدُهُ اللَّهُ غَفْلَةً، فَشَرَّ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ خَالِيًا عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ، مَمْتَلئًا بِالْهَوَى الدَّاعِي إِلَى الْإِشْتِغَالِ بِالْمَالِ وَالشَّهْوَاتِ، وَإِنَّ مَالَ مِثْلِ هَذَا الْإِنْسَانِ إِلَى ضِيَاعٍ وَهَلَاكِ.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ فَالْفُرْطُ مِنَ التَّفْرِيطِ وَهُوَ التَّضْيِيعُ وَالتَّقْصُصُ، أَي: كَانَ أَمْرُهُ ضِيَاعًا وَهَلَاكًا، أَوْ مِنَ الْإِفْرَاطِ وَهُوَ الْإِسْرَافُ، أَي: وَكَانَ أَمْرُهُ إِسْرَافًا، وَمَجَاوِزَةً لِلْحَدِّ، أَوْ مِنَ السَّبْقِ وَالتَّقَدُّمِ مِنْ قَوْلِهِمْ: فَرَسٌ فُرْطٌ؛ أَي: مُتَقَدِّمٌ لِلخَيْلِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَكَانَ مُتَقَدِّمًا عَلَى الْحَقِّ مَعْرِضًا عَنْهُ نَابِذًا لَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ<sup>(١)</sup>.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ بِكُلِّ هَذِهِ الْقُوَّةِ وَالصَّرَاحَةِ أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِأَوْلِيَاءِ الْمَفْتُونِينَ بِمَالِهِمْ الْمُتَكَبِّرِينَ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فَالذِّينُ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، لَا مَجَامِلَةَ فِيهِ، وَلَا مَسَاوِمَةَ، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَبَالِي بِإِيْمَانِ مَنْ آمَنَ، وَلَا بِكُفْرِ مَنْ كَفَرَ، فَلَيْسَ فِي

(١) انظر كتاب: روح المعاني؛ وكتاب: أضواء البيان.

الآية تخييرٌ بين الإيمان والكفر، والأمرُ بالكفر فيها غيرُ مرادٍ، إنّما فيها تهديدٌ ووعيدٌ للكافرين، والدليل عليه قوله تعالى بعدها:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

ثم قال تعالى مبيناً ثواب من يؤمن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

#### • القصة الثانية: رجلان وجنتان:

وجاءت القصة الثانية في سورة الكهف متفقةً تماماً مع ما سبق وقرره الله تبارك وتعالى من خطورة فتنة الغنى والفقر، وابتلاء الناس بعضهم ببعض نتيجة ما قدره الله بينهم من تفاوت في الرزق؛ قال تعالى:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ اضرب للمؤمنين الفقراء وللکافرين الأغنياء المفتونين بسبب غناهم، مثلاً رجلين:

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أعطينا أحدهما جنتين، ولم نعط الآخر.

وقد يعترض بعضهم على إعطاء واحد ومنع آخر، ويرون ضرورة التسوية بينهما بالعطاء، فثمة جنتان ورجلان؛ لكل رجل جنة، لكنه سبحانه العليم الحكيم لو سوى بينهما بالعطاء، لما حصل الابتلاء، ولما وقع الافتتان، وقد خلق الله سبحانه الحياة بما فيها اختباراً للخلق، وابتلاء كما سبق بيانه في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ولو جعل الله سبحانه الناس متساوين بالعطاء لما وقع بينهم تعاون

وتواصل، واستغنى كل واحد بما في يده عن الآخرين، وحينئذٍ تتعطل الحياة، وتتوقف، لاستحالة أن يعيش الإنسان دون أن يتعاون مع الآخرين، قال ﷺ: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرًا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ليس للعيد تقسيم الأرزاق والأعطيات، ذلك شأن السيد والمالك، ولا حق للعبد أن يعترض على قسمة مالكة وخالقه فيقول: لِمَ أعطيت فلاناً ومنعتني؟! ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء، الجميع عبيد له ومملكه، والرزق والعطاء من فضله، وليس لأحدٍ سابقةٍ استحقاقٍ على الله تعالى، فإن أعطى فبفضله وإحسانه، وإن منع فبحكمته ومشیتته.

#### • الجنتان:

ولما كانت الجنتان سبب الافتتان والامتحان وصف الله تعالى ما جعل فيهما من ثمرات، وما خلق من خيرات، فقال ﷺ: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين، ولم يعين سبحانه مكانها، فلا تتعلق بذلك فائدة.

﴿مِنَ أَعْنَابٍ﴾ من كروم متنوعة، وهي أشجار العنب.

﴿وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجننتين.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ لتكونا جامعتين للأقوات والفواكه.

ومن المعلوم أن الثمار تنقص في عام وتتم في عام آخر غالباً، إلا أن الله ﷻ جعل الجنتين تعطيان الثمار كاملة دون نقص في جميع الأعوام:

﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءِأَنْتَ أَكُلُهُمَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾.

﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءِأَنْتَ أَكُلُهُمَا﴾ ثمرها.

﴿وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ولم تنقص من ثمرها شيئاً كما هو المعهود في سائر

البساتين.

ولكي يدوم شربهما ويزيد جمالهما وبهاؤهما فَجَّرَ اللهُ بينهما نهراً:  
﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾.

وأعطى الله صاحبَ الجنتين أنواعاً أخرى من المال سوى الجنتين:

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤).

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وإلى جانب هذا كله أعطاه الله الأولاد والخدم والحشم، وتلك هي الأمانى التي تتعلق بها قلوب كثير من الناس، قال قتادة رضي الله عنه: تلك والله أمنية الفاجر كثرةُ المالِ وعزَّةُ النفس<sup>(١)</sup>.

#### • المحاورة:

وكان لصاحب الجنتين صديقٌ فقير مؤمن، ويبدو من الآيات الكريمة أنَّ هذا الفقير المؤمن كان يراجعُ صاحبَ الجنتين بالوعظ والدعوة إلى الله تعالى، فما كان من صاحب الجنتين إلا أن ردَّ عليه:  
﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

ثم دخل بصاحبه إحدى جنتيه يطوفُ به فيها، وقد ملأ نفسه البطر، وسيطر عليه الغرور:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥).

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو ظالم لنفسه بعُجبه وكُفْرِهِ، لأنَّه وضع نفسه في موضع الجحود والنكران بدل أن يضعها في موضع الشكر والعرفان.  
﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾.

اغترَّ بطول أمله وكثرة ماله، فأوصله ذلك إلى إنكار يوم القيامة:

(١) تفسير ابن كثير.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كأن الله سبحانه خلقه وأنعم عليه ليأكل ويشرب ويتكبر ويتجبر، ثم ازداد بطراً وأشراً وطغياناً وكبراً فأقسم أنه إن رجع إلى الله يوم القيامة كما أخبره صاحبه المؤمن ليعطيته الله جنّة خيراً من جنته هذه التي في الدنيا .  
﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ لا اعتقاده أن الله سبحانه أعطاه ما أعطاه في الدنيا بسبب استحقاقه لهذا العطاء! .

وهكذا سقط صاحب الجنتين بالاختبار، وفشل في الامتحان، وفتنه ماله عن دينه .

#### • عزة الإيمان:

انتفضت عزة الإيمان في قلب صاحبه المؤمن أمام هذا التكبر والتجبر والجحود والنكران، دون أن يبالي بالمال والنفر، ومن غير أن ينظر للغنى والبطر، فواجهه بحقيقته، وذكّره بأصله ونشأته:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ﴿٣٧﴾ .

جعل كفره بيوم القيامة كفراً بالله تعالى، لأن منشأه الشك في كمال قدرة الله سبحانه .

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٣٨﴾ .

وأصل (لكنّا): لكن أنا، حذفت الهمزة وتلاقت النونان فكان الإدغام، وكلمة (لكن) تدلُّ على الاستدراك، كأنه قال: أنت كافرٌ بالله، لكن أنا مؤمنٌ به .

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهلاً عند دخول جنتك قلت: ما شاء

الله، وهو إقرارٌ بمشيئة الله، إن شاء أبقاها، وإن شاء أبادها، لأنَّ معناها: الأمرُ ما شاء الله، أو: ما شاء الله كائن.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: وقلت: لا قوة إلا بالله، وهذا اعترافٌ بالعجز، وردُّ القدرة إلى الله سبحانه، فما تيسر لك من عمارتها وتديير أمرها فبمعونة الله وتيسيره. وجاء في الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً في أهلٍ أو مالٍ أو ولدٍ فيقول: ما شاء الله، لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِلَّا دفعَ الله تعالى عنه كُلَّ آفةٍ حتى تأتيه منيته» وقرأ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. [رواه أبو يعلى، والبيهقي (٥٨٨٨)].

﴿إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إن: أداة شرط، وجاء جواب الشرط في قوله:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصَبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقَّع أن يرزقني ربي جنَّةً خيراً من جنَّتِكَ، ويسلبك بكفرك نعمته. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ويرسل عليها بلاءً من السماء. ﴿فَنُصَبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ فتصبح أرضاً ملساء، تزلق عليها الأقدام بسبب هلاك نباتها وأشجارها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض. ﴿فَلَن نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ فلا نستطيع الوصول إليه.

#### • حسرة وندم:

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ وأهلك الله أمواله، وتدلُّ الآية على وقوع الإهلاك عاجلاً

بآفة سماوية .

﴿فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَفَقَ فِيهَا﴾ وتغيَّرَ حالُ صاحبِ الجنتين، فمن الغنى والازدهار إلى الهلاك والدمار، ومن حال البطر والاستكبار إلى حال الندم والاستغفار .

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وجنته ساقطةٌ على عروشها .

والعروش: جمع عَرْشٍ، وهو ما يُصنَعُ من الأخشاب لتوضعَ عليها الكروم .

﴿وَيَقُولُ يَلَيْنَى لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ علم أنه أتى من قِبَلِ شِرْكَه، فتمنَّى لو لم يكن مشركاً حتى لا يصيبه ما أصابه .

وفي الآية دليلٌ على أَنَّ إنكارَ يومِ القيامةِ شركٌ بالله سبحانه وكفرٌ، لأنَّ منكرَ يومِ القيامةِ ينسبُ صفةَ العجزِ إلى الله ﷻ ويسويه بخلقه، وهذا من الشرك .

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ .

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصُرُونَهُ﴾ وفتنةُ الرجلِ: طائفته التي يرجعُ إليها في أموره وشؤونه، والمعنى: ولا توجدُ فتنةٌ تقدرُ على نصره بدفعِ الهلاك قبل وقوعه أو بردِّ الهالك .

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من غيرِ الله سبحانه، فإنَّه وحدهُ القادرُ على نصره .

﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقامِ الله، لأنَّ النصرَةَ في ذلك المقام الذي وقع فيه الإهلاك لله وحده، فلا قوةَ إلاَّ قوته، ولا نصرَ إلاَّ نصره ﷻ .

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ .

فتوَابُ الله لأوليائه خيرٌ ثوابٍ، وعاقبتهُ خيرٌ عاقبةً، فلا نجاةَ للإنسان من فتنةِ المالِ إلاَّ بالله سبحانه، باللجوءِ إليه، والتمسُّكِ بشرعه، فإن أعطاك شكرتَ وأطعتَ، وإن منعك صبرتَ راضياً بحكمه، واثقاً بفضلِهِ وإحسانه .



### • التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا:

الاغترار بالدنيا أكبر البواعث التي تبعث على الفتن، ولا سبيل إلى النجاة من الاغترار بالحياة الدنيا إلا بمعرفة حقارتها، وبيان سرعة زوالها، وقد ضرب الله هذا المثلَ بياناً لقصر الحياة الدنيا حتى لا يغترَّ بها الإنسان:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا ۝٤٥﴾.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ الخطاب في صدر الآية للنبي ﷺ ليذكر للناس ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها، حتى لا يغتروا بها، ويقعوا في شرك فتنها.

﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ فهي كماء أنزله الله من جهة السماء.

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فاختلط بالماء نبات الأرض حتى نما وازدهى.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ فأصبح بعد ذلك نباتاً مهشماً مكسراً.

﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ تفرقه الرياح.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا﴾ لأنه سبحانه كامل القدرة.

والمتأمل في الآية يرى أنها عرضت مثل الحياة الدنيا عرضاً سريعاً وقصيراً يتناسب مع المراد منها، فقد سيقت الآية للتحذير من الاغترار بالحياة الدنيا وزينتها ببيان سرعة انقضائها وحقارة شأنها، فشأنها كشأن الماء الذي نزل من السماء، واختلط بنبات الأرض، الذي لا يلبث أن يصبح هشيماً تذروه الرياح، بهذه الجمل الثلاث القصيرة تبدأ الحياة وتنتهي، فما أقصرها وما أهونها!.

### • زينة الحياة الدنيا:

وإذا كانت الحياة الدنيا سريعة الانقضاء، وشيكة الانتهاء، فما يكون فيها من أسباب زينتها سريع الانقضاء وشيك الانتهاء، والمال والبنون أكبر زينة في الحياة الدنيا:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [٤٦].

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقدم الله سبحانه ذكر المال لأن زينته في الدنيا عامة لجميع الأفراد والأوقات، وأما البنون فلا يتزين بهم إلا من بلغ منزلة الأبوة، ولأن حاجة الإنسان إلى المال أشد من حاجته إلى الأولاد.

إن فتنة الإنسان بالأموال والأولاد كبيرة وخطيرة، ولهذا حذر القرآن الكريم من الفتنة بهما في عدة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدَكُمُ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

فالأموال والأولاد اختبار وامتحان من الله سبحانه، فمن أطاع الله فيهما وشكره عليهما فاز ونجا، ومن شغل بهما عن طاعة ربه سبحانه خاب وخسر.

والتنافس بين الناس في المال والأولاد خطير وكبير، وهو من أكبر أسباب الاختلاف والقتال وسفك الدماء، كما قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فَرَنَهُ مَصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

هكذا حياة أكثر الناس، يدور محور حياتهم الدنيا في فلك التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، أولئك صرعى أموالهم وأولادهم، المفتونون بهم عن طاعة ربهم، وبهذا تصبح أموالهم وأولادهم أعداء لهم، لأنهم سبب فتنهم عن طاعة ربهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن رَّبِّكَ مِنْ أَرْوَامِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَعَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٤٦] إِيَّاكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن].

لقد أنزل الله سبحانه بعض الأموال والأولاد من الإنسان منزلة العدو له لشدة خطر الفتنة بهم على دينه، وحذر الإنسان منهم حتى لا ينشغلوا بهم عن طاعة ربهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا لَّهُمْكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

## ● الباقيات الصالحات:

ولا ينتفع الإنسان بأمواله وأولاده يوم القيامة، الانتفاع يوم القيامة  
بالباقيات الصالحات:

﴿وَأَلْبَقَيْتُ الصَّالِحَاتُ﴾ لفظ عام يشمل كل الأقوال والأعمال الصالحة التي  
تُرضي الله تعالى، فهي باقية لصاحبها غير زائلة، ولا نائية.

﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: هي خير يوم القيامة لظهور أثر خيريتها في ذلك اليوم.

﴿وَحَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأن صاحبها ينال في الآخرة ما كان يؤمله بها في الدنيا.

وفي الآية دليل على أن المال والبنين زينة وليسا قيمة، فلا يجوز وزن  
الناس بهما، قيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات.

وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكاً وعملاً في منزلهما  
الذي وضعهما الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في  
حدود ما أحل الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ  
الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾  
[الأعراف: ٣٢].

## ● مشاهد من يوم القيامة:

ثم عرضت الآيات الكريمة مشاهد من يوم القيامة تأكيداً لقيمة الباقيات  
الصالحات وبياناً لأهميتها في هذا اليوم:

﴿وَيَوْمَ نُسِِرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧).

﴿وَيَوْمَ نُسِِرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: اذكر يوم نُزِيلُ الْجِبَالَ عَنْ أَمَاكِنِهَا،  
وترى - يا محمد - الأرض بارزة لذهاب جميع ما كان عليها من جبال وعمران،  
فإزالة الجبال يجعل سطح الأرض مستوياً لا انخفاض فيه ولا ارتفاع، كما في  
قوله تعالى: ﴿وَسَتَلُونَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٥٦﴾ لَا تَرَى  
فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه].

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي: جمعناهم إلى أرض المحشر بعد أن بعثناهم من قبورهم.  
 ﴿فَلَمْ نَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلم نترك منهم أحداً.  
 ومن الحشر الشامل إلى العرض الكامل:

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨).

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ كما يعرض الجند على قائدهم، لا ليتعرف عليهم بل ليحكم فيهم.

﴿صَفًّا﴾ أي: مصطفين أو مصفوفين.

وتتحول الآيات من الوصف إلى الخطاب ليستشعر القارئ أنه يعيش هذا المشهد الرهيب في هذه اللحظة.

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهو خطابٌ لأولئك الذين كانوا ينكرون يوم القيامة، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة حفاةً عراةً عُزُلًا، وما معكم شيءٌ من زينة الدنيا، التي كنتم تفتخرون بها.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بموعظةٍ فقال: «أيُّها الناسُ: إنَّكم تُحْشَرُونَ إلى الله حفاةً عراةً عُزُلًا؛ كما بدأنا أولَ خلقٍ نعيده» [رواه البخاري (٦٥٢٤) ومسلم (٢٨٦٠)].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وهو إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتوبيخ والتقريع.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ والمراد من الكتاب كتب الأعمال، فالألف واللام فيه للاستغراق، جعل كل كتاب في يد صاحبه اليمين أو الشمال.

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ خائفين مما في الكتاب من الجرائم والذنوب.

﴿وَيَقُولُونَ بَوَيْلُنَا﴾ ينادون على أنفسهم بالهلاك خوفاً من العذاب، كأنهم يقولون: يا هلاكُ أقبل فهذا أوانك .

﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ الاستفهام يدل على التعجب من دقة إحصاء الكتاب! .  
﴿لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا عدّها، وذكر الصغيرة قبل الكبيرة اهتماماً بها وتنبهاً على خطورها .

رُوي عن الفضيل: أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: ضَجُّوا والله من الصغائر قبل الكبائر. وقال قتادة: اشتكى القوم - كما تسمعون - الإحصاء، ولم يشتك أحدٌ ظلماً، فإيّاكم والمحقرات من الذنوب، فإنّها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه (١) .

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا .

﴿حَاضِرًا﴾ مسطوراً في الكتاب .

﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ .

#### ● فتنة الشيطان:

فتنة الشيطان للإنسان أعظمُ الفتن، وبلاء الإنسان به أشدُّ بلاء، لأنَّ الشيطان رأسُ الشر، ومنبعُ الكفر، وهو أكبرُ عدوِّ للإنسان، ويجري منه مجرى الدم من العروق، وما أكثرَ ما حذرنا الله سبحانه منه في آيات التنزيل الحكيم، فقد ذكر الله سبحانه قصّة آيينا آدم مع الشيطان في عدّة سور من القرآن الكريم .

وفي سورة الكهف حذرنا الله منه بعد أن بيّن حال المفتونين بالدنيا والأموال والأولاد، لأنَّ الاغترار بالدنيا والأموال والأولاد أعظم الوسائل التي يتمكن الشيطان بها من فتنة الإنسان، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ  
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ﴾

(١) انظر: روح المعاني .

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ الشيطان من الجن، وأنَّ ذلك سبب خروجه عن طاعة ربه سبحانه، وأنه ليس من الملائكة المعصومين من الكفر والمعاصي الذين قال الله فيهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وقال فيهم أيضاً: ﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. وكان إبليس مُلحقاً بالملائكة لكثرة عبادته، ولهذا شمله الأمر بالسجود لآدم. ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي؟! وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ لِلإنْكَارِ والتوبيخ مع التعجب من حال أولئك الذين يوالون الشيطان ويتابعونه ويُفتنون به. والظاهر أنَّ المراد من الذرية الأولاد، ففي الآية دليلٌ على أنَّ للشيطان أولاداً، وهذا يؤكد أنه ليس من الملائكة، فالملائكة لا يتوالدون. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ وهذا تصريحٌ بعداوة الشيطان وذريته للإنسان. ﴿يَسُّ لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين يطيعون الشيطان ويعصون الرحمن. ﴿بَدَلًا﴾ من الله سبحانه.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥١).

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما أشهدتُ إبليس وذريته وأولياءه من المشركين خلق السماوات والأرض.

﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ ولا أشهدتُ بعضهم خلق بعض.

﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أعواناً ومساعدين.

ولا يخفى على المتأمل للآية ما فيها من ردِّ على المشركين من قريش، الذين طلبوا من النبي ﷺ أن يُبعد فقراء المسلمين عن مجلسه، كما مرَّ معنا في الآية (٢٨)؛ فكأنَّه تعالى يقول عنهم: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد ليسوا شركائي في تدبير العالم وخلقهم، والدليل أنني ما أشهدتُهم خلق السماوات والأرض، ولا خلقَ أنفسهم، ولا استعنتُ بهم، فهم كسائر الخلق، فلم أقدموا

على هذا الاقتراح الفاسد؟! كمن يقترح عليك أموراً كبيرة، فإنك تقول له مستهزئاً به: لست بسلطان البلد حتى تُصدّر منك مثل هذه الاقتراحات الكبيرة!.

### ● سبيل النجاة:

وإذا أردت النجاة من فتنة الشيطان وكيده فاذكر عدوانه لك واستعن عليه بالله سبحانه: ﴿وَمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

واذكر يوم القيامة عندما يقول الله تعالى لأولياء الشيطان الذين أشركوا بالله، وعبدوا غيره، توبيخاً لهم وتقريعاً:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٦﴾﴾.

والمَوْبِقُ: المهلك، من قولهم: وَبِقَ يَبِقُ، كوعد يعد: إذا هلك، وأوبقته الذنوب: أهلكته، ومنه السبع الموبقات، أي: المهلكات، والمعنى: جعلنا بين الكفار وبين من كانوا يعبدونهم موبقاً، أي: مهلكاً، لأنَّ الهلاك يحيط بالجميع من كل جانب.

واحذر أن تكون بطاعتك للشيطان من المجرمين الذين يعلمون أنهم سيقعون في النار، ويُعذبون بها، عندما يرونها يوم القيامة:

﴿وَرَاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٧﴾﴾.

والظنُّ هنا بمعنى اليقين، لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوها، والعرب تطلق الظنَّ على اليقين، فهو من أَلْفَظِ الْأَضْدَادِ، استعمل في القرآن الكريم بهذا المعنى في آيات كثيرة؛ منها: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَا مَنَّ فِيكُم مِّن فَتْنَةٍ فَلَئِنَّ عَذَابَ اللَّهِ كَثِيرٌ يَا ذُنَّ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومنها أيضاً: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَهٗ﴾ [الحاقة: ٢٠].

## ● أمثال القرآن الكريم:

والزم القرآن الكريم حتى تصل إلى كهف السلامة من كيد الشيطان ومكره، فقد ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم كثيراً من الأمثال لهدايتك وإرشادك بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة، واذكر كيف بين الله تبارك وتعالى في أول سورة الكهف أن إنزال القرآن الكريم هو نعمة الله الكبرى ومنته العظمى، وفي الآية التالية بين الله تعالى فضله علينا بما ضرب في القرآن الكريم من الأمثال المتنوعة لتكون أسباب الهداية والرشاد؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ومعنى: ﴿صَرَّفْنَا﴾ رَدَدْنَا وكثَرْنَا، فالأمثال في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة - وقد مرَّ معنا بعضها في سورة الكهف - وفيها المواعظ والزواجر والحكم:

- منها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰئْسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ .

- ومنها: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿بَنَاتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾﴾ .

- ومنها: قوله تعالى أيضاً في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

- ومنها أيضاً: قوله ﷻ في سورة الرعد: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ ۖ يَقْدَرُهَا



فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧٧﴾ .

وهكذا ضرب الله الأمثال، وميّز بين الحق والباطل، والهدى والضلال،

ومع كل ذلك قابل الناس هذا البيان بالجدال والخصام:

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ

لِيَذْكُرُوا وَمَا يُزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

### • أسباب الضلال:

وقد يسأل الإنسان نفسه عن سبب إعراضهم عن الحق مع وضوحه وظهوره

بكثرة الأدلة الدالة عليه. والجواب في الآيات التالية والمبدوءة بقوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ  
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ﴿٥٥﴾ .

فالمانع الذي منع الناس من الإيمان والاستغفار بعد أن جاءتهم الرسل

بالبينات الواضحات ما سبق في علم الله تعالى من أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون

على كفرهم وعنادهم حتى تأتيهم سنة الله في إهلاك الكافرين واستئصالهم، أو

يأتيهم العذاب أنواعاً مختلفة يتلو بعضها بعضاً، أو عياناً يرونه بأعينهم.

وما أرسل الله الرسل إلا ليقيم الحجة على الناس، يبشرون من أطاع الله

بالجنة، وينذرون من عصاه بالنار:

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَمَجِدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ لَيُدْحِضُوا بِهِ  
الْحَقَّ ۚ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَمَجِدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ لَيُدْحِضُوا بِهِ

الْحَقَّ ۚ﴾ وهذا تخصيصٌ للتعميم السابق في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ

جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

فالمجادلون بالباطل هم الذين كفروا ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليبطلوا الحق بجدهم وخصامهم، ومع الجدل والخصام:

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أي: سخرية واستخفافاً.

ولا يوجد أحدٌ أظلم لنفسه وأعظم فتنةً من أولئك الذين وُعطوا بآيات القرآن الكريم فأعرضوا عنها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [٥٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ﴾ من المعاصي والكفر.

وسبب الإعراض عن آيات الله بينه الله سبحانه في قوله بعد ذلك:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ إنه سبحانه جعل على قلوب الظالمين

المعرضين عن آياته أغشية تغطي قلوبهم، حتى لا يفهموا كلام الله.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وجعل في آذانهم ثقلاً يمنعها من سماع ما ينفعهم من

الآيات، وما فيها من الأمثال، جزاءً وفاقاً لموقفهم موقف المستهزئ والمعرض

عن دعوة الرسل ﷺ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وتلك هي النتيجة:

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فكان هذه الآية تبيّن سبب قول الله

تعالى للنبي ﷺ في مطلع السورة: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِخْعِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا

الْحَدِيثِ أَسْفًا﴾ [١]، فتأمل كيف تدور آيات السورة في فلك موضوعها الأساس

الأول الذي ذكره الله سبحانه في آياتها الأولى.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنه لا يعجل العقوبة للكافرين والمعرضين عن طاعته

وعبادته، فهو سبحانه حلیم يُمهّل ولا يُهمّل، فلا يظن أولئك المجادلون بالباطل

والمفتنون بسبب اتباعهم الشيطان أن الله سبحانه يتركهم دون عقاب وعذاب:

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾﴾ .

أي: ملجأ يلجؤون إليه يحميهم من عذاب الله .  
وقد دلت آيات كثيرة على أن الله سبحانه لا يؤخر شيئاً عن وقته الذي عينه له ولا يقدمه عليه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فِإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].  
وقال هنا في سورة الكهف:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ .



## الْفَصْلُ الْخَامِسُ

## قِصَّةُ مُوسَى وَالْخَضِرِ ﷺ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلِهِ إِينَا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٨﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَيْهِ آثَارِهِمَا قَصَصْنَا ﴿٦٩﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَأْتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٧٠﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلَنَا ﴿٧١﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٧٣﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٥﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٨﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨١﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْهُ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٨٢﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآكَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٨٣﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَبْأُتُكَ إِنَّا وَدِدُ لِمَا تُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآكَامَهُ قَالَ صَبْرًا ﴿٨٤﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٨٥﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٦﴾ فَآرَدْنَا أَنْ نُبَدِّلَهُمَا رَوْحًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَوْحًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي

الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ .

### • موقع القصة في سورة الكهف:

ذُكِرَت قصة موسى ﷺ والرجل الصالح (الخضر) في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الكهف، ولموقعها في السورة فوائد وحكم، كشف العلامة الفخر الرازي في «التفسير الكبير» عن اثنتين منها؛ فقال:

«أما نفع هذه القصة في الردِّ على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، فهو أنَّ موسى ﷺ مع كثرة علمه وعمله وعلوِّ منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقِّه ذهب إلى الخضر لطلب العلم، وتواضع له، وذلك يدلُّ على أن التواضع خيرٌ من التكبرُ.

وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف، فهو أنَّ اليهود قالوا لكفار مكة: إن أخبركم محمدٌ عن هذه القصة فهو نبي، وإلا فلا. وهذا ليس بشيء، لأنه لا يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع، كما أنَّ كون موسى ﷺ نبياً صادقاً لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلَّم منه، فظهر بما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود من القصتين المتقدمتين»<sup>(١)</sup>.

ولعلَّ ما ذكره الفخر الرازي يبيِّن لنا الحكمة من تهوين الله سبحانه لشأن قصة أصحاب الكهف بالنسبة لعجائب قدرته، كما سبق ومرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

### • فتنة العلم:

وإضافة إلى ما ذكره الفخر الرازي أقول: إنَّ للقصة علاقةً بموضوع سورة

(١) انظر: التفسير الكبير.

الكهف الأساس، وهو الاختبار والابتلاء وسبيل العصمة من الفتن وطرق النجاة منها، وفتنة العلم من الفتن الكبرى التي يتعرض لها أهل العلم من علماء ومتعلمين، وقد بين الله سبحانه في قصة موسى والخضر السبل المنجية من فتنة العلم ببيان الصفات الطيبة التي ينبغي أن يتصف بها العالم والمتعلم.

وتظهر فتنة العلم من جوانب متعددة:

- فالعلم سبب من أسباب تحصيل القوة: وقد وضعت العلوم التجريبية في يد الإنسان المعاصر كثيراً من مصادر القوة والطاقة التي خلقها الله سبحانه، والأمم المتعلمة أقوى بكثير من الأمم الجاهلة والمتخلفة عن ركب العلم، والقوة تمكن الإنسان من الغلبة والسيطرة على غيره، وحب السيطرة من النوازع القوية الكامنة في نفس الإنسان، وهي سبب فتنة كثير من الناس، وقديماً ادعى فرعون لنفسه صفة الربوبية والألوهية بسبب قوته وكثرة جنوده؛ قال تعالى:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿١٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات].

وحديثاً انتشر الكفر بالله سبحانه والإلحاد وإنكار وجود الخالق العظيم بين كثير من الناس، وخاصة في إبان الطفرة العلمية التي حدثت في العالم الغربي في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر، وظنَّ بعض الناس أنهم بما توصلوا إليه من الكشوفات العلمية أصبحوا أقوياء، وأنهم ملكوا زمام الأمر في الأرض، ويستطيعون الاستغناء عن الاعتقاد بوجود الخالق العظيم ﷻ.

- والعلم معرفة وإدراك يجعل الإنسان العالم يشعر بامتيازه على غيره من الناس: فهو يعرف ما لا يعرفون، ويدرك ما لا يدركون، والشعور بالتميز والتفوق سبب لفتنة كبرى، تؤدي إلى وقوع الفرقة والاختلاف، ونشوب الاقتتال بين الناس، وإنَّ فكرة التفوق والامتياز أصلُ الفكرة النازية الألمانية التي أغرقت العالم في بحار من الدماء والنكبات والكوارث في الحرب العالمية الثانية<sup>(١)</sup>.

(١) ومثلها في الجرائم والنكبات الصهيونية التي تقوم على فكرة التفوق اليهودي (شعب الله المختار) (ن).

- والعلم أيضاً سلاحاً خطيراً ذو حَدَّين: يمكن أن يسخر للاحتيال والغش والخداع والتزوير وسلب حقوق الضعفاء والسُدج والبسطاء، كما هو الحال في العصر الحاضر، إذ تمكنت بعض المجتمعات البشرية في أوربة وأمريكا بسبب تفوقها في بعض العلوم التجريبية أن تحقق مستويات عالية من الرفاهية والترف والسرف، لأنهم سَخَّروا العلم لمآربهم الذاتية، ومصالح أمهم فقط، وسرقة خيرات الأمم والشعوب التي يسمونها الشعوب النامية أو المتخلفة أو شعوب العالم الثالث، كما سَخَّروا أيضاً العلم للتدمير والتخريب بما صنعوا من آلات الحرب والدمار مما هو معروف ومشهور.

كل هذا يبيِّن لنا خطورة فتنة العلم، العلم البعيد عن الإيمان بالله، وفي قصة موسى والخضر بيان لأسباب النجاة من فتنته، تنكشف بإذن الله تعالى لمن تدبَّر آيات هذه القصة وأمعن النظر فيها.

#### • القصة في كتب السُّنة النبوية الشريفة:

ذُكرت قصة موسى والخضر في أوثق كتب السُّنة الشريفة؛ ففي «الصححين»: أن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نَوْفًا البَكَّالِي (١) يزعم أن موسى ﷺ صاحب بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر، فقال: كذبَ عدوُّ الله (٢)؛ سمعتُ أَبِي بن كعب يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«قام موسى ﷺ خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِلَ: أيُّ الناسِ أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فَعَتَبَ اللهُ عليه، إذ لم يردَّ العلمَ إليه، فأوحى اللهُ إليه: إنَّ عبداً من عبادي بِمَجْمَعِ البحرينِ هُوَ أعلمُ مِنكَ. قال موسى: أيُّ ربِّ كيف لي به؟»

(١) تابعي من أهل دمشق، فاضل عالم لاسيما بالإسرائيليات، وكان ابن امرأة كعب الأبحار، وقيل غير ذلك.

(٢) قلت: الكذب بلغة أهل الحجاز هو ما خالف الحقيقة، سواء كان عن قصد أو عن غير قصد، فيدخل فيه الخطأ، وهو المقصود بكلمة ابن عباس ﷺ هنا (ن).

فقيل له: احمل حوتاً في مِكتَلٍ، فحيثُ تفقد الحوتَ فهو ثمٌّ.

فانطلق، وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون، فحمل موسى ﷺ حوتاً في مِكتَلٍ، وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة فرقد موسى ﷺ وفتاه، فاضطرب الحوت في المِكتَلِ، حتى خرج من المِكتَلِ، فسقط في البحر، وأمسك الله عنه جريئة الماء حتى كان مثل الطاق (فتحة في الماء)، فكان للحوتِ سرِّباً، وكان لموسى وفتاه عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليتئهما، ونسي صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح موسى ﷺ قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً.

قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذي أمر به.

قال: أرايت إذ أويئنا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً.

قال موسى: ذلك ما كنا نبغي.

فارتدا على آثارهما قصصاً، يقصان آثارهما، حتى أتيا الصخرة، فرأى رجلاً مسجياً (مغطى) عليه بثوب، فسلم عليه موسى، فقال له الخضر: أنى بأرضك السلام؟

قال: أنا موسى.

قال: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم.

قال: إنك على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمني لا تعلمه.

قال له موسى ﷺ: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً؟

قال: إنك لئن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟

قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً.

قال له الخضر: فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً.



قال: نعم.

فانطلقَ الْخَضِرُ وموسى يمشيانِ على ساحلِ الْبَحْرِ، فمرَّتْ بهما سفينةٌ، فكَلَّمَاهُم أن يحملوهما، فعرفوا الْخَضِرَ، فحملوهما بغيرِ نَوْلٍ (أجرٍ)، فعمدَ الْخَضِرُ إلى لوحٍ من ألواحِ السفينةِ فنزَعَهُ، فقال له موسى: قومْ حملونا بغيرِ نَوْلٍ؛ عمدت إلى سفيتهم فخرقتها لتُفَرِّقَ أهلها، لقد جئت شيئاً إمرأً.

قال: ألم أقل: إنك لن تستطيعَ معي صَبْرًا؟.

قال: لا تؤاخذني بما نسيْتُ ولا ترهقني من أمري عُسرًا.

ثم خرجا من السفينةِ، فبينما هما يمشيانِ على الساحلِ إذا غلامٌ يلعبُ مع الغلمانِ، فأخذَ الْخَضِرُ برأسِهِ فاقتلَعَهُ بيده فقتلَهُ.

فقال موسى: أقتلتَ نفساً زاكيةً بغيرِ نفسٍ؟! لقد جئت شيئاً نكراً.

قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيعَ معي صَبْرًا؟.

قال: وهذِهِ أَشدُّ مِنِ الْأولى.

قال: إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحِبْني، قد بلغتَ مِنِ لَدُنِّي عُذْرًا.

فانطلقا، حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استطعما أهلها، فأبوا أن يُضَيِّقُوهُمَا، فوجدا فيها جداراً يريدُ أن ينقضَّ فأقامه، يقولُ: مائلٌ، قال الْخَضِرُ بيده هكذا فأقامه (أي: أشار بيده فأقامه).

قال له موسى: قومْ أتيناهم فلم يضيفونا، ولم يطعمونا، لو شئت لاتَّخذتَ عليه أجراً.

قال: هذا فراقُ بيني وبينك، سأنبئك بتأويلِ ما لم تستطعَ عليه صبراً.

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «يرحمُ اللهُ موسى، لودِدْتُ أَنَّهُ كانَ صَبْرَ حَتَّى يَقصَّ عَلِينَا مِنِ أَخْبَارِهِمَا».

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «كانتِ الْأولى من موسى نسياناً، قال: وجاء عُصفورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السفينةِ، ثم نقرَ في الْبَحْرِ، فقال له الْخَضِرُ: ما نقصَ

علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر» [رواه البخاري (٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له].

• رحلة العجائب، مجمع البحرين:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آْبْرَحَ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ واذكر إذ قال موسى بن عمران ﷺ كما مر معنا في الحديث الشريف.

﴿لِفَتْنِهِ﴾ لتابعه الذي كان يتبعه، وهو يوشع بن نون، كما مر معنا أيضاً في الحديث الشريف.

وقوله تعالى: ﴿لِفَتْنِهِ﴾ يدل على تكريم الإسلام للإنسان، ولو كان خادماً أو عبداً، فينبغي أن يُنادى بالفاظ فيها معنى التكريم والاحترام، قال رسول الله ﷺ: «لا يقولنَّ أحدكم: عبدي وأمّتي، كُلُّكُمْ عبيدُ الله، وكُلُّ نَسَائِكُمْ إِمَاءُ الله، ولكن ليقلُّ: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي» [رواه مسلم (٢٢٤٩)].

﴿لَا آْبْرَحُ﴾ لا أزال أسير.

﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ حتى أصل إلى مكان مجمع البحرين.

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً.

ويبدو أنهما لم يسيرا زماناً طويلاً، سارا بعض يوم فوصلا إلى مجمع البحرين، إلا أنهما لم يعرفا أنّ المكان الذي وصلا إليه، وجلسا فيه يستريحان، هو مجمع البحرين.

ولا بدّ أن يكون هذا المكان قريباً من المنطقة التي كان يقيم فيها موسى ﷺ، والمنطقة هذه إمّا أن تكون في مصر أو في صحراء سيناء، وأقرب مكان يقع بين مصر وسيناء يلتقي فيه بحران، مكان في طرف البحر الأحمر من جهة الشمال، حيث يلتقي بحر العقبة وبحر السويس، الشعبان المتفرعان عن البحر الأحمر، والله سبحانه أعلم.

## ● الحوت العجيب:

جعل الله تعالى لموسى علامةً يعرفُ بها المكانَ المطلوب، هي فقده للحوت، وهو السمكة المشوية التي كانا يحملانها لتكونَ طعاماً لهما، ولما وصلا إلى مجمع البحرين، وجلسا إلى صخرة هناك ليستريجا، غلبَ عليهما النومُ والتعبُ فناما:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ .

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى ﷺ تفقد الحوت، ونسي فتاه أن يخبره بفقده، إذ ردَّ الله تعالى بقدرته الحياةَ إلى الحوتِ الميتِ، فاضطربَ في المكتل، ثم قفز إلى البحر:

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ .

وانتبه الفتى إلى فقْدِ الحوت، ورآه وهو يقفزُ إلى البحر، ويشقُّ طريقه داخلَ الماءِ، ورأى أيضاً كيف أمسك الله تعالى جريّةَ الماءِ عن طريق الحوت حتى أصبحَ مثل النفق داخلَ الماءِ، ومع كل هذه الخوارق للعادات أنسي أن يذكرَ شيئاً من ذلك لموسى ﷺ .

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءٌ نَأْكُلُ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ واستأنفا سيرهما بقية اليوم واللييلة - كما مرَّ في الحديث الشريف - حتى شعرا بالتعب والجوع .

﴿قَالَ﴾ موسى .

﴿لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءٌ نَأْكُلُ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: تعباً ومشقة .

عندئذٍ تذكَّرَ الفتى أمرَ الحوتِ العجيب:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ أي : نسيت أن أذكر لك شأن الحوتِ العجيبِ .

فمع أنه أمرٌ لا يُنسى ، فقد قدر الله تعالى له أن ينسى تنبيهاً على أن العلم لا يحصلُ إلا بتعليمِ الله تعالى وحفظه في قلب الإنسان وذاكرته ، فالتذكُّر والنسيان لا يخضعان لإرادة الإنسان ، فما أكثر ما ينسى الإنسانُ أموراً هامة في حياته ، يتمنى أن يذكرها ولا ينساها ، وعلى العكس ما أكثر ما يتذكَّرُ أموراً لا يريدُ تذكرها ، بل يتمنى أن يطردها من ذاكرته وينساها ، إن في الإنسان أسراراً لا تزال غيباً عنه .

وردَّ الفتى سبب النسيان إلى الشيطان أدباً مع الله سبحانه :

﴿وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ واتخذ الحوت طريقه في البحر اتخاذاً عجيباً ، إذ أصبح طريقه في الماء مثل الطاقة والنفق .

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ الذي كنا نطلب .

﴿فَأَرْتَدَّا﴾ رجعا .

﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يتبعان آثار أقدمهما حتى وصلا إلى الصخرة .

#### • العبد الصالح:

وتمَّ اللقاء بين موسى ﷺ والعبد الصالح (الخضر) ، ومرَّ معنا في الحديث الشريف كيف تمَّ اللقاء ، وحال الرجل الصالح عند وصول موسى إليه .

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿٦٥﴾ .

وقد وصفت الآية الكريمة هذا الرجل بثلاث صفات:

أولها: أنه عبدٌ من عباد الله الصالحين: وصفه الله تعالى بصفة العبودية، وأضافه إلى ذاته المقدسة بهذه الصفة أيضاً:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ وهذا تكريم كبير لهذا الرجل، وتشريف عظيم، فقد عودنا الله تعالى في كتابه الكريم أنه إذا أراد تكريم عبدٍ نسبه إلى ذاته المقدسة بصفة العبودية، انظر كيف كرم رسولهُ ﷺ بقوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَنَ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَى الْأَجْمَعَانُ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿سَبَّحْنَهُ الَّذِي آتَىٰ رَبِّيَ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وتأمل كيف كرم الصالحين بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

هذا الرجل الصالح عبدٌ من عباد الرحمن، واسمه الخَضِرُ - كما مرَّ معنا في الحديث الشريف - وقد سُمي بهذا الاسم لأنه جلس على أرضٍ مجدبة لا نبات فيها، فأنبتت واخضرتْ بقدرة الله سبحانه، تكريماً لهذا الرجل الصالح.

ففي «صحيح البخاري» [٣٤٠٢] و«سنن الترمذي» [٣١٥١]: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فُرُوقٍ بِيضَاءَ فَاخْضُرَّتْ تَحْتَهُ».

تحيا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا كَأَنَّكُمْ فِي بِلَادِ اللَّهِ أَمْطَارُ ثَانِيهَا: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ هذه هي الصفة الثانية التي وصف الله سبحانه بها هذا الرجل الصالح.

وذهب جمهور العلماء إلى أن المراد من الرحمة؛ الوحي والنبوة، فالرجلُ في رأي جمهور العلماء: نبيٌّ، وقد تكرر في القرآن الكريم إطلاق الرحمة على

النبوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٦٥﴾ أَهْرَ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٦٥﴾؟! [الزخرف].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٦٦﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٦٧﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦٨﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٩﴾ [الدخان].  
وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ [القصص: ٨٦].

ثالثها: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذه الصفة الثالثة لهذا الرجل الصالح، وهذه الصفة تؤكد نبوته؛ لأن الله تعالى علمه مباشرة من دون تعليم معلّم، ولا إرشاد مرشد.

فمعنى قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا، ويدل تقديم ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ على ﴿عِلْمًا﴾ على اختصاص الله سبحانه بهذا العلم، كأنه سبحانه قال: عَلَّمْنَاهُ عِلْمًا يختص بنا، وهو علم الغيوب والأسرار الخفية لا يعلمها إلا الله تعالى، وفي استعمال كلمة ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ بدل ﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾ إشارة إلى تعظيم شأن هذا العلم<sup>(١)</sup>.

#### ● موسى أفضل من الخضر:

وسواءً كان هذا الرجل الصالح نبياً أم ولياً، فموسى ﷺ أفضل منه، لأنه نبيٌّ ورسولٌ، أنزل الله تعالى عليه التوراة، وأسمعه جلّ وعلا كلامه: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٥٤﴾ [الأعراف].

وموسى ﷺ من أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم الله بقوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ [الأحزاب: ٧].

وله عند الله سبحانه وجاهة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩].

(١) انظر: روح المعاني.

ولا يدل ذهاب موسى إلى الخضر ليتعلم منه على أنَّ الخضرَ أفضل من موسى، فقد كان موسى ﷺ يَعْلَمُ علوماً لا يعلمها الخضر - كما مرَّ معنا في الحديث الشريف عندما قال الخضرُ لموسى: «إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكِهِ اللَّهُ، لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ، لَا تَعْلَمُهُ» والخصوصية لا تقتضي الأفضلية كما هو مقرر عند العلماء، وهذا يقطع الطريق على القائلين بأنَّ الخضرَ أفضل من موسى.

قال ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقع لبعض الجهلة أنَّ الخضرَ أفضل من موسى، تمسكاً بهذه القصة، وهذا يتصور ممَّن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر فيما حَصَّ اللهُ به موسى ﷺ من الرسالةِ وسماعِ كلامِ الله، وإعطائه التوراة، وأنَّ أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوته، حتى عيسى... والخضرُ وإن كان نبياً، فليس برسول باتفاق، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم، وإن قلنا: إنَّ الخضرَ ليس بنبي بل ولي، فالنبيُّ أفضل من الولي، وهذا أمرٌ مقطوعٌ به عقلاً ونقلاً، والصائرُ إلى خلافه كافرٌ، لأنَّه أمرٌ معلوم من الشرع بالضرورة»<sup>(١)</sup>.

ورحلة موسى ﷺ إلى الخضر في طلب العلم، دليلٌ على فضله وسعة علمه، فكلمًا ازداد الإنسان علماً ازداد تعظيماً للعلم وحرصاً عليه، فالفضلُ في هذه الرحلة لموسى ﷺ على الخضر، ورحم الله القائل:

إِنْ زَارَنِي فَبِفَضْلِهِ  
أَوْ زُرْتُهُ فَلِفَضْلِهِ  
فَالْفَضْلُ فِي الْحَالِينِ لَهُ

• أَدَبٌ وَلَطْفٌ:

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٦٦﴾

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ قال موسى ﷺ للرجل الصالح:

(١) انظر: فتح الباري.

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ وهذا أدبٌ ولطفٌ من نبي الله موسى ﷺ، سنَّ به سنناً عاليةً ورفيعةً لطلاب العلم، منها:

١ - جعل نفسه تبعاً للخضر، رغم تفضيله عليه، كما سبق ذكره، فقال له: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ فعلى طالب العلم أن يتواضع لمعلمه، وأن يتابعه، ليستفيد من علمه، وتقضي المتابعة من طالب العلم التسليم لمعلمه، وترك منازعته، والاعتراض عليه.

٢ - وقوله: ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ﴾ أي: من بعض ما علمك الله سبحانه، مما يدل على شدة تواضع موسى ﷺ، والتواضع من صفات الكمال، ألا ترى كيف أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ أن يتواضع للمؤمنين، وهو لا شك أفضل منهم: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وهذا التواضع المأمور به رسول الله ﷺ لعامة المؤمنين لا بد أن يكون لأهل العلم أكثر وأعظم، لأن الله سبحانه رفع أهل العلم بما خصَّهم من الفضل درجات: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

٣ - وقوله ﴿رُشْدًا﴾ أي: علماً ذا رشد، ولا خير في علم لا إرشاد فيه ولا هداية، إن العلم الذي لا رشد فيه فتنةٌ لصاحبه كما سبق بيانه في فقرة (فتنة العلم)<sup>(١)</sup>؛ فعلى المعلم واجب الإرشاد والهداية مع التعليم، وموسى ﷺ ما طلب العلم للعلم، إنما طلبه ليزداد هدايةً ورشداً، وهذا يدل على كمال تواضعه وإخلاصه ﷺ.

وعرف الرجل الصالح المكانة العالية لموسى ﷺ، فقال له:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (١٧).

فالإنسان العالم يشق عليه أن يسكت إذا سمع أو رأى شيئاً يخالف علمه. ثم استدرك الرجل معترداً من موسى ومعللاً:

(١) انظر: ص ٧٧ - ٧٩، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.



﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ .

أي: كيف تصبرُ وأنت نبيٌّ ورسولٌ على أمور منكّرة في ظاهرها؟! .  
لكنَّ حُبَّ العلم حمل موسى ﷺ على أن يقول للخضر:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ .

فواجبُ المتعلِّم أن يطيعَ المعلم، ويتواضع له، وعلى المعلم أن يذكر للمتعلِّم كلَّ ما يفيدُ إرشاده للخير، ولهذا أوصى الخضرُ موسى:

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ .

أي: لا تسألني عن شيء تشاهده من أفعالي حتى أبتدئك ببيانه، وهكذا تمَّ الاتفاق، وبدأ الانطلاق.

#### • الجولة الأولى:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقَهَا لِنُغْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ .

﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي: موسى والخضر، وسارا على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فطلبوا من أصحابها أن يحملوهما، وعرف أصحاب السفينة الخضر، فحملوهما بغير أجر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضر فأساً وخرق به السفينة، ثم جعل في مكان الخرق وتدّاً لمنع دخول الماء على السفينة.

﴿قَالَ﴾ موسى .

﴿أَخْرَقَهَا لِنُغْرَقَ أَهْلَهَا﴾؟! وهو استفهام للإنكار والاعتراض على فعل الخضر.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: أتيتَ أمراً عظيماً. أمر الأمر: إذا عظم.

ذَكَرَ الخضرُ عندئذٍ موسى بما قاله من قبل:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢).

ولا يخفى ما في هذا التذكير من إنكار على عدم صبر موسى .

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٣).

﴿قَالَ﴾ موسى معتذراً:

﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي: لا تحملني صعوبة ومشقة

في اتباعك وصحبتك .

وهكذا انتهت الجولة الأولى بعتابٍ من الخضر واعتذارٍ من موسى ﷺ .

#### • الجولة الثانية:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِنَفْسِكَ بِمَا كُنْتُمْ أَفْعَىٰ لَكُمْ لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ (٧٤).

﴿فَانْطَلَقَا﴾ يسيران على الساحل بعد أن تركا السفينة .

﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ لم يصل بعد إلى سن البلوغ، يلعب مع أمثاله من

الغلمان، فأخذه الخضر:

﴿فَقَتَلَهُ﴾، فقال موسى معترضاً على ما فعل:

﴿قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِنَفْسِكَ﴾ طاهرة من الذنوب .

﴿بِعَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير حق .

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ منكرًا جدًّا .

ولا شك أن اعتراض موسى هذا أشد من اعتراضه الأول؛ فقال الخضر:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥).

وبالمقابل فقد كان عتابُ الخضر لموسى على اعتراضه هذه المرة أشد من

سابقتها، فقد زاد هنا: ﴿لَكَ﴾ ليدلَّ على زيادة العتاب والإنكار، فزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦).

﴿قَالَ﴾ موسى .

﴿إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه المرة الثانية .

﴿فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد بلغت الغاية التي تعذر بسببها في فراقِي، وكلامُ موسى ﷺ يدلُّ على أنه استحيا من الخضر، فقال له هذا القول .  
وقد صحَّح أن نبينا ﷺ قال: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو صبرَ على صاحبه لرأى العَجَبَ، ولكن أخذتهُ مِنْ صاحبه ذمامةٌ» أي: حياءً .  
وانتهت الجولة الثانيةُ ببدء ظهور علامات الفراق .

#### ● الجولة الثالثة:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ. قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧).

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ حتى وصلا إلى قرية . وهي قرية كبيرة، ذكرت بعد ذلك بلفظ مدينة: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢] .

وكانا في حاجة ماسة إلى الطعام، إذ بلغ منهما الجوع كل مبلغ:

﴿اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا﴾ فطلبا الطعام من أهل هذه المدينة .

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وكان أهل هذه القرية على درجة كبيرة من البخل .

والعجيب أن موسى ﷺ لما وصل إلى مَدِينٍ بعد أن خرجَ من مصر فراراً، لم يطلب حينئذٍ الطعامَ من أهل مدينٍ مع شدة جوعِهِ، بل توجه بالدعاء إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] .

وقابل الخضر إساءةَ أهل القرية لهما بالإحسان والإصلاح:

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ﴾ فمسح الخَضِرُ بيده على الجدار، فعاد مستويًا قائمًا بقدرة الله تعالى كما سبق ومر معنا في الحديث الشريف: «قال الخضر بيده هكذا فأقامه» فمعنى قوله: «قال الخَضِرُ بيده» أشار الخضر بيده، وهو تعبيرٌ بالقول عن الفعل. عندئذ:

﴿قَالَ﴾ موسى .

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ .

ونعجبُ مرة ثانية من رغبة موسى أن يأخذ الخَضِرُ أجرًا على إقامة الجدار، إذا تذكرنا أن موسى ﷺ سقى لابنتي شعيب غنمهما، ولم يسألهما أجرًا رغم حاجته الشديدة إليه في ذلك الوقت: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص].

ولعلَّ الحامل الذي حمله على رغبته أن يأخذ الخضر أجرًا موقف اللؤم والبخل الذي رآه عند أهل هذه القرية .

قرر الخَضِرُ الفراق بعد هذا الاعتراض الثالث الذي صدر عن موسى بأسلوبٍ اقتراحٍ قَدِّمه، ورغبة أبقاها: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ .

● كشف الأسرار:

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أَوْيَلُّ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٧٨﴾ .

ولم يقل: بما لم تصبر عليه، بل قال: بما لم تستطع عليه صبرًا، أدباً مع موسى ﷺ .

ثم شرع في كشف الأسرار فقال:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ لأناس فقراء محاويج يعملون في البحر، لتحصيل رزقهم .

﴿فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا﴾ ؛ لأن في طريقهم ملكاً ظالماً :  
 ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحه غير معيبة :  
 ﴿غَصْبًا﴾ .

أسس الخضر عليه السلام بعمله هذا قاعدة نفيسة من قواعد الفقه، وهي: يُخْتَارُ أَخْفُ الضَّرَرِينَ لِدْفَعِ أَكْبَرِهِمَا، فيتحملُ الضَّرْرُ الأَدْنَى لِدْفَعِ الضَّرْرِ الأَعْلَى، فهو لم يخرق السفينة ليُغْرِقَ أهلها، إِنَّمَا خَرَقَهَا لِیَحْدِثَ ضَرراً صَغِيراً لِيُدْفَعَ بِهِ ضَرراً كَبِيراً، وهو أخذ الملك الظالم للسفينة غصباً .

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتله .

﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾ وللمؤمن كرامة عند الله تعالى .

﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فخشنا أن يكون هذا الولد سبباً لطغيان والديه بمجاوزتهما لحدود شرع الله، وكفرهما بالله، بأن يحملهما حُبُّ ولدهما على متابعتة ومطاوعته في معاصيه وكفره .

وسبق أن مرَّ معنا كيف أن الأولادَ فتنةٌ كبيرةٌ للآباء، وأن كثيراً من الآباء والأمهات يُفْتَنُونَ عن دينهم بسبب أولادهم .

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ .

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ﴾ أن يرزقهما الله بدله ولدًا خيراً منه ديناً، وأطهر قلباً وخلقاً .

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أكثر رحمة بوالديه وبراً بهما .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقامه .

﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مات أبوهما، وترك لهما مالا تحت هذا

الجدار .

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ وأراد الله سبحانه بسبب صلاح

أبيهما أن يحفظ لهذين اليتيمين كنزهما حتى يبلغا مبلغ الرجال، ولو سقط الجدار لأخذ أهل المدينة مال اليتيمين الضعيفين، وقد اشتهر أهل المدينة بشدة البخل واللؤم والطمع .

وهذا يدل على أن صلاح الآباء ينفع الله تعالى به الأبناء في الدنيا، كما

حدث لهذين اليتيمين، وفي الآخرة كما في قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] .

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ قوتهما .

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ من تحت الجدار .

﴿رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ وهذا من رحمة الله بهما وفضله عليهما .

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ وكل ما صدر مني ما فعلته عن رأيي واجتهادي، إنما

فعلته بأمر الله تعالى .

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وحذفت تاء (تستطع) للتخفيف، لأنها تكررت

فناسب تخفيفها آخر مرة، أو لمناسبة ما خفف عن موسى لما عرف حقيقة الحال<sup>(١)</sup> .

(١) انظر: روح المعاني .

## ● تعقيب:

إنَّ قصة موسى والخضر عليهما السلام ترسمُ لأهل العلم طريق السلامة من فتنة العلم: - فالعلمُ أولاً يجب أن يقربَ صاحبه من الله تعالى، فلا خيرَ في علم لا يذكرُ بالله عز وجل، ولا يدل عليه سبحانه.

- وعلى العالم مهما حصَّل من علومٍ ألا يغتر بعلمه، فما يُجهلُ من العلوم أكثر مما يُعلمُ، وعليه ألا ينقطع عن طلب العلم والازدياد منه، فإذا انقطع عن طلب العلم، وظنَّ أن عنده من العلم ما يُغنيه عن طلب المزيد، فهو جاهلٌ، والعلماء الحقيقيون يحصِّنون علمهم بطلب المزيد، وإلا نقص علمهم وضمحل، وانتهى بهم إلى الجهل.

ففي رحلة موسى عليه السلام إلى الخضر أسوةً طيبةً حسنةً لكل عالم، وفي قوله تعالى لنينا عليه السلام: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] درسٌ بليغ لكل عالم ومتعلِّم.

- وعلى العالم أن يسخر علمه لينفع به الناس، ويساعد به الضعفاء، ويحميهم من ظلم الطغاة والمستبدين، ويعمل على حفظ حقوق اليتامى حتى يبلغوا، ويشتد ساعدتهم، كما فعل الخضر عليه السلام، فقد سخر ما آتاه الله من علم لمساعدة المساكين، وحماية سفينتهم من الملك الظالم، وحماية الوالدَيْن المؤمنين من شرِّ ولدهما وعقوقه، وحفظ أموال اليتيمين وحمايتهم، فأين ما فعله الخضر عليه السلام مما تفعله الدول المتقدمة مع الشعوب الضعيفة الفقيرة في عصرنا الحاضر؟! إنهم يسخرون علمهم للتزوير والغش والاحتيال وامتصاص خيرات الأمم والشعوب الضعيفة.

## ● العمل بالإلهام غير جائز:

يدلُّ قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الكهف: ٨٢] على نبوة الخضر عليه السلام، فما فعله عندما حرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، كان بوحى من الله تعالى له وتشريع؛ وهو تشريعٌ خاصٌّ بالخضر، لا يجوزُ العمل به في

الشريعة الإسلامية إلا بدليل ظاهر منها، كما أنه غير جائز في شريعة موسى ﷺ بدليل معارضة موسى له .

وما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» عن عطاء أنه قال: كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس رضي الله عنه يسأله عن قتل الصبيان؟ فكتب إليه ابن عباس: إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم .

وقد قصد ابن عباس رضي الله عنه بهذا - كما قال السبكي رحمته الله - المحاجة، والإحالة على ما لا يمكن، ليقطع طمع نجدة الحروري الخارجي عن الاحتجاج بقصة الخضر، وليس مقصوده رضي الله عنه أنه إن حصل ذلك يجوز القتل <sup>(١)</sup> .

ونقل في «حاشية الشهاب» عن السبكي أيضاً قوله: ما فعله الخضر من قتل الغلام لكونه طبع كافرأ مخصوص به، لأنه أوحى إليه أن يعمل بحكم الباطن خلاف الظاهر، وإن علم من شرعنا أنه لا يجوز قتل صغير، لاسيما بين أبوين مؤمنين، ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه كما أطلع الخضر عليه السلام لم يجز ذلك <sup>(٢)</sup> .

هذا هو الحق الذي لا يُعدّل عنه إلى غيره، فالخضر عليه السلام نبي، وما فعله شرع خاص به، لا يجوز لغيره أن يقلده فيه .

وفي هذا رد على بعض الجهلة من المتصوفة الذين يقولون بجواز العمل بالكشف والإلهام، فلا يجوز العمل بكشف ولا إلهام إلا إذا وافق الكتاب والسنة، وحيث يكون العمل بمقتضى الكتاب والسنة، لا بمقتضى الإلهام والكشف .

وقد نبهت إلى هذا في كتاب «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» وذكرت فيه قول أبي الحسن الشاذلي رحمته الله: إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، فالله سبحانه ضمن العصمة للنبي، ولم يضمنها للولي .

ولقد أفاد العلامة الألوسي وأجاد في تفسيره «روح المعاني»، في الرد على القائلين بجواز العمل بالإلهام والاحتجاج به، ووصفهم بالشذوذ والإعثار، ثم

(١) انظر: روح المعاني .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين، المسمى بالفتوحات الإلهية .



أُتِنَبَ فِي ذِكْرٍ مَنْ مَنَعَ الْعَمَلَ بِالْإِلْهَامِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ، فَقَالَ: «وَمَنْ صَرَّحَ بِأَنَّ الْإِلْهَامَ لَيْسَ بِحُجَّةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْإِمَامِ الشُّعْرَانِيِّ، قَالَ: قَدْ زَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا، وَلَنَا فِي ذَلِكَ مُؤَلَّفٌ سَمِيئَةً «حَدُّ الْحَسَامِ فِي عُقْتِي مِنْ أَطْلَقَ يُجَابِ الْعَمَلُ بِالْإِلْهَامِ».

وَقَدْ صَرَّحَ الْإِمَامُ الرَّبَائِيُّ مَجْدُدُ الْأَلْفِ الثَّانِي الشَّيْخُ أَحْمَدُ السَّرْهَنْدِيُّ فِي كِتَابِ «الْمَكْتُوبَاتِ» فِي مَوَاضِعٍ عَدِيدَةٍ بِأَنَّ الْإِلْهَامَ لَا يُجَلِّ حَرَامًا، وَلَا يَحْرُمُ حَلَالًا. وَيَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا مَخَالَفَةَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَمِيعُ الْأَوْلِيَاءِ لَا يَسْتَمِدُّونَ إِلَّا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يَعْمَلُونَ إِلَّا بِظَاهِرِهِمَا.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الطَّرِيقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ إِلَّا عَلَى مَنْ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَالَ أَيْضًا: مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَا يُقْتَدَى بِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ، لِأَنَّ عَلْمَنَا مَقْيَدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ <sup>(١)</sup>.

وَطَرِقَ الْإِنْذَارَ مَحْصُورَةً بِالْوَحْيِ، وَقَدْ خَتَمَ الْوَحْيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَدِيثٍ مِنْ يَقُولُ: (حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي) مَرْدُودٌ عَلَيْهِ، إِذَا تَعَارَضَ مَعَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِذَا لَمْ يَعَارِضِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ؛ فَالْعَمَلُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا بِمَا حَدَّثَهُ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ الْعَلَمَةُ الشُّنْقِيطِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّ الْخَوَاصَّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَا حَاجَةَ بِهِمْ إِلَى أَخْذِ الْأَحْكَامِ مِنَ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَصَفَاءِ قُلُوبِهِمْ، وَنَقَاءِ نَفُوسِهِمْ، فَتَنْجَلِي لَهُمُ الْحَقَائِقُ الْإِلَهِيَّةُ فَيَعْمَلُونَ بِمَقْتَضَاهَا، هَذَا زَنْدَقَةٌ وَكُفْرٌ، لِأَنَّهُ هَدْمٌ لِأَحْكَامِ الدِّينِ» <sup>(٢)</sup>.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ أَجْرَى سُنَّتَهُ، وَأَنْفَذَ كَلِمَتَهُ، بِأَنَّ أَحْكَامَهُ لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِوَسْطَةِ رَسَلِهِ السَّفَرَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَقَدْ حَصَلَ الْعِلْمُ الْيَقِينُ

(١) انظر: روح المعاني؛ وكتاب: العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

(٢) انظر: أضواء البيان.

وإجماعُ السلف على ذلك، فمن ادعى أنَّ هناك طريقاً آخرَ يعرف بها أمره ونهيه، غير الطرق التي جاءت بها الرسل، يستغني بها عن الرسول، فهو كافر يُقتل ولا يُستتاب، وهي دعوى تستلزمُ إثباتَ نبوةٍ بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، فمن قال: إنَّه يأخذ عن قلبه، لأنَّ الذي يقعُ فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب وسنة، فقد أثبتَ لنفسه صفةَ النبوة، كما قال نبينا ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي» وبلغنا عن بعضهم أنَّه قال: لا آخذُ عن الموتى، وإنما آخذُ عن الحي الذي لا يموتُ، وكذا قال آخر: أنا آخذُ عن قلبي عن ربي، وكُلُّ ذلكُ كفرٌ باتفاق أهلِ الشرائع<sup>(١)</sup>.



(١) نقل هذا عن القرطبي في تفسيره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، وأيده.

## الْفَضْلِ السَّائِسِ قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَانَبْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَجَعَلْنَا سَببًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْبٍ حَمِئٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِمَّا أَنْ تَنْخَذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَا مِنْ ظَلَمٍ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَيْنَا رَبُّهُ فَبِعَذِّبِهِ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَا مِنْ ءَامِنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ كَوْمٍ أَمْ تَجْعَلُ لَهُمْ مِنَ دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

### • فتنة الحكم:

شهوة الحكم والتسلط كانت ولا تزال أعظم أسباب الفتن بين الناس، فقد جُبل الإنسان على حُبِّ التملك والتسلط، وتركزت في أعماق نفسه نزعة حب الشهرة والسمعة، وهذا جعل شهوة الحكم والتسلط في نفس الإنسان من أقوى الشهوات، وقد واجه النبي ﷺ أصحابه بهذه الحقيقة، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِضُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه البخاري (٧١٤٨)].

وإنَّ قارئَ التاريخ، والمتأمِّلَ لأحداث الصراعات البشرية قديماً وحديثاً ليجدُ أن أكثرها حدثٌ بسبب تلك النزعة الدفينة في أعماق النفس البشرية، نزعة التسلُّط والحكم، والشهرة والسمعة، فما أكثر الحروب التي نشبت بسبب هذه النزعة، وما أعظمّ البلايا والرزايا التي أصابت البشرية في مدى تاريخها الطويل بسبب شهوات الحكَّام المستبدِّين، عبيد الشهرة والسمعة وطلَّاب السلطة والحكم.

إنَّ فتنة الحكم والتسلُّط كبيرةٌ وخطيرةٌ، لأنها تستند إلى جذور عميقة وراسخة في أعماق النفس البشرية، والحكام الذين ابتلوا بها، وخرجوا منها سالمين قليلون، أكثرهم صرعتهم الفتنة، وغلبت عليه شهوة التسلُّط والشهرة، وبهرته الأضواء المسلَّطة عليه، فشُغِلَ بنفسه عن مسؤوليته وأمته، ألا ترى أنَّ الخلافة الراشدة بعد رسول الله ﷺ ثلاثون سنةً فقط من عمر الإسلام الطويل الممتد من زمن رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، قال رسول الله ﷺ: «الخلافةُ بعدي في أمّتي ثلاثون، ثم مُلِّكٌ بعدَ ذلك» [رواه أحمد (٢٢٠/٥) والترمذي (٢٢٢٦)].

ولا يعني هذا أن جميع حكام المسلمين بعد الخلفاء الراشدين لا خيرَ فيهم ولا صلاح، فقد كان فيهم حكام صالحون، أجرى الله على أيديهم خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين، لكنهم لم يصلوا إلى القمة السامقة التي تبوأها الخلفاء الراشدون ﷺ.

لقد كان ذو القرنين مثلاً طيباً للحاكم الصالح، الذي لم يُفتنَ بالحكم والسلطان، فلم ينشغل بما آتاه الله تعالى من قوة الملك وأبهة الحكم والتمكين في الأرض، عن أمته التي حكمها، ورسالته التي حملها، إنَّه الحاكم الذي سخَّرَ حكمه وسلطانه لنشر دين الله وعبادته في الأرض وعمارته بطاعة الله تعالى، ودَرءِ خطر المفسدين عنها بكل وسائل التمكين التي آتاه الله سبحانه إياها.

وهذا جعلَ بعض المفسرين يصفون ذا القرنين بصفة النبوة، لكنَّ جمهور المفسِّرين على أنَّه كان حاكماً صالحاً، سخَّرَ الله تعالى له كثيراً من الأسباب،

ويسر له سُبُل التنقل في الأرض والنظر في أحوال العباد، فاستثمر ذلك للدعوة والإرشاد وعمارة الأرض، ودفع أهل الشر والفساد.

تُرى مَنْ يكون ذو القرنين؟ وما هويته؟ وما جنسه؟ وما عصره؟.

أسئلة كثيرة ثارت حول شخصية ذي القرنين، لم يستطع الدارسون لتاريخ الأمم والمتخصصون في أخبار التاريخ أن يجدوا لها جواباً شافياً كافياً، وما خرجوا إلا بأخبار متعارضة وأقوال متناقضة لا تروي غليلاً ولا تشفي عليلًا.

### • ذو القرنين ليس ملكاً من ملوك الفرس:

ذهب بعض الباحثين إلى أن ذا القرنين أحد ملوك الفرس القدماء، وقد تحمّس لهذا الرأي عالمان هنديان معاصران، هما: شبلي النعماني، وأبو الكلام آزاد، إلا أنّهما اختلفا في تحديد اسمه، فذهب شبلي النعماني إلى أنه دارا الكبير ملك الفرس، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، أما أبو الكلام آزاد فقد رجّح أن يكون ذو القرنين هو كورش ملك الفرس في القرن السادس قبل الميلاد، وهو الذي قوّض مملكة بابل، وأذن لليهود المسيبين فيها بالعودة إلى فلسطين.

لكن المدوّن عن ملوك الفرس أنّهم كانوا يدينون بالديانة المجوسية، التي تقوم على عقيدة المثنوية، والتي تقول بوجود إلهين: إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة، كما تقوم على عبادة النار وتقديسها.

ولهذا حاول هذان الدارسان للدفاع عن رأيهما إثبات أن الزراداشتية<sup>(١)</sup> التي

(١) نسبة إلى زردشت، وهي أصل المجوسية، زعم بعضهم: أنه نبي. وزعموا أنه كان يقول: النور والظلمة أصلان متضادان هما مبدأ موجودات العالم، وأن مبدعهما واحد لا شريك له، وهما يتغالبان حتى يغلب النور الظلمة. لكنّ التعارض بين ما نسب إليه من أقوال وعده من الأنبياء ﷺ واضح ظاهر.

قلت: يستأنس لنبوته بقوله ﷺ في المجوس: «سُنّوا فيهم سنة أهل الكتاب...» الحديث. والله أعلم. انظر: زردشت الحكيم، للأستاذ حامد عبد القادر.

كان يدينُ بها كل من الملكين تقول بوحدة الإله، وتأمراً بالخير، وتدين بالآخرة، كما استندا فيما توصّلا إليه إلى ما ورد في سفر نبوءة دانيال من أسفار العهد القديم<sup>(١)</sup>.

لكن آيات القرآن الكريم التي تحدّثت عن ذي القرنين صرّحت بأن مُلك ذي القرنين امتدَّ إلى أقصى حدود المغرب، قال تعالى: ﴿فَأَنْبَغُ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرَبَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف] أي: منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يمكن لأحد مجاوزته. ووقف كما هو الظاهر على حافة البحر المحيط الغربي الأطلسي؛ وفيه الجزائر المسماة بالخالدات<sup>(٢)</sup>.

بينما لم يتجاوز سلطان ملوك الفرس من جهة الغرب حدود قارة آسية إلى إفريقية أو أوربة.

وسياتي معنا أنه لا يوجد في التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر أي ذكر صريح لذي قرنين، فيها فقط كلمات غامضة تشير إلى الإسكندر ملك اليونان، دون تصريح بأنه ذو القرنين.

#### • ذو القرنين ليس الإسكندر المقدوني اليوناني:

وذهب كثير من المؤرخين والمفسرين إلى أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني اليوناني المتوفى سنة (٣٢٣ ق.م)، وليس لهم دليل على صحة قولهم هذا سوى شهرة الإسكندر عند المؤرخين، وما عرف عنه من قوة سلطانه، وامتداد ملكه، وكثرة الممالك والأمم التي دانت له وخضعت لحكمه.

والمشهور من شأنه أنه كان متصفاً بصفات خبيثة، تتنافى مع الصفات الطيبة الكريمة التي وُصف بها ذو القرنين في القرآن الكريم، فقد كان الإسكندر تلميذاً للفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو، الذي كان يقول بقدم العالم، كما اشتهر الإسكندر بأنه كان وثنيّاً، محبّاً للشهوات، مسرفاً في الملذات وسفك الدماء.

(١) انظر: التفسير الحديث، لدروزة.

(٢) روح المعاني.

ومهما حاول أصحابُ هذا الرأي، أن يدفعوا عن الإسكندر هذه الصفات، فلن يستطيعوا بسبب ذبوعها وشهرتها عند كثير من المؤرخين .

وقد اعترفَ فريد وجدي في ما كتبه عن الإسكندر في «دائرة معارفه» بثبوت هذه الصفات للإسكندر، وذكر أنَّ الإسكندر فسد قلبه في آخر حياته، حتى دعا إلى عبادته، والسجود أمامه، وأنَّه كان يعبدُ كُلَّ إله مزعوم يصادفه، ويقرب له القرابين والضحايا<sup>(١)</sup>.

وحاول فريد وجدي أن يوفقَ بين هذه الصفات المذمومة التي كانت للإسكندر وبين الصفات الطيبة التي وصف بها القرآن الكريم ذا القرنين، لأنَّ فريد وجدي من القائلين بأن الإسكندر هو ذو القرنين، فابتعد بهذه المحاولة عن الحقيقة، وتنگب الجادة، عندما زعم أن ما في القرآن الكريم عن ذي القرنين لا يدلُّ على صلاحه وإيمانه، وزعم أن قول ذي القرنين: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨] كما حكاها القرآن الكريم عنه، لا يدل على إيمانٍ معيَّن بدين من الأديان، بل المراد من آمن وعمل صالحاً على الإجمال<sup>(٢)</sup>.

وإن الإنسان ليقضي عجباً من هذا الذي ذهبَ إليه فريد وجدي غفر الله له، كيف غاب عن عقله أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ إذا ذكرا في القرآن الكريم انصرفا إلى الإيمان بالله سبحانه الذي أنزل القرآن الكريم لهداية الناس إليه، والإيمان به ﷻ، وأنَّ العملَ الصالحَ المقرون مع الإيمان هو العمل المطابق لمقتضى الإيمان بالله تعالى، ولو كان ذو القرنين في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لا يقصد الإيمان بالله تعالى، ولا العمل الصالح الذي يرضى الله عنه، فلماذا ذكره القرآن الكريم حكايةً عن ذي القرنين في سياق إقراره عليه؟! .

إنَّ مما يؤكد إيمان ذي القرنين بالله تعالى وحده الإيمان الصحيح قوله قبل ذلك: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]؛ ففيه

(١) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، مادة (أسك).

(٢) المرجع السابق نفسه.

دلالة قاطعة صريحة على أنّ الرجل كان مؤمناً بالله تعالى وباليوم الآخر أيضاً، وبما في هذا اليوم من ثواب وعقاب.

إن ما جاء في آيات سورة الكهف عن ذي القرنين يتنافى مع ما اشتهر به الإسكندر المقدوني من طغيان وظلم وكفر، وامتداد ملك الإسكندر وقوة سلطانه لا يدلان على أنه ذو القرنين الحاكم الصالح المؤمن بالله سبحانه، والداعية إلى عبادة الله تعالى، والذي سخر كل ملكه وسلطانه لنشر عبادة الله تعالى في الأرض، ودرء فساد المفسدين.

ولا يبعد في العقل أن يكون في رجال العصور القديمة رجلٌ بلغ ملكه قرني الدنيا دون أن يكون له ذكر في التاريخ، ثمة عصور قديمة لم يتمكن المؤرخون من استطلاع أخبارها؛ والوقوف على أحوال الإنسان فيها، ولا زالت هذه العصور تسمى في مصطلحات المؤرخين عصوراً ما قبل التاريخ، أي: ما قبل التاريخ المعروف، وعدم تمكن المؤرخين من معرفتها لا يعني عدم حدوثها، فما يجهله الإنسان أكثر بكثير مما يعلمه.

وصدق الله تعالى القائل: ﴿الَّذِينَ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحُوا وَعَادُوا وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

فتاريخ الوجود البشري على هذه الأرض عميق، وشجرته ممتدة الجذور كثيراً في أعماق الزمن، وثمة أمم وقرون كثيرة عاشت على هذه الأرض وماتت وأرسل الله تعالى لها رسلاً، ولا نعلم عنها شيئاً، ولم يستطع المؤرخون والباحثون عن أخبار الماضين أن يقفوا لها على أثر أو يجدوا لها خبراً: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مریم: ٩٨].

#### • هل ذو القرنين أحد ملوك اليمن الأولين؟

لليمن حضارة قديمة وعريقة، ظهرت فيه المجتمعات البشرية قبل ظهورها في كثير من بقاع الأرض، وخرجت منه كثير من الشعوب والقبائل التي استوطنت بلاد الرافدين وشواطئ البحر الأبيض المتوسط وضياف نهر النيل،



فقد كان مخزناً للأمم والشعوب، وقامت على أرضه حضارات قديمة لا زالت بعض آثارها قائمة فيه .

وقد ذهب بعض المؤرخين والمفسرين إلى أن ذي القرنين أحد ملوك اليمن الحِمَيْرِيِّين القدماء، وأنه كان معاصراً لنبي الله إبراهيم عليه السلام، وأنه اجتمع به في مكة المكرمة ودعا له إبراهيم عليه السلام .

ولعلَّ هذا القول أقرب إلى الحقيقة، لأن الأذواء كانوا من اليمن كذي منار، وذي نواس، وذي رعين، وذي يزن، وذي جدن .

ويذكر المفسرون أن ذا القرنين هو الذي افتخر به بعد ذلك تُبَّع اليماني عندما قال :

قَدْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِمًا      مَلِكًا عَلَا فِي الْأَرْضِ غَيْرَ مُفْنَدٍ  
 بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي      أَسْبَابَ مُلْكٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدٍ  
 فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا      فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَثَأطٍ حَرَمَدٍ<sup>(١)</sup>  
 وَتُبَّعَ الَّذِي نُسِبَ إِلَيْهِ هَذَا الشَّعْرُ، هُوَ تُبَّعُ الْأَوْسَطُ، وَاسْمُهُ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبِ  
 الْيَمَانِيِّ، وَهُوَ مَشْهُورٌ وَمَعْرُوفٌ عِنْدَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ، فَقَدْ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ  
 الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾  
 [الدخان: ٣٧].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيسِ وَتَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ  
 وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَّعُ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق].

وكان تُبَّعُ هذا مؤمناً، ولهذا ذمَّ الله سبحانه قومه ولم يذمه، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: أنه نهى عن سبِّه، روى ابن أبي حاتم: من طريق سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تسبُّوا تُبَّعاً، فإنه قد كان أسلم» [رواه أحمد (٣٤٠/٥) والطبراني (٦٠١٣)].

(١) الخلب: الطين. والثأط: الحمأة. والحرمد: الأسود.

ولعلَّ اليهود عرفوا شأن ذي القرنين بواسطة تُبَّع، فقد ذكر المؤرخون أنَّ تُبَّعاً هذا خرج من اليمن، واستولى على كثير من البلاد، وأنه مرَّ بالمدينة المنورة، واستصحَبَ من يهود المدينة حَبْرين كانا قد نصحاها وأخبراه أنه لا سبيلَ له على هذه البلدة، فإنَّها مُهاجِرُ نبيِّ يكون في آخر الزمان، وأنَّه طاف بالكعبة وعظَّمها وكساها المِلاءَ والوصائل والحِبر، ولمَّا رجعَ إلى اليمن دعا أهلها إلى التهوُّد على دين موسى ﷺ، فاستجابوا له، ولكنَّهم بعد موته عادوا إلى الوثنية التي كانوا عليها، ولهذا ذمهم الله تعالى في القرآن الكريم ولم يذمه (١).

فدو القرنين من ملوك حِمير القدماء، وزمانه متقدِّمٌ على زمن تُبَّع أسعد أبو كريب الحِميري بكثير، فقد عاش تُبَّع بعدَ عصر موسى ﷺ، بينما عاش ذو القرنين في عصر إبراهيم ﷺ، وذكر المفسِّرون أنه اجتمع معه في مكة، وأنَّ إبراهيم ﷺ دعا له، وأوصاه ببعض الوصايا، ولعلَّ الله سبحانه قد سخر ما سخر له من الأسباب ببركة دعاء الخليل له عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (٢)، والله ﷻ أعلم.

#### • السائلون عن ذي القرنين:

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

كان السؤال عن ذي القرنين لرسول الله ﷺ سؤالَ امتحانٍ واختبارٍ، كما مرَّ معنا في سبب نزول سورة الكهف، والسائلون هم كفار قريش بتلقين من يهود المدينة، فلا بدَّ أن يكونَ لدى السائلين بعض المعرفة عن ذي القرنين، إذ لا يعقلُ أن يسألوا النبيَّ ﷺ سؤالَ الامتحان والاختبار ولا علم لهم بالمسؤول عنه.

وسبقَ أن ذكرْتُ أنَّ اليهود يمكن أن يكونوا قد علموا بشأن ذي القرنين من طريق علاقتهم بأحد تبابعة اليمن، الذي تأثر ببعض أبحارهم، واعتنق اليهودية،

(١) انظر: تفسير ابن كثير لسورة الدخان.

(٢) انظر: روح المعاني.

وعمل على نشرها في ربوع اليمن، ويمكن أيضاً أن يكون ذو القرنين قد ذُكر في التوراة التي كانت بين أيديهم في ذلك العصر، أما التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر، فلا يوجد فيها أي ذكر لذي القرنين، فيها فقط كلمات غامضة تشير إلى الإسكندر ملك اليونان، دون أن تصرح بأنه ذو القرنين، ففي سفر دانيال أن ملك اليونان هو التيس العافي والقرن العظيم الذي بين عينيه، وهو الملك الأول؛ أي: (الإسكندر)<sup>(١)</sup>.

ولا ثقة بأخبار التوراة بسبب ما طرأ عليها من تغيير وتبديل خلال التاريخ الطويل الذي مرَّ عليها، فلم يهيئ لها الله سبحانه ما هياً للقرآن الكريم من أسباب الحفظ، أكد هذه الحقيقة كثيرٌ من الدارسين لأخبار التوراة، ومنهم الباحث الفرنسي موريس بوكاي بعد أن قام بدراسة موضوعية لكلِّ من القرآن الكريم والتوراة والإنجيل في ضوء المعارف الحديثة، وحرر نتيجة دراسته تلك في كتابه المشهور «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» وقال في خاتمة الكتاب: «لا يجوز النظر إلى كتب التوراة بزخرفها بدعيّاً بمميزات نريد أن تتميز بها، وإنما بأن ندرس موضوعياً ما هي عليه، وذلك لا يتضمن معرفة بالنصوص، بل يتضمّن أيضاً معرفة بتاريخ النصوص، إنَّ معرفة تاريخ النصوص تسمح في الواقع بتكوين فكرة عن الظروف التي قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون، وإلى التكوين البطيء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة».

#### • التمكين والأسباب:

ولنعد بعد هذه الجولة مع المؤرِّخين والمنقِّبين عن آثار الغابرين إلى رحاب الآيات الكريمة في سورة الكهف، لنرى من خلالها الصورة الكريمة الوضيئة لذي القرنين، الحاكم الصالح الذي ابتلاه الله بالحكم والسلطان، فما فُتنَ به ولا تكبَّر ولا تجبَّر، بل تواضع لله تعالى وشكر.

(١) انظر: دائرة المعارف، لبطرس البستاني: ٤١٢/٨، دار المعرفة.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤)

أنعم الله تعالى على ذي القرنين بنعمتين كبيرتين :  
أولهما : التمكين في الأرض ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : جعلنا له قدرة  
ومكنة على التصرف في الأرض، فله أن يتصرف فيها كما يشاء .

ثانيهما : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي : أعطيناها كُلَّ ما يتوصل به إلى  
المقصود من علم وقدرة وآلة .

ويبدو أنَّ الأسباب التي منَّ الله تعالى بها على ذي القرنين، لم تكن أسباباً  
عادية مألوفة للناس في عصره، فالإنجازات التي قام بها، والأعمال العظيمة  
التي نفذها تؤكد ذلك، فقد كانت أسباباً خارقة لنواميس البشر وقدراتهم في ذلك  
العصر، فهي من قبيل الكرامات، أكرمه الله تعالى بها، ولهذا جاء الإخبار عنها  
بصيغة التعظيم، تعظيم المنعم وتعظيم النعمة :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤)

● رحلات ذي القرنين:

واستثمر ذو القرنين نعمة التمكين في الأرض، واستعان بالأسباب التي آتاه  
الله إياها، فقام بثلاث رحلات في الأرض، رحلات كبيرة وبعيدة، تدل على أنَّ  
الأسباب التي أعطيها لم تكن أسباباً عادية .

● الرحلة الأولى: إلى مغرب الشمس:

اتجه ذو القرنين في رحلته الأولى إلى مغرب الشمس، وأراد أن يصل إلى  
نهاية الأرض المعروفة للناس في عصره من جهة الغرب، فسار مع جنوده  
مستعيناً بالأسباب التي سخرها الله تعالى له :

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا  
يٰۤذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعْدَبَ وَإِنَّمَا أَنْ نُنْخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (٨٦)

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ حتى وصل إلى منتهى الأرض من جهة

الغرب، ووقف على ساحل المحيط الأطلسي، وكان الناس يظنون أنه نهاية الأرض من جهة الغرب، ولا ندري أيّ طريقٍ سلك نحو الغرب، هل كان عن طريق أوربة أو عن طريق شمال إفريقيا، والأرجح أنه كان من جهة الشمال الإفريقي، لأنه أقرب إلى مواطن الحضارات القديمة في مصر واليمن وبلاد ما بين الرافدين.

ونظر ذو القرنين إلى الشمس، وهي تغيب وراء الأفق الغربي في البحر المحيط، وأشعتها الحمراء عند الغروب تنعكس على صفحة المياه الداكنة الزرقاء، فرآها كأنها تغيب في عين ماء حمئة، أي: ذات حمأة، وهو الطين والتراب، ولهذا جاء اللفظ القرآني متناسباً تماماً مع ما رأى ووجد:

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رآها تغرب في عين حمئة.

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ ووجد في تلك البلاد قوماً كافرين.

فخيّر الله ﷻ بين أن يقتلهم أو يمنّ عليهم:

﴿قُلْنَا يَا الَّذِينَ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، واستدلّ بهذه الآية القائلون بنبوة ذي القرنين، فظاهر الآية أنّ الله سبحانه خاطبه بواسطة الوحي، وقد يكون خطابُ الله له بواسطة نبيّ كان معه، كما كان الحال في بني إسرائيل، إذ كانت تسوسهم ملوكهم بما يوحي الله تعالى إلى أنبيائهم.

واختار ذو القرنين أن يمنّ عليهم أولاً، فيدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته، فمن رفض عذّبه بالقتل، ومن استجاب أكرمه وأحسن إليه:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنُ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنَّا مِنًّا سِرًّا ﴿٨٨﴾﴾.

وهكذا انتهت الرحلة الأولى بهذه الدعوة الكريمة إلى الله ﷻ.

#### • الرحلة الثانية: إلى مطلع الشمس:

ثم سار متوجهاً من مغرب الشمس إلى مشرقها، مستعيناً كما قدمنا بالأسباب التي يسرها الله تعالى له:

﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ۗ ۝٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۗ﴾

﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ۗ ۝٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أي: آخر الأرض المعروفة للناس في ذلك العصر من جهة الشرق، وهي البلاد الواقعة أقصى القارة الآسيوية من جهة الشرق، والمطلقة على المحيط الهادي، ولعلها بلاد الصين أو ما يجاورها من البلاد شمالاً وجنوباً، ووجد هناك أقواماً يعيشون حياة بدائية بعيدة عن مظاهر التمدن والتحضر، حتى إنهم ما كانوا يعرفون كيفية اتخاذ المساكن والبيوت، يأوون إلى أسراب وكهوف في الجبال وباطن الأرض، ويبدو أنهم كانوا أيضاً لا يعرفون اتخاذ الملابس، يعيشون عراة، لا يسترون أجسادهم بشيء، وقد وصفهم الله سبحانه فقال:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۗ﴾

ولا يُعْقَلُ أن يتركهم ذو القرنين على هذه الحالة البدائية التي تتنافى مع كرامة الإنسان، وهو الحاكم الصالح الذي سَخَّرَ حكمه وسلطانه لخدمة الأمم والشعوب التي استرعاها الله تعالى أمرها، ومدد سلطانه عليها، لا بد بعد أن يدعوهم إلى الإيمان بالله سبحانه وطاعته كما فعل في بلاد المغرب أن يرشدهم إلى اتخاذ الملابس، ويعلمهم كيفية بناء المساكن، مستفيداً مما آتاه الله من العلوم والآلات بما سَخَّرَ له من الأسباب، وقد سكت الآيات الكريمة عن بيان ذلك، اكتفاء بالإشارة إلى الأعمال الكبيرة العظيمة التي قام بها ذو القرنين، فليس في الآيات إحاطة بكل أخبار ذي القرنين، بل جاءت الآيات تذكراً جزءاً من أخباره وأعماله: ﴿وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] و(من) تبعيضية، أي: سأذكر لكم نبأ مذكوراً من أنبائه.

وقد آتاه الله سبحانه قدرات هائلة، وإمكانات كبيرة، استثمارها كلها في مساعدة الشعوب الضعيفة الفقيرة، ولهذا جاء التعليق على ما آتاه الله تعالى، وهو لا يزال في أقصى الشرق بين هذه الشعوب الضعيفة الفقيرة:

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ .

وهذا يفيد تعظيم ما أعطى الله سبحانه لذي القرنين، فهو وراء ما وُصف بكثير، ممّا لا يحيطُ به إلا علم اللطيفِ الخبير، ويشير إلى المساعدات الكبيرة التي قدمها لهذه الشعوب الفقيرة.

#### • الرحلة الثالثة: إلى ما بين السدين:

وبعد أن قدّم ذو القرنين لهذه الشعوب البدائية الفقيرة ما قدّم من مساعدات وإرشاداتٍ رحل عنها، وسلك طريقاً ثالثاً، ويبدو أنه طريقٌ معترض بين المشرق والمغرب، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ .

﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي: الجبلين، والسد: كما في «القاموس»: الجبلُ والحاجزُ، لأنه يسدُّ فجاً من الأرض.

والظاهرُ أنَّ المراد من السدّين في الآية الكريمة، سلسلتان كبيرتان من الجبال الشاهقة الارتفاع، وهاتان السلسلتان من الجبال تحجزان وراءهما صحارى شاسعة، مترامية الأطراف، يقطنُ فيها أقوامٌ بداءة قساة أشداء؛ يعيشون على الصيد والرعي، ويتنقلون في هذه الصحارى بحثاً عن أسباب الرزق لهم ولماشيتهم.

بينما تمتدُّ أمام هاتين السلسلتين الجبليتين من الجهة الثانية سهول زراعية ذات بيئة صالحة للزراعة وال عمران والاستقرار، ولا بدّ أن يكون سكان هذه السهول الزراعية أكثرَ تحضُّراً واستقراراً من جيرانهم البدو الرّحلّ سكان الصحراء، وكان هؤلاء البدو يندفعون من بين هذه الجبال إلى السهول الزراعية كلّما ضاقت بهم سُبلُ العيشِ بسبب جذب الصحراء، وقسوة المناخ، فيفتكون بأصحابها، وينشرون في هذه المناطق العمرانية والزراعية الخراب والدمار والفساد.

وعندما وصل إليهم ذو القرنين شكوا إليه ما يَلْقَوْنَ من هذه القبائل البدوية المتوحشة من فسادٍ وخرابٍ في بيوتهم وزروعهم ومحاصيلهم:

﴿قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ اِنَّ يٰجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْاَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلٰى اَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ .

﴿قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ اِنَّ يٰجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْاَرْضِ﴾ .

وعرضوا عليه أموالاً ليقيمَ لهم سدّاً بين هاتين السلسلتين الكبيرتين من الجبال، يمنع عنهم عدوان هؤلاء المفسدين وشرهم:

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلٰى اَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ولا بد أن يكون هؤلاء الذين طلبوا من ذي القرنين بناءً سدّ لهم، قد عرفوا قدرته على ذلك، ورأوا ما معه من وسائل وآلات وإمكانات تمكّنه من بناء السد، ولولا ذلك ما طلبوا منه أن يبني لهم السد، وما عرضوا عليه أموالهم.

وسبق أن بيّنتُ أنّ الله ﷻ أعطى ذا القرنين كلّ وسائل القوة والتمكين في الأرض كما أخبر عن ذلك في قوله تعالى: ﴿اِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْاَرْضِ وَاٰتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ [الكهف: ٨٤].

كما بيّنتُ أنّ في قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ وَفَدَّ اَحْطٰنًا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١] دليلاً على تعظيم ما آتاه الله تعالى، وأنّ الوسائل والأسباب التي أنعم الله تعالى بها على ذي القرنين وراء أي وصف، فلا يحيطُ بها إلاّ العليم الخبير.

• ما مَكَّنِّي فيه ربي خير:

فماذا كان موقفُ ذي القرنين من هذا العرض المُغري الذي عرضه القومُ عليه ليبنيَ لهم السدّ؟ هل استغلَّ الموقفَ، واستثمر حاجتهم لمساعدته، فأخذَ منهم ما استطاع من أموالهم، ونهبَ ما أمكنه من ثمرات تعبهم وعملهم، كما تفعله في العصر الحاضر الدول الكبرى القوية مع شعوب الدول الضعيفة الفقيرة؟ هل شَرَطَ ذو القرنين عليهم أن يستغلَّ مشروع السد بعد بنائه لفائدته



عدداً من السنين؟ وهل أرهقهم بالديون ذوات الفوائد الربوية المركبة، حتى أصبح مشروع السد عبئاً ثقيلاً عليهم؟ .

كان ذو القرنين حاكماً مؤمناً صالحاً يسعى لخير شعوب الأرض وسعادتهم، يستعين لتحقيق هذا الهدف النبيل بما آتاه الله تعالى من علوم وآلات وقدرات، ويعمل ليدفع عن الناس شرور المفسدين وعدوان المعتدين:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ مما تبذلونه من أموالكم .

أين من يقول مثل هذه الكلمة في العصر الحاضر؟! .

أين المتعقِّفون عن خيرات الشعوب الضعيفة النامية؟! .

أين القائلون: ما عندنا يكفينا وما آتانا ربنا يغنيننا؟! .

أين الذين لا يستغلُّون قوتهم وعلمهم في سلب خيرات الضعفاء؟! وإذا تعفّفوا أحياناً، فإنهم يأخذون مقابل ما قدّموا من مساعداتٍ ومعوناتٍ عقائد هؤلاء الضعفاء وأخلاقهم وتراثهم، يمنعون عنهم المساعدة حتى يكفروا بدينهم، ويتخلّوا عن أخلاقهم وتراثهم ولغتهم، وما أخبار التنصير واستغلال الكنيسة وكهنتها للمساعدات التي يقدّمونها للضعفاء والمنكوبين لتنصيرهم عنّا بعيد.

#### • فأعينوني بقوة:

وكان ذو القرنين إلى جانب عفّته وحكمته وعلمه متواضعاً، ولهذا قال:

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ . إن وراء هذه الكلمات نفساً راضيةً متواضعةً كريمةً، لم تفتنّها القوة والسلطة، إنّها النفس التي نجحت في أعظم ما يُختبر به الإنسان ويُمتنن: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى﴾ [العلق].

وما أكثر الطغاة والمتجبرين الذين أعمتهم السلطة والقوة عن رؤية حقيقتهم ومعرفة حجمهم! .

الإنسان مخلوقٌ ضعيفٌ محدودٌ، فمهما ملك من وسائل الغنى والسلطة والقوة، فهو محتاجٌ إلى مساعدة الآخرين، فقير إلى معونتهم. لو عقل الظالمون والمتجبرون هذه الحقيقة ما ظلموا ولا تجبروا.

● بناء السد:

وشرع ذو القرنين في بناء السد، كما وعدهم بقوله: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، واستفاد من مساعدة القوم له، فقد قدّموا له القوة العاملة التي حفرت الأرض وهيات مواد البناء. وأما ذو القرنين فقد أشرف على تنفيذ البناء، وياشر بنفسه رفع البناء:

﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد، وخصّها بالذكر لأنها الركن القوي في السد، والعمدة الأساس في هيكله.

﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وارتفع البناء شيئاً فشيئاً، حتى أصبح مساوياً في الارتفاع لجانبي الجبلين اللذين أقيم السد بينهما، ثم أشعل النار في الخشب والحطب الذي وضعه بين قطع الحديد، دلّ على ذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾، ولا بدّ أن تكون آلات النفخ بعيدة عن موقع السد، فالنار كبيرة وعظيمة لا يستطيع أحد أن يقترب منها، ويدل على قوتها وشدتها قوله ﴿فَكَذَّبُوا﴾: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ لقد أصبح هيكل السد كتلة ملتهبة من النار.

ثم قام ذو القرنين فصبّ النحاس المذاب فوق هذه الكتلة الملهبة من الحديد والنار:

﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾.

ولا يُعقل أن يتمّ مثل هذا العمل الكبير بالوسائل البدائية البسيطة التي كان عليها الناس يومئذ، فمثل هذا المشروع الكبير يحتاج إلى آلات ضخمة ورافعات

كبيرة، يبدو أن ذا القرنين استعملها بعد أن هداه الله سبحانه إليها بما آتاه من الأسباب، وسخر له من وسائل التمكين حتى استطاع إنجاز هذا المشروع الكبير الذي وصفه الله ﷻ بقوله:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧).

فما تمكّن المفسدون أن يعلوا عليه لارتفاعه وملاسته، ولا أن يخرقوه لصلابته وثخانته.

• هذا رحمة من ربي:

وبعد أن أتمّ ذو القرنين بناء السدّ نظر إليه وقال:

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨).

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ وتلك هي كلمة المؤمن الشاكر، المعترف بفضل الله عليه، فالفضل لله تعالى أولاً وأخراً، ولا حول ولا قوة إلا بقوة الله العليّ القدير، إنّه الإخبات والتواضع والتذلل لله، والإقرار بفضلته، لا التكبر والتجبر والبغي ورؤية النفس.

ومع قوة السدّ ومثانته، فإنّه لا يستعصي على قدرة الله، فإذا جاء الوعد الذي قدره الله سبحانه لهدمه:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، إنّ الجبال الرواسي التي أرساها القوي القادر بقوّته وقدرته لا تستعصي على مشيئته سبحانه وقدرته عندما يشاء الله سبحانه إزالتها ونسفها: ﴿وَسْتَلُونَا عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه].

والمراد من قول ذي القرنين: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ بيان أنّ هذا السدّ رحمة من الله بالأمم القريبة منه لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أنّه مع مثانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القوي القدير، فإن

بقائه إنما هو بفضل الله، ولكن إذا قامت القيامة فلا هذا السد ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف لحظة واحدة أمام قدرة الله، بل يدكها جميعاً دكاً في لمح البصر، وهذا تنبيه من ذي القرنين لتلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة السد<sup>(١)</sup>.

فوعده الله الذي ذكره ذو القرنين في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ هو يوم القيامة، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين.  
قال القرطبي: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: يوم القيامة، وقيل: وقت خروجهم.

وقال الألوسي: المراد من وقت ذلك يوم القيامة، وقيل: وقت خروج يأجوج ومأجوج، وتُعقب بأنه لا يساعده النظم الكريم.  
وكذلك قال أبو السعود في تفسيره<sup>(٢)</sup>.

#### • سؤالان هامان:

- من يأجوج ومأجوج؟

- وأين يقع سد ذي القرنين؟

وهما سؤالان هامان وكبيران، وقد حاول كثير من المفسرين قديماً وحديثاً الإجابة عليهما.

ولا يسعنا إلا أن نرجع إلى الكلمات القرآنية الكريمة نتدبرها، ونتأمل في مدلولات معانيها على ضوء ما ورد في السنة الشريفة حول هذا الموضوع، لعلنا نصل بفضل الله سبحانه وتوفيقه إلى بعض الحقيقة، أو إلى ضوء ينير لنا الطريق، ويوصلنا إلى استكشاف معالم الحقيقة.

وليس الخوض في هذا الموضوع نوعاً من الفضول العقلي أو الترف العلمي، فثمة تحديات كثيرة من أعداء الإسلام حول هذا الموضوع، تستهدف

(١) انظر: تفسير القاسمي، ط ١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي، وأبي السعود، وروح المعاني.

تشكيك ضِعَافِ الإِيْمَانِ بِصَدَقِ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِ تَضَعُفُ ثِقَتِهِمْ بِكَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وهناك أمر آخر يستدعي منا أيضاً أن نخوضَ في هذا الموضوع، وهو أنَّ لسدِّ ذي القرنين ويأجوج ومأجوج علاقةً وثيقةً بالأمة المسلمة عموماً وبالعرب من هذه الأمة خصوصاً.

فإنَّ كثيراً من الفتن التي أصابت المسلمين، ولا زالت تفتك بهم، لها ارتباطٌ بسد ذي القرنين وبالقبائل المفسدة، الذين سمَّاهم القرآن الكريم بيأجوج ومأجوج، الذين يظهرون في آخر الزمان قُبيل قيام الساعة، فقد أخبر النبي ﷺ في عدَّة أحاديث نبوية شريفة وصحيحة عن ظهور يأجوج ومأجوج مع أشراط وعلامات الساعة الكبرى، وسيأتي بعض هذه الأحاديث.

#### • «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ»:

والدليل على وجود علاقة بين الفتن التي أصابت الأمة المسلمة وبين سد ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، الحديث الصحيح الذي رواه البخاري [٣٣٤٧] ومسلم [٢٨٨١]: من حديث أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله عنها قالت: استيقظ رسول الله ﷺ محمراً وجهه وهو يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتَحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وحلَّقَ بِإصْبَعِيهِ الْإِبْهَامَ وَالتِي تَلِيهَا، قَلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْحَبْثُ».

والعجيبُ أنَّ كبار شراح السنَّة النبوية الشريفة لم يتعرَّضوا للكلام عن علاقة ردم يأجوج ومأجوج بالعرب، التي يدل الحديث الشريف على وجوده، وحملوا الشرَّ الذي ذكره النبي ﷺ على الفتن التي أصابت الأمة المسلمة بمقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه.

قال ابن حجر العسقلاني رحمته الله: «حَصَّ الْعَرَبَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا حَيْثُ مَعْظَمَ مَنْ أَسْلَمَ، وَالْمُرَادُ بِالشَّرِّ مَا وَقَعَ بَعْدَهُ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ، ثُمَّ تَوَالَتِ الْفِتْنُ حَتَّى صَارَتْ

الأمّة بيد الأكلّة كما وقع في الحديث الآخر: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلّة إلى قصّعتها» [رواه أبو داود (٤٢٩٧) وأحمد (٥/٢٤٨)]<sup>(١)</sup>.

والجدير بالذكر أنّ ابن حجر العسقلاني ظهر في القرن الثامن الهجري؛ أي: بعد أن اجتاحت المغول والتتر بلاد المسلمين في القرن السابع الهجري، وخربوا معظم معالم الحضارة الإسلامية حتى وصلوا إلى بغداد فخرّبوها أيضاً وقتلوا الخليفة العباسي، وذبحوا عدداً كبيراً من أهلها، وأحرقوا كتبها ومكتباتها.

### • يأجوج ومأجوج:

ولا يعني هذا أنّ المغول والتتار الذين دمّروا كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية، هم يأجوج ومأجوج، إذ دلّت الأحاديث الشريفة الصحيحة على أنّ يأجوج ومأجوج يظهرون في آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض وقتله الدجال، وظهورهم من علامات الساعة الكبرى، التي لم يحدث شيء منها حتى الآن.

فقد جاء في حديث النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه: «أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعد أن ذكر ظهور الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء وقتله له يقول: «ثمّ يأتيه قوم قد عصمهم الله من الدّجال، فيمسح وجوههم، ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إنّي قد أخرجت عبداً لي لا يدان لأحدٍ بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور، وبعث الله يأجوج ومأجوج، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمرّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصّر عيسى نبيّ الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار، فيرغب عيسى نبيّ الله وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم

(١) انظر: فتح الباري. والحديث الذي ذكر طرفه من حديث ثوبان: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلّة إلى قصّعتها» فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غنّاء كغناء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حبّ الدنيا وكرهية الموت».

النَّغْفِ فِي رِقَابِهِمْ، فَيَصْبَحُونَ فَرَسَى (أي: موتى) كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ عَيْسَى نَبِيُّ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عَيْسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُحْتِ (أي: الإبل)، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطْراً لَا يُكْنَى (أي: لا يحمي) مِنْهُ مَدْرٌ (أي: بيوت الحضرة) وَلَا وَبَرٌ (أي: بيوت البدو) فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلَقَةِ (أي: كالمرآة)» [رواه مسلم (٢١٣٧)].

وذكر الإمام مسلم في رواية ثانية: أَنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، يَقُولُونَ بَعْدَ أَنْ يَغْلِبُوا عَلَى الْأَرْضِ: «لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ. فَيُرْمُونَ بِنَشَابِهِمْ، فَيُرْذَاهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَخْضُوبَةً دَمًا».

فَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ كَمَا تَصْرَّحَ بِهِ الْأَحَادِيثُ الشَّرِيفَةُ الصَّحِيحَةُ، لَمْ يَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدُ، وَلَمْ يَغْلِبُوا عَلَيْهَا وَيَسْطَرُوا عَلَيْهَا سَيْطَرَةً كَامِلَةً، حَيْثُ يَصِلُ بِهِمُ الْغُرُورُ بِالْإِنْتِصَارِ وَالْغَلْبَةِ أَنْ يَقُولُوا: «لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...».

وَجُمُوعُ الْمَغُولِ وَالتُّرْكِ الَّذِينَ اجْتَا حُوا مَشْرِقَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى بَغْدَادِ سَنَةِ (٦٥٦هـ) وَخَرَّبُوهَا وَأَحْرَقُوهَا، وَإِلَى حَلَبِ وَدِمَشْقِ، ثُمَّ نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ مَهْزُومِينَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ عَيْنِ جَالُوتَ، لَيْسُوا قِطْعاً يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ فِظَاعَةِ التَّقْتِيلِ وَالتَّدْمِيرِ الَّذِي أَحْدَثُوهُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى التَّبَسَ أَمْرُهُمْ عَلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ مِثْلَ الشَّيْخِ أَحْمَدِ الْمِرَاغِيِّ وَجَمَالِ الدِّينِ الْقَاسِمِيِّ؛ فَزَعَمُوا أَنَّهْمَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ<sup>(١)</sup>.

وَلَوْ أَنَّهْمَ أَمَعَنُوا النَّظْرَ فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لِأَدْرِكُوا خَطَأَهُمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ.

نَعَمْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْمَغُولَ وَالتُّرْكَ الَّذِينَ اجْتَا حُوا مَشْرِقَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ جِزْءٌ صَغِيرٌ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَمَقْدَمَةٌ

(١) انظر ما كتبه كلُّ من الشيخ أحمد المراغي والشيخ القاسمي في تفسيريهما.

لهم، وإنَّ ظهور المغول والتتار في القرن السابع الهجري ظهور جزئي ليأجوج ومأجوج، سوف يتلوه الظهور الكلي قرب قيام الساعة بعد نزول عيسى نبي الله ﷺ إلى الأرض. كما ورد في الأحاديث الشريفة التي سبق ذكر بعضها.

ويؤكد هذا الذي ذهبَ إليه ما مرَّ معنا في حديث النبي ﷺ: «ويلٌ للعربِ مِنْ شُرِّ قَدِ اقْتَرَبَ» ولعلَّ في قول النبي ﷺ: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وتحليقُه بأصبعيه، إشارة منه ﷺ إلى الظهور الجزئي ليأجوج ومأجوج، الذي حدث في القرن السابع الهجري، عندما اجتاحت المغول والتتار مشرق العالم الإسلامي.

وبهذا يجتمع سَمَلُ الأحاديث الشريفة، وتبدو لنا متكاملة ومنسجمة.

وقد وقعتُ بعد أن توصلت إلى هذه النتيجة على كلام للعلامة القرطبي رحمه الله في «تفسيره»، يدل دلالة قوية على صحة ما توصلتُ إليه، قال رحمه الله: «نَعَتَ النَّبِيُّ ﷺ التُّرْكَ: «قَوْمٌ وَجُوهُهُمْ كَالْمِجَانِ الْمَطْرُقَةِ»<sup>(١)</sup>، وفي رواية: «يَنْتَعِلُونَ الشَّعْرَ» [رواه البخاري (٢٩٢٩) ومسلم (٢٩١٢)].

ولما علم النبي ﷺ عددهم وكثرة وحدّة شوكتهم قال ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم» [رواه الطبراني بالأوسط (٥٦٣٤) والكبير (١٠٣٨٩) بإسناد حسن].

وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يرددهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم<sup>(٢)</sup>.

والترك الذين ذكر القرطبي أنهم مقدمة ليأجوج ومأجوج هم التتار، وبعضُ العلماء يطلقون عليهم اسم الترك، ولعلك لاحظت أن القرطبي يذهب إلى هذا الرأي بتردد وحذر، لكن ما ورد في الأحاديث الشريفة من وصف يأجوج ومأجوج ومطابقتها لصفات المغول والتتار، يؤكد رأي القرطبي دون تردّد وحذر،

(١) أي: التروس السميكة، يقال: طارق النعل؛ إذا صيرها طاقاً فوق طاق، وركب بعضها على بعض، أراد أنهم عراضُ الوجوه غلاظها. انظر: لسان العرب.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.



فالوجوه المستديرة الغليظة التي كأنها المجان المطرقة التي ذكرها القرطبي جاءت صريحةً واضحةً في حديث نبويٍّ صحيح وصف فيه النبي ﷺ يأجوج ومأجوج فقال: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ لَا عَدُوَّ لَكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ تَقَاتِلُونَ عَدُوًّا، حَتَّى يَأْتِيَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، عِرَاضُ الْوَجُوهِ، صِغَارُ الْعَيُونِ، صُهْبُ الشِّعَافِ، مِنْ كُلِّ حَذْبٍ يَنْسَلُونَ، وَجُوهُهُمُ الْمَجَانُ الْمَطْرَقَةُ» [رواه أحمد (٢٢٣٣١)].

قوله: «صهّب الشعاف» أي: حُمرة في أعلى شعورهم.

### • هل يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد؟:

وقد يعترض بعضهم على ما سبق بيانه من كون المغول والتتار من يأجوج ومأجوج ومقدمة لهم، بأنَّ يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد، وسيظلون محصورين وراء السد حتى قُرب قيام الساعة، حيث ينهدم، ويخرجون من ورائه، وينتشرون في الأرض، كما سبق ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدّثت عن علامات الساعة الكبرى.

وأقول ردّاً لهذا الاعتراض: إنّ السدّ الذي بناه ذو القرنين كان لحماية البلاد الواقعة قريباً منه من شرِّ يأجوج ومأجوج وفسادهم من الجهة التي بُني فيها، وليس لحضرم حصراً كلياً من جميع الجهات، فيصبحوا معزولين في بلادهم عزلاً تاماً، لا يستطيعون الخروج منها من أي جهة، فلا يتصلون بأحد، ولا يتصل بهم أحد، فسدّ ذي القرنين عزّلهم من جهة واحدة، ولم يعزلهم من جميع الجهات.

والقول بأنهم محصورون وراء السد من جميع الجهات ولا يزالون كذلك، يؤدّي إلى القول بأنّ رسالة الإسلام لم تبلغهم، وحجة الله عليهم بدعوتهم إلى الإيمان لم تقم عليهم، مع أنّهم أكثر الناس، وهم محاسبون يوم القيامة، ومسؤولون عن كفرهم وعنادهم وفسادهم في الأرض، ومعدّبون في نار جهنم، قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لِيَبِكَ وَسَعْدِيكَ، فَيَقُولُ: ابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ

إلى النار، وواحدٌ إلى الجنة، فحينئذٍ يشيبُ الصغيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، فقال: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ مَا كَانَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كَثْرَتَاهُ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ» [رواه البخاري (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢)].

فياجوج ومأجوج أكثر الأمم عدداً، فلا يُعْقَلُ أن يظلوا معزولين إلى قرب قيام الساعة دون أن تبلغهم دعوة الإسلام العامة الشاملة لكل الناس، فمعنى هذا أن رسالة الإسلام لم تصل إلى أكثر الناس.

والقول بأن رسول الله ﷺ بلغهم دعوة الإسلام ليلة الإسراء، لا دليل على صحته، كما أن القول بأنهم معزولون وراء السد عزلاً كاملاً إلى وقت ظهورهم وقرب قيام الساعة يتعارض مع الحديث الشريف الصحيح الذي سبق ذكره: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتِيحَ الْيَوْمِ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ».

#### • فتحت ياجوج ومأجوج:

ويستدلُّ القائلون بأن ياجوج ومأجوج محصورون بالآية الكريمة في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦).

فقوله: ﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ يدل على أنهم كانوا محصورين قبل أن يفتح لهم بانهدام السد الذي حصرهم، ويكون هذا قبل قيام الساعة، لأنه سبحانه قال بعد ذلك: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧).

لكن هذا المعنى لا يُسَلِّم لهم، لأنَّ الفتح يستعمل أيضاً في معنى الظهور والتمكُّن والغلبة، واستعماله بهذا المعنى شائع حتى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وقال أيضاً: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢].

ويتعيَّن علينا أن نفسر الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ بهذا المعنى، أي: حتى إذا قدر الله ظهور ياجوج ومأجوج في الأرض، وغلبتهم عليها، وتمكنهم فيها. . ويتعيَّن علينا المصير إلى هذا المعنى في فهم الآية

لتنسجم مع ما ذكرته من الأحاديث النبوية الشريفة، فلا يوجد أدنى تعارض بين الآيات الكريمة وبين الأحاديث الشريفة، لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وعلى هذا ليس في الآية ما يدل على أن يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد إلى قرب قيام الساعة.

### • تحقيق في حديث:

بقي أخيراً أن نذكر الحديث الذي يحتج به القائلون بأن يأجوج ومأجوج لا يزالون محصورين وراء السد، ومعزولين عن الناس، وهو حديث أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» [٥١١/٢] والترمذي [٣١٥٣] وابن ماجه [٤٠٨٠]: من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيُخْفِرُونَ السَّدَ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرُونَ شِعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمُ: ارْجِعُوا فَسْتَحْفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدَّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مَدْتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفْرًا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرُونَ شِعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمُ: ارْجِعُوا فَسْتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَيَسْتَنْبِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكَوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيَنْشَفُونَ الْمِيَاءَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسَهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجَعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ: قَهْرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا فِي رِقَابِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا».

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكُرُ شُكْرًا مِنْ لَحْمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ». قوله: «تَشْكُرُ» تسمن.

إن عدة تساؤلات تثور في النفس عند قراءة هذا الحديث: كيف استمر هؤلاء القوم يحفرون في السد آلاف السنين ولم يتسرب إليهم شيء من الملل أو اليأس من نقب السد؟! ولماذا يحفرون في الليل فقط؟! ثم كيف يتمكنون أخيراً من حفره والله سبحانه أخبر في كتابه العزيز أنهم لن يتمكنوا من نقبه: ﴿فَمَا

أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقَبًا ﴿٩٧﴾ [الكهف: ٩٧]! وكثيراً ما يعبر القرآن الكريم عن أمور في المستقبل بصيغة الماضي تأكيداً لمضمونها.

لعلّ هذه التساؤلات هي التي حملت ابن كثير رحمته الله أن يقول: «إسناده جيد، ولكن في متنه نكارة، لأن ظاهر الآية أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا نقبه»<sup>(١)</sup>.

ويعارضه أيضاً الحديث المتفق على صحته الذي سبق ذكره وهو حديث السيدة زينب: «ويلٌ للعربِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ بِأَجْوَجٍ وَمَأْجُوجٍ...» الحديث.

وزهب ابن كثير رحمته الله إلى القول بأنّ هذا الحديث يمكن أن يكون مما روي عن كعب الأخبار، وهو من يهود اليمن، أسلم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وسكن المدينة المنورة، وروى عنه بعض السلف كثيراً من الإسرائيليات.

قال ابن كثير رحمته الله: «لكنّ هذا قد روي عن كعب الأخبار، أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحها، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان... وهكذا حتى يُلْهَمُوا أن يقولوا: إن شاء الله، فيصبحون وهو كما فارقه فيفتحونه.

وهذا متّجهٌ، ولعلّ أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنّه كثيراً ما كان يجالسه ويحدّثه، فحدّث به أبو هريرة، فتوهّم بعض الرواة عنه أنّه مرفوع، فرفعه، والله أعلم»<sup>(٢)</sup>.

#### ● موقع السد:

ولنا بعد أن اتضح بعض الحقائق عن يأجوج ومأجوج أن نتساءل عن موقع سد ذي القرنين؟.

فلنتأمل مصوراً طبيعياً للبلاد الممتدة من أواسط آسية إلى أقصى شمالها الشرقي، حيث يلتقي المحيطان الهادي والمتجمد الشمالي، هذه البلاد هي المواطن الأصلية للمغول والتتار والترک، أو القبائل التي تسمى بالاستبس، هذه

(١) انظر: تفسير ابن كثير.

(٢) المرجع السابق نفسه.

البلاد تشبهه - كما يقول مؤلف كتاب «المغول» - إسكندناوة، في كونها مستودعاً للألم، ومنها خرجت غارات المتبريرين<sup>(١)</sup>.

والإستبس: أقوامٌ بدوية كانت تمارس ضغطاً على الإمبراطوريات المتمدنة الواقعة إلى الجنوب والغرب منها، وهذا الضغط تطور من اعتداءات انتقامية إلى غارات للفتح والتوسع<sup>(٢)</sup>.

وبناء السدود حول بلاد هذه القبائل المتوحشة لدفع شرهم، كان أمراً معروفاً في البلاد المتاخمة لهم.

ولم تكن فكرة بناء السد جديدةً على أهل البلاد المتاخمة لهم عندما: ﴿قَالُوا يٰذَا الْقُرَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُّسِيْدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلٰى أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]؛ إذ قام الصينيون القدماء الذين يسكنون إلى الجنوب من بلاد المغول والتتار، ببناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم من هجمات هذه القبائل البدوية المتوحشة.

ومع ذلك لم تسلم الصين من شرهم، إذ تمكّنوا من اجتياز سور الصين من ناحية الغرب، ودخلوا الصين، واستولوا على الحكم فيها بعد أن استأصلوا «أسرة كين» التي كانت تحكم شمال الصين<sup>(٣)</sup>.

إذن فلشعوب الصين صلةً نسب قوية وكبيرة بالمغول والتتار، أو ما يُسمّى شعوب الإستبس والتنجور والترك<sup>(٤)</sup>.

والمتأمل للتضاريس والجبال في هذه البلاد الشاسعة يلاحظ أنها شبه معزولة من جهة الجنوب الغربي بكتل هائلة من السلاسل الجبلية الشاهقة، والتي تعدُّ أكبر وأعلى الكتل الجبلية في الأرض، فسلاسل جبال (تيان شان) و(ألتاي)

(١) كتاب: المغول، للباز العُرَيْنِي، طبع دار النهضة.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) المرجع السابق نفسه.

في الشمال الغربي تمتدُّ إلى الجنوب حيث تواجهها جبال الهملايا، لتطوق فيما بينها بلاد منغولية وتركستان وشمال آسية، وتفرقها عن وسط آسية والهند.

وهذا يجعلنا نعتقدُ احتمالَ وجود سد ذي القرنين بين سلاسل هذه الجبال، وقد أكد هذا الاحتمالَ ما ذكره المراغي صاحبُ التفسير عن «مجلة المقتطف» فقال: يأجوجُ هم التتار، ومأجوجُ هم المغول، يسكنون الجزء الشمالي من آسية، وتمتدُّ بلادهم من التبت والصين إلى المتجمد الشمالي، وغرباً إلى تركستان، وقد ذكر مؤرِّخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها، فكثيراً ما أفسدوا في الأرض، ودمروا كثيراً من الأمم، ومنهم من ذهبَ إلى أوربة في العهد القديم كالتحيت والسمريان والهون، وكثيراً ما أغاروا على بلاد الصين وآسية الغربية...

وقد كشفوا في القرن الحاضر آثار سدِّ قديم بجبال القوفاز، ويسمى باب الأبواب، أو درينت، وهو غيرُ السدِّ الشهير الذي بناه ذو القرنين، فإنَّ هذا وراء نهر جيحون في عمالة بلخ، واسمه باب الحديد، بمقربة من مدينة ترمذ، وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه، ومرَّ به أيضاً شاه رخ، وكان في بطانته العالم الألماني سيلدبرجر، وذكر السد في كتابه، وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر، وكذلك ذكره المؤرخ الإسباني كابنجو في رحلته سنة (١٤٠٣م)، وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتالة) بالأندلس إلى تيمورلنك، وقال: إنَّ سدَّ باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند. انتهى ملخصاً من مقتطف سنة (١٨٨٨م)، وبذلك تعلمُ أنَّ السد موجودٌ فعلاً<sup>(١)</sup>، والله سبحانه أعلم.



(١) انظر: تفسير المراغي.

## خاتمة السورة

## التَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَظَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتٍ رَبَّهُمْ وَلِقَائِهِمْ فَبَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ۞ .

ويأتي التعقيب في آخر سورة الكهف منسجماً مع موضوعها الأساس، ومؤكداً ارتباط آيات السورة بعضها ببعض ارتباطاً محكماً، وشدة انسجامها واتفاقها مع موضوعها.

بعد أن ختمت الآيات حديثها عن ذي القرنين بحكاية قوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]؛ ذكرت بعض مشاهد يوم القيامة، يوم الوعد الحق:

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ يوم يختلط الإنس والجن،

ويموج بعضهم ببعض، بعد أن يُنْفَخَ في الصور نفخة البعث من القبور.

﴿فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ وجمعنا الخلائق ليوم النشور.

يوم تُعْرَضُ جهنم على الكافرين ليرَوْا ما ينتظرهم فيها من أهوال العذاب، وأنواع النكال، فيزدادُ حزنهم وهمُّهم:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠).

وقد بيّن النبي ﷺ كيفية هذا العرض فقال: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُقَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زَمَامٍ، مَعَ كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ» [رواه مسلم (٢٨٤٢)].

• أعين وقلوب:

ووصف الله تعالى الكافرين الذين تُعرض جهنم عليهم، فقال:

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١).

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق، بسبب ما شغلوا به من أسباب الفتن من مالٍ وجاهٍ وأولادٍ، وعلمٍ وحكمٍ وسلطانٍ وشیطانٍ، مما سبق ذكره في آيات سورة الكهف. بينما مرَّ معنا قبل ذلك آية كريمة توافقها في المعنى، إلا أنها ذكرت القلوب: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

ولعلَّ سبب ذكر الأعين هنا انكشاف المغيبات وظهور المستورات، ووضوح المرئيات، هذه جهنم أمامهم تُعرض عليهم بما فيها من أنواع العذاب والنكال، يرونها بأعينهم.

أما الآية الثانية فقد جاءت في مجال التذكير والدعوة إلى الإيمان، فالكفار لا يزالون في الدنيا، ولا تزال الحقائق مستورةً عن أعينهم، وإن كانت ظاهرةً بأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة، والقلبُ محل إدراك البراهين، وموضع التصديق بالآيات، ولكنَّ قلوبهم حُجبت عن رؤية الحقائق والتصديق بالآيات



بما غلب عليها من أسباب الفتن وشواغلها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

### • تهكُّم وإنكار:

وماذا أعدَّ الكافرون لهذا اليوم؟ وأين الذين اتخذوهم من دون الله تعالى أولياء وأنصاراً؟.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (١٠٢).

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾؟! إن ما في هذا الاستفهام والتساؤل من مرارة التهكُّم والإنكار لينسجم كل الانسجام مع ما مرَّ معنا في قوله سبحانه وهو يستنكر اتخاذ بعض الناس الشيطان ولياً لهم من دون الله تعالى: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ، وَذُرِّيَّتَهُ، أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وترداد مرارة التهكُّم والإنكار في قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ لأن النُّزُل هو ما يقدم للضيف من طعام وغيره، فكيف تكون جهنم نزلاً لهم؟!.

وقد سبق أن مرَّ معنا أيضاً في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٥٢).

ثم تلتفت الآيات تخاطب النبي ﷺ تنوياً بذكره وتشريفاً لقدره عليه الصلاة والسلام:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤).

كانوا مفتونين بأعمالهم، ومعجبين بها، فسَعَوْا في تحصيلها، وكابدوا في تحقيقها، فضاع سعيهم، وبطل عملهم، عملوا وتعبوا، وظمئوا من أجل سراب

خَادِع: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرَابٍ يَقْبَعُهُ يَحْسَبُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فخسارتهم أعظم خسارة، وندامتهم أشد ندامة.

ثم بين الله تعالى سبب بطلان عملهم وسقوط سعيهم فقال:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ﴾ جحدوا آيات الله وبراهينه التي جعلها دلائل وحدانيته، وبراهين صدق أنبيائه ورسله، وكذبوا بيوم القيامة، ولهذا:

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾، نذري بهم، ونحتقرهم، ولا نجعل لهم مقداراً ولا اعتباراً.

قال رسول الله ﷺ: «يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾» [رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥)].

تأمل أخي القارئ كيف جاءت الآية منسجمة مع قصة المتكبرين من مشركي قريش، المفتونين بمالهم وجاههم، الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعد عن مجلسه فقراء المسلمين، لأنهم يتأذون برويتهم، التي سبق ذكرها في موضوع: فتنة الغنى والفقير، ومنسجمة أيضاً مع قصة صاحب الجنتين المفتون بماله وولده وخدمه وحشمه حتى قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ما أعدلك ربي، تقدست ذاتك، وتسامت صفاتك، في قولك الكريم:

﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا عَائِيَّ رَسُولِي هُزُوًا﴾.

وما أجمل قول الحق بعد ذلك، وما أعذب موقعه على قلب المؤمن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ .

تلك هي الضيافة الكريمة الحقة التي يكرم الله تعالى بها عباده المؤمنين الصالحين، وذلك هو المنزل الطيب الرفيع، جنات الفردوس أوسط المنازل وأرفعها وأكرمها .

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

﴿خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾﴾ .

تعلقت بها قلوبهم ونفوسهم، فلا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، ولا يملون فيها، ولا يسأمون منها، مع طول المكث فيها والخلود. كما قال الشاعر:

فحللت سؤيدا القلب لا أنا باغيا سواها ولا عن حبها أتحوّل

• كلمات الله تعالى:

وتلفت الآيات الكريمات مرة ثانية إلى النبي ﷺ تخاطبه لأنه يبلغ وحي الله تعالى وبيئته للناس:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ .

أين المفتونون بعلومهم، والمغرورون بمواهبهم وإمكاناتهم؟! إن أجمل شيء أمام هذه الآية أن نمسك أقلامنا وألسنتنا فلا نكتب ولا نتكلم، ونترك عقولنا وأفكارنا وقلوبنا حرة طليقة تحلق فوق صفحات البحار الممتدة امتداد الآفاق، تكل العقول، وتنقطع الأفكار، وتمتلئ القلوب دون أن تحيط بمداد الكلمات الربانية: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

فَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقْدِرَ قَدْرَ كَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ وَحِكْمِهِ .

إِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ كَمَا يَقُولُ وَفَوْقَ مَا نَقُولُ، سُبْحَانَكَ لَا نَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ .

وَتُخْتَمُ السُّورَةُ بِخَطَابِ ثَالِثٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْهُمُكُمُ إِلَهٌُ وَجِدُّ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١٠﴾ .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فهو ﷺ بشر كسائر البشر، وإنَّما تميز عنهم بما أوحى الله تعالى إليه :

﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْهُمُكُمُ إِلَهٌُ وَجِدُّ﴾ ، وطريق الوصول إلى رضوانه ورحمته :

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هذا هو سبيل

النجاة وكهف السلامة؛ الإيمان بالله سبحانه وحده، والعمل الصالح الخالص لله على هدي شريعة رسول الله ﷺ .



## تفسير سورة مريم التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فإنّ مدار إيمان المسلم يقوم على توحيد الله تعالى، وتنزيهه عن صفات النقص والعجز والضعف، ومنها الاتصاف بصفات الولادة والولد. ولقد ضلّ بهذا كثيرٌ من الناس، ووقعوا في مهاوي الشرك، وزاغوا عن التوحيد، لأنّهم لم يفرّقوا بين صفات الخالق جل وعلا وبين صفات المخلوقين، فوصفوه سبحانه ببعض صفات خلقه، وغلّوا في بعض عباده ورسله، فرفعوهم عن مقام العبودية لله تعالى إلى مقام الألوهية، فضلّوا وأضلّوا.

لقد اهتمّ القرآن الكريم بموضوع توحيد الخالق سبحانه وتنزيهه اهتماماً كبيراً، فهو أهمّ قضايا الإيمان وأعظمها، تتمثل فيه أكبر جوانب المواجهة بين المسلمين الموحّدين وبين أهل الكتاب الزائغين الضالين، وقد حشد القرآن الكريم لهذا الموضوع كثيراً من الأدلة والبراهين، في عدد كبير من آياته وسوره.

وسورة مريم إحدى أمهات السور التي تناولت جانباً كبيراً من هذا الموضوع، وقد جاءت متممةً لسورة آل عمران، ومؤكدةً على توحيد الله تعالى

وكماله وغناه، وتنزهه جَلَّ وعلا عن الاتصاف بصفة الولادة والولد، مع بيان حقيقة عيسى عليه السلام وأمه، وحقيقة عبوديتهما لله تعالى.

وسياحظ القارئ التكامل بين السورتين، بكثرة النقول التي سيجدها في هذا الكتاب عن تفسير سورة آل عمران في هذه السلسلة، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى يشبه بعضه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً، وتتجه آياته وسوره كلها لتبين جوهر الإيمان، وحقيقة الإسلام القائم على الاعتقاد بوحداية الله تعالى في ذاته، وصفاته، وأفعاله جل جلاله.

أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان، وأن يميّتنا عليه، وأن يحشرنا يوم القيامة تحت لواء خاتم النبيين، وإمام الموحدين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.



## الْفُضَيْلُ الْإِسْرَائِيلِيُّ

## قِصَّةُ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كَهَيْعَةَ ١ ﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّأءُ خَفِيئًا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيئًا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرِيئِي وَيَرِثُ مِنْ عَلِيٍّ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيئًا ٦ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيئًا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ فَفَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١ يَبِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَانِنْدَهُ الْمَلَكُ صَبِيًّا ١٢ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرُكُودًا وَكَانَ تَقِيًّا ١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥ .

• الحروف المقطعة النورانية:

﴿ كَهَيْعَةَ ١ ﴾

وتقرأ: كاف، ها، يا، عين، صاد.

افتتح الله تعالى سورة مريم بهذه الحروف الخمسة، ولم تُفتتح سورة بمثل

هذا العدد من الحروف سوى هذه السورة، وسورة الشورى التي افتتحت بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ لِّمَا وَسَّوَّى﴾ [الشورى].

ولا شك أن زيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، ومعاني هذه الحروف أسرارٌ تحيرت فيها الأفكار، وأتعبت أولي البصائر والأبصار! فعادوا بعد طول التدبر والتأمل محسورين، مقرّين بالعجز والقصور عن الإحاطة بمعاني التنزيل الحكيم، المعجز، المتشابه، المثاني، المبين، وهم يتلون قوله الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فكلام العليم الحكيم لا تنتهي عجائبه، ولا تُحدّ فوائده وفرائده، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنتهي معانيه إلى حد، وهذا وجهٌ من وجوه إعجازه ينفرد به عن سائر الكلام.

ولهذا قالوا: إن الحروف المقطّعة التي في أوائل بعض سوره تدل على إعجازه، وعجز الخلق عن الإتيان بمثل سورة من سوره، وحروفه قريبة منهم، وفي تناول أيديهم.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير في تفسيره، فبعد أن ذكره وذكر العلماء الذين ذهبوا إليه قال ﷺ: «ولهذا، كلُّ سورةٍ افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل قوله تعالى: ﴿آلَٰهَ ۙ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة]. وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر»<sup>(١)</sup>.

وقد اعترض بعضهم على استقراء ابن كثير بثلاث سور افتتحت بالحروف المقطّعة، ولم يذكر فيها الانتصار للقرآن، وهي: سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة القلم.

(١) انظر: تفسير ابن كثير، المقدمة.



إلا أن هذا الاعتراض يسقط إذا تأملنا آيات هذه السور كلها، ففي بعضها ذكر للقرآن الكريم، وتأكيده على أنه كلام الله تعالى، كما سيمر معنا في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْنُهِ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدُنَّا ﴿٩٧﴾﴾ .

وقوله في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

وقوله تعالى في سورة القلم: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

### • موضوع سورة مريم:

﴿ذِكْرٌ رَّحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾ .

تضمنت هذه الآية الكريمة العناصر الأساس لموضوع سورة مريم، وهي: الرب، والعبد، ورحمة الرب للعبد، وحاجة العبد للرب، وكمال الرب ﷻ في غناه عن كل ما سواه، وفي رحمته وإحسانه لعبيده، ولهذا سنرى في آيات السورة تركيزاً على الاسم الكريم الرحمن، الذي يدل على غاية الإحسان، وكمال العبد في تذله وعبادته لربه ومولاه، والأنبياء ﷺ أكثر الخلق عبادةً وتذلاً لله تعالى، فهم النموذج الإنساني الكامل للكمال البشري بما امتازوا به من كمال العبودية لله تعالى.

### • زكريا ﷺ:

وزكريا واحد منهم، وقد أبرزت الآيات من خلال عرضها لقصته مدى تذله لله تعالى، وافتقاره لربه ومولاه، زكريا مثالاً لكل الرجال، الذين يتصفون بأكرم الخصال، ويتحلون بأسمى الخلال، يحملون أنقى القلوب، وأصفها، وأتقها، وتنطوي سرائرهم وضمائرهم على أرق المشاعر الإنسانية، وألطفها، وأزكاها.

زكريا ﷺ العبد الإنسان، عبد الله تعالى وحده، ولم يعبد سواه، استشعر عبوديته لله تعالى، وافتقاره إليه، وحاجته إلى فضله وإحسانه، فسأله ودعاه، وأقبل عليه ضارحاً يُناديه ويُناجيه، يستنزل رحمته عليه، ويستمد منه معونته وفضله.

وزكريا إنساناً تفوراً في قلبه أكرم العواطف الإنسانية، وأنبل المشاعر الوجدانية، لم تستطع عقود السنين الطويلة التي عمّرها أن تخدم عواطفه الإنسانية، أو تضعف مشاعره الوجدانية، ضعفت بنيته، ووهن عظمه، وشاب شعره، وبقيت عاطفة الإنسان في قلبه ونفسه في ريعان شبابها وصباها، بل إنها كانت تزداد قوة كلما تسرب الوهن والضعف إلى جسده، وظلّت في قفصها الضعيف تضطرب في جنباته، وتغلي في داخله.

وهذا ما يسمّيه علماء النفس بـ (التعويض)، الذي هو وسيلة دفاعية لمواجهة الشعور بالنقص، فعاطفة الأبوة والأمومة عند الإنسان مصدرها شعوره بالضعف والنقص، والولدُ تعويضٌ عن النقص والضعف عنده، لأنه امتداد له بعد الموت، وتعويضٌ عمّا يصيبه من نقص وعجز عند الهرم والشيخوخة، فلا عجب أن تقوى عاطفة الأبوة والأمومة كلما ازداد شعور الإنسان بالضعف، واقترب منه أجله الذي تنتهي فيه حياته.

#### • الولادة والولد من صفات النقص:

ولهذا فإنَّ وصفه سبحانه بصفة الولادة والولد، معناه اتصافه جل وعلا بصفة النقص، والعجز، والموت، والفناء، والانتها، وهو سبحانه الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

هو سبحانه القديم الأول أزلاً، وهو سبحانه الباقي الآخر، الدائم الوارث، الذي لا ينتهي ولا يزول أبداً، يتنزّه عن الولادة والولد، حي قيوم غني قاهر قوي، تقدّست ذاته، وتسامت صفاته، ﷻ.

وإذا كان كمالُ الإنسان في عبوديته لله تعالى وتذلل له، وخضوعه لأمره وشرعه، فإن كماله جل وعلا في غناه ووحدانيته، وكبريائه، واقتداره.

فكمالُ المخلوق في العبودية، وكمال الخالق في الغنى والوحدانية، سُبح قُدوس رب الملائكة والروح، ورب كل شيء ومليكه:

﴿خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

- ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].
- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
- ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].
- ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

هذه هي المعاني الأساس الكبرى في موضوع سورة مريم، مريم الفتاة العذراء، البتول، مريم الصديقة، الطاهرة، المنذورة، ربيبة الأصفياء والأتقياء، مريم أم العبد النبي الرسول عيسى عليه السلام، اللذين ضلَّ بسببهما كثير من الناس، فوقعوا في مهاوي الشرك والضلال، فوصفوا الله تعالى بصفات لا تليقُ بكماله وجلاله ووحدانيته وغناه، وما قصَّة نبي الله زكريا عليه السلام إلا تمهيد لها.

#### ● ملاحظة هامة:

ذكر الله تعالى بداية القصة في سورة آل عمران، وأكملها في سورة مريم، وهنا ملاحظة جديرة بالتذكير، فقد نزلت سورة مريم في السنوات الأولى من البعثة النبوية الشريفة، قبل أن يهاجر بعض الصحابة إلى الحبشة فراراً من أذى المشركين في مكة، دلَّ على ذلك أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أحد المهاجرين إلى الحبشة، قرأ صدر سورة مريم على النجاشي ملك الحبشة.

فعن أم سلمة رضي الله عنها - وكانت من المهاجرات إلى الحبشة - قالت: أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم، كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أسافقته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذين فارقتُم به قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحدٍ من هذه الملل؟.

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام،

وُنُسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيَّ مِنَ الضَّعِيفِ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعِفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ - قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقَنَا وَأَمَنَا بِهِ... فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمَنَا فَعَدَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا... فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَلَّا نُظَلَّمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

فقال له النجاشي: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيء؟

فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ.

فقرأ عليه صدرًا من ﴿كَهَيَّعَ﴾ فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

[رواه ابن إسحاق في السيرة (٩٠/١) مطولاً، وأحمد في المسند (٢٩٠/٥)].

بينما نزلت معظم آيات سورة آل عمران في السنة التاسعة من الهجرة، بسبب قدوم وفد نصارى نجران على النبي ﷺ، ومجادلتهم له حول حقيقة عيسى عليه السلام، فأنزل الله تعالى في سورة آل عمران الحلقات الأولى من قصة عيسى عليه السلام وأمه مريم، بين فيها حقيقة عبوديته لله تعالى، وأنه تعالى خلقه كما خلق آدم عليه السلام، وأن دين الله تعالى هو الإسلام، القائم على الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، والانقياد لأمره وشرعه، وهو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين عليه السلام، وأن القرآن الكريم يشهد بصدق نزول التوراة على موسى، ونزول الإنجيل على عيسى عليه السلام<sup>(١)</sup>.

فبداية قصة عيسى عليه السلام وأمه في سورة آل عمران، وقد تأخر نزولها حتى

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

السنة التاسعة من الهجرة، وتتمة القصة في سورة مريم وقد تقدّم نزولها في السنوات الأولى من بعثته عليه الصلاة والسلام.

وقد ركزت آيات سورة آل عمران على شخصية مريم، فأبرزت عناية الله تعالى بها منذ أن كانت جنيناً في رَحِمِ أمها، كما ركزت الآيات أيضاً على المعجزات التي أجزاها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام تأييداً لنبوته، وبيّنت مضمون رسالته التي أرسله الله بها، وهذه الجوانب تتفق مع الموضوع الأساس لسورة آل عمران، وهو بيان أن القرآن الكريم هو الفرقان بين الحق والباطل، وهو المصدّق للتوراة والإنجيل، فكل ما يوجد فيهما مما يخالف القرآن الكريم ويعارضه لا صحّة له ولا أصل، بل هو طارئٌ عليهما بسبب التحريف والتغيير اللذين حدثا فيهما، وتتفق أيضاً مع سبب نزول الآيات، وهو احتجاجُ نصارى نجران على مزاعمهم الباطلة في عيسى عليه السلام بالمعجزات التي أجزاها الله تعالى على يديه تأييداً لصحة نبوته وصدق رسالته.

بينما ركزت الآيات في سورة مريم - كما سيأتي - على كيفية حملها بعيسى عليه السلام، وولادتها له، وعنايته سبحانه بها في أثناء ذلك، وكيفية مواجهتها لقومها بعد ولادتها، وكلام عيسى عليه السلام في المهد دفاعاً عن أمه، وبياناً لحقيقته، ثم اختلافُ النصارى في حقيقته، وتخطيهم فيها، وكل هذه الجوانب لها صلةٌ كبيرةٌ بالموضوع الأساس للسورة، وهو بيان كمال الله تعالى وغناه، ووحدانيته، وتنزهه عن الشريك والصاحبة والولد.

وهذا يدلنا على أن نزول القرآن الكريم على حسب المناسبات يختلف عن ترتيب آياته في السور، وأن اختلاف ترتيب نزوله عن ترتيبه في السور لم يؤثر على اتساق آياته واتفاقها فيما بينها، مما يظهرُ وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فتفرق نزوله منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة لم يؤثر على إحكامه واتساقه، ممّا يؤكدُ أنه من كلام الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

## • الرب سبحانه والعبد:

ومعنى قوله تعالى:

﴿ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرًا﴾ أي: هذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي «صحيح مسلم» [٢٣٧٩]: أنه كان نجاراً، يعمل من عمل يده في النجارة<sup>(١)</sup>.

والخطاب في الآية للنبي ﷺ، وأضيفت كاف الخطاب إلى اسم الله تعالى (الرب) ومعناه: المالك المدبر الخالق، ووصف زكريا ﷺ بصفة العبودية لله تعالى، وهي أشرف الصفات التي يتصف بها العبد، وينتسب بها للرب ﷻ، وقد وصف بها نبينا ﷺ في آيات كثيرة، منها:

قوله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ لِرَبِّهِ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله أيضاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

وهذا يؤكد أن محمداً وزكريا عليهما الصلاة والسلام مخلوقان من خلق الله تعالى، لم تزحزحهما النبوة التي شرفهما الله تعالى بها عن مقام عبوديتهما لله جل وعلا.

وتدل رحمة الله تعالى عبده زكريا على حاجة العبد للرب، وأن العبد مهما ترقى في مدارج الكمال يبقى محتاجاً لفضل ربه وإحسانه، وأن الرب سبحانه رحيمٌ بعباده، فما خلقهم ليعذبهم، إنما خلقهم ليشرفهم بعبادته، ويكرمهم بطاعته، ويسعهم برحمته وإحسانه، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ولعل هذا سر تكرار السورة للاسم الكريم (الرحمن) الذي يدل على كمال الغنى والإحسان، ويشير إلى افتقار الإنسان وحاجته إلى رحمة ربه الرحمن.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٤٢/٢.

## ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٣)

أي: عندما سأل الله تعالى ودعاه دعاءً سرّاً.

ومن المعلوم أنّ الإخفاء والجهر بالنسبة لله تعالى سواء، إلا أنه عند العبد أشدُّ إخبائاً وخضوعاً، وأكثر إخلاصاً وخشوعاً، فهو أحب إلى الله تعالى القائل: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

## • في محراب مريم:

ويبدو أنّ دعاء زكريا ﷺ قد تكرر، وأنّ المرة الأولى كانت في محراب مريم، فقد أكرم الله تعالى مريم بكفالة نبي الله زكريا ﷺ، وكان زوج أختها كما ورد في حديث الإسراء والمعراج الصحيح، فعندما رأى النبي ﷺ يحيى وعيسى في السماء، قال: «فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة»، ورأى بعضُ المفسرين: أنّ زكريا كان زوج خالة مريم، ويمكنُ بهذا القول أيضاً أن يكون يحيى وعيسى ﷺ ابني خالة.

وكانت كفالة زكريا لمريم معجزةً له ﷺ، وتكرمة لمريم الفتاة الصغيرة المنذورة، التي نذرتها أمها، وهي لا تزال جنيناً في بطنها، وتلك هي بداية القصة المليئة بخوارق العادات والمعجزات، بدأت في بيت آل عمران، من بيوت العلم، والعبادة، والصلاح في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) ذُرِّيَّةً بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ [آل عمران].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ معترضاً في أثناء كلام امرأة عمران، لتعظيم المولودة التي وضعتها، وتفخيم شأنها، وما قدر سبحانه أن يجري من الأمور العظيمة الخارقة على يد هذه المولودة.

وختمت الأُمّ الصالحة دعاءها بتعويد الوليدة المنذورة وذريتها بالله ﷻ من شر الشيطان الرجيم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مولودٍ يُولَدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرِيَمَ وَابْنَهَا» [رواه البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٦١٣٣)].

ويدل الحديث على أنه لم يكن لمريم ذرية إلا عيسى عليه السلام، خلافاً لما في الأناجيل التي يتداولها النصارى<sup>(١)</sup>.

وحملت الأُمّ الصالحة وليدتها المنذورة إلى الأحبار والرهبان في المسجد، فاختلفوا في كفالة مريم، كل واحد يريد أن يكفلها ويشرف برعايتها، وهذا يدل على أن مريم ولدت في بيت معروف بينهم بالصلاح والعلم والعبادة، ثم اتفقوا بعد الاختلاف على الاقتراع، وألقوا أقلامهم في النهر، فحمل تيار الماء أقلامهم، وثبت بقدرة الله تعالى قلم زكريا عليه السلام، فعرفوا أن الله تعالى أراد أن يكون زكريا كافلاً لمريم وراعياً لها، وهو سرُّ قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

والآية تدلُّ على أن زكريا عليه السلام خصص لها في المعبد مكاناً خاصاً لتعبد الله فيه، وما كان أحدٌ يدخل عليها غيره، وأنه عليه السلام كلما دخل عليها مكان عبادتها وجدَ عندها رزقاً - أي: طعاماً - وهذا يدل على أن الله تعالى كان يرزقها ما تحتاج إليه من الطعام، وهي في داخل محرابها، وما كانت تحتاج إلى

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).



الخروج ومخالطة الناس طلباً للرزق والطعام، فقد كفاها ربُّها ﷺ المؤمنة بما يسر لها من المعونة.

وكلمة (كلِّما) تدل على التكرار والاستمرار، مما يدل على النشأة الكريمة العفيفة التي نشأت عليها مريم، وأن هذه الكرامة قد تكررت لها.

ويتعجبُ النبيُّ الكريم مما يرى من طعام ورزق عندها، فيسألها سؤال المتعجب: ﴿يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أي: من أين يجيء لك هذا الطعام والأبواب مغلقة عليك؟! فتجيبه الفتاة الصالحة الطاهرة جواب الواثق بربه، المطمئن إلى فضله ورحمته: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

أثارت هذه الفتاة الصالحة العابدة مشاعر الأبوة في قلب النبي الكريم زكريا ﷺ، فتوجه إلى الله تعالى بضراعة وخشوع، يسأله الذرية الطيبة الصالحة: ﴿هَٰئِلًا﴾ في محراب مريم ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

#### • دعاء خفي:

ثم كرر ﷺ الدعاء خالياً بنفسه في محراب عبادته:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعف.

وخصَّ العظم بالذكر لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصلب ما فيه، فإذا وهن العظم كان غيره من البدن أوهن أو أضعف.

﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: انتشر في رأسي الشيب.

ولا ترى كلاماً أفصح من هذا وأبلغ، فقله: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ دل على شمول الوهن كلِّ العظام فرداً فرداً، وقله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فيه إسنادُ الاشتعال إلى مكانِ الشعرِ ومنبته وهو الرأس، فأفاد شمول الاشتعال الرأس كله<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: تفسير النسفي: ١٤٦/٤.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: كنتُ مستجاب الدعوة قبل اليوم، سعيداً به، غير شقي فيه، والعربُ تقول: سعد فلانٌ بحاجته: إذا ظفر بها، وشقي: إذا خاب ولم ينلها<sup>(١)</sup>.

فقد عوّده سبحانه الإجابة وأطمعه فيها، والكريم لا يخيب من أطمعه بفضله، وعوّده على إحسانه وكرمه.

#### ● من آداب الدعاء:

وهذا يدلُّ على أن زكريا عليه السلام ما كان مردود الدعاء البتة، وقد توسَّل إلى الله تعالى هذه المرة من وجهين:

أولهما: أنه توسل إلى الله بالله: كما قيل: إن محتاجاً سأل واحداً من الأكابر فقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا. فقال: مرحباً بمن توسَّل بنا إلينا. ثم قضى حاجته. فالمنعُ لا يسعى في إحباط إنعامه الأول، ولو رده ثانياً لكان رده محبطاً للإنعام الأول.

وثانيهما: أن مخالفة العادة شاقة على النفس: فلو تعوَّد إنسان على إجابة الدعاء، وصار بعد ذلك مردوداً، لكان في غاية المشقة، وزكريا تعوَّد على فضل الله تعالى، وإجابته لدعوته، فلو أنه سبحانه رده بعد أن وهن عظمه، وشاب شعر رأسه، لكان ذلك غاية الألم والشقاء له<sup>(٢)</sup>.

وقد علّمنا زكريا عليه السلام بهذا الدعاء أديباً من آدابه، وهو إظهار الضعف والافتقار إلى فضل الله تعالى ورحمته قبل سؤال حاجته، عرض عليه السلام فاقته أولاً، ثم سأل حاجته، واختار من أسماء الله الحسنى الاسم المناسب لحاله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له دعاؤه، فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته<sup>(٣)</sup>.

(١) تفسير النسفي: ١٤٧/٤.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٨٣/٢١.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: ٢٥٤/٣.

واسم (الرب) يناسبُ حال تذلل الإنسان وضعفه وافتقاره، ولهذا نجد أكثر الدعوات القرآنية الكريمة مبدوءةً بهذا الاسم الكريم، الذي يدل على أنه الخالق المالك المدبر لجميع شؤون خلقه، وأنه المرَبِّي لهم، ﷻ.

### • الدعاء بالولد الصالح:

ثم بدأ ﷻ يرفع سُؤله، ويبين حاجته، فقال:

﴿وإني خفتُ المولى من ورأى وكانتِ امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾.

﴿وإني خفتُ المولى من ورأى﴾ أي: أقاربه وأبناء عمومته، وكانوا من الأشرار في بني إسرائيل، فخاف ﷻ ألا يُحسنوا خلافته في منصبه الديني، ومكانته العلمية، وهذا يدلُّ على أنَّ المناصب الدينية في بني إسرائيل كانت بالتوارث، كما كانت مناصب الحكم والسلطان.

﴿وكانتِ امرأتى عاقراً﴾ لا تلد.

﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ أي: أعطني ولداً صالحاً من صلي، يتولَّى حفظ الأمانة الدينية، وحسن القيام بها بعد موتي.

فمراده ﷻ أن يرزقه الله تعالى الولد الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقوله أيضاً: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء].

وتدل الآية على جواز الدعاء بالولد، مع أنه سبحانه قد حذرنا من فتنة الأولاد والأموال في قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن].

وهذا إذا كان الأولاد غير صالحين، فيمكن حينئذ أن يكونوا فتنة لأبائهم

وأمهاتهم، أما إذا كانوا صالحين فإنَّهم يكونون عوناً لآبائهم وأمهاتهم على دينهم، وقرة عين لهم في حياتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

كما يكونون ذُخراً لهم بعد موتهم، فالولدُ الصالحُ أجمل شيء يخلفه الإنسان بعد موته ورحيله عن الدنيا، وصدق رسولُ الله ﷺ بقوله: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» [رواه مسلم (١٦٣١)].

### • ميراث الأنبياء:

ثم بيَّن ﷺ المهمة التي سأل الولدُ من أجلها فقال:

﴿بِرُّنِّي وَبِرِّثٍ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

﴿بِرُّنِّي وَبِرِّثٍ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ﴾ أي: يرثُ علمي ومنصبي الديني، فقد كان رئيسَ الأخبار في بني إسرائيل.

وما أراد ﷺ وراثته المال، فهو نبيٌّ كريمٌ لا تعلق لقلبه بالمال وجمعه وتوريثه، فإنَّ النبيَّ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدرًا من أن يشفقَ على ماله إلى هذا الحد، وأن يأنفَ من وراثته عصباته له، ويسأل أن يكون له ولدٌ ليحوزَ ميراثه دونهم، ولم يكن ﷺ ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه كما مر، ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهَدَ شيء في الدنيا، وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨)]: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً».

وفي روايةٍ عند الترمذي بإسناد صحيح: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «... وَالْعُلَمَاءُ

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٤٤٣/٢

ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياءَ لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكنَّهم ورثوا العلمَ [رواه أبو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣)].

ومرادُ زكريا عليه السلام في قوله: ﴿وَبَرِّثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ النبوة، ومن المعلوم أنَّ النبوة لا تورث، فمعنى وراثته النبوة أن يجعله الله صالحاً لأن يوحى إليه، ولم يرد أن نفس النبوة تورث<sup>(١)</sup>.

فالنبوة لا تكون إلا بمحض فضل الله تعالى لمن يشاء من عباده ويختار: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٤].

ثم ختم عليه السلام دعاءه بقوله:

﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: برّاً تقيّاً صالحاً ترضى عنه.

والولدُ إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج - كما قال القرطبي - من حدِّ العداوة والفتنة إلى حدِّ المسرة والنعمة<sup>(٢)</sup>.

#### • البشارة بيحيى:

واستجاب الله تعالى دعاءه، وناداه سبحانه بواسطة الملائكة:

﴿يٰۤزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

﴿يٰۤزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ ودل على أن النداء كان بواسطة الملائكة قوله سبحانه: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقد تولَّى سبحانه تسميته باسم لم يُسمَّ أحدٌ به من قبلُ تشريفاً له، فقال:

﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ففي الأسماء النادرة تنويه بالمسمى بها.

ويمكن أن يكون معنى ﴿سَمِيًّا﴾ شبيهاً، فما عرف أن المرأة العاقر تلدُ، فلا

(١) تفسير النسفي: ٤/١٤٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١١/٨٠.

مثل له في هذا، وكانت ولادة يحيى من أبوين شيخين كبيرين إرهاباً ومقدمة لما هو أكبر وأعظم في الإعجاز، وهو ولادة عيسى ﷺ من أم بلا أب.

وقد بين سبحانه في الآية السابقة من سورة آل عمران [٣٩] مجموعة من الصفات الطيبة والخصال الرفيعة ليحيى ﷺ بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى ﷺ، ووصف عيسى ﷺ بذلك لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿كُنْ﴾ من دون توسط أسباب، وكان يحيى ﷺ أول من آمن بعيسى وصدق بنبوته ورسالته، أو يصدق بكلمة الله التي أنزلها الله تعالى على عيسى، والمراد بها الإنجيل، ﴿وَسَيِّدًا﴾ بالعلم والتقوى والعبادة، ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: عفيفاً عن النساء، مبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا من تمة البشارة وكمالها، أي: ويكون نبياً معدوداً في عدادهم<sup>(١)</sup>.

#### • تعظيم قدرة الله تعالى:

وغمرت الفرحة قلبَ زكريا ﷺ بهذه البشارة الكريمة، وأقبل على ربِّه يسأله متعجباً من قدرته جلَّ وعلا، ومعظماً لها:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنتُ لِيَ غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾

وهو السنُّ الذي تعتو فيه العظام والمفاصل، أي: تيس وتجف، وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، فلا دواء للهرم والشيخوخة.

ففي «صحيح البخاري» [٥٦٧٨]: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله مِن داءٍ إلا وأنزل له دواءً».

ولأبي داود [٣٨٥٥] والترمذي [٢٠٣٩] بمعناه، وزادا: «غير داءٍ واحدٍ قالوا: وما هو؟ قال: «الهرم»».

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

ويشير إلى هذه الحقيقة قوله ﷺ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

فالضعف قرين الهرم والشيخوخة، وسؤال زكريا ﷺ سؤال المتعجب من قدرة الله تعالى والمعظم لها، لا سؤال المستبعد، فلو أنه ﷺ كان يستبعد قدرة الله على إعطائه الولد لما دعاه وتضرع إليه وسأله الولد، وحاشاه ﷺ - وهو نبي كريم - أن يستبعد قدرة الله تعالى على إعطائه الولد.

ويمكن أنه ﷺ أراد بسؤاله هذا أن يطمئن قلبه بمعرفة كيفية تحقق الوعد. قال سيد قطب رحمه الله: «إنه يواجه الواقع، ويواجه معه وعد الله، وإنه ليثق بالوعد، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه، وهي حالة نفسية طبيعية في مثل موقف زكريا النبي الصالح الإنسان، الذي لا يملك أن يغفل الواقع، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله»<sup>(١)</sup>.

وهو ما فعله إبراهيم عليه السلام عندما سأل الله تعالى أن يريه كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطْمِئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة].

وأجابه سبحانه بقوله:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنُّ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك، فقد رته سبحانه لا يتعاضدها شيء، فهو تصديق منه سبحانه لتعظيم زكريا لقدرته جلًّا وعلا<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنُّ﴾ أي: يسير، فهو سبحانه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء، كما قال في سورة آل عمران: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٠٣/٤.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١٤٨/٤.

ثم ذكّره سبحانه بإيجاده، وخلق له من العدم، فقال:  
﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

### • علامة الحمل:

ثم سأل زكريا عليه السلام ربه جل وعلا أن يجعل له علامة، يستدل بها على بدء حمل زوجته:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة أعلم بها حمل امرأتي.

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: وأنت سوي الخلق، صحيح سليم، من غير خرس ولا بكم، والمراد ثلاث ليال متواليات مع أيامهن، لأنه سبحانه قال في سورة آل عمران: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١] فيحبس لسانك عن الكلام ثلاثة أيام فلا تستطيع تكليم الناس إلا بواسطة الإشارة والإيماء.

ويبدو أن لسانه عليه السلام حُبس عن تكليم الناس فقط، ولم يحبس عن تسبيح الله وذكره، لأنه سبحانه أمره أن يكثر من تسبيحه وذكره في هذه الأيام الثلاثة كما مر معنا في قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ولما جاء الوقت المقدّر لتحقيق البشارة، وحُبس لسانه عليه السلام عن تكليم الناس، أكثر من التسبيح والعبادة شكرًا له ﷻ على ما أولاه وأنعم عليه، ولزم محراب عبادته، وما خرج منه إلا ليحثّ الناس على الإكثار من التسبيح والعبادة، كما قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

في طرفي النهار أوله وآخره.



• يحيى عليه السلام :

هكذا ولد يحيى عليه السلام من أمه التي كانت عاقراً، ووالده الشيخ الكبير الذي وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وقاما على رعايته وتربيته التربية الصالحة، فنشأ عليه السلام وترى في بيت النبوة والصلاح والعلم والعبادة، وأكرمه الله تعالى بخصال حميدة، وأخلاق رفيعة - كما مر معنا - ويسر له سبحانه تعلم التوراة وفهمها منذ أن كان صغيراً، ولهذا نوّه بذكره وبما أنعم عليه، فقال تعالى :

﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۗ﴾

﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلّم الكتاب وهو التوراة، فهو الكتاب المعهود عند بني إسرائيل، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد وحرص واجتهاد. ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: أعطيناه الفهم، والعلم، والجد، والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقتنا<sup>(١)</sup>.

وجعل الله تعالى في قلبه شفقة وعطفاً ورأفة، فقال:

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۗ﴾

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: وآتيناه رحمةً وعطفاً ورأفة. ﴿وَزَكَاةً﴾ أي: طهارة من الدنس والآثام والذنوب، أو بركة، فجعله الله تعالى مباركاً نفاعاً معلماً للخير. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً لله، متجنباً للمعاصي.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٤٥/٢.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ فكان عليه السلام كثير البر لوالديه والإحسان إليهما .

﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ متكبراً متعالياً على الخلقِ والحقِّ .

﴿عَصِيًّا﴾ أي : ولم يكن مخالفاً لأمر الله تعالى ، أو لم يكن عاقاً لوالديه .

ونلاحظ بهذا أن سورة مريم اهتمت بإبراز الجانب الوجداني العاطفي عند الإنسان، كعواطف الأبوة والأمومة، المركوزة في فطرة الإنسان، وتعلق الإنسان بوالديه ومحبه لهما، وكل ذلك تعويض - كما قلنا - عن الشعور بضعفه وقصوره وعجزه، وهذه الصفات تتنافى تنافياً كاملاً مع صفة الألوهية، فالإله كامل، وغني، وقوي، وأزلي، وسرمدي، يتنزه عن الاتصاف بصفة الولادة والولد .

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ أي : أمان عليه من الله تعالى في أشد المواطن والأوقات

التي يمرُّ بها الإنسان :

﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ .



## الْفَصْلُ الثَّانِي

قِصَّةُ عِيسَى وَمَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

﴿وَأذْكَرٌ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِئِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرِيءَ إِلَيْكَ بِجِئِ النَّخْلَةِ سَقِطٌ عَلَيْكَ رَطْبًا حِينًا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَدُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ۞

## • المعجزة الكبرى:

كانت ولادة يحيى عليه السلام من أمه العاقر ووالده الشيخ الكبير مقدمةً وإرهاصاً لمعجزة أكبر منها، بيّن الله تعالى بهذه المعجزة الكبيرة قدرته على خرق الأسباب والنواميس، فقدرته سبحانه طليقة، وهو جلّ وعلا قادرٌ على الخلق والإبداع، من دون أسباب ووسائل ومقدمات.

هذه المعجزة الكبرى هي ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ولهذا قرن الله تعالى بينهما بالذكر في سورة آل عمران، وقرن أيضاً بينهما هنا في سورة مريم، وهاهي الآيات الكريمة بعد أن تحدّثت عن زكريا ويحيى عليهما السلام، تبدأ في الحديث عن عيسى عليه السلام وأمه، وتبين كيفية حمله وولادته، وتكشف للناس حقيقة عبوديته لله تعالى، وكمال قدرة الله سبحانه في إيجاد خلقه، فالبشرية لم تشهد خلق نفسها، وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها، لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث، فشاء الله تعالى بحكمته أن يبرز العجبة الثانية في مولد عيسى من غير أب، على غير السنّة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، ليشهدا البشر، ثم تظلم في سجل الحياة الإنسانية بارزةً فذةً تلفت إليها الأجيال إن عزّ عليها أن تلفت إلى العجبة الأولى التي لم يشهدا إنساناً<sup>(١)</sup>.

﴿وَأذْكَرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾

﴿وَأذْكَرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ بنت عمران، التي نذرتها أمها لعبادة الله تعالى وخدمة المسجد قبل ولادتها - كما مر معنا - وسمتها بعد ولادتها مريم، ومعناها بلغتهم: العابدة، فكان أمها تتقرب إلى الله تعالى بهذه التسمية<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٠٤.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣/٢٩.

ومريم هي المرأة الوحيدة التي ذكرها الله سبحانه في القرآن الكريم باسمها في نحو ثلاثين آية، وقد تولاهما سبحانه بعنايته ورحمته منذ ولادتهما، ببركة دعاء أمها الصالحة لها، وتعويذها وذريتها من الشيطان الرجيم - كما مر معنا - .

ومن عادة الملوك والأشراف أنهم لا يذكرون حرائر زوجاتهم بأسمائهنَّ، بل يكنون عنهنَّ بالأهل والعيال ونحوه، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا، ولم يحتشموا عن التصريح، والسيدة مريم هي المرأة الوحيدة في القرآن التي تكرر التصريح باسمها نحو ثلاثين مرة، وحكمة ذلك الإشارة إلى أنها أمةٌ من إماء الله، وابنها عبدٌ من عبيد الله .

وَقِيلَ تَعَالَى نَذْرُ هَذِهِ الْأُمِّ الصَّالِحَةِ، واستجاب دعاءها، وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿فَنَقَّبَلْنَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكَّرِيًّا﴾ [آل عمران: ٣٧] (١) .

فنشأت في رحاب المسجد، ورعاية نبي الله زكريا ﷺ، ولزمت محراب عبادتها، فلا يدخل عليها أحد غير زكريا ﷺ، ولا تخرج منه إلا في حالات الضرورة .

وكانت الملائكة تكلمها وهي في محراب عبادتها، وتخبرها بما أكرمها الله تعالى به: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] .

ويبدو أن الاصطفاء الثاني غير الأول، فالاصطفاء الثاني لتكون أمًّا لعيسى من غير أب، وليجعلها ربُّها وولدها عيسى آية للعالمين .

ثم كررت الملائكة نداء مريم، فأمرتها أن تزيد من عبادتها وطاعتها لربها، توطئةً للمهمة الكبيرة التي اختارها الله تعالى لها: ﴿يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] .

(١) انظر: تفسير آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

ففي الصلاة عون من الله تعالى على القيام بالأعباء الثقيلة والمهمات الجسيمة قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

تلك هي الصورة الكريمة الوضيئة لمريم الطاهرة العفيفة، العذراء، البتول، في القرآن الكريم، حتى ذهب بعض علماء التفسير إلى القول بنبوتهها، كالإمام القرطبي في تفسيره، إلا أن جمهور العلماء لا يرون نبوتها، لأن النبوة لا تكون في النساء، ولأن الله سبحانه وصفها بالصّديقة في قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِالْبَلَدِ الْأَعْلَمِ أَنْظَرَكُمْ كَيْفَ نَبِئْتُمْ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرْتُمْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وصورتها أيضاً في السنّة الشريفة كريمةً وضيئةً، فعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساءها مريم بنت عمران، وخير نساءها خديجة بنت خويلد» وأشار الراوي إلى السماء والأرض. [رواه البخاري (٣٤٣٢) ومسلم (٢٤٣٠)].

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» [رواه أحمد (١٣٥/٣) والترمذي (٢٨٨٨) وحسنه].

#### • الاعتزال إلى المشرق:

﴿إِذِ انبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: تنحّت واعتزلت من أهلها.

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: اعتزلت في مكان يقع إلى الشرق من مساكن أهلها، وكان اعتزالها إلى جهة المشرق أمراً اتفاقياً، ولا حجة فيه للنصارى على استقبالهم جهة المشرق في صلاتهم.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ يدلُّ على أن مريم ما كانت حينئذٍ في محراب عبادتها في المسجد، فلو كانت ثمة لقال سبحانه: من محرابها.

ويبدو أنها كانت بعد بلوغها وطروء الحيض عليها تترك محرابها في المسجد إلى بيت أهلها، فإذا ما طهرت من حيضها واغتسلت عادت إلى محرابها في المسجد، ويمكن أن يكون اعتزالها أهلها هذه المرة كان للاغتسال من الحيض، أو لقضاء الحاجة، فقد عودنا ربنا سبحانه في القرآن الكريم على

الإشارة إلى أمثال هذه المعاني بما يدل عليها، دون التصريح بها، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله:

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ .

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: جعلت بينها وبين أهلها حجاباً يسترها عنهم.

#### • لقاء مع الروح:

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل عليه السلام، وقد سماه الله سبحانه بهذا الاسم في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقوله أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء].  
وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].  
وعطفه على الملائكة عطفٌ للخاص على العام، تنويهاً بذكره وإظهاراً لمكانته الرفيعة بين الملائكة.

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: جاء إليها بصورة إنسان مستوي الخلق، ولو جاء إليها بصورته الملكية ما أطاقت النظر إليه.

ولهذا كان جبريل عليه السلام عندما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر له، يأتيه بهيئة إنسان، وما رآه النبي صلى الله عليه وسلم بهيئته الملكية سوى مرتين فقط: المرة الأولى في الأرض عند غار حراء، والثانية في السماء ليلة الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَ حِجَّةِ الْمَأْوَى﴾ [النجم].

فالملائكة يستطيعون التشكل والتصوير بغير هيئاتهم وصورهم الملكية التي خلقهم الله تعالى عليها، ولا يتشكّلون إلا بالهيئات الحسنة الكاملة، ولهذا جاء جبريل عليه السلام إلى مريم بهيئة إنسان كامل الخلق.

وما زعمه بعضُ المفسرين من أنه جاء إليها بصورة شاب أمرد وضيء الوجه، جعد الشعر، لتهيج شهوتها به، فتنحدر نطفتها إلى رحمها<sup>(١)</sup> فغير صحيح، لأن خَلَقَ عيسى ﷺ كان أمراً خارقاً لكل النواميس والأسباب، وليس له ارتباط بأي سبب من الأسباب التي جعلها الله تعالى مقدمة لخلق غيره من البشر، وقد ثبت علمياً في العصر الحاضر أن إفراز مبيض المرأة للبويضة، وانحدارها إلى الرحم، غير مرتبط بشهوتها واتصال الرجل بها.

قال العلامة المفسر أبو السعود العمادي رحمته الله: «وأما ما قيل من أن ذلك لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها، فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة، يكذبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ [مريم: ١٨]، فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه»<sup>(٢)</sup>.

#### • المحاورة:

ولمَّا رأَتْ هذا الطارئ الدخيل يقتربُ منها، ويخترق حرمة حجابها، لجأت إلى الله تعالى تستعيذُ به، وتحتمي بحمايته، وقد عوّدها سبحانه على لطفه ورحمته، بما أكرمها به من العناية وأسباب التربية الكريمة في نشأتها:

﴿قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنَّ كُنْتُ نَفِيًّا﴾

أي: تتقي الله تعالى وتخشاه.

وقولها: ﴿إِن كُنْتُ نَفِيًّا﴾ كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، أي: ينبغي أن يكون إيمانك مانعاً لك من الظلم، كذلك هاهنا معناه: ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور<sup>(٣)</sup>.

وبادر جبريل ﷺ إلى تهدئتها، وإزالة خوفها وقلقها:

(١) انظر: تفسير النسفي والبيضاوي: ١٥١/٤.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢٦٠/٣.

(٣) تفسير الخازن: ١٥١/٤.



﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ﴿١٩﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ أي: لأكون سبباً في هبته لك، وفي قراءة ثانية متواترة: (لِيَهَبَ لَكِ).

﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، ينشأ ويتربى في الخير والصلاح. ولا بد في هذه اللحظة التي تسمع فيها جبريل عليه السلام يعرفها بنفسه وحقيقته ويقول لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أن يخلق الله تعالى في قلبها اليقين بصدقه، فلا يبقى قلبها نهباً للشكوك والوساوس، وقلب الإنسان بقبضة قدرته سبحانه يقلبه كيف يشاء، وهو اليقين الذي يخلقه الله سبحانه في قلوب الأنبياء عليهم السلام، عندما ينزل عليهم الوحي بواسطة الملك.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾

وقولها هذا يدل على تصديقها له بأنه رسول ربها، وعلى ثقتها به، ومعناه: كيف يكون لي ولد ولم يمسنني بشر في نكاح، ولم أكن فاجرة تبغي الرجال؟! وسؤالها هذا سؤال المتعجبة من قدرة الله تعالى والمعظمة لها، كسؤال نبي الله زكريا عندما بشرته الملائكة بحيي: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ﴿٨﴾ [مريم] كما مر معنا.

ويؤكد أنها كانت متعجبة من قدرة الله تعالى، ومعظمة لها: أن جوابه عليه السلام لها بواسطة الملك مثل جوابه تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كما قلت، فقدرتة تعالى لا يتعاضمها شيء.

ويدل قول مريم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، على أنها ما كانت تفكر في الزواج، وما كانت مخطوبة لأحد، خلافاً للروايات المذكورة في الأناجيل التي زعمت أن مريم كانت مخطوبة لرجل اسمه يوسف النجار، فلو كانت كذلك ما سألت ربها سؤال المتعجب من قدرته تعالى.

قال ابن كثير رحمه الله: «تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً؟ حاشا لله»<sup>(١)</sup>.

فهي العذراء البتول التي أحصنت فرجها، وصانت عرضها، وشهد الله تعالى لها بذلك في قوله الكريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [التحریم: ١٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: لنجعل خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب آية، تبيّن للناس كمال قدرته سبحانه.

﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ للمؤمنين به الإيمان الصحيح، وهو أنه عبد الله تعالى ورسوله، يدعو إلى عبادته سبحانه وحده، وتنزيهه سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً تعلق به قضاء الله تعالى في الأزل فلا يرد ولا يبدل.

#### • الحمل والولادة:

وحملت به بعد هذه النفخة التي هي سرٌّ من أسرار الله تعالى، فلا يعلم حقيقتها إلا هو تعالى:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾

أي: فاعتزلت وهو في بطنها، إلى مكان بعيد عن أهلها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٨٧/١.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي: فألجأها المخاض، وهو آلام الحمل والولادة.

﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ ولم يقل: إلى نخلة؛ لأنه كان ساق نخلة يابسة.

ويبدو من فاء التعقيب في الآية أن حملها بعيسى ﷺ وولادتها له، كانا بعد النفخة مباشرة في ساعة واحدة، ويؤكد أنه سبحانه قال في وصف خلقه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فثبت أن عيسى ﷺ خلق كما قال الله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، وإنما تعقد تلك المدة في حق من يتولد من النطفة<sup>(١)</sup>.

ولا سند لما ذكره أكثر المفسرين أن مدة حمله كانت تسعة أشهر أو ثمانية أو سبعة، إلا ما ترويه الأناجيل، ولا ثقة لنا بها؛ نظراً لما طرأ عليها من تغيير وتبديل وتحريف.

والمفاجأة التي حدثت لقومها عندما جاءت إليهم بعد الولادة تحمله بين ذراعيها، تؤكد أن حمله وولادته كانا في وقت واحد، فلا يعقل أن تحمل به تسعة أشهر ولا يلاحظون عليها ما يظهر على المرأة الحامل، من تغير في جسدها، واضطراب في مزاجها وسلوكها.

#### • تمنّي الموت:

واشتدت على مريم الآلام الجسدية للمخاض والطلق، حتى اضطرتها إلى التوقف عن سيرها لتبحث عن شيء يمكنها الاستناد عليه، فلم تجد سوى جذع نخلة يابسة قريب منها فاستندت إليه، ولم تنس آلام قلبها ونفسها، والفضيحة التي تنتظرها بين أهلها وقومها، وهي الفتاة العذراء في أول مخاضها، وفي غمرة آلامها الجسدية ووحدها وحيرتها، فتمنّت الموت!

تمنّت الفتاة المؤمنة، العابدة، الصالحة، الموت:

(١) التفسير الكبير: ٢١/٢٠٣.

﴿فَأَلَّتْ﴾ تحدّثت نفسها :

﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾، ولا يتمنى مؤمن أو مؤمنة الموت مهما كانت آلام المحنة شديدة عليه، فلا يجوز تمنى الموت إلا في حالة واحدة فقط، إذا خشي الإنسان المؤمن أن يفتن عن دينه في محنته، عندها فقط يجوز له أن يتمنى أن يميتة الله على الإيمان ليسلم له دينه، فالإيمان أعلى على المؤمن من حياته.

قال ﷺ: « لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بَدَّ مَتَمَنِيًّا فليُقُلْ: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» [رواه البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠)].

بهذا الأدب الرفيع العالي مع الله تعالى يتمنى المؤمن الموت خوفاً على دينه، وما تمت مريم الموت إلا حرصاً على دينها.

﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ أي: شيئاً حقيراً قليلاً، شأنه أن يُنسى ولا يتألم أحدٌ لفقده. وإنما من خلال هذه الكلمات لنكاد نرى ملامح مريم، ونحس اضطرابَ خواطرها، ونلمسُ مواقع الألم فيها وهي تتمنى لو كانت نسياً منسياً<sup>(١)</sup>.

#### ● رحمة الله ﷻ بمريم:

وأدركتها رحمةُ الله تعالى، وحفّت بها ألطافه جل وعلا، وهي في حدة الألم، وذروة المعاناة، والمعونة تأتي على قدر المؤونة، وعلى مقدار الكلفة والمشقة، وكانت الصّديقة مريم في هذه الفترة تمرُّ في محنة عظيمة ومشقة كبيرة، فجاءت معونته سبحانه تفوق كل تصور وتقدير، جاءت من حيث لا يحتسب أحدٌ أن تأتي منه، جاءت من الجانب نفسه الذي امتُحنت بسببه، والله سبحانه لا يتخلّى عن أحبائه وأوليائه.

وحدثت المفاجأة الكبرى والمعجزة العظمى دون تأخير، فما إن انتهت مريمٌ من كلماتها: ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] حتى فاجأها صوتُ المنادي من تحتها:

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٠٧.

﴿فَادْنَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿فَادْنَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ يا الله! الجنين الذي يخرج من أحشائها، وهو لا يزال في السبيل الميسر<sup>(١)</sup> بقدرة الله تعالى، يناديها ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ بأفصح لسان، وأوضح بيان، مواسياً ومرشداً:

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ فالله ﷻ لن يتخلى عنك، وهو سبحانه الذي اصطفاك من بين نساء العالمين لهذه المعجزة الكبيرة، انظري إلى آثار رحمته ولطفه وعنايته.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جدولاً من الماء يسري بأمر الله تعالى وقدرته في هذه اللحظة.

والمسافر إذا وقع على الماء في الصحراء يغشاه الأُنس والسرور، ويمتلئ صدره بالحبور، وتزول عنه وحشة السفر ومتاعبه، فكيف إذا رآه يسري بين يديه للتو واللحظة، يشق الصخر ويثور من بين الحصى والحجر؟! .

﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ إِبْرَئِيلَ إِذْ سَلَّمَ عَلَيْكَ مِنْ نَحْوِ عَنَّا فَخَمَلَ عَلَيْهِ فَصَبَّ عَلَيْهِ وَسْوَءَ مَاءٍ فَمَدَّتْ يَدَهَا إِلَىٰ رَأْسِهِ فَغَسَّاهُ فَمَدَّتْ يَدَهَا إِلَىٰ رَأْسِهِ فَغَسَّاهُ فَمَدَّتْ يَدَهَا إِلَىٰ رَأْسِهِ فَغَسَّاهُ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ إِبْرَئِيلَ﴾ الذي تستندين عليه، هزيه برفق ولطف كما تهز المرأة مهد طفلها.

﴿سَقَطَ عَلَيْكَ﴾ مباشرة وأنت في مكانك لا تتكلمين مؤونة الصعود عليه، ولا الانتقال لجمعه والتقاطه.

﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ طيباً صالحاً للاجتناء لم ييس ولم يجف.

فما أعظم قدرة الله تعالى، يحول بلحظة واحدة الجذع اليابس إلى نخلة كاملة دانية القطوف، يطلع السعف من أعلاه، ومن بين السعف يخرج الطلع، ثم يخضر، ويصفر، ويحمر، حتى يصبح بقدرة الله تعالى رطباً جنيّاً، وكل ذلك في لحظة واحدة، وهذا يؤكد أن مريم حملت بعيسى ووضعته في ساعة واحدة،

(١) إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسْرُهُ﴾ [عبس].

فهناك تشابه بين حمل النخلة وحمل المرأة، فلا يكون حمل في النخلة المؤنثة حتى تؤبّر، وذلك بنقل العناصر المذكّرة إليها، وهاهو جذع النخلة يحدثُ مريم بلسان حاله قائلاً: أتعجبين من قدرة الله تعالى أن خلق منك ولداً، ولم يمسسكِ بشرٌ، وأنتِ فتاةٌ كاملةُ الأنوثة في ريعان حياتها وصباها؟! انظري إلى حملي وشمري، وقد كنت جذع نخلة يابسة لا حياة فيها، أليس حالي أعجب من حالك، وأدل على قدرة الله تعالى وعظمته؟! .

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فكلي من الجنّي، واشربي من السريّ، وقري عيناً برؤية الولد النبي<sup>(١)</sup> .

﴿فِيمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فسألك عن الولد سؤال المستنكر المتمهم .

﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ عن الكلام، وكان مثل هذا النذر جائزاً في شريعتهم .

﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾ فلن يكلفك سبحانه عناء المدافعة والمجادلة ورد التهمة، فقد هيأت العناية الإلهية مدافعاً يتولّى الدفاع عنك، وإظهار براءتك من كل التهم الموجهة إليك .

#### ● المنادي من تحتها:

تلك هي الكلمات التي أنطق الله تعالى بها عيسى عليه السلام، وهو لا يزال في سبيل الخروج تحت أمه، وهو ما ذهب إليه بعض المحققين من المفسرين، قال في «نظم الدرر»: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ [مريم: ٢٤] وهو عيسى عليه السلام<sup>(٢)</sup>، وهو قول

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٩٦/١١ .

(٢) نظم الدرر: ١٥٨/١٢ .

الحسن وسعيد بن جبير<sup>(١)</sup>.

وهو أولى من القول بأن المَلَك هو الذي ناداها من تحتها، فالضمائر كلها ترجع إلى عيسى عليه السلام: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: عيسى ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ﴾ بعيسى ﴿فَنَادَاهَا﴾ أي: عيسى ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ بعيسى ﴿قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي: عيسى. ولو لم يكن عيسى هو المتكلم، ما عرفت مريم أنه يتكلم في المهد، وما أشارت إليه عند مواجهة قومها، ولا يليق بالملك أن يناديها من تحتها، وهي في حال الولادة والانكشاف<sup>(٢)</sup>.

وقد يقال: إنها عرفت أنه سيتكلم في المهد من بشارة الملائكة لها، التي أخبر الله عنها في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِمٌ إِنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران].

لكن هذه البشارة ذكرت أنه يتكلم في المهد، ولم تعين متى يكون كلامه، والطفل يبقى في المهد مدةً طويلةً قد تصل إلى سنتين، فما عرفت مريم أنه عليه السلام يتكلم بعد ولادته، ويدافع عنها إلا بعد سماعها لكلماته هذه من تحتها.

ثم إن كلمة ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ تؤكد أن المتكلم هو عيسى عليه السلام، فالقرآن الكريم لا يأتي بالكلمات جُزافاً، ولا تقع فيه اتفاقاً، دون أن يكون لها مدلول تدل عليه، فما فائدة أن يكون الملك يناديها ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ حتى تحدد لنا الآية مكانه وجهته بالنسبة لمريم عند ولادتها، اللهم إلا أن تريد أن تبين لنا أن المتكلم هو عيسى عليه السلام، أنطقه الله تعالى بقدرته، وهو لا يزال تحت أمه في طور الخروج من رحمها.

#### • المواجهة:

وقرت عينُ أم عيسى العذراء الصّديقة، وهدأ قلبها، وزال عنها حزنُها

(١) واستظهره أبو حيان في البحر المحيط، وروي عن مجاهد ووهب وابن جرير وابن زيد.

كذا في: روح المعاني: ٨٢/٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٢١/٢٠٥.

واضطرابها، فأكلت من الرُّطْبِ المتساقط عليها، وشربت من الماء الجاري عند قدميها، ولقَّتْ وليدَها ببعض ثيابها، وضمته إلى صدرها:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ جاءت به تحمله في وضع النهار، غير خائفة ولا هيابة، لم تنتظر ظلام الليل لتستتر به عن أعين قومها، ونظرات الريبة والتهمة الموجهة إليها، فلن تبالي بكل أقوالهم وشتائمهم ونظراتهم.. منذ قليل كانت حزينه خائفة حائرة تمنى الموت، وأن تصبح نسياً منسياً، وهي الآن تأتي بعيسى قومها تواجههم وهي تحمله، فما أقوى قلبها وأثبت جنانها! وما أعظم رحمة الله تعالى بما أنعم عليها وأعطاهَا، فثبتها في وجه العاصفة وقواها! .

لله درك أم عيسى! لله درك أيتها العذراء الطاهرة البتول! حسبك أن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، حسبك عناية الله تعالى بك، ورعايته لك منذ نعومة أظفارك، وحتى أتم بك المعجزة الكبرى، حسبك أن الله تعالى شهد بعفتك وطُهرتك، وأنطق وليدك العبد الرسول يدفع عنك زور المزورين، وافتراء المفترين .

﴿قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ فظيماً منكراً .

هكذا سارع قومها إلى اتهامها، قبل أن يسألوها عن وليدها الذي تحمله، وغفلوا عن كل ما عرفوا من طُهرها وعفتها وعبادتها، وهذا هو شأن عامة الناس في كل زمان ومكان، أيسرُ الأمور عليهم أن يسارعوا إلى اتهام الصالحين والصالحات، وتشويه سمعتهم، ونهش أعراضهم، وهو ما فعله المنافقون بالصَّديقة بنت الصديق، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عندما أشاعوا عنها حديث الإفك، فوجدوا مَنْ يسمع لهم، ويردد كذبهم، وينشر بين الناس زورهم، وكان عليهم أن يكونوا كما قال الله تعالى في الآيات الكريمة، التي أنزلها في براءة أم



المؤمنين، والتي تُتلى في محاريب المسلمين إلى يوم الدين: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] (١).

ثم بالغ قوم مريم في زورهم وكذبهم، فقالوا لها على سبيل التهكم والتفريغ والتوبيخ:

﴿يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (٢٨).

﴿يَتَّخِذَ هَرُونَ﴾ في عفته ونزاهته وعبادته.

﴿مَا كَانَ أَبُوكَ﴾ عمران.

﴿أَمْرًا سَوِيًّا﴾ فنقول: تأثرت به، ونزعك عرق إليه.

﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ﴾ في وقت من الأوقات.

﴿بَغِيًّا﴾ تبغي الرجال للفجور، وتستميلهم إليها.

استقبلت العذراء الطاهرة عاصفة السباب والشتائم، ونظرات الريبة والاتهام، بثبات ورباطة جأش، فلم يتزعزع يقينها بطهارتها وعفتها، ولم تهتز ثقتها بربها، الذي وعدّها بلسان وليدها أن يدافع عنها:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى وليدها، ليتولّى الدفاع عنها، وردّ التهم الظالمة الجائرة عنها، فقالوا متعجبين:

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ لم يبلغ سن الكلام.

• إني عبد الله:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠).

﴿قَالَ﴾ بصوت واضح، سمعه كل الذين كانوا حولها:

(١) انظر كتابنا: عائشة أم المؤمنين، ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدرها دار القلم بدمشق.

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، والفرد الصمد، والمنزه عن الصحابة والشريك والولد.

أول كلمة أنطقه الله بها ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ بادر ﷺ إلى الإقرار بعبوديته لله تعالى قبل أن يردَّ على أقوالهم، ويكذب افتراءاتهم على أمه، أنطقه الله تعالى بهذا الإقرار الصريح بعبوديته له ﷻ، لأنه سبحانه علم أن كثيراً من الناس سيُفتنون به، حتى يرفعوه في اعتقادهم عن مقام العبودية إلى مقام الألوهية، وتنزيه الله سبحانه عن الاتصاف بصفات الولادة والنقص أوجب الواجبات، وأهم المهمات، ينبغي أن يقدم على تنزيه مريم وتبرئتها من الإفك الذي اتهموها به.

﴿ءَاتَلَنِي الْكَذِبَ﴾ بما قدره سبحانه سابق علمه وقدره.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ بما قدره أيضاً سبحانه وقضاه، والنبي لا يكون أبداً ابن بغي.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ معلماً للخير، نفاعاً في أي مكان حللت ونزلت.

﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وهما أوجب واجبات العبد لربه.

﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فعلى العبد أن يعبد ربه طيلة حياته، فلا يسقط عنه التكليف مهما كانت منزلته أو مرتبته.

وقوله يدل على أنه ﷺ يعبد الله تعالى وهو حي في السماء، كما كان يعبد في الأرض، لأنه لم يمت بعد، يموت في الأرض بعد رجوعه إليها، كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة المتواترة.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ﴿٣٢﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي﴾ أي: وجعلني برًّا بوالدي، أكرمها وأعظمها.

وتصريحه ﷺ ببره بوالدته يؤكد شعوره بضعفه وعجزه، فمشاعر الأبوة

والبنوة تعويضٌ - كما قلنا - عن شعور الإنسان بضعفه وعجزه وافتقاره، وهو يتنافى مع صفة الألوهية التي وصفوه بها كذباً وزوراً.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ متكبراً عاقاً، فعقوق الأم من أسباب الشقاء.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٣٣).

ومن يمر بهذه الأطوار: الحدوث، ثم الموت، ثم البعث، لا يكون إلهاً، تعالى الله وتنزهه عن الحدوث والتغير والتبدل، تقدست ذاته وتسامت صفاته وتباركت أسماؤه.

#### • حقيقة عيسى وأمه:

هذه حقيقة عيسى ابن مريم:

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤).

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهي على خلاف ما يصفه به النصارى من الإلهية والبنوة لله تعالى، فلا صحة لما في الأناجيل المتداولة في أيدي النصارى، مما يتعارض مع توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، فلقد طرأ على الإنجيل كثيرٌ من التحريف والتبديل، والحذف والزيادة، ويؤكد ذلك أن جميع الأناجيل التي يتداولها النصارى أغفلت الحديث عن المعجزة الكبرى لعيسى ﷺ، وهي معجزة كلامه في المهد، مع أن رواية الأناجيل حرصوا كل الحرص على تتبع كل أمرٍ خارق للعادة، أجراه الله تعالى على يد عيسى ﷺ، ولا ندري سبباً لإغفال الأناجيل لهذه المعجزة الكبرى سوى أنها تدل على عبوديته لله تعالى.

وهذه أيضاً حقيقة أمه مريم، الصديقة العذراء، الطاهرة البتول، مع أن بعض الأناجيل ذكرت ما يؤيد افتراءات اليهود، واتهامهم لها بالزنى، فإنجيل متى وإنجيل لوقا عندما تحدّثا عن نسب عيسى ﷺ، ذكرا أنه ابن يوسف

النجار، ومع أنهما اختلفا في أسماء وأعداد أجداد المسيح ﷺ إلا أنهما اتفقا على أن يوسف النجار آخرهم في سلسلة نسب عيسى ﷺ.

وسكتت الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى أيضاً عن الحديث عن بيت آل عمران، وعن امرأته ونذرهما، وما جرى بين الأبحار من خلاف على كفالة مريم، ثم اتفاهم بعد ذلك على الاقتراع، وهو المذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] (١).

هذا التباين الكبير بين ما ذكره القرآن الكريم عن عيسى ﷺ وأمه، وبين ما في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى، يجعلنا لا نثق بما فيها، ولا نجد لدينا مصدراً لمعرفة حقيقة عيسى وأمه أوثق وأصدق من القرآن الكريم، ففيه نجد: ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَارُونَ﴾ أي: يشكون ويتنازعون ويتجادلون.

#### • الصراط المستقيم:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٥).

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ فما من شأنه ﷻ، وهو الواحد الأحد، والأول القديم، والآخر الباقي أزلاً وأبدًا، أن يتخذ ولدًا.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ عما يقول الظالمون، ويفتري المفترون.  
﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أرادته ﷻ.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كما خلق عيسى ﷺ، بكلمة: (كن)، ف (كان) من غير أب، فالإله القادر على الخلق والإيجاد من دون أسباب ومقدمات، ينتزعه عن الاتصاف بصفات المخلوقين، المتصفين بصفات النقص والاحتياج، والحدوث، والتغير، والولادة.

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

فتوحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات المخلوقين هو لبُّ التوحيد وأساسه، وهو الدين الحق والصراط المستقيم، الموصل إلى رضوانه تعالى وجنته:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ وحده .

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهو من تنمة كلام عيسى ﷺ في المهد، أو مما قاله لهم بعد ذلك في سن الكهولة عندما أرسله الله تعالى إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، فهو كقوله ﷺ يوم القيامة في إعلان براءته مما نسب إليه، والذي ذكره سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا نَسَبَ لِنَاسٍ آخِذُوفِي وَابْنِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٧٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٧﴾﴾ (١) .

#### • الاختلاف:

ومع وضوح الحق، وكثرة البيّنات الدالة عليه، اختلف النصارى في عيسى ابن مريم ﷺ اختلافاً كبيراً، قال عنه ﷺ:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزّب كلُّ فريق منهم برأيه، أي: انفرد به .  
 ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: من بين بني إسرائيل الذين أرسل إليهم عيسى ﷺ،  
 فالخلاف نشأ منهم لا من غيرهم في عيسى وأمه:  
 - ففريق قالوا: إنّ الله هو عيسى ﷺ، هبط إلى الأرض، ثم صعد إلى

(١) انظر: تفسير سورة المائدة، المسمى في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

السماء، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

- وفريق آخر قالوا: إنه ابن الله - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ آتَىٰ يُوَفِّكُونَ ﴿٣١﴾ أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

- وفريق آخر قالوا: إنه ثالث ثلاثة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

- وفريق آخر قالوا: إنه ابن زنى، وهم اليهود الذين كذبوا برسالته، والذين قال الله فيهم: ﴿وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

- وفريق آخر قالوا: إنه عبد الله ورسوله، وهم المؤمنون به حقاً، وقد اضطهدتهم الإمبراطورية الرومانية، حتى لم يبقَ منهم إلا عدد قليل كانوا يعيشون في مصر، ثم انقرضوا قبل ظهور الإسلام.

ثم توعد الله الذين كفروا بعد أن بين اختلافهم بقوله الكريم:

﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة لكثرة ما فيه من الأفراع والأهوال.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٨﴾.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أشد سمعهم وبصرهم في هذا اليوم

العظيم، يوم يأتون إلى موقف الحساب بين يدي الله تعالى، فلا نجاة فيه إلا للمؤمنين الموحدين، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» [رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨)].

﴿لَنْ كُنَّ الظَّالِمُونَ﴾ الذين غيروا وبدلوا وانحرفوا عن عقيدة التوحيد، ووصفوا الله بصفات النقص التي لا تليق بكماله وجلاله وغناه.

﴿الْيَوْمَ﴾ في الدنيا.

﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق.

﴿مُتَّبِعِينَ﴾ واضح ظاهر؛ بسبب غفلتهم عن رؤية الحق، وتعطيلهم لعقولهم وأسماعهم وأبصارهم عن النظر المحرر من رُبقة الهوى والتقليد.

#### • يوم الحسرة:

فالقوم منشغلون بأهوائهم، وشهواتهم، ومصالحهم الدنيوية المادية، عن رؤية الحق والانقياد له، فلا ينتفعون بإنذارٍ ووعيدٍ مهما كان شديداً:

﴿وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: خوفهم من يوم القيامة، فهو يوم الحسرة، يتحسر فيه المسيء على إساءته، والمحسن على قلة إحسانه.

﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: عندما يُفرغ من الحساب، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

ويبقى القوم سادرين في غفلتهم، مصرين على كفرهم وضلالهم، رغم شدة الإنذار وقوته:

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عما ينتظرهم في الآخرة.

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

ثم قرر سبحانه كماله وغناه وتفرده وحده بالبقاء والدوام، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فهو وحده المالك على الحقيقة، الذي لا ينقطع ملكه ولا ينتهي، تزول الممالك والملوك، ويبقى مالك الملك، الواحد الأحد القهار، الوارث لكل ملك، لأنه الباقي الدائم، حيث يقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فالولادة والولد من صفات النقص، وهي شأن المخلوقين الفانين الزائلين، يتنزه الله ﷻ عن الاتصاف بها، والذين لا يخرجون عن إرادته سبحانه ومشئته قبل الموت وبعده:

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فمرجعهم بعد الموت إلى مشيئته وحكمه وأمره ﷻ.

وبهذا التقرير الحاسم لكمال الله تعالى وغناه، واتصافه بصفة البقاء والدوام، وتنزهه عن الاتصاف بصفات النقصان، ختمت الآيات الكريمة قصة مريم وولدها عيسى ﷺ.





## الفصل الثالث التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ٤٧﴾ وَأَعْتَرَكُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ مَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إسماعيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إدريسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكَبَّرُوا ٥٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ قَيِّمًا ٦٣﴾ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يُشَاءُونَ وَمَا كُنَّا بِعَدْلٍ مِنْكُمْ وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَدْنَا رَبِّهِمْ كَذِبًا ٦٤﴾ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يُشَاءُونَ وَمَا كُنَّا بِعَدْلٍ مِنْكُمْ وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَدْنَا رَبِّهِمْ كَذِبًا ٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ آءَاذَا

مَا مِثَّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ  
لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ  
أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيبًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مَنَعْنَا كَانِ عَلَىٰ  
رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ أَتَقَوْا وَنَذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ  
آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا  
قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَءِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا  
مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ  
الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَغِيضَاتِ الصَّلِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي  
كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾  
كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَرَدًّا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا  
مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾  
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَذًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾  
يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرَدًّا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ  
السَّفْعَةَ إِلَّا مِمَّنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾  
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾  
وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ  
عَذَابًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴿٩٦﴾

### • ملّة التوحيد:

إبراهيم عليه السلام علم من أكبر أعلام الموحّدين في تاريخ البشرية، فقد دعا إلى التوحيد في البلاد التي كانت أكثر البلاد ازدحاماً بالناس، وأقدمها حضارة ورقياً وعمرانا، في بلاد الرافدين حيث ولد ونشأ، وابتلي من أجل دعوته إلى التوحيد

بما ابتلي به من طغيان المشركين وظلمهم، حتَّى أُلقيَ في نار عظيمة أُججت من أجل إحراقه، فنجَّاه الله تعالى منها، وكانت عليه برداً وسلاماً.

ثم هجر هذه البلاد لله تعالى، وانتقل إلى بلاد الشام، فدعا هناك إلى التوحيد في شمالها وجنوبها، ثم تحوَّل إلى وادي النيل، وهو يدعو إلى توحيد الخالق العظيم وعبادته سبحانه وحده، ثم رجع إلى فلسطين، وسافر إلى الحجاز من أرض العرب، ليرفعَ بأمر الله تعالى قواعد بيت الله الحرام، ويدعو الناس إلى الحج إليه ليعبدوا الله الواحد الأحد في رحابه.

وإبراهيم عليه السلام هو الذي رفعَ إلى الله تعالى هذه الدعوات الكريمة للأمة المسلمة الموحدة ونبياها عليه الصلاة والسلام، وشاركه فيها ولده إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ السَّمِيعُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة﴾.

وقد جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم الكتاب والنبوة، فكل دعاة التوحيد من الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا بعده من فروعه وذريته حتى خاتمهم وإمامهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا كانت ملة إبراهيم هي ملة الموحدين المسلمين إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٨٧﴾﴾ الآية [الحج: ١٨٧] (١).

فكلُّ من ينحرف عن ملة إبراهيم في التوحيد فقد أوقع نفسه بالسفاهة والجهل والحمافة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠].

(١) انظر: (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج) وهو تفسير سورة الحج في هذه السلسلة: (التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم).

وكان ﷺ أمةً في التوحيد والدعوة إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

ولهذا جعله الله تعالى قدوةً لإمام الموحدين وخاتم المرسلين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

فلا عجبَ بعد هذا أن تنتقل آياتُ سورة مريم، وهي سورة التوحيد والتنزيه؛ إلى نبي الله إبراهيم ﷺ، لتعرض لنا جوهر دعوته، من خلال محاورته لأبيه، وهو يدعوهُ إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، وترك ما كان عليه من الشرك والوثنية.

وجاء اختيار الآيات هذا الجانب من دعوة إبراهيم ﷺ لأبيه متفقاً ومتسقاً مع الجو المخيم على السورة، جو الأبوة والبنوة والمشاعر الإنسانية، التي تفيض بها قلوب الأنبياء ﷺ، والتي تدلُّ على كمال بشريتهم وإنسانيتهم، وفي الوقت نفسه تدل أيضاً على عبوديتهم لله تعالى، واحتياجهم وافتقارهم إليه سبحانه جل وعلا.

#### ● الضعفاء المتألهون:

ومنبعُ هذه العواطف وأصلها كما بيَّنا، إدراك الإنسان لعجزه وضعفه، ومحدوديته، هذا الإدراك يقينٌ مركوز في فطرة كل إنسان، وفي كل مخلوق حي، ويستشعر كلُّ إنسان هذه الحقيقة ويحس بها، إلا أنها تنتقل أحياناً إلى أعماق اللاشعور عند بعض المتألهين من المتكبرين والمتجبرين، فيظنون أنفسهم أقوياء، بسبب ما بأيديهم من بعض أسباب القوة والسلطان، فإذا ما نزعَت هذه الأسباب من أيديهم، عاد إلى ساحة شعورهم إدراكهم الفطري الغريزي بالضعف والعجز، وعادوا إلى معرفة افتقارهم واحتياجهم لخالقهم سبحانه.

انظر إلى فرعون المتأله الذي كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

ويقول أيضاً لأهل مصر: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

انظر إليه عندما انخلع عن أسباب ملكه وسلطانه، ووقع بين الأمواج في البحر ماذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وانظر إلى طاغية قوم إبراهيم عندما واجهه إبراهيم ﷺ بحقيقة عجزه وضعفه، كيف بُهت ودهش، وانخضم وانقطع: ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالكمال الإنساني مرتبطٌ بمدة إحساس الإنسان بحقيقة ضعفه، وافتقاره وعبوديته لله تعالى، والأنبياء ﷺ أكملُ الناس، لأنهم أكثرُ الناس إحساساً بافتقارهم وعبوديتهم لله ﷻ، فلا عجب أن تكونَ مشاعر الأبوة والبنوة، وهي تعويض عن الإحساس بالعجز والضعف، أقوى في قلوبهم وأنصح في نفوسهم وضمائرهم<sup>(١)</sup>.

وقد بينت لنا آياتُ السورة في أولها قوة عاطفة الأبوة عند نبي الله زكريا ﷺ، وأظهرت لنا من خلال صفات نبي الله يحيى ومن خلال كلمات نبي الله عيسى ﷺ قوة عاطفة البنوة عندهما، وتنتقل الآيات الكريمة الآن إلى النبي الكريم إبراهيم ﷺ لتعرض لنا صورةً أخرى من صور البر والحنان، بر الولد بأبيه.

#### • أدب الولد مع والده:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ أي: مبالغاً في الصدق، في دينه وعبادته، ودعوته، وفي كل شؤون حياته.

(١) انظر: الأنساب والأولاد، للمؤلف، وهو من مطبوعات دار القلم بدمشق.

﴿يَنبَأُ﴾ جمع الله تعالى له المقامين، وشرّفه بالمنزلتين: منزلة الصّديق، ومنزلة النبي.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ أزر صانع الأصنام، وسادن من سدنة الأوثان، صرح الله تعالى باسمه في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَا زَرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَدْتُكَ وَوَعْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿يَتَأَبَّتْ﴾ ناداه بمقام الأبوة احتراماً له وتأليفاً، ومن حقوق الوالد على ولده ألا يناديه إلا بما نادى إبراهيم ﷺ أباه.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ لقد سلك ﷺ في دعوة أبيه أحسن منهاج، واحتجّ عليه أبلغ احتجاج، بدأ بتخلية قلبه عن تعظيم الأصنام، فبين له أنها لا تستحق شيئاً من العبادة والتعظيم لعجزها وضعفها، فهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تجلب نفعاً لعبدها، ولا تدفع عنه ضرراً.

ثم لفت نظر أبيه إلى ما أكرمه الله تعالى به ومنّ عليه من النبوة، فقال مكرراً نداه بصفة الأبوة لما فيها من الاستعطاف والاستلطاف:

﴿يَتَأَبَّتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَتَأَبَّتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ وهو النبوة، وهي علمٌ وهبي لا كسبي، يتفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده.

﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ تأدب ﷺ مع أبيه، فلم يواجهه بوصفه بصفة الجهل التي كان عليها بسبب شركه وكفره، فعبر عنها بقوله: ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾. ثم دعاه متلطفاً متأدياً:

﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: أدلك على الطريق المستقيم والدين القويم، وهذا من أدبه ﷺ مع أبيه، جعل نفسه معه كدليل ورفيق في الطريق.

ثم بين إبراهيم لأبيه أن عبادة الأصنام ليست إلا طاعة للشيطان؛ لأنه مؤسسها الأول وراعيها، والداعي إليها:

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ بطاعته في عبادة الأصنام، فطاعة الشيطان خضوع له وعبادة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يس].

ولهذا عندما يتبرأ الشيطان من أتباعه وأوليائه يوم القيامة، يقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].  
فطاعة الشيطان نوع من أنواع الشرك بالله تعالى.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فالشيطان عاصٍ للرحمن الذي عمّت رحمته وإحسانه جميع خلقه.

ثم حذره من سوء العاقبة بهذا الوعيد المشوب بعاطفة الشفقة واللطف، شفقة الولد على والده:

﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ إن أقمّت على الشرك والكفر.

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: قريباً له في العذاب وقريباً منه في النار.

أما الوالد المعاند، فقد قابل عطف ولده، وبره وإرشاده، بالفظاظة والغلظة والعناد:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابِرْهِمْ ﴿٤٦﴾ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهَ لِلْأَرْحَمٰنِكُ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابِرْهِمْ﴾ فلم يقل له: (يا بني) مقابل قول

إبراهيم: ﴿يَتَابَتِ﴾ .

وقدّم الاستنكار وأخّر النداء، ثم أضاف إليه التهديد والوعيد:  
﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُ﴾ عن دعوتك إلى عبادة الله، وانصرافك عن عبادة الأصنام.  
﴿لَأَرْجِمَنَّكَ﴾ أي: لأرمينك بأنواع الدم والشتم، أو بالحجارة حتى الموت،  
فاحذرنني.

﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وابتعد عني واعتزلني زماناً طويلاً.  
وبقي إبراهيم عليه السلام على رفته وعطفه، وأدبه مع أبيه، رغم ما لقي منه من  
غلظة وخسونة وجفوة:

﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧).

﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ توديع ومشاركة، على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي:  
لا أصيبك بمكروه، ولا أشافهك بما يؤذيك، وهو نظير قوله تعالى: ﴿لِنَأْمُرُنَّكَ  
وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] (١).  
﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي: سأدعوه بأن يغفر لك، بأن يوفقك للتوبة،  
ويهديك إلى الإيمان.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ عظيم البر والإكرام.  
فالاستغفار الذي وعد إبراهيم أباه هو طلب الهداية له والتوبة، ولهذا قال  
في دعائه: ﴿وَأَغْفِرْ لِي يَا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وهو جائز ما دام المستغفر له في الحياة؛ لأنه يُرجى منه الإيمان، أما إذا  
مات على الكفر فلا يجوز الاستغفار له، بمعنى طلب المغفرة له، قال تعالى:  
﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ  
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا  
إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة].

وقد يقال: إذا كان الأمر كذلك؛ فلمْ مُنعنا من التأسّي بإبراهيم في قوله

(١) انظر: روح المعاني: ٩٩/٦.



تعالى: ﴿فَدَّ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفْرًا بِكُرِّ وِبِدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ [الممتحنة]؟.

لعل سبب ذلك: أن أكثرنا لا يفرقون بين الاستغفار بمعنى طلب الهداية لمن تُرجى منه، وهو جائز، وبين الاستغفار بمعنى طلب المغفرة لمن مات على الكفر، وهو غير جائز.

أو لعل استغفاره ﷺ لأبيه كان من خواصه، ومباحاً له ﷺ<sup>(١)</sup>.

### • المهاجر الأول:

وهجر إبراهيم ﷺ أباه وقومه وبلاده من أجل دينه وعقيدته، فهو المهاجر الأول في سبيل التوحيد، هاجر إلى الله من أجل الله، وفي سبيل الله ﷻ، وخرج ومعه زوجته وابن أخيه لوط ﷺ بعد أن ألقاه قومه في النار، ونجاه الله منها، وجعلها برداً وسلاماً عليه، خرج وهو يقول: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩].

وهده الله سبحانه إلى الأرض المباركة في بلاد الشام: ﴿وَجَعَلْنَاهُ لوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وأعلن ﷺ قبل أن يغادر بلده، ويتعد عن أهله وقومه اعتزاله لهم، وبراءته من شركهم وكفرهم، فقال:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا﴾ ﷻ.

أي: وأرجو أن يستجيب الله دعائي، وألا يخيب رجائي، فقد عودني سبحانه على فضله ورحمته.

وقد سبق معنا في أول السورة أن زكريا عليه السلام قال أيضاً في دعائه: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

ووهب الله تعالى له الذرية الطيبة مواساةً له في عُربته:

﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (٤٩).

﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: اعتزل قومه ومظاهر شركهم وكفرهم.

﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل الذين اعتزلهم من أبيه وقومه الكفرة.

ولم تأت هذه الهبة الإلهية بعد الهجرة مباشرة، فالمشهور أن أول ما وهب الله له من الأولاد إسماعيل عليه السلام، استجابة لدعائه بعد هجرته من بلاده، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٥٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿٦١﴾ [الصافات].

وكان إسماعيل من هاجر، ثم حملت زوجته الأولى سارة بإسحاق، وقد تزوج في حياة أبيه إبراهيم وولد له يعقوب عليه السلام.

ولعل ترتيب هبة إسحاق ويعقوب هنا في الآية، على اعتزال إبراهيم لأبيه وقومه، لبيان كمال عظم النعمة التي أعطاها الله تعالى لإبراهيم، بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء، وأخر سبحانه ذكر إسماعيل، لأنه أراد أن يذكره بفضله على الانفراد<sup>(١)</sup>.

وَأَتَمَّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَى إِسْحَاقَ وَوَلَدَهُ يَعْقُوبَ فَأَكْرَمَهُمَا بِالنَّبُوَّةِ:

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وهذا من فضله تعالى ورحمته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ (٥٠).

أي: جعلنا لهم ذكراً حسناً رفيعاً بين الناس.

(١) انظر: روح المعاني: ١٠٢/٦.

## • موسى وهارون ﷺ :

ثم ذكرت الآياتُ بعضَ الأنبياءِ العظام، الذين تفرَّعوا من ذرية إبراهيم من فرع إسحاق، فقال تعالى :

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ .

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام : استخلصه الله تعالى واصطفاه، وبكسرهما : وحَّد الله تعالى بعبادته، فلم يعبد سواه .  
﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ نبأه الله تعالى وأنزل عليه التوراة .

﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أوحى الله تعالى إليه، وكلمه بجانب جبل الطور في صحراء سيناء، من الشجرة التي كانت على يمين موسى ﷺ، حين عاد من مدين إلى مصر .  
﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ تقريب منزلة ومكانة، وشرَّفه جلَّ وعلا بمناجاته وأسمعه كلامه .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ .

فقد سأل موسى ﷺ ربه فقال : ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرْزَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ سَسْجَعَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿طه﴾ .

## • إسماعيل عليه السلام :

ثم ذكرت الآياتُ الفرعَ الثاني للنبوة، المتفرعة من ذرية إبراهيم عليه السلام :

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ .

أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة، وخصه بصدق الوعد - وإن كان موجوداً

في غيره من الأنبياء ﷺ - تشريفاً له، ولأن صدق الوعد من أشهر خصاله ﷺ، حتى إنه لما وعد أباه إبراهيم بالصبر على ألم الذبح صدق في وعده لأبيه، وذلك عندما أراد إبراهيم ﷺ أن يذبحه تنفيذاً لأمر الله تعالى له بذلك، كما قال تعالى: ﴿فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَتَّبِعُ أَخَاكَ وَسَتَنَدُّكَ إِن سَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١١٧﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَّبِعْ إِبرَاهِيمَ ﴿١١٨﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّبِيَّ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْءَأُ الْمُنِينِ ﴿١٢٠﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٢١﴾ [الصافات].

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وهي من الخصال الشريفة الحميدة التي عُرف بها إسماعيل ﷺ، وهي من أهم الواجبات التي كُلف بها الإنسان نحو أهله، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]. ويأمر أيضاً قومه بها.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وهذا نهاية في المدح، لأن المرضي عند الله تعالى هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر سبحانه إدريس ﷺ، وهو من الأنبياء المتقدمين في الزمن على إبراهيم ﷺ؛ ليبين لنا أن دعوة التوحيد قديمة لم تبدأ في عهد إبراهيم ﷺ، بل كانت قبله، ونادى بها الأنبياء منذ بدء الوجود البشري على الأرض:

﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ .

وجمع الله تعالى له مع شرف النبوة والصديقية المكانة الرفيعة العالية عنده جللاً وعلا:

(١) تفسير الخازن: ١٦٥/٤ .

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ .

### • صفتان متلازمتان:

ثم بعد أن ذكرهم سبحانه بأفرادهم وأعيانهم، ذكرهم على وجه الإجمال مشيراً إليهم بقوله الكريم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٨﴾ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ أي: من أولاد آدم، كإدريس عليه السلام، فهم موصوفون بصفة الولادة التي تدل - كما قلنا - على عبوديتهم لله تعالى الذي أنعم عليهم، وفصلهم على غيرهم.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ كإبراهيم عليه السلام، أي: وهم متفرعون بالولادة ممن كانوا مع نوح في السفينة.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كإسماعيل عليه السلام.

﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ يعقوب، ومن ذريته: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليه السلام.

ثم بين سبحانه كثرة عبادتهم وخضوعهم له جل وعلا فقال:

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي: وهؤلاء ممن هداهم الله تعالى لعبادته، واصطفاهم لنبوته ورسالته.

﴿إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي: سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعالى وحده، باكين من خشيته جل جلاله.

ويلاحظ المتدبر لآية الكريمة أنها أبرزت من صفاتهم صفتين متلازمتين، هما:

- صفة الولادة التي تدل على الحدوث والضعف والعجز.

- صفة الخضوع لله تعالى والخشية منه.

وهذا يؤكد عبوديتهم لله تعالى، وينفي عنهم أي صفة من صفات الألوهية.  
وهذه الآية من آيات سجود التلاوة في القرآن الكريم التي يُسَنُّ السجود لله تعالى عند تلاوتها أو سماعها.

#### • اتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ:

ورحل هؤلاء الأنبياء عن الدنيا عندما حانت آجالهم، وانقضت أعمارهم، وتركوا وراءهم أولادهم وذريتهم، الذين أصبحوا مع مرور الأيام أجيالاً كثيرة متعاقبة، فكيف كان حال هذه الأجيال؟:

﴿خَلَفَ مِنْ بَدَلِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿خَلَفَ مِنْ بَدَلِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ بتركها أو بتغييرها وتبديلها، ومن أضاع الصلاة، وهي عمود الدين وركنه الركين، فهو لما سواها أضيع.

والسبب الرئيس لانحرافهم عن منهج الصالحين من آبائهم: اتباعهم للشهوات، وانهماكهم في الملذات:

﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ وكلمة ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ تدل على الانقياد والاستسلام، فقد أسلموا زمام أنفسهم للشهوات والنزوات، فقادتهم إلى الفساد والضلال، في مختلف شؤون الحياة.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ أي: سوءاً وفساداً وضلالاً في الدنيا، وعذاباً شديداً في الآخرة، فمسؤولية الإنسان أمام الله تعالى مسؤولية شخصية: ﴿وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَرَزَّ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولا يُسأل الآباء عن ضلال أبنائهم، ولا ينتفع الأبناء الكفرةً بصلاح آبائهم البررة، إلا إذا كانوا مؤمنين، فحينئذٍ ينفع الله بعضهم ببعض، ويلحق المقصّرين بالسابقين، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [الطور: ٢١].

## • الوعد المأتي:

ثم فتحت الآيات الكريمة باب التوبة لعبيد الشهوات، المنهمكين بالنزوات والملذات، بقوله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ بالندم على ما سبق.

﴿وَأَمَنَ﴾ بالله الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أصلح به ما أفسده باتباع شهواته.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون التائبون.

﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بفضل سبحانه ورحمته.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ ﴿٦١﴾.

وفي الجنة:

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أعدّها الله تعالى للإقامة الدائمة فيها.

﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ المؤمنين التائبين، فصفة العبودية لله تعالى صفة دائمة

لازمة لهم.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: وعدهم بها وهي غائبة عنهم وهم غائبون عنها، ولكنهم

مصدقون بوجودها، وواثقون بوعد الله سبحانه بها.

﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ أي: إنَّ الحال والشأن أن وعده تعالى لا بد أن يتحقق،

ولا بد أن يأتي المؤمنون إلى الجنة التي وعدهم سبحانه بها، فوعده سبحانه

لا يتخلف، فهو كقوله: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

والجنة دار السلام، لسلامتها عن المنغصات والمكدرات، ولهذا قال الله

في وصفها:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلاماً لا فائدة فيه .

﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ ولكن يسمعون الكلمات التي تدل على المحبة والمودة، والتي يحب الإنسان أن يسمعها، وَيَسْلَمُونَ بها من كل عيب أو نقيصة، فكلام أهل الجنة لا كذب فيه، ولا نميمة، ولا غيبة، ولا شتيمة، ولا سخرية .  
﴿وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: لهم رزق دائم لا ينقطع عنهم ولا ينتهي .

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ دار السلام والنعيم والخلود .

﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: نعطيها لمن كان من عبادنا الأتقياء

الصالحين .

#### • خضوع الملائكة لله تعالى:

والله سبحانه خالق كل شيء ومالكة، سواء كان في الأرض أو في السماء، والمخلوقات كلها في قبضة قدرته سبحانه، وخاضعون لقضائه ومشيئته، وهامم سكان السماء من الملائكة يعلنون هذه الحقيقة، حقيقة خضوعهم لله تعالى، فلا يتحركون إلا بأمره ومشيئته ﷻ:

﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال ذلك للنبي ﷺ جبريلُ القويُّ الأمين عندما سأله النبي ﷺ قائلاً: «يا جبريلُ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ . [رواه البخاري (٤٧٣١)] .

أي: فله سبحانه ما أمامنا وما خلفنا من الأماكن، وما نحن فيه، فلا نتنقلُ



من مكانٍ إلى مكانٍ إلا بأمره ومشيتته، فهو الحافظ والعالم بكل حركة وسكون، ولا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بأمره ومشيتته.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يتنزّه سبحانه عن الغفلة والنسيان وعن كلِّ صفةٍ تدل على العجز والضعف والنقصان. وهو:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٥﴾﴾.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ﴾ وحده، فلا ربَّ سواه، ولا إله غيره.

﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي: دُم على عبادته وطاعته، والخضوع لأمره ومشيتته، فإذا عرفت فالزم، فإذا عرفت الله تعالى بكماله وغناه ووحدانيته، فالزم الخضوع له وحده.

وكلمة ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ تدل على أن للعبادة أعباء وتكاليف، ففيها مكابدة لشهوات النفس وميولها، وتستدعي صبراً على احتمال تكاليفها، والتجرد الكامل عن العلائق ومجاورة للعوائق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس].

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم الله تعالى شبيهاً ومثلاً ونِدّاً. أو: هل تعلم أحداً يُسَمَّى باسم الله غيره. وعلى كلا المعنيين فالاستفهام تقرير لوحدانيته جل وعلا وتنزهه عن الشريك والصاحبة والولد.

#### ● الإيمان بيوم القيامة والتنزيه:

ويستدعي توحيد الله سبحانه وتنزيهه الإيمان بيوم القيامة، وما فيه من حسابٍ وعقابٍ وثوابٍ، فلا يُعقل أن يخلق الله تعالى هذا الكون الكبير ويُدبره هذا التدبير، ثم ينتهي بالموت والفناء، يتنزّه الخلاق العظيم، والعليم الحكيم، عن اللعب والعبث والباطل؛ ولهذا قال جل وعلا لمنكري يوم القيامة والبعث: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ فتعلّى الله الملك الحقّ لا إله إلا هو رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿المؤمنون﴾.

وقال لهم أيضاً: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ مُضْتَمًّا ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَخْلَقَ فَسَوَىٰ ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿﴾ [القيامة].

وإذا ما نظر الإنسان في نفسه، وتفكر في المخلوقات من حوله، لا بد أن يدرك سر خلقه وحكمة وجوده، فيقر بها قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿﴾ [آل عمران: ١٩١].

يتنزّه الله جل وعلا عن الباطل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص].

ويتنزّه أيضاً عن اللعب وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴿٦٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء].

والقائل أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴿٧٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿﴾ [الدخان].

ولا يكون الخلق بالحق إلا بالحساب والمسؤولية في يوم القيامة، فانظر كيف قرن الله تعالى بين الخلق والحق ويوم القيامة في قوله الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿﴾ [الحجر: ٨٥].

#### • استنكار واستبعاد:

ولهذا كان الإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الكبرى؛ لما له من ارتباط وثيق بتنزيه الله ﷻ عن صفات النقصان، فهو من قضايا الإيمان الكبرى التي اهتم بها القرآن الكريم، وأنزل الله فيها كثيراً من الآيات الكريمة، يرد فيها على المشركين المنكرين ليوم القيامة، فقد كان كثيراً من العرب في الجاهلية يستبعدون إعادة الإنسان إلى الحياة بعد أن يموت ويتفتت ويصبح تراباً.

وكثيراً ما حكى الحق سبحانه استبعادهم هذا، ثم ردّ عليهم ببيان كمال علمه وقدرته جل وعلا، ومنزهاً نفسه عن العجز والضعف، قال سبحانه:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ .

والمراد من (الإنسان): الإنسان المنكر ليوم القيامة الذي يقول ذلك على وجه الاستنكار والاستبعاد.  
وردَّ سبحانه عليه بالأسلوب نفسه، أسلوب الاستفهام الذي يدل على الاستنكار:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ .

كان على هذا الإنسان أن يتذكَّر كمال قدرة الله جل وعلا عندما خلقه أول مرة، وأخرجه من العدم، ولم يكن شيئاً، فأخرجه إلى الوجود بقدرته، وجعله شيئاً بمشيئته وحكمته، فلو تذكَّر هذه الحقيقة لما أنكرَ يوم القيامة، ولما استبعد قدرة الله على إعادة خلقه مرة ثانية، فهو كقوله سبحانه للمشرك المكابر الذي جاء بعظمٍ بالٍ إلى النبي ﷺ ففتَّه أمامه قائلاً: يا محمَّدُ، هل يستطيع ربك أن يعيد هذا العظم بعد أن رمَّ ويلي؟! فأنزلَ اللهُ ردًّا عليه وعلى أمثاله من المنكرين ليوم القيامة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٦٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعُظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٦٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس]. [رواه الحاكم (٤٢٩/٢) وصححه، ووافقه الذهبي].

#### • الجاثون حول جهنم:

إن الله سبحانه يغضبُ من مثل هذا المخلوق الضعيف وهو يتجرأ عليه ﷻ، ويصفه بصفات الضعف والعجز والنقص، وإننا لنستشعرُ آثار غضبه جل وعلا من خلال كلماته:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أقسم سبحانه باسمه المقدَّس الذي يدل على ربوبيته لكل مخلوقاته، مع إضافته إلى نبيه ﷺ تفخيماً لشأنه، وتنوياً بذكره.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي: لنجمعنَّ الكفارَ المنكرين ليوم الحشر، مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا سبب ضلالهم وكفرهم.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ وهم في نهاية الذلة والمهانة جالسين على رُكَبهم.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (٦٩).

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ﴾ أي: ثم يخرجُ الله تعالى.

﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة وطائفة.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ رؤساء الكفر والضلال فيها، فهم المتكبرون

المتجبرون، المنكرون لإحسان الرحمن.

وتأمل تركيز السورة على الاسم الكريم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ من أسمائه سبحانه

الحسنى هنا في الآية، وفيما مرَّ معنا من الآيات؛ مثل:

﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ إِذْ يَأْتِيَنَّ الرَّحْمَنَ﴾ [مريم: ٥٨].

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ [مريم: ١٨].

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥].

وسياتي أيضاً ذكر هذا الاسم الكريم في عدد من آيات السورة، وهذا يدل

على اتصاف الله بكمال الغنى، وكمال الإحسان على عبده الضعيف الإنسان،

كما رحم عبده زكريا عليه السلام: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢].

وكلمة ﴿لَنَنْزِعَنَّ﴾ تدلُّ على الجذب بقوة وشدة وعنف، وهي تقابل العتو

وهو التكبر، والتجبر، ومجاوزة الحد، والجزاء من جنس العمل، وتدل أيضاً على

أنَّ لله سبحانه مع صفة الرحمة التي غمرهم إحسانها وبرُّها، صفات أخرى من

الجلال والكبرياء، والجبروت والانتقام<sup>(١)</sup>، وهي أيضاً من صفات كماله جل جلاله.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧١﴾﴾ .

أي: احتراقاً وعذاباً، فلا يضع الله تعالى أحداً في غير موضعه اللائق به،  
فله سبحانه كمال العلم والحكمة، يعلم الذين يستحقون أن يقدموا في العذاب  
إلى أسفل الدرجات في جهنم .

#### ● القضاء المحتم:

ثم اتجهت الآياتُ تبيينُ رحمته سبحانه بعباده المؤمنين، وفضله عليهم يوم  
الدين، بزحزحتهم عن العذاب، وإبعادهم عن النار، بعد الورد والاقتراب،  
بقوله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ .

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ليرى ما في النار من أنواع العذاب والنكال  
والأغلال، فيعرف مقدار رحمته سبحانه به، وفضله عليه إذا نجَّاه منها، ويكون  
أيضاً تلذذه بنعيم الجنة أعظم وأكمل بعد رؤيته للعذاب والنكال .

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: كان ورودهم على النار لازماً، ألزم الله تعالى  
به نفسه، وقضى به، فهو قضاءً محتماً مُبرماً، وقسمٌ معظماً، أقسم الله تعالى عليه .

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في «الصحيحين» [البخاري (١٢٥١)] ومسلم  
(٢٦٣٢): عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموت لأحدٍ من  
المؤمنين ثلاثة من الولدِ فتمسه النارُ إلا تحلَّه القسم» وفي رواية: «فيلج النارُ إلا  
تحلَّه القسم» أي: إلا مقدار الوفاء بالقسم .

فمعنى الورد: الدخول، فقد قضى الله تعالى أن يدخل النارَ البرُّ والفاجر،  
والتقي والشقي، ويسلمُ الله تعالى برحمته الأبرار الأتقياء من عذابها وحرها،  
كما سلم إبراهيم عليه السلام من الاحتراق بنار الدنيا، فكانت عليه برداً وسلاماً، وهذا

هو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقد يكون المراد من الورد الحضور والرؤية، وذلك عندما يمرون على الجسر المنسوب فوق جهنم، كما جاء في الحديث الشريف: «فِيضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرَّسْلِ بِأَمْتِهِ، وَلَا يَنْكَلِمُ يَوْمئِذٍ إِلَّا الرَّسْلُ، وَكَلَامُ الرَّسْلِ يَوْمئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَابِبُ مِثْلِ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قالوا: نعم، قال: «فإنَّهم مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظِيمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، تَخَطَّفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبِقُ (يهلك) بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْجِدُ (ينصرع ويرتمي) ثُمَّ يَنْجُو...» [رواه البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢)].

﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك، ونزَّهوا الله تعالى عن صفات النقص والولادة والولد، كما جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزُنْ شَعِيرَةٌ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزُنْ بُرَّةٌ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزُنْ ذَرَّةٌ مِنْ خَيْرٍ» وفي رواية: «من إيمانٍ» [رواه البخاري (٤٤)] و«البرة»: القمحة.

﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ جالسين على ركبهم، والمراد بالظالمين المشركون، إذ الشرك أقبح أنواع الظلم وأعظمها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وفي «صحيح مسلم» [٢٤٩٦]: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أخبرني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها،

فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَأِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مِمَّنْ نَّجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾ (٧٣)».

### • سؤال وجواب:

فما قيمة الدنيا ومتاعها لمن مآله إلى النار ونكالها، فإن لحظة في عذاب النار يوم القيامة تُنسي كلَّ نعيم كان في الدنيا، كما جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» [رواه مسلم (٢٨٠٧)]. قوله: «يصبغ» أي: يغمس.

وكان المشركون من أغنياء قريش يفتخرون على فقراء المؤمنين بما عندهم من متاع، وزينة، ورياش، وأثاث، فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣).

﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله تعالى وكماله وغناه، وعلى صدق النبي ﷺ.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين.

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ منزلاً ومسكناً.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً ونادياً.

والغاية من هذا السؤال الافتخار بما عندهم من أثاث وزينة ورياش.

وردَّ الله عليهم بقوله تعالى:

﴿وَكَلَّا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ (٧٤).

﴿وَكَلَّا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وما أكثر ما أهلك الله قبلكم من أجيال.

﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ متاعاً وأموالاً .

﴿وَرِيًّا﴾ أي: وأحسنُ منظرًا وهيئةً، لكثرة زيتتهم، ورياشهم، وأموالهم .  
ومع كلِّ ما كانوا فيه من الغنى والتمكن أهلّكهم الله تعالى وعذبهم، ولم  
تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً .

فالإنسان مهما ملك من متاع ومال في الدنيا يبقى ضعيفاً عاجزاً، لا يستطيع  
أن يمنع نفسه من قضاء الله تعالى وقدره، ومهما عاش في الدنيا وعُمّر فيها، فإنَّ  
ماله ومصيره أيضاً إلى الله تعالى وحكمه وقضائه :

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ  
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فطول العمر لأصحاب الضلالة مكرُّ  
بهم، واستدراجٌ لهم، ليزدادوا ضلالاً وإثمًا، وقطعٌ لمعاذيرهم يوم القيامة،  
حيثُ يقال لهم: ﴿أَوْلَىٰ نَعْمِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا  
لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] .

ثم ماذا بعد العمر الطويل والمال الكثير؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ في الدنيا بتسليط المؤمنين عليهم يقتلونهم  
أو يأسرونهم .

﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يوم القيامة، والساعة أدهى وأمر .

وحينئذ يعلمون حقيقة الجواب على ما صدر عنهم من سؤال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ  
خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]؛ فالجواب يأتيهم عملاً وعلماً :

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي: فسيعلمون عندما يدخلون

النار أهم خير وهم في النار ودركاتها أم المؤمنون وهم في الجنة ودرجاتها؟ .

ومرة ثانية أذكر القارئ بتكرار السورة للاسم الكريم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي يدل

على غاية الكرم والغنى والإحسان .



ويزداد المؤمنون إيماناً ويقيناً بهذه الآيات البينات:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْقِیْتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ ولهم فوق ذلك:

﴿وَالْبَيْقِیْتُ الصَّالِحَاتُ﴾ تبقى لهم إلى يوم القيامة، فينفعهم الله تعالى بها:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

فهي خيرُ رصيدٍ يدخرونه لهذا اليوم:

﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي: مرجعاً وعاقة.

#### • سُخْرِيَةٌ وَجَزَاءُ:

وبلغ بالمشركين الفسادُ إلى أن يتهكّموا ويسخروا من المؤمنين، لأنهم يصدّقون بيوم المعاد، كما فعل العاص بن وائل السهمي، أحد رؤوس المشركين في مكة، عندما جاءه خَبَابُ بن الأرت رضي الله عنه يطالبه بدين له عليه، فقال له: لا أقضيتك حتى تكفر بمحمّد، فقال خَبَابُ: لا والله لا أكفر بمحمّد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإنني إذا متُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثمّ مالٌ وولدٌ فأعطيك! فأنزل الله تعالى به وبأمثاله من المشركين المنكرين ليوم القيامة:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ .

يعني: إن كان ما تقول حقاً، وبعثت يوم القيامة، سأكون فيها ذا مالٍ وولدٍ كما كنتُ في الدنيا.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ أي: أعلم علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به؛ حتى ادّعى

أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟! .

﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أن يؤتیه ذلك.

﴿كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿كَلَّا﴾ ردع له وزجر، يتناسب مع سخريته واستهزائه .  
﴿سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ﴾ من السخرية والاستهزاء، لنحاسبه عليه .  
﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: ونضاعفُ له العذاب لكفره واستهزائه وجرأته  
على الله تعالى .

﴿وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ﴿٨٠﴾﴾ .

﴿وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نجرده من المال والولد الذي كان له في الدنيا .  
﴿وَيَأْتِنَا﴾ يوم القيامة .

﴿فردًا﴾ لا مال معه ولا ولد، ولا حول له ولا قوة، كما كان في أول خلقه  
ونشأته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٤] .

• الاعتزازُ بغير الله ذلُّ:

فما أضعف الذي يعتزُّ ويستنصرُ بغير الله تعالى، ذي الملك والملكوت،  
والقوة والجبروت! وهو سبحانه المُعزُّ والمدل، والمعطي والمانع: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ  
لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] .

فالعزَّةُ لله تعالى الذي لا يُعْلَبُ، وهي بيده ومشيئته، ومن أرادها من عباده  
فعليه أن يؤمن به سبحانه، ويتقرَّب إليه بالعمل الصالح، ويتوجَّه إليه بالكلم  
الطيب، مثنيًا عليه ﷻ، مظهرًا فقره واحتياجه إليه ﷻ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ  
الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ  
شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورُثُ﴾ [فاطر: ١٠] .

فالعزيز من اعتزَّ بالله تعالى وحده، والدليل من اعتزَّ بغيره من المخلوقات

العاجزة الضعيفة الفانية، ولهذا قال تعالى يُوَيِّخُ أولئك الذين يعتزون بغيره ويتهمكم بهم:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ .

أي: ليتعزّزوا بهم.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ .

﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار عليهم؛ لأنهم طلبوا العز من معدن الذل.

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يوم القيامة.

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ بخلاف ما أمّلوا منهم وظنوا فيهم.

فالعزة لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين المعتزين بالله سبحانه، كما قال جلّ شأنه على سبيل التقرير: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

#### ● العوبة الشيطان:

فالإيمان بالله تعالى وحده هو الحصن الحصين من مكر الشياطين وكيدهم، فإذا ما انسلخ الإنسان عن الإيمان بالله تعالى، أو غفل عنه؛ سلّط الله تعالى عليه الشياطين تحضه على الشر، وتزينه له؛ ولهذا قال سبحانه يخاطب النبي ﷺ مُعْجَبًا له من حال الكافرين، الذين أصبحوا بكفرهم العوبة بيد الشياطين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ .

أي: تغريهم وتهيجهم على المعاصي تهيجاً شديداً، بأنواع كثيرة من الوسوس والتسويلات، والأزّ والهزّ والاستفزاز أخوات، معناه شدة الإزعاج<sup>(١)</sup>.

(١) روح المعاني: ٦/١٣٤.

وهذا يدُلُّ على أنَّ الإنسان عندما يتجرَّد عن الإيمان بالله تعالى يصبح ألعوبةً بيد الشياطين يهزونه فيهتز، فالآيةُ حَصَّتِ الكافرين بهذا التسلط الكبير للشياطين عليهم، ولا يعني هذا أنَّ المؤمنين غيرُ مبتلين بالشياطين ووساوسهم وتسويلاتهم، فللشياطين تسلُّطٌ على الناس جميعاً سوى الأنبياء ﷺ، لكن استجابة الكافرين للشياطين أكثر، وتأثرهم بهم أعظم؛ لأن الإيمان بالله تعالى قوة وعزة للإنسان المؤمن، يتحصَّن به من مكر شيطانه، ولا ينال الشيطان من المؤمن ما يريد إلا عند غفلة المؤمن عن ربه سبحانه، فإذا ما ذكر الله تعالى عاد إلى مأمنه وحصنه كما قال تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [١٠٠] إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٠١﴾ [الأعراف].

وبعد أن بيَّن الله تعالى شدة تسلُّط الشياطين على الكافرين، وقوة تأثيرهم عليهم، قال للنبي ﷺ:

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [٨٤]

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالإيمان، ولا تستبطئ دخولهم في الإسلام، فالقوم في سكرة وغواية الشياطين وضلاتهم، والأمر منوط بمشيئته تعالى، وقد جعل لكل أجل كتاب.

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: نحصي عليهم أعمالهم، وأعمارهم، وأنفاسهم، فكل شيءٍ بالعدِّ لا بدُّ أن ينتهي إلى حد، والمخلوق ضعيف محدود، والله سبحانه القوي القاهر الذي لا تحده حدود.

● نبي الرحمة ﷺ:

والعجيب أنَّ كلَّ المفسرين الذين رجعت إليهم وجدتهم يفسرون الآية ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالعذاب، مع أنَّ المشهورَ من حاله عليه الصلاة والسلام أنه ما كان يستعجلُ عذابَ المشركين، بسبب ما انطوى عليه قلبه الشريف من رحمة ورأفة

بكل الخلق، فهو ﷺ نبي الرحمة، كما وصفه جل وعلا بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وكان ﷺ يستعجل هداية الكافرين شفقة عليهم، ويتألم عندما يرى إعراضهم وعنادهم، حتى أنزل الله عليه قوله الكريم:

﴿فَلَمَّا كَبَخَعْتُمْ نَفْسَكُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو على المشركين، بل يدعو لهم مهما اشتدوا عليه وعلى أصحابه بالأذى، ولما اشتد أذى المشركين على أصحابه قال له بعضهم: يا رسول الله ادع على المشركين، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

ولما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ قائلة: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحدٍ؟ قال ﷺ: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال (من زعماء ثقيف)، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب (اسم مكان على طريق مكة الطائف)، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرتُ فيها فإذا فيها جبريلُ، فناداني فقال: إنَّ الله ﷻ قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، وسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمدُ إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرِك، فما شئتَ؟ إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين (الجبلين الكبيرين)» فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشركُ به شيئاً» [رواه مسلم (١٧٩٥)].

لهذا كلُّه أجد نفسي مضطراً أن أخالف ما عرفتُ من آراء المفسرين،

وأقول: إنَّه عليه الصلاة والسلام ما كان يتعجَّلُ عذاب الكافرين، بل كان يتعجَّلُ إيمانهم وهدايتهم.

#### • عهد عند الرحمن:

وبعد أن تحدَّثت الآيات عن يوم القيامة، وردَّت على المنكرين لهذا اليوم، وبيَّنت ارتباط الإيمان به بالإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، وتنزيهه سبحانه عن صفات النقص، ختمت حديثها عن يوم القيامة بأحد مشاهده الكبيرة، عندما يُحشر المتقون إلى مستقرِّ رحمة الرحمن في الجنة، ويُساق الكافرون إلى مستقر غضبه وعذابه في النار:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ﴿٨٥﴾﴾ .

يقدمون على ربهم برفعة وكرامة، كما تقدم الوفود على الملوك، فيستقبلون بالضيافة والكرامة، وتقول لهم الملائكة من خزنة الجنة: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَلِيدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

والوفد: هم القادمون ركبانا، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه<sup>(١)</sup>: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقُونَهُ سَلِّمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا ﴿٨٦﴾﴾ .

﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساق البهائم بالغلظة والشدَّة.

﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾ عطاشاً، وقد تقطعت أعناقهم من العطش.

والسوق: الدفع بشدَّة، وهو كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ

دَعَا ﴿١٢﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ﴾ [الطور].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٥/٢.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾ أي: لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد، إلا من بعد أن يأذن الرحمن لمن يشاء ويرضى، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٥]، ولا يأذن الله تعالى بالشفاعة إلا للمؤمنين الموحدين؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ والعهد: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، والقيام بحقها.

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فَلِيَقُمْ، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعلمنا، قال: قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلمتني إلى عملي يقربني من الشرِّ، ويباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد<sup>(١)</sup>.

#### • القول الثقيل المنكر:

وأخيراً عادت الآيات الكريمة إلى الموضوع الأساس للسورة، وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الصحابة والشريك والولد، وهو الذي من أجله ذكرت قصة مريم وولادتها لعيسى عليه السلام، وبيئت حقيقة عبوديتهما لله تعالى، عادت الآيات لتحكي القول المنكر:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ .

ثم التفتت إلى أصحاب هذا القول لتفاجئهم بالإنكار والذم:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٦/٢.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾﴾ .

أي: منكرًا عظيمًا ثقیلاً، على القلب والنفس والعقل، ومن شدة ثقله وعظمه:

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَلْسُقُ الْأَرْضُ وَنَحْرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾﴾ .

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن من هذا القول الثقيل الفظيع مرة بعد أخرى، فكلمة ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ تدلُّ على تكرر التشقق.  
 ﴿وَتَلْسُقُ الْأَرْضُ وَنَحْرُ الْجِبَالِ هَذَا﴾ أي: تسقط قطعاً مهدودة.  
 وكل ذلك من أجل:

﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ .

إنه جرأة على الله كبيرة، أن يوصف سبحانه بالنقص والعجز والولادة والولد، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فلو صُوِّرَ هذا القول بصورة مادية محسوسة، لما تحملته هذه الأجرام العظام على شدتها وقوتها، ولو ركب في هذه الأجرام العظام ما في الإنسان من إدراك وسمعت مثل هذا القول الفظيع، لما تحملته إجلالاً لله وتعظيماً، وغضباً من أصحاب هذا القول المنكر.

قال ابن كثير رحمته الله: «يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات مؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو»<sup>(١)</sup>.

فما أحلمك ربي وأعظمك! يجعلون لك الولد؛ وتمدُّهم بأسباب الحياة

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٦/٢.



والرزق! قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يُشركُ به، ويُجعلُ له الولدُ، ثم هو يعافيههم ويرزقهم» [رواه البخاري (٦٠٩٩) ومسلم (٢٨٠٤)].

وكما أنّ كلمة الشرك ثقيلةٌ في جانب الباطل، فإنّ كلمة التوحيد ثقيلةٌ أيضاً في جانب الحق، دلّ على ثقلها حديثُ البطاقة الذي يرويه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يستخلصُ رجلاً من أمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، فينشرُ عليه تسعةً وتسعينَ سجلاً، كلُّ سَجَلٍ مثل مدِّ البصرِ، ثم يقولُ: أنتِكرُ من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقول: أفلك عُذْرٌ؟ فقال: لا يا ربّ، فيقولُ اللهُ تعالى: بلى، إنّ لك عندنا حسنةً، فإنّه لا ظلمَ عليك اليومَ. فتُخرجُ بطاقةً فيها: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسولهُ، فيقولُ: احضرِ وزنك، فيقول: يا ربّ ما هذه البطاقةُ مع هذه السجلات؟! فقال: فإنك لا تُظلمُ. فتوضَعُ السجلاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السجلاتُ، وثقلتِ البطاقةُ، فلا يُثقلُ مع اسمِ الله شيءٌ» [رواه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠) وابن حبان (٢٢٥) والبيهقي والحاكم (٦/١) وصححه].

#### • الولد رحمة من الرحمن:

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢)

فلا يليقُ بالله تعالى ذي الرحمة والإحسان أن يتخذَ ولداً، فهو محال بالنسبة لجلال الله تعالى وكماله وغناه؛ لأنّ اتخاذَ الولد يكونُ لحاجةٍ ومجانسةٍ، وهو سبحانه منزّه عنهما.

وفي تخصيصِ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بالذكر وتكريره في السورة مرات كثيرة - كما أشرنا من قبل - دليلٌ على أنّه سبحانه هو الرحمن وحده، ولا يستحق غيره هذا الاسم؛ لأن أصول النعم وفروعها منه وحده ﷻ، والولد رحمة من رحماته،

ألا ترى إلى قوله في أول السورة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢]، ورحمته سبحانه عبده زكريا بولده يحيى.

وقوله سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]؛ فعيسى عليه السلام رحمة من رحمت الرحمن، وأثر من آثار الإحسان، فلا يكون ولداً للرحمن أبداً.

ورحم الله العلامة النسفي عندما قال: «فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنتم وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن»<sup>(١)</sup>.

﴿إِن كُئِلَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ [٩٣].

أي: خاضعاً ذليلاً، فلا يستطيع أي مخلوق مهما كان أن يسلم نفسه عن عبوديته لله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْضُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

فالإلهية والعبودية تتناهيان ولا تجتمعان، ومن كان عبداً لله تعالى لا يكون إلهاً أو ابن إله قطعاً.

﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [٩٤].

وكيف لا يُحصيهم وهو خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم، وهم في قبضة قدرته وتحت قهره وسلطانه جل جلاله.

أحصاهم بسابق علمه ومشيتته أولاً، قبل أن يخرجهم من العدم إلى الوجود. وعدّهم بعد الوجود كما أحصاهم، ولن تقوم الساعة حتى يتم العدد الذي سبق به علمه، وتعلقت به إرادته ومشيتته جل جلاله.

(١) تفسير النسفي: ١٨٣/٤.

﴿وَلَهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

كل إنسان يأتي إلى الله تعالى وهو في غاية افتقاره وضعفه، وحاجته إلى رحمة ربه وإحسانه، بلا مال ولا ولد ولا حول ولا قوة. وبعد هذا التهديد والوعيد، وما فيهما من خوف ورهبة، التفتت الآيات الكريمات تخاطبُ المؤمنين الموحدين بكل هذا اللطف والعطف واللين؛ لتطمين قلوبهم، وإيناس نفوسهم، وإزالة ما يمكن أن يعلق بهما من خوف ووحشة، بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

أي: سيجعل لهم الرحمن مودة في القلوب بسبب إيمانهم به وحده، وعبادتهم له وحده، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحَبَّهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ ينادي في السماء فيقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحَبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ...» [رواه مسلم (٢٦٣٧)].



## الخاتمة

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

وجاءت خاتمة السورة تخاطبُ النبي ﷺ كما كانت تخاطبه في أولها، تذكّره بفضل الله سبحانه عليه بإنزال القرآن الكريم عليه، رحمةً من رحمتِ الرحمن الكبرى، وحقّةً له عليه الصلاة والسلام، مؤيداً لدعوته، وصحة نبوته، وصدق رسالته:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغتك، وهي العربية التي أنزل الله بها القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء].

فقصة مريم عبرية، بينما اللغة لغة عربية في غاية الفصاحة والبلاغة، وهذا دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله على النبي ﷺ. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والكفر، وينزهون الله تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ وهم الذين لا يؤمنون بالله الواحد الأحد لجاجاً وعناداً.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ أي: من جيل من الناس كثير.

﴿هَلْ نُحْسِ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل بقي لأحدٍ منهم من حسٍّ أو حركة؟! .  
 ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أو تسمع منهم ولو صوتاً خافتاً ضعيفاً؟!

كانوا يملؤون الدنيا بضجيجهم وحركاتهم، ثم زالوا وبادوا، ولا يبقى إلا الواحد الأحد، الحي القيوم، القديم الباقي الذي لا يزول ولا يموت، والغني عن ولد يرثه يكون امتداداً له بعد موته، سبحانه وتعالى عما يصفه المبطلون. وقد أحسن سيد قطب رحمته بتصويره ظلال هذه الآية في نفس الإنسان عندما قال: «وهو مشهدٌ يبدؤك بالرجة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق، وكأنما يأخذ بك إلى وادي الردي، ويقفك على مصارع القرون، وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحده البصر يسبح خيالك مع الشخصوس التي كانت تدبُّ وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأمانى والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع.. ثم إذا الصمتُ يخيمُ، والموتُ يجثمُ، وإذا الجثثُ والأشلاءُ والبلى والدمار، لا نامة، لا حس، لا حركة، لا صوت: ﴿هَلْ نُحْسِ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾؟ انظر وتلفت ﴿أَوْ﴾ هل ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾؟ تسمع وأنصت.. ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب، وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت»<sup>(١)</sup>.





## تفسير سورة طه سَبِيلُ السَّعَادَةِ فِي سُورَةِ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمِ

الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم النبيّين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فما فتىّ الناس منذ فجر وجودهم يبحثون عن سبيل سعادتهم وراحتهم على هذه الأرض، وإنّ الجهدَ البشري بأكمله موجّه، كما يظنون، إلى تحقيق هذا الهدف، ومع ذلك لا نراهم يقتربون منه، بل يزدادون بُعداً عنه، فكثير من الناس كانوا ولا زالوا يعانون من الشقاء والتعاسة والبؤس والحرمان، حتّى غلب اليأسُ عليهم، واصطبغت نظرتهم إلى الحياة بالتشاؤم، ورأوا أنّ السعادة في هذه الحياة سرابٌ خادعٌ لا وجودَ لها في عالم الحقيقة والواقع، ولعلّ ازديادَ نسبة المنتحرين ومرضى الأعصاب، وازدياد تناول المسكرات والمخدرات والمهدئات، تؤكّد مدى التشاؤم والشعور بالفشل والخيبة عند كثير من الناس.

فهل السعادة سراب لا وجود لها، أم أن لها حقيقة ووجوداً، وثمة خطأ جعل أكثر الناس لا يسلكون الطريق الصحيح السوي المؤدي إليها؟!

الله سبحانه الخالق العظيم عليم حكيم، ورحمن رحيم، وبرّ كريم، ما خلق الإنسان وميّزه على غيره من المخلوقات، و سخر له ما في الأرض

والسماوات، من أجل أن يشقى في حياته، ما خلقه سبحانه إلا ليسعده ويرحمه، ويشرفه بعبادته وطاعته، ولهذا أنزل عليه كتبه، وأرسل إليه رسله، ليبينوا له الطريق الذي يسعده في حياته الدنيا والآخرة، وما شقى الناس إلا لبعدهم عن هذه الطريق، فشقاء الإنسان نابع من اختياره و كسبه .

وقد اهتمت سورة طه بإبراز هذا المعنى، وكأن الله ﷻ أنزلها لتأخذ بيد الإنسان الثائه الشارد برفق ولطف إلى طريق سعادته وراحته .

أسأل الله ﷻ أن يثبتنا على طريق الهداية، وأن يوفقنا للمسير عليه حتى نموت ونحن على أكمل حال .

وقد جاء تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى في أربعة فصول وخاتمة :

- الفصل الأول: عظمة القرآن الكريم، وعظمة منزله ﷻ .
  - الفصل الثاني: قصة موسى ﷺ مع فرعون .
  - الفصل الثالث: قصة موسى ﷺ مع السامري .
  - الفصل الرابع: قصة آدم ﷺ مع الشيطان .
  - الخاتمة: التعقيب الأخير على ما تقدّم .
- وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله و صحبه وسلّم .





## تَمَهِيدٌ مَوْضُوعُ السُّورَةِ

تدور أفكار ومعاني سورة طه في النقاط التالية:

- ١ - الله ﷻ متصف وحده بصفات الكمال والجلال.
  - ٢ - الإنسان بضعفه وعجزه لا يستغني بنفسه، بل لا بد له من هادٍ يهديه الطريق، ويرشده إليه، ويمدّه أيضاً بأسباب وجوده وسعادته.
  - ٣ - الله سبحانه الرحمن الرحيم، أعطى الإنسان كل أسباب سعادته وراحته في الدنيا والآخرة.
  - ٤ - شقاء الناس نابعٌ من إعراضهم عن طاعة ربهم وعبادته.
- ولقد أبرزت الآيات الأولى في السورة النقطة الأولى، واهتمت بذكر بعض صفات الجلال والكمال التي يتصف بها الحق جلّ وعلا.
- وقصة موسى مع فرعون أبرزت النقطتين الثانية والثالثة؛ فموسى ﷺ كان في أشد الحاجة إلى معونة الله تعالى وهدايته عندما ضل الطريق في صحراء سيناء، والله سبحانه لم يتخل عنه، ناداه وأوحى إليه وأرشده، وأرسله إلى فرعون ليصح له طريق سيره بعد أن ضلّ وطني.
- ثم بينت الآيات فواضل إحصانه سبحانه و سوابغ نعمه على عبده موسى السابقة على الرسالة واللاحقة.
- وأبرزت قصة موسى ﷺ مع السامري كيف يشقى الإنسان، فالشقاء نابعٌ من كسب الإنسان واختياره وتسويل نفسه، وأكدت على هذه الحقيقة من خلال الجانب الذي عرضته الآيات من قصة آدم مع الشيطان.
- وجاءت الآيات في خاتمة السورة منسجمة تماماً مع أولها، تؤكد أن سعادة

الإنسان في عبادة ربه وطاعته، وأنَّ شقاه في إعراضه عن ربه سبحانه، وشروده عن ساحة فضله ورحمته، وأنه سبحانه قد أقام الحججة على الخلق بإنزال القرآن الكريم، وبَعَثه الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد جاءت أيضاً مباني كلمات السورة منسجمةً مع معانيها العذبة الرقيقة؛ فمن أراد أن يستشعر مدى رحمة الله تعالى بالإنسان وفضله وإحسانه عليه فليقرأ سورة طه، ومن أراد أن يتذوق عذوبة تلاوة القرآن ونداوتها ورقتها فليقرأ سورة طه.

وإذا ما شعرت بقسوة في قلبك، ووحشة في نفسك، وجفوة في طبعك، فاقراً سورة طه.

فهي في معانيها ومبانيها تتجه إلى إسعاد الإنسان، وجعله يتذوق طعم اللذة والسعادة حتى في تلاوتها، فلا تفارقه لذة تلاوتها منذ أن تطالعه آياتها الأولى:

﴿طه﴾ (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا نَذِكْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) ﴿٤﴾ حتى آخر كلمة فيها: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنَ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ (١٢٥).

إن فيها الصراط السويّ الهادي إلى سعادة الدارين والذي أسأله سبحانه أن يهدينا إليه، ويثبتنا عليه.



## الْفُضَيْلُ الْإِبْرَانِ

عَظَمَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَظَمَةُ مُنْزَلِهِ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ  
 الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا  
 بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجَهَّرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ  
 الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

## • الحروف المقطعة النورانية:

﴿طه﴾ ﴿١﴾

يقال فيها ما قيل في غيرها من الحروف المقطعة النورانية، وقد تقدّم القولُ فيها في عدد من أبواب هذا التفسير المبارك.

وزاد المفسرون هنا: أن ﴿طه﴾ كلمة مفيدة، ومعناها: يا رجل، أو فعل أمرٍ بالوطف: طأ، فقلبت الهمزة هاءً، وذلك لما روي: أن النبي ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطفأ الأرضَ بقدميه معاً<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير رحمته الله: «روي عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾: يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والضحاك، وأسند القاضي عياض في كتابه «الشفاء»

(١) انظر: تفسير النيسابوري: ٧٨/١٦.

عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صَلَّى قام على رِجْلِ ورفَع الأخرى فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني: طأ الأرض يا محمد<sup>(١)</sup>.

وذكر هذه الرواية أيضاً ابن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري»<sup>(٢)</sup>.

وإن صحَّت هذه الرواية، فلعلَّه ﷺ كان يراوِحُ بين قدميه بسبب طول قيامه في تهجده بالليل، وقد صحَّ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم من الليل حتى تتفطرَ قدماه، فعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تتفطرَ قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رسولَ الله وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدَّم مِن ذنِبِكَ وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أحبُّ أنْ أَكونَ عبداً شكوراً» [رواه البخاري (٤٨٣٧)].

وعن المغيرة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقبلَ له: غفرَ اللهُ لك ما تقدَّم مِن ذنِبِكَ وما تأخَّر! قال: «أفلا أَكونُ عبداً شكوراً؟!» [رواه البخاري (٤٨٣٦)].

قال ابن حجر: «وفيه - أي: الحديث - أن الشكرَ يكونُ بالعمل كما يكون باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وفيه ما كان النبي ﷺ من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه»<sup>(٣)</sup>.

والأولى أن ﴿طه﴾ من الحروف المقطعة، لأنَّها رسمت في أول السورة كبقية الحروف، وقرئت مثلها على نمط التعددية وأسلوبها<sup>(٤)</sup>.

#### ● القرآن سعادة لا شقاء:

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾

لا شكَّ أنَّ الخطابَ للنبيِّ ﷺ فهو الذي أنزل الله عليه القرآن الكريم،

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٩/٢.

(٢) انظر: فتح الباري: ٤٣٢/٨.

(٣) المرجع السابق: ١٥/٣.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/٦.

والمعنى المراد: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتتعب، فإنَّ الشقاء شائعٌ في ذلك المعنى، ومنه: أشقى من راضٍ مهر<sup>(١)</sup>. هكذا قال بعض المفسرين.

وأصل الشقاء في لغة العرب: العناء والتعب، ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

ذو العَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ<sup>(٢)</sup>

وما قيل من أنَّ المراد بالآية تعبه ﷺ بسبب طول قيامه بالقرآن الكريم مستبعدٌ، فقد أمر ﷺ بطول القيام، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّمِزُ (١) قُرْ آلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) يَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل].

وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ آلِيلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وكان رسول الله ﷺ يشعر براحةٍ ولذةٍ في صلاته وقيامه كما سيأتي معنا، والتعب الذي كان يعتريه ﷺ هو من قيامه بأعباء تبليغ الدعوة، ومواجهته لعناد المشركين وأذاهم، ومن حرصه أيضاً على هدايتهم، وحزنه حزناً شديداً بسبب إعراضهم وعنادهم، حتى أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وقوله أيضاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِجَّةٍ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله أيضاً: ﴿لَعَلَّكَ بِنِجَّةٍ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

فقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ تكريم للنبي ﷺ ومواساة وحُسن خطاب.

ويمكن أن يكون المراد من الشقاء المعنى المضاد للسعادة، وهو التعاسة والشدة والمحنة والضلال، وقد أورد القرآن الكريم كلمة الشقاء بهذا المعنى في

(١) تفسير أبي السعود: ٣/٥.

(٢) أضواء البيان: ٤٠١/٤.

عَدَّةَ آيَاتٍ، منها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿[هود].

وبالمقابل قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا . . .﴾ الآية [هود: ١٠٨].

والآية بهذا المعنى تردُّ على أعداء الإسلام الذين يفترون عليه، ويصدُّون الناس عنه بزعمهم أنه يسبب الشقاء والعناء لهم، وأنه لا يتفق مع تطور حياتهم، ولا يليب حاجاتهم، فيوقعهم بالضيق، ويحرمهم من مُتَع الحياة ومباهجها ولذائذها . . . إلى آخر ما في جُعبهم من الأكاذيب والافتراءات التي يحاولون إلصاقها بالإسلام وشرعية القرآن.

هذه الأكاذيبُ يردُّدها أعداءُ الإسلام في العصر الحاضر، وهي ليست جديدة، فقد كان المشركون في مكة المكرمة يرددونها أيضاً، ويواجهون بها النبي ﷺ منذ فجر الدعوة، ويقولون: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْتَرُ ﴿[طه] فليس الأمر كما زعمه المبطلون<sup>(١)</sup>.

### ● سبيل السعادة:

فالقرآن الكريم ما أنزله الحق سبحانه إلا لسعادة الناس، ولا سعادة لهم إلا باتباع منهجه، وتطبيق شريعته، وكلُّما نأى الناس عن شريعة القرآن ازداد شقاؤهم، وعظم بلاؤهم، تماماً كما أخبر العليم الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

فالله سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم، وما أنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله إلا رحمة بهم، لأنه جلَّ وعلا الرحمن، ولعلَّ تكرار الاسم الكريم (الرحمن) في سورة طه فيه إشارةً إلى هذه الحقيقة، فسبيل سعادة الناس أفراداً

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٤٦٩.

وجماعات، في الدنيا والآخرة، في منهج القرآن الكريم وشريعته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إِلَّا نَذْكُرَهُ لِمَنْ يَخْشَى﴾

قال قتادة: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، لا والله ما جعله الله شقياً، ولكن جعله رحمةً ونوراً ودليلاً إلى الجنة.

ذكر إمام المفسرين الطبري هذا الأثر في تفسيره<sup>(١)</sup> ثم قال: حدثنا سعيد عن قتادة: قوله: ﴿إِلَّا نَذْكُرَهُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ وإن الله أنزل كتبه، وبعث رسله رحمةً رحم بها العباد، ليتذكّر ذاكراً، وينتفع رجلاً بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر له، أنزل الله فيه حلاله وحرامه فقال:

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾

والعُلَى: جمع العُلَيَا، تأنيث الأعلى، وفي وصف السماوات بها دلالة على عِظَمِ قدرة من يخلق مثلها في علوّها وبُعد مرتقاها، ممّا يدل على تعظيم شأن القرآن الذي أنزله خالق الأرض والسماوات العُلَى.

فلا يمكن أن يكون القرآن الكريم سبباً للشقاء والتعاسة، بل هو سبيلُ السعادة وأثر الرحمة والحكمة، لأنّه تنزيلُ الحكيم العليم، الرحمن الرحيم، خالق الأرض والسماوات، العلي العظيم.

• كمال صفاته جلّ وعلا:

وصفاتُ الكمال التي يتّصفُ بها صاحب الرسالة لا بدّ أن تظهر آثارها في رسالته، والمرسل هو الله جلّ وعلا المتّصف بكلّ صفات الجمال والكمال، والمنزّه عن كلّ صفات النقص، تباركت أسماؤه، وتسامت صفاته، وتقدّست ذاته.

(١) تفسير الطبري: ١٦/١٠٤.

## ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي: هو الرحمن، منزل القرآن، فإنزال القرآن من آثار رحمته جلّ وعلا، كما في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن]؛ فلا يمكن أن يكون نزوله سبب تعب وعناء وشقاء، بل هو سبيل كل سعادة وهناء.

وقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ من صفات كماله جلّ وعلا، من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل<sup>(١)</sup>.

## ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾﴾

أي: جميع الكائنات له جلّ وعلا، فهو خالقها ومالكها، وهي قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته وإرادته وحكمته، من أعظم أجرامها التي في السماوات إلى أصغر ذراتها التي في باطن طبقات الأرض وفي داخل ثراها. والثرى: هو التراب الندي الذي في أعماق الأرض.

ومن صفات كماله وجلاله سبحانه: كمال علمه، ولهذا قال سبحانه:

## ﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾

ولا شك أن الذي يعلم السرّ وأخفى، يعلم كل ما يسعد الإنسان، ويصلح له في الدنيا والآخرة.

والسرّ: ما أسره الإنسان إلى غيره، وأخفى منه: ما أخطره بباله من غير أن يتفوه به أصلاً. ويمكن أن يكون ما أخطره الإنسان بباله ولم يتفوه به، هو السر، وأخفى منه ما يكون في ساحاته اللاشعورية التي لا تخضع لإدراك صاحبها،

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٤٧٠.



ولا سلطان له عليها، والتي تظهر أحياناً وتطفو على ساحة شعوره وإدراكه دون إرادة منه ومن غير استجلاب لها، فكم من أسرارٍ في أعماق نفس الإنسان غائبة عن ذاكرته، ولا يستطيع تذكرها مهما بذل من جهد، بل تبقى مستقرة في أعماق نفسه، وقد يموت صاحبها، وتُدفن معه في طيات التراب، لا يعلمها أحد سوى الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى.

فواجبُ الإنسانِ الأولُ أن يذعنَ لربه، ويخضعَ له، وينقادَ لدينه وشرعه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون، وهو المتصف بصفات الكمال وحده:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨)

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبودَ بحقٍ إلا هو ﷻ، لأنه هو وحده المتصف بصفات الكمال والمنزّه عن صفات النقص، فلا يستحقُّ العبادةَ سواه، وكمال شريعته من كماله جلّ وعلا فهي سبيل السعادة، فتمسّكوا بأمره، وانقادوا لشرعه، وسيروا على منهجه، فهو المعبودُ وحده، الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، ولا تصلحُ حياتكم إلا بعبادته وطاعته.

#### • كمال أسمائه سبحانه:

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الدالة على كماله وصفاته، ولا حدَّ لكمالهِ جلّ وعلا، ولا حصرَ لصفاته سبحانه، ولهذا فإنَّ أسماءَ الحسنَى لا حدَّ لها ولا عدّ:

فمن أسمائه الحسنَى ما بيّنه سبحانه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وهي الأسماء التي يجب أن نذكره بها، وندعوه بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا ندعوه بغيرها، ولا نذكره أيضاً إلا بها: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِهِ سَبِيحُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أسمائه الحسنَى ما استأثر سبحانه به، ولم يُعلّمه أحداً من خلقه، دل على ذلك ما جاء في بعض الأدعية المأثورة: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ

به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء همي وعمي» [أخرجه رزين كما في (جامع الأصول)]<sup>(١)</sup>.

وكما لا يجوز أن نذكره سبحانه وندعوه بغير أسمائه الحسنى، كذلك لا يجوز أن نتقرب إليه بغير ما شرعه لنا، وبينه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فهما سبيل السعادة، فمن أراد الله تعالى به خيراً هداه إلى دينه وعلمه شريعته، كما جاء في الحديث الشريف: عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ الْمَعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ» [رواه البخاري (٧١)].

ومفهوم الحديث: أن مَنْ لم يتفقه في الدين، ويتعلم أحكامه وشرائعه ما أراد الله تعالى به خيراً، وقد أخرج حديث معاوية من وجه آخر ضعيف أبو يعلى، وزاد في آخره: «وَمَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ لَمْ يَبَالِ اللَّهُ بِهِ» والمعنى صحيح كما قال ابن حجر العسقلاني رحمته الله<sup>(٢)</sup>.

فمصدرُ شقاء الإنسان نابعٌ من إعراضه عن دين الله وشرعه، وجهله وسوء فهمه، فالله سبحانه ما خلق الخلق ليعذبهم ويشقيهم، ما خلقهم إلا ليعمروا الأرض بطاعته وعبادته، ويسعدوا بفضله ورحمته، وما من شقاء يصيبهم إلا بسبب إعراضهم عن طاعته وعبادته، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهو عين ما قررته آيات سورة طه في آخرها عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] كما سيأتي معنا.



(١) تيسير الوصول: ٧٦/٢.

(٢) انظر: فتح الباري: ١/١٦٥.

## الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ

## قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ

﴿١﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٢﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا  
 بِخَبَرٍ أَوْ جُدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٣﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى ﴿٤﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ  
 بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٥﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٦﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي  
 وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٧﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ﴿٨﴾ فَلَا  
 يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿٩﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٠﴾ قَالَ هِيَ  
 عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿١١﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٢﴾  
 فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبِطَةٌ سَعَىٰ ﴿١٣﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْضُفْ سَعِيدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١٤﴾ وَأَضْمَمْ  
 يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿١٥﴾ لِيُزَيِّنَ لَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ  
 فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٨﴾ وَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٩﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّي لِسَانِي ﴿٢٠﴾  
 يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢١﴾ وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٢﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٣﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٢٤﴾ وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي  
 ﴿٢٥﴾ كَيْ سَمِعَكَ كَثِيرًا ﴿٢٦﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٢٨﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ  
 ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٠﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣١﴾ أَنْ أَقْدِفْهُ فِي النَّابُوتِ فَأَقْدِفْهُ  
 فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۗ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصَعَّبَ عَلَىٰ عِيْقِي ﴿٣٢﴾  
 إِذْ تَمَثَّىٰ خَلْقَكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٣٣﴾  
 وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۗ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٤﴾  
 وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِنَا ﴿٣٥﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِنَا وَلَا نُبَيِّنُهَا لَكُمَا وَلَكِنَّكُمَا قَوْمٌ فَهْمُونَ إِنَّهُ  
 طَغَىٰ ﴿٣٦﴾ فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ بِتَذَكُّرٍ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ

أَنْ يَطْعَنِي ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافْ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَيْنَاهُ فِقُولًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ  
 مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ  
 أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ  
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا  
 يَصِلُ إِلَىٰ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٤﴾  
 ﴿٥٥﴾ مِنهَا خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَفِيهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ  
 ﴿٥٧﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِّنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا آتَيْنَكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا  
 وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٩﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ  
 ضُحًىٰ ﴿٦٠﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦١﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَرَبُّكُمْ لَا تَقْرَبُوا عَلَى اللَّهِ  
 كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦٢﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا التَّجْوَىٰ ﴿٦٣﴾  
 قَالُوا إِن هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ ﴿٦٤﴾  
 فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعَلَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّمَا أَنَّا قُلُوبُنَا  
 نَكُونُ أَوْلَىٰ مَنِ اتَّقَىٰ ﴿٦٦﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعِصْبَتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا  
 فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا  
 صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سِحْدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ  
 هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ  
 أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقُنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ  
 نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
 ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّنَا لِيُعْفِيَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ  
 رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ  
 الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ  
 أُوحِيَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَحْشَىٰ ﴿٧٧﴾

فَأَنبَعَثَهُمْ فِرْعَوْنَ بِمُخَوِّدِهِ. فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ يَبْقَى  
 إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْنَيْتُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كَلَّوْا  
 مِن طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّدْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَد هَوَى ﴿٨١﴾  
 وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ .

### • تَمْهِيد:

ثم ساقَت الآيات الدليل الواقعي على المبدأ الذي قررتَه فيما سبق بعرضها حلقات ووقائع من قصة موسى ﷺ مع فرعون أولاً، ثم مع السامري ثانياً. ومن الملاحظ أن قصة موسى التي ذكر الله سبحانه بعض حلقاتها وأحداثها في عدد من سور القرآن الكريم، قد عُرِضَتْ في سورة طه بأسلوب متميز عن بقية السور التي عُرِضَتْ فيها، وكما يلاحظ أيضاً أن سورة طه انفردت بذكر بعض الوقائع والأحداث في قصة موسى لم تذكر في غيرها من السور، كما سيأتي معنا، ولهذه الوقائع التي انفردت بها السورة صلة كبيرة بموضوعها الأساس، الذي بقي بارزاً من خلال أحداث القصة التي غطت أكثر آيات السورة.

### • أعظم حوادث القصة:

ظهر الأسلوب المتميز لعرض قصة موسى منذ بدايتها في سورة طه، فلم تُعْرَضِ القصة حسب التسلسل الزمني لحوادثها، بل بدأت الآيات القصة بعرض وقائعها من الواقعة التي تُعد بحق أعظم حوادث القصة وأخطرها، وهي واقعة نزول الوحي على موسى ﷺ، وتكليم الحق سبحانه، وتشريفه بالنبوة، وتكليفه بالرسالة، هذا الحدث أعظم أحداث القصة وأخطرها، إذ كان له أكبر الآثار وأعمقها في حياة موسى ﷺ خاصة، وفي حياة بني إسرائيل وتاريخهم عامة، وانعكست آثاره أيضاً على المسيرة التاريخية والحضارية للمنطقة كلها.

### • ضعف وافتقار وحيرة:

كان موسى ﷺ عائداً من بلاد مدين إلى مصر عن طريق صحراء سيناء،

ومعه أهله، ويظهر لنا من خلال الآيات الكريمة أنه كان يعاني في أثناء رحلته من ظروف صعبة وشاقة، فالليل شاتية باردة، والظلام دامس، وقد ضلَّ الطريق، وتاه عن المقصد، وأهله - كما تذكر الروايات - كانت تعاني من آلام حمل ومخاض، وهي في أمس الحاجة إلى المأوى والفرش الدافئ والماء الساخن، وحاول موسى أن يوقد النار بالوسائل المعروفة في ذلك الزمن، فلم يتمكن، وأخذ يتلفت حوله بحثاً عن المأوى والدفء، بينما كانت الريح الباردة تلعغ وجهه، والظلام الدامس يغشي بصره بحجب كثيفة سميكة تحجب عنه أقرب الأشياء منه .

إن موقف موسى في ظروفه هذه المحيطة به، يمثل الإنسان بضغفه وعجزه وحيروته، وشدة حاجته، وافتقاره إلى معونة ربه وهدايته . . فلولا أن الله الرحمن خالق الإنسان، سخر له ما سخر في السماوات والأرض من أسباب الحياة، ما استطاع الإنسان العيش، وما تمكّن من إنشاء حضارة وعمران .

فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً، خلق الإنسان، وأعطاه كل أسباب الحياة التي يحتاج إليها، قال سبحانه: ﴿وَأَتَّكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] .

وقال أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣] .

كما أن الإنسان بحاجة أيضاً إلى هادٍ يهديه الطريق الذي يوصله إلى السعادة في الدنيا والآخرة، ومن دون هذه الهداية يظل الإنسان تائهاً، يضرب في صحراء الحياة ضربَ عشواء، فالتمكين المادي لا يكفي وحده لسعادة الإنسان، بل لابد له من منهج يضبط سلوكه، ومن شريعة يسير على هدى أحكامها، تبيّن له الطريق القاصد، وتنقذه من حيرته وضلاله، وتوضّح له مقصده وحكمة وجوده، فتكون له بمثابة المصباح الكاشف، الذي يبيّن له حقيقة حياته، وغاية مسيرته وسعيه وجهده .

تلك هي حال موسى ﷺ، إنسان تائه في الصحراء، في أشد الحاجة إلى

معونة ربه وهدايته، وهو سبحانه الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، يعلم أحواله وحاجاته وأسباب سعاده وهدايته.

### • آنستُ ناراً:

ولمع نور النار من خلال حجب الظلام، فتبددت الوحشة، وسرى الأنس في داخل النفس، قال تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا﴾ جاء في الروايات أن موسى ﷺ استأذن شعبياً في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله، فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة، وقد ضلَّ الطريق، وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده، وقدم فصلد<sup>(١)</sup> زنده، فرأى عند ذلك ناراً في زعمه، وكان نوراً<sup>(٢)</sup>.

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أي: أقيموا في مكانكم.

﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي: رأيتُ ناراً، أدخلتُ رؤيتها الأنسَ إلى قلبي، فبددت ما فيه من وحشة وحيرة، فالإيناسُ: إبصارُ ما يؤنس به، وبينت الآيات في غير سورة طه مكان هذه النار، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ الآية [القصص: ٢٩].

﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: لعلي آتيكم منها بشعلةٍ من النار مقتبسة على رأس قطعة حطب، وهذا يدل على أنه كان هو وأهله محتاجين إلى دفع النار، وقد جاء هذا المعنى مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

(١) فصلد: أي صوت ولم يقدح ناراً.

(٢) تفسير النسفي: ١٨٨/٤.

﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: ولعلِّي أيضاً أجد عند النار من يدلني على الطريق، وهذا يدلُّ على أنه ﷺ قد ضل الطريق.

### • في مقام النداء والنجوى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾؛ رأى عجباً، وجد ناراً بيضاء في داخلها شجرة خضراء، ولا شك أنه منظرٌ عجيبٌ مذهل، وقد ذُكرت الشجرة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وصحبا موسى ﷺ من ذهوله عندما سمع نداء الحق سبحانه:

﴿نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أعلمه سبحانه بنفسه، فالذي يناديه هو ربه

الذي خلقه ورباه، ثم أصدر له أمره الأول:

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾. وبين له الحكمة من هذا الأمر فقال:

﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر الذي اسمه:

﴿طُوًى﴾، أمره الله تعالى بخلع حذائه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان وادياً مقدساً<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَنَا آخَرْتُكَ﴾ أي: أنا اصطفتك لنبوتي ورسالتي، وأسمعتك كلامي كما

في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

فالنبوة لا تكونُ بالاكتساب وتحصيل الأسباب، وإنما تكون باصطفاء الحق

(١) تفسير الطبري: ١٠٩/١٦.



سبحانه بمشيئته وعلمه وحكمته، فالله سبحانه الحكيم الخبير ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿فَأَسْتَعِمْ لِمَا يُوحَى﴾ أي: استمع لما يوحى إليك، وتأهب له، واجعل همتك كلها متوجهة إليه، فهو أمر خطير عظيم.

### ● معرفة الله تعالى:

ثم ذكر له الله سبحانه بعض صفات كماله وجلاله، فهو الله المستحق وحده للعبادة والطاعة لتفردّه بصفات الكمال والجلال، فقال سبحانه:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١٤﴾

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: أنا المعبود الحق، الذي لا يستحق العبادة أحدٌ غيري.

ودلّ قوله سبحانه هذا على أن معرفة الله تعالى هي أوجب الواجبات، وأول المهمات وأعظمها، فهي أول ما يجب على الإنسان أن يعلمه، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

قال ابن كثير رحمته: «هذا أول واجب على المكلفين، أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له»<sup>(١)</sup>.

عرّف الله سبحانه موسى بأنه هو وحده سبحانه المستحق للعبادة والطاعة، فلا يستحق العبادة والطاعة أحدٌ غيره جلّ وعلا، لأنه وحده المتصف بصفات الجلال والكمال، وسبق تقرير هذه الحقيقة في أول السورة عند قوله تعالى الذي مر معنا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨].

ولعله قد اتضح لنا الآن سيرُ بدء الآيات بعرض قصة موسى من هذه الواقعة من موضع النداء والمناجاة في وادي طوى بجانب جبل الطور، هذه المعرفة هي

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٧١/٢.

التي تثير للإنسان درب حياته، وبها تظهر معالم المنهج الذي يجب عليه التزامه، ويبقى الإنسان من دون هذه المعرفة يتخبط في ظلمات الحيرة والقلق والجهل، فهي التي تخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، فيعرف الإنسان بها أن عليه أن يتوجه بطاعته وعبادته إلى الله الذي خلقه ورباه.

### ● عبادته سبحانه:

إنها كلمة جميع الأنبياء والمرسلين، فكل واحد منهم قال لقومه: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

لأنه سبحانه أوحاها إليهم جميعاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء].

﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: توجه إليّ وحدي بالعبادة والطاعة، فمن أجل أن تسعد بعبادتي وطاعتي خلقتك، وأنعمت عليك بنعمي، وسخرت لك ما في أرضي وسماي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥١] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات].

فالله سبحانه غني عنك وعن عبادتك وطاعتك، ولا سعادة لك أيها الإنسان إلا بطاعة ربك وعبادته، والعيش في ظلال منهجه وشريعته.

فمعنى العبادة: الطاعة والخضوع والانقياد في جميع شؤون الحياة، وقد ظهر هذا المعنى في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [١٦] وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس].

ووصف سبحانه الذين أطاعوا أحبارهم ورهبانهم الذين غيروا أحكام شريعته فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

### ● ذكُره سبحانه:

والصلاة لله تعالى تدلُّ على طاعته سبحانه، والانقياد والخضوع لأمره،

فهي العبادة بمعناها الخاص، وهي أهمُّ العباداتِ، لأنَّها تصلُّ الإنسانَ بالله تعالى، وتذكِّره به ﷻ، ولهذا خصَّها سبحانه فذكرها بقوله:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي: صلِّ الصلاةَ المشروعةَ على الوجه الكامل المستقيم من أجل أن تذكرنِي، فذكره سبحانه يجعلُ الإنسانَ في أعلى درجات السعادة الدنيوية، ولا سعادة حقيقية في الدنيا إلا بذكره سبحانه، فهي التي تصله بالله تعالى، وهي معراجُه إليه سبحانه، بها يمتلئ قلب المصلي طمأنينة وسكينة، ويتعد عن القلق والحيرة والاضطراب وتعب الأعصاب.

تجمع الصلاةُ للمصلي الانقيادَ والاستسلامَ لله تعالى بأسلوب عملي، بأداء قيامها وسجودها وركوعها، مع ذكره سبحانه ومناجاته بالآيات الكريمة التي يقرؤها، وبالتسيحات الخاشعة التي يرددها، وبالمدعوَاتِ والابتهالات التي يرفعها. ويُفيضُ اللهُ تعالى على المصلي في مقابل ذلك من فيوضات رحمته وخزائن فضله وإحسانه، ويذكره سبحانه في الملاء الأعلى، أخبر عن ذلك بقوله:

﴿فَأَذْكُرِيْنِ أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقولُ اللهُ ﷻ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حينَ يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في الملاء ذكرته في ملاءِهم خيرٌ منهم، وإن تقربَ مني شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإن تقربَ إليَّ ذراعاً، تقربتُ منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيتُه هرولاً» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له].

أرأيتَ سعةَ فضله سبحانه ورحمته؟! أرأيتَ كيف أنه سبحانه أسرع إليك بمعونته ورحمته وإحسانه منك إليه بطاعتك وعبادتك، وهو سبحانه غني عنك وعن عبادتك وطاعتك؟!.

وهذا هو سرُّ شعور المصلي الخاشع في صلاته بلذة مناجاته سبحانه، بهذه اللذة تزول عنه هموم الحياة وأحزانها، وبها يعرفُ حلاوة الإيمان: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَنَطَمَنُوا قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولهذا كان الخشوع في الصلاة روحها وزبدتها، وهو أعلى صفات المؤمنين المفلحين وأرفعها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون].

فالصلاة خير ما يستعين به الإنسان للتغلب على هموم الحياة ومصاعبها: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصلاة واحة خضراء غناء في صحراء حياة الإنسان، يجد فيها راحة قلبه وغذاء روحه وسكينة نفسه، تنزاح بها عن قلب الإنسان ونفسه أثقال الحياة وهمومها، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى. [رواه أبو داود (١٣١٩)]. وقوله «حَزَبَهُ»: أهمه وأحزنه.

#### • المسؤولية والجزاء:

ثم بين الله سبحانه لموسى ﷺ - بعد أن شرفه بمعرفته، وكلفه بطاعته وذكره - مسؤولية الإنسان عن عمله يوم القيامة، فقال تعالى بأسلوب التقرير المؤكد:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَآيَةٌ ءَآكَادُ أَخْفِيهَا لِيُتْجَزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَآيَةٌ ءَآ﴾ لا ريب في ذلك ولا شك.

فلا معنى لحياة الإنسان ووجوده على الأرض من دون تكليف ومسؤولية، ماذا يبقى من حياة الإنسان إذا انسلخ عن مسؤوليته أمام ربّه يوم القيامة؟! فالإيمان بيوم القيامة يعرف الإنسان قيمة حياته، ويجعله يدرك جوهرها، فهو نور كاشف يضيء لنا درب حياتنا، ومن دونه تصبّح الحياة فارغة تافهة مملّة مسئمة، وهو ما يشعر به الناس الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بمسؤوليتهم أمام ربهم خالق الحياة ومدبرها سبحانه.

ومن حكمته جلّ وعلا ورحمته أنه أخفى عن كلّ المخلوقات وقت القيامة، لكي يبقى دولاّب الحياة مستمراً دون توقف، ولو أنه سبحانه كشف الوقت المقدر ليوم القيامة للناس، لأدّى ذلك بالذين يرونه بعيداً إلى تأخير التوبة

والتسويق بها، وبالذين يروونه قريباً إلى التوقف عن ممارسة نشاطهم المعيشي الدنيوي، وبهذا يُصاب دولاب الحياة بالشلل، وتتوقف مسيرتها على الأرض.

إن وقت الساعة ممّا استأثر الحقُّ سبحانه بعلمه، فلم يُظَلِّعْ عليه نبياً مرسلًا، ولا ملكاً مقرباً، وقد أخبر سبحانه عن ذلك في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله الكريم: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقوله أيضاً: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ كَافٍ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وجاء الخبر عن ذلك أيضاً في السنّة، فعندما سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ قائلاً: أخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ» [رواه مسلم (٨)]. وقال سبحانه هنا:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أي: أكاد أخفيها حتى عن نفسي فكيف أظهرها لك؟ وهذا محمولٌ كما قال القرطبي: على ما جرت به عادة العرب في كلامها، من أنّ أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء؛ قال: كدّ أخفيه عن نفسي، والله تعالى لا يخفي عليه شيء...

ومن هذا الباب قوله ﷺ: «ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شماله ما تنفقُ يمينه» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

ثم بيّن سبحانه الحكمة من تقرير يوم القيامة فقال:

﴿لِتَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾ أي: بما تعمل في حياتها الدنيا من خير أو شر، فالمسؤولية شخصية ﴿وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَزَرَّ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولا يُسأل الإنسان إلا عن عمله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [٣٦] وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم].

ويدل قوله سبحانه: ﴿بِمَا سَعَىٰ﴾ على أن للإنسان كسباً واختياراً في سعيه

وعمله، وأن له إرادة وحرية في ما يعمل وفي ما يترك، وهو أساس مسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة.

### • تحذير:

وجاء بعد البيان والتقرير التحذير:

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾﴾ .

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ أي: لا يمنعك عن هذه القضايا الثلاث الكبرى، وهي: معرفة الله تعالى بكماله ووحدانيته، وطاعته بإقامة الصلاة والتزام دينه وشريعته، والإيمان بالمسؤولية أمامه سبحانه يوم القيامة.

﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي: الذي ينكرها ويجحدها، فلا يؤمن بالله تعالى الإيمان الصحيح، ولا يعبدُه ويذكرُه وينقادُ لشرعه، ولا يؤمنُ بالمسؤولية والجزاء يوم القيامة. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: أصبح تابعاً لهوى نفسه.

﴿فَتَرْدَى﴾ أي: فتهلك هلاك الشقاء والتعاسة والعذاب في الدنيا والآخرة. وهذا التحذير وجهه الله تعالى إلى موسى ﷺ، لأنه المخاطب والمكلم، والمراد به الإنسان المكلف، فكأنه سبحانه يقول لهذا الإنسان: في هذه القضايا الثلاث الأساسية سبيلُ سعادتك وسلامتك ونجاتك، وفي إعراضك عنها شقاؤك وعناؤك وعذابك في الدنيا والآخرة.

### • تأنيس وتسكين:

لا بد أن موسى ﷺ، وهو في موقف المناجاة في الواد المقدس طوى، قد فوجئ بنداء الحق سبحانه له، ولا بد أن وقع المفاجأة أحدث عنده ذهولاً واستغراقاً في الكلمات الأزلية الخالدة التي أسمعها الله تعالى إياها، فنَبَّهه الحكيمُ العليمُ الرحمنُ الرحيمُ من ذهوله واستغراقه بسؤاله سؤالَ تأنيسٍ وتسكينٍ لنفسه وقلبه:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ .

وكان ﷺ راعي غنم، عوّده عمله على حمل العصا، فالعصا آلة عمله، ورفيقه دربه وسفره، وأنتبه ﷺ من ذهوله واستغراقه وأجاب:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ ، ثم أردف يبين سبب عمله لها:

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ عند القيام وأثناء السير.

﴿وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي﴾ أي: أضرب بها أغصان الأشجار ليسقط ورقها

فيسهل على غنمي تناوله فتأكله، كما قال الراجز:

أهشُّ بالعصا على أغنامي من ناعِم الأراك والبشام

﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَىٰ﴾ أي: ولي فيها حوائج أخرى غير ما ذكرت.

فكأنه ﷺ أراد بهذا البيان أن يذكر أنه ما حمل العصا للعدوان، وإنما

حملها للانتفاع بها.

ومنافع العصا كثيرة، فصلها أعرابي للحجاج بن يوسف الثقفي عندما سأله

قائلاً: ما في يدك؟ قال: عصاي، أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق

بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتسع خطواتي، وأثبُّ

بها النهر، وتؤمّني من العثر، وألقي عليها كسائي، فيقيني الحرّ، ويدفئني من

القرّ، وتدني إلي ما بعد مني، وهي محمّلُ سفرتي، وعلاقةُ إداوتي، أعصي بها

عند الضراب، وأقرعُ بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب... (١).

• المعجزة الأولى:

﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَىٰ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾ ، واستجاب موسى لأمر الله تعالى:

﴿فَأَلْقَنَهَا﴾ أي: العصا.

﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَى﴾ وفوجئ موسى ﷺ بالمعجزة التي ما خطرت له على بالٍ، وما كان يتوقعها، انقلبت العصا بقدرة الله تعالى إلى حية تتحرك.

والحية: اسم جنس يقع على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، وقد وصفها سبحانه في موضع آخر بقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] مما يدل على ضخامتها، فالثعبان: العظيم من الحيات.

ويبدو أنها تتحرك حركات سريعة، إذ وصفها سبحانه أيضاً في موضع آخر بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرًّا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

واجتمع على موسى هول المفاجأة والخوف الطبيعي الذي يعتري الإنسان في مثل هذه المواقف، فابتعد هارباً منها.

وطمأنه الله سبحانه، وأزال خوفه، كما مر معنا، وقال أيضاً: ﴿يَمُوسَى أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأُمْتَرِينَ﴾ [القصص: ٣١] وأمره أن يأخذها ويحملها:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

أي: سنعيدها إلى هيئتها الأولى، فنردها عصاً كما كانت. فأخذها موسى، فعادت بقدرة الله تعالى عصاً كما كانت.

#### ● المعجزة الثانية:

ثم أمره سبحانه أن يُدْخِلَ يده من فتحة جيب قميصه تحت إبطه، ثم بعد أن يُدْخِلَهَا يُخْرِجَهَا، فقال:

﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾.

﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أي: إلى جنبك تحت العضد. وجناحا الإنسان: جنباه، قال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الآية [النمل: ١٢].



﴿تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: تخرج تتلألاً كأنها القمر من غير أذى فيها، ولا عيب، بقدرة الله تعالى ومشيتته.

﴿آيَةٌ أُخْرَى﴾ أي: معجزة ثانية، أجراها الله تعالى على يدك، وأيدك بها كدليل يدل على صحة نبوتك وصدق رسالتك.

﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾.

أي: فعلنا بك ذلك لنجعلك ترى بعض معجزاتنا الكبرى.

فهاتان المعجزتان: العصا واليد، اللتان أراهما الله تعالى موسى، هما بعض المعجزات التي أيده سبحانه بها، في أثناء مواجهة موسى لفرعون وملئه، فقد أيده الله تعالى بتسع معجزات أخبره سبحانه عنهن في قوله: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وتدل كثرة المعجزات الحسية التي أيد الله تعالى بها موسى، على شدة عناد الذين أرسل إليهم.

#### • الرسالة:

ثم كلفه ﷺ بحمل رسالته وتبليغها، فأمره هذا الأمر الصريح:

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

أي: جاوز الحد في تكبره وكفره، وفي فجوره وظلمه، حتى زعم لنفسه صفة الربوبية، فقد حكى الله تعالى عن فرعون قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

وادعى أيضاً صفة الألوهية في قوله الذي ذكره سبحانه في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وبهذا بلغ غاية الطغيان والتكبر والتجبر، ولا شك أن موسى كان يعلم مدى طغيان فرعون وظلمه، لأنه نشأ في قصره، وتربى في كنفه، وابتلي بعد

ذلك بقتل رجل من أعوانه وجنوده، فخرج من مصر هارباً من ظلمه وطمغيانه، فأقام في مدين سنين، وهو يعملُ عند الرجل الصالح شعيب في رعاية الغنم، وتزوج إحدى ابنتيه، ولما ظنَّ أنَّ فرعونَ قد نسي أمره، أو أن مرور السنين قد جعله يعفو عنه، عاد إلى مصر، وفوجئ وهو في طريق عودته بتشريف الله له بالنبوة، وتكليفه بحمل الرسالة إلى فرعون وملئه وبنى إسرائيل.

يا لها من مهمة كبيرة وخطيرة! كيف يواجه موسى ﷺ فرعون الطاغية؟! لا بدَّ أن موسى ﷺ شعر بثقل الرسالة التي حُمِّلها، دلَّ على ذلك ما حكاه الحق سبحانه عنه في سورة الشعراء: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤) [القصص]. وقوله أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٦) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ لِي هَارُونَ﴾ (٣٧) وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء].

#### • سؤال المعونة:

وفصّلت الآيات هنا في سورة طه سؤال موسى المعونة من ربه، ليبين شدة افتقار العبد للرب، فلا بدَّ للعبد من معونة ربه سبحانه في جميع الأحوال، ولا غنى لأحد عن الله تعالى، وهذا نبئُ الله موسى، وهو من أولي العزم من الرسل، يتوجه إلى الله تعالى يستعين به بخشوع وخضوع:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٣٥)

سأل الله أولاً أن يوسّع له صدره، حتى يتمكن من حمل الرسالة، وأداء الأمانة، فإن ثقل الرسالة جعله - كما مر معنا - يشعر بضيق في صدره، وانسراح الصدر وزوال الضيق يقوّي من عزم الإنسان، ويحوّل الشعورَ بمشقة التكليف إلى متعة ولذة، ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة<sup>(١)</sup>.

والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى أكرم نبينا محمداً ﷺ بشرح صدره لحمل

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

رسالة الإسلام من غير سؤال، وأنزل عليه سبحانه في معرض الامتنان قوله الكريم: ﴿الَّذِي نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح].

ثم سأل موسى ﷺ ربه أن يسر له أمره فقال:

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾.

أي: سهل عليّ ما أمرتني به من مواجهة فرعون وتبليغه الرسالة.

﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾.

سأل موسى أيضاً ربّه أن يزيل النقص الذي كان يظهر في كلامه، ويبدو أنه نتيجة حادث حدث له في صغره ترك أثراً في لسانه<sup>(١)</sup>.

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ليكون كلامي واضحاً، فيفهموه ويعلموه، ولهذا فإنّ الله تعالى لا يختار لتبليغ رسالته إلا أكمل الناس خلقاً وخلقاً.

﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾.

أي: اجعل لي من أهلي مُعيناً ومساعداً يؤازرني ويساعدني في المهمة التي كُلِّفْتُ بها.

(١) هذا التفسير لعقدة لسان موسى ﷺ لا يتناسب مع الكمال البشري الذي جعله الله لأنبيائه ورسله بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وموسى ﷺ من أولي العزم من الرسل؛ فهو مبرراً من كل عيب أو عاهة جسدية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَانُوا مُوسَى فَهَارَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وهناك تفسير آخر وجهه يتفق مع ما ذكرنا، انظره في كتاب: القصص القرآني، للدكتور صلاح الخالدي، طبعة دار القلم - دمشق (ن).

سأل الله الوزير من أهله، ثم عينه فقال:

﴿هَذَا أَخِي﴾ (٣٠)

ثم سأل الله تعالى أن يقويه به، فليس كل وزير يكون عوناً وسنداً:

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١)

أي: قوّ به ظهري، أو زدني به قوة.

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢)

أمر النبوة وحمل الرسالة.

﴿كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣)

أي: كي نكثر من صلاتنا وعبادتنا، أو نزيد في تنزيهك وتقديسك عن صفات النقص.

﴿وَنَذُوكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤)

أي: ونكثر من ذكرك، فيكون ذلك عوناً لنا على ما كلفتنا به، فإن الإكثار من الصلاة والذكر يمدُّ الإنسان بطاقة روحانية كبيرة، تعينه على تحمل التبعات الجسيمة والمهمات العظيمة، كما مر معنا.

ولهذا لما اختار الله تعالى مريم للمهمة الكبيرة العظيمة، أمر الملائكة أن تناديها وهي في محرابِ عبادتها لتضاعفَ من صلاتها وقنوتها وذكرها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَمْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ﴾ (٤٢) ﴿يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾ [آل عمران].

وكذلك عندما كلف الله تعالى نبينا محمداً ﷺ بحمل رسالة الإسلام أنزل

عليه في بواكير التنزيل قوله الكريم: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ (١) فُرُّ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا (٢) نَصَفَهُ؛ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدَّ عَلَيْهِ وَرَبَّلِ الْقُرْآنَ تَرْبِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلاً﴾ [المزمل].  
وتدل الآيات على أنه ينبغي على الإنسان إذا أحدث الله تعالى له نعمةً، أن يُحَدِّثَ لله تعالى شكرًا، وذلك بمضاعفة طاعته وعبادته، والإكثار من تسبيحه وذكره جلَّ وعلا.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٢٥)﴾ .

أي: إنك عالم بأحوالنا، تعلم ضعفنا وافتقارنا .

#### • سوابق الفضل الإلهي:

واستجاب الحقُّ سبحانه لدعوات موسى ﷺ، وحقق له سُؤْلَهُ، وأخبره سبحانه عن ذلك بقوله:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)﴾ .

هكذا مرةً واحدةً أُعْطِيَتْ كل ما سألت، وبكلمة واحدة، فيها إجمال يُعْنِي عن التفصيل، وفيها إنجاز، لا وعد ولا تأجيل<sup>(١)</sup>.  
ثم ذكَّره سبحانه بسوابق فضله وإحسانه عليه، وأنَّ موسى ﷺ كان في جميع مراحل حياته وتقلباته، موضعَ عنايته سبحانه، أحاطه بخفيِّ الطافه، وحقَّه بكريم إحسانه، منذ بداية حياته وبواكير نشأته.  
وبهذا عادت الآياتُ الكريمةُ عَوْدًا لطيفاً إلى قصة موسى ﷺ من بدايتها، وظلَّت الآياتُ محافظةً على أسلوبها اللطيف الرهيف مكتفيةً بالمرور السريع على الأطوار والمراحل التي تَقَلَّبَ فيها موسى ﷺ دون استقصاء وتفصيل، اقتضرت فقط على تذكير موسى ببعض ممن الفضل الإلهي عليه، والوجود الصمداني والإحسان الرباني، قال تعالى:

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٤.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: أنعمنا عليك قبل هذه المرة.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ .

أي: عندما أوحينا إلى أمك وحي الإلهام، أو بواسطة هاتف هتف بها بإذن الله تعالى، ولعلّه الأرجح، إذ تضمن الوحي أمرين ونهيين وبشارتين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [القصص: ٧].

بين الله سبحانه لها ما ينبغي أن تفعله لينجو موسى من الأذى، ويسلم من الذبح، بعد أن أصدر فرعون أوامره بذبح كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل.

﴿إِنِ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۗ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿إِنِ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ أي: ضعيه في صندوق من الخشب.

﴿فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ وألقي هذا الصندوق في نهر النيل.

وكنت يا موسى وأنت داخل الصندوق والأمواج تتقاذفك موضع عنايتنا ورحمتنا وحفظنا، فبأمرنا وإرادتنا حملتك الأمواج إلى ساحل قصر فرعون:

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ويلاحظ أنه جاء الخبر عن هذه الواقعة بصيغة الأمر والخطاب لمياه النهر، مما يدل على أن مشيئته سبحانه تامة نافذة في جميع الموجودات، وهاهي مياه النهر تخضع لأمره سبحانه، وتنقاد لمشيئته جلّ وعلا، فتؤدي الأمانة التي حملتها سليمة معافاة إلى الساحل حيث شاء الله تعالى وقدر. . . وأي ساحل؟ ساحل الأخطار، ساحل فرعون، الذي أمر بذبح أبناء بني إسرائيل.

## ● الحب من جنود الله تعالى:

حملتك مياه النهر بأمر الله تعالى إلى مَنْ كانت أمك خائفة عليك من ظلمه وطغيانه، حتى أخذك عدو الله وعدوك الذي كان يبحث عنك:

﴿يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ وهكذا أصبحت في قبضة فرعون، وتحت أمره وسلطانه، ومع ذلك حماك الحق سبحانه منه، فسلطان الله أقوى من سلطان فرعون، ما فرعون وما جنود فرعون بجانب سلطان الله ﷻ؟! حماك الله تعالى من فرعون بفرعون، وجعل سبحانه لك في قصره حرزاً وحصناً ووقاية وحماية. تباركت ربي ما أعظمك وما أرحمك! حماك الحق سبحانه من ظلم فرعون وجبروته بالحب، وجعل من الحب حارساً لك:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي: محبة عظيمة كائنة مني.

وجاءت كلمة ﴿مَحَبَّةً﴾ نكرة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية، ثم جعلت من الله تعالى، فأضيفت لها فخامة أخرى<sup>(١)</sup>.

فما رآك أحدٌ إلا أحببك، هكذا حرسك الله بالحب، وأصبح الحب جندياً من جنود الله تعالى: ﴿وَمَا يَلْعَلُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

فعندما رأتك سيدة القصر امرأة فرعون، أوقع الله محبتك في قلبها، فأنقذتك من الذبح، بعد أن أمر فرعون بقتلك؛ دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكُ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

وهي المرأة التي آمنت بعد ذلك برسالة موسى، ونفعها الله تعالى به، وقال عنها سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِئْسَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ﴾ [التحریم: ١١].

﴿وَلْيَصْنَعِ اللَّهُ عَيْنِي﴾ أي: ولتربى وتنشأ في قصر فرعون، ترعاك عين الله

(١) انظر: روح المعاني: ٨٩/٦.

تعالى وتحرسك، وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يليقه التعبير القرآني العجيب<sup>(١)</sup>.

### • تحريم المراضع:

وتابعت الآيات الكريمة تذكّر موسى ﷺ ببعض سوابق نِعَم الله تعالى عليه، وفي الوقت نفسه تعرض لنا حلقات قصة حياته ﷺ:

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَقُولْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۗ فَلَمَّتَ سَيْنًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ۖ﴾

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَقُولْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ مشت أخته تقصُّ أثره، وتتبع أخباره، حتى وصلت إلى قصر فرعون، فوجدتهم منهمكين به، يبحثون له عن مريض، وكلّما أحضروا له مريضاً رفض ثديها، وأبى لبنها، فقد حرم الله عليه المراضع، وأخبر سبحانه عن ذلك في قوله: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ [القصص: ١٢].

وقبلوا منها عرضها، فدلّتهم على أمه التي ضمّته إلى صدرها، وألقمته ثديها، فتقبله بإذن الله تعالى، عرفه سبحانه أنّ هذا الثدي الثدي أمه، الثدي المرأة التي حملته في أحشائها، وغذته بدمائها، الثدي الأم التي كادت من فرط حنانها وشفتها أن تكشف أمرها، وتبوح بسرّها، ولكنّ عناية الله تعالى أدركتها، وثبت قلبها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۗ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ هكذا ردك الله تعالى إلى أمك، فقرّرت

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٥.



عِينُهَا وَزَالَ حَزْنُهَا، وَحَقَّقَ سُبْحَانَهَا لَهَا مَا وَعَدَهَا بِهِ عِنْدَمَا أَمَرَهَا أَنْ تَلْقِيكَ فِي النُّهْرِ دَاخِلَ الصَّنْدُوقِ.

### • الابتلاء بالقتل:

وكذلك أدركتك عناية الله تعالى، وحنَّت بك الطأفة عندما ابتليت بقتل رجل من رجال فرعون:

﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا﴾ خطأً دون أن تقصد إلى قتله، إنما أردت كفه عن ظلمه.

وقد فصل سبحانه حادثة القتل في سورة القصص فقال: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِهُ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وصدرت الأوامر بقتلك، وأرسل الله تعالى لك رجلاً يحذرك وينصحك: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص].

ويسر الله تعالى لك سبيل النجاة:

﴿فَنَجِّيكَ مِنَ الْعَرِ﴾ الذي أصابك بسبب قتل الرجل.

﴿وَفَنَّكَ فُؤُونًا﴾ أي: اخترناك وامتحانك اختباراً بعد اختبار، وامتحاناً بعد امتحان، ونجيناك منها جميعاً.

### • موعده وقدر:

﴿فَلَيْتَ سِينِ فِي أَهْلِ مَدِينٍ﴾ أي: أقمت سنين عند الرجل الصالح شعيب في مدين، ولعلها المذكورة في قوله تعالى على لسان شعيب في سورة القصص: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنِي حِجْبٍ فَإِنْ أْتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَضَيْتُ فَلَا عُدُونَكَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ جئت على قدرٍ يموسى﴾ أي: ثم جئت إلى موضع النداء والمناجاة على القدر

الذي قدرته لك، والموعد الذي تعلقت به مشيئتي، وسبق به علمي، فلم تتقدم عليه ولم تتأخر، إنها خطوات وحركات مقدرة محسوبة قدرها العليم الحكيم.

﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٤١)

أي: اخترتك واصطفيتك لمحبتتي وكرامتي.

وهذا يدل على أن لموسى ﷺ مكانة عالية عند الله تعالى.

أو كما قال سيد قطب رحمه الله: «﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ خالصاً مستخلصاً ممحضاً لي ولرسالتي ودعوتي، ليس بك شيء من هذه الدنيا، ولا لهذه الدنيا، إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها فما لك في نفسك شيء، وما لأهلك منك شيء، وما لأحد فيك شيء، فامض لما اصطنعتك له»<sup>(١)</sup>.

• عدة الداعية وأسلوبه في الدعوة:

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخْوَاكَ يَتَابِعِي وَلَا يُبَايِعُ فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢)

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخْوَاكَ يَتَابِعِي﴾ أي: بمعجزاتي التي أيدتك بها.

﴿وَلَا يُبَايِعُ فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تفترا ولا تقصراً في ذكري، فهو عدتكما في مهمتكما، اتخذنا ذكري جناحاً تطيران به<sup>(٢)</sup>.

قال ابن كثير رحمه الله: «المراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما، وسلطاناً كاسراً له»<sup>(٣)</sup>.

وقد أمر الله تعالى بذكره عند لقاء العدو فقال: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٦.

(٢) تفسير النسفي: ٤/١٩٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٤٨٢.

وقد يكونُ المراد من الذكر تبليغَ الرسالة، فإنَّ الذكرَ يقع على كل العبادات، وتبليغُ الرسالة من أعظمها<sup>(١)</sup>.  
فيكون المعنى: ولا تقصِّرا في تبليغ رسالتي.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾

جاوَزَ الحدَّ باستكباره وظلمه وفجوره.  
ومع ذلك أمرهما سبحانه أن يُلينا القولَ له:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ لا خشونة فيه، ولا شدة ولا غلظة.  
﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتعظ ويقبل الموعدة.  
﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ عقاب الله تعالى وانتقامه.

بهذا التوجيه الكريم بين الله تعالى للدعاة الأسلوب الذي ينبغي عليهم اتباعه في الدعوة إلى الله تعالى، وهو أسلوب الرفق واللين ومحاولة الوصول إلى المراد بأيسر الطرق وأسهلها، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا بعثَ أحداً من أصحابه في بعض أمره، قال: «بَشِّرُوا وَلَا تُتَفَرُّوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» [رواه مسلم (١٧٣٢)].

قال ابن كثير رحمته الله: «هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية

العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»<sup>(١)</sup>.

ومهما كان المدعو مبالغاً في كفره وظلمه، فلا ينبغي للداعية أن يئس من هدايته، بل ينبغي أن يدعوه دعايةً من يرجو هدايته، فلو يئس من هدايته لا يبلغه الدعوة بحرارة وحماس وإخلاص، ولهذا قال سبحانه لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي: وأنتما راجيان أن يتذكر أو يخشى، وحاصل الكلام: باشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله، ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوعه، ويحشد أقصى وسعه<sup>(٢)</sup>.

#### • تثبيت وتطمين:

ودلّ الخطابُ الموجّه إلى موسى وهارون أن الله تعالى قد أوحى إلى هارون ونبأه وكلفه بالرسالة كما كلف موسى ﷺ، ولما اجتمع موسى مع أخيه هارون توجهوا إلى الله تعالى معاً بهذا الدعاء:

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾<sup>(٤٥)</sup>.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا﴾ أي: نخاف أن يعاجلنا فرعون بالعقوبة والأذى قبل أن نتمكّن من تبليغه. قالا ذلك لما يعلمان من شدة ظلمه واستكباره. ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أو أن يزداد طغياناً واستكباراً بعد تبليغه الدعوة.

﴿قَالَ لَا نَخَافُ إِلَّا نَفْسَنَا وَمَا نَكْهَرُ بِهَا وَالْحَقُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾<sup>(٤٦)</sup>.

﴿قَالَ لَا نَخَافُ﴾ مما ذكرتما.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: لأنني معكما بالحفظ والنصر.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٨٢/٢.

(٢) روح المعاني: ١٩٥/٦.

﴿أَسْمِعْ وَأَرْئِ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل في كلِّ حالٍ ما يليقُ بها من دفع شرٍّ، وجلب خيرٍ.

وبهذا أزال سبحانه خوفهما وطمأنهما، ورحم الله القائل:  
وإذا العنابة راقبتك عيونها نَمَ فالحوادثُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

#### • مواجهة الطاغية:

ثم بيّن الله تعالى لهما ما يقولان لفرعون عندما يواجهانه:

﴿فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ ﴿٤٧﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي رباك بفضله وإحسانه.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أطلقهم لكي يذهبوا معنا حيث يشاؤون.

﴿وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ أي: وكفَّ عن ظلمهم وتعذيبهم بما تكلفهم القيام به من

أعمال السخرة الشاقة، وبما تفعله من تذيبح أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ بمعجزة تدل على صدقنا وصحة رسالتنا. والمراد

بها جنس الآية، كانهقلاب العصا حية، واليد البيضاء المنيرة.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أي: السلامة والعافية والسعادة في الدنيا

والآخرة لمن اتبع دين الله تعالى وتمسك بطاعته وشريعته، وجيء بحرف الجر

(على) للإشعار بأنَّ السلام يكون لهم كمظلة واقية، تحميهم من أسباب الشقاء

والتعاسة والعذاب.

ودل مفهوم الآية أنه لا سلام ولا سعادة لمن لا يتبع الهدى، فلا سلام

لفرعون إذا أصرَّ على كفره وطغيانه.

ولما أرسل النبي ﷺ رسالته إلى هرقل ملك الروم يدعوها إلى الإسلام،

بدأ الرسالة بخاتمة هذه الآية، ونصَّ الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من

محمَّد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى، فأنتي

أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمت تسلم، وأسلمت يؤتتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» [رواه مسلم (١٧٧٣)].

وقوله: «الأريسيين»: الرعية التي تحكمها.

ودل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبُهُمْ﴾ على أن مهمة الأنبياء والمرسلين لا تقتصر فقط على الدعوة إلى عبادة الله تعالى وطاعته، وإنما تمتد إلى مقاومة الطغاة والظالمين، وإلى العمل من أجل تخليص الأمم والشعوب من ظلمهم وبغيهم.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (٤٨)

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ من ربنا جلّ وعلا الذي أرسلنا إليك.

﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ﴾ رسل الله تعالى.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن عبادته وطاعته.

وهذا التعريضُ بالعذابِ دونَ التصريحِ به مباشرة من التلطف واللين الذي أوصاهما الله تعالى به.

#### • حوار الإيمان مع الكفر:

ومع أن فرعون كان في غاية العتوّ والاستكبار والطغيان، إلا أن الله تعالى بقدرته ومشيئته منعه من البطش بموسى وهارون عليهما السلام، كما وعدهما سبحانه، بل اتجه إلى التحوار مع موسى عليه السلام:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ (٤٩)

لم يُضِفْ نفسَه إلى الربِّ، مع أنهما صرحا له بذلك عندما قالوا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

وذكر سبحانه في موضع آخر أنهما قالوا له أيضاً: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، فهو سبحانه ربنا وربك ورب جميع المخلوقات.

ولا شك أن إعراض فرعون عن إضافة نفسه إلى الربّ سبحانه يدلُّ على شدّة طغيانه واستكباره، وهو تجاهلٌ وتغافلٌ عن حقيقةٍ مستقرّةٍ في أعماق نفسه، تقول له: إنك مخلوقٌ ومملوكٌ لخالقٍ عظيم، ومربوبٌ لرب كريم، وقد واجهه موسى بهذه الحقيقة في إحدى محاوراته له فقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَايِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَبْهُرًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وردّ موسى على سؤال فرعون بتذكيره بالحقيقة التي تغافل عنها في سؤاله:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٥).

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ﴾ أي: ربنا لا ينبغي لأحد أن يسأل عنه، لأنّه أوجد كل المخلوقات، وأخرجها من العدم، وخصّ كل مخلوقٍ بصفاتٍ وخصائصٍ تناسبه وتلائمه، وتميزه من غيره من المخلوقات، فكلُّ المخلوقاتِ تعرّف ربها الذي أوجدها وأمدها بأسبابٍ استمرارٍ وجودها.

﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي: هداهم، فأرشدهم إلى كيفية الانتفاع بما أعطاهم الله جلّ وعلا، فهو الذي هدى النملة إلى تخزين طعامها، والنحلة إلى السبل التي تسلكها لجمع غذائها، والسمكة في أعماق البحار إلى أماكن تكاثرها وتناسلها، والطيور في جو السماء إلى طرق هجرته الممتدة فوق المحيطات والقارات... إلخ.

فهو الذي أعطى كلّ صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه جلّ وعلا، ما أعظم شأنه وأكمل قدرته! (١).

فإيجاد المخلوقات دليل على وجوده سبحانه، وتخصيص كل مخلوق بالخصائص التي تناسبه دليل أيضاً على وجوده سبحانه وكمال قدرته وعلمه

(١) أضواء البيان: ٤/٤١٩.

وحكمته، وهداية كل مخلوق إلى طرائق حياته ومعاشه وتكاثره دليل أيضاً على وجوده تعالى وكمال قدرته وتمام مشيئته وحكمته.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده فيها، وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمدّه بما يناسب هذه الوظيفة، ويعينه عليها، و(ثم) هنا ليست للتراخي الزمني، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خُلق لها»<sup>(١)</sup>.

وأقول: الأولى أن نقول: (ثم) للتراخي الزمني، تدل على توالي عطايا الحق سبحانه وإمداده لمخلوقاته، فمنه الإيجاد والإمداد، والإمداد مستمر من الله تعالى لمخلوقاته إلى الأجل المسمى لها لموتها وفنائها.

وما يسمى الاهتداء الطبيعي الفطري، لا يحدث إلا بإيجاد الحق سبحانه عندما تتعلّق إرادته سبحانه بإيجاده، فهو حادث متجدد بإرادته سبحانه وقدرته، وقد مرّ معنا أن من أسمائه الحسنی: القيوم، ومن معانيه: أن المخلوقات كلها تقوم به جلّ وعلا، فإذا قطع سبحانه عنها إمداده انقطع وجودها وانتهت، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَكِّنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

### • جواب مُفْجَم:

وجاء جواب موسى ﷺ في غاية البلاغة لاختصاره وعمق معانيه، وشموله لجميع المخلوقات، مع الإشارة إلى كثرتها وكثرة أجناسها وأنواعها وخصائصها، وافتقارها إلى خالقها وبارئها جلّ وعلا، الذي أوجدها من العدم، وأمدّها بأسباب استمرار وجودها، وهداها وأرشدّها، فهو ربّ العالمين، الواحد الأحد، الإله المستحق للعبادة والطاعة، لا إله غيره، ولا ربّ سواه جلّ وعلا، فهو جواب ملزم ومقنع ومفحم.

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٨.



ولا بدّ أن فرعون قد بُهت بجواب موسى وأفحم، فاضطر أن يصرف الكلام إلى جهة أخرى:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٥١﴾

أي: فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة؟

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ لأنه من الغيب المغيب عني، فأنا عبد الله تعالى لا أعلم إلا ما علمنيه ربي جلّ وعلا.

﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: علم أحوال هذه القرون مثبت في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله تعالى فيه شؤون جميع المخلوقات.

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ أي: لا يغيب شيء عن علمه سبحانه، ولا ينسى شيئاً جلّ وعلا.

وكأن موسى ﷺ قال ذلك لبيّن كمال علمه سبحانه، وأنه لا يحتاج إلى كتاب، ولكنه أظهر مقدراته التي قدرها في اللوح المحفوظ ليطلع عليها مَنْ شاء من الملائكة الموكلين بتصريف شؤون المخلوقات.

• من دلائل وجوده سبحانه وجوده:

وتوقفت الآيات عن متابعة الحوار بين موسى وفرعون لكي تبين لفرعون وأمثاله من الجاحدين والمعاندين بعض البراهين الدالة على وجوده سبحانه وجوده، وبعض آثار رحمته وإحسانه، قال تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً ملائماً لحياتكم ومعاشكم،

فالأرض للإنسان كالمهد للطفل، وما البشرُ عليها إلا أطفالٌ، يضمهم حضنها، ويغذوهم دُرُّها، والله سبحانه بقدرته وحكمته أعطى الأرض خلقها لتكون صالحة لحياة الناس عليها، وأعطى الناس خلقهم أيضاً على الهيئة التي خلقوا عليها ليتمكّنوا من الحياة على هذه الأرض، وهذا يدلُّ على أن خالق الأرض والإنسان واحدٌ أحدٌ سبحانه.

﴿وَسَلِّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: وشقّ لكم في الأرض طرقاً تمشون عليها وتتنقلون بواسطتها في نواحي الأرض وأطرافها، قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٦٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو ماء المطر المنزّل من السحاب في جهة السماء.  
 ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: فأخرج الله تعالى بماء المطر أصنافاً من نباتات كثيرة مختلفة في أشكالها وألوانها وطعمها وروائحها.

فالخالق هو الله تعالى وحده، ولهذا انتقلت صيغة الكلام من الغيبة إلى التكلّم بصيغة التعظيم، ونظيرُ هذا الانتقال في القرآن كثير، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ الآية [الأنعام: ٩٩].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ الآية [فاطر: ٢٧].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿أَمْ نَخْلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ حَادِقٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ الآية [النمل: ٦٠].

ويدل هذا الالتفاتُ من الغيبة إلى التكلّم على تعظيم شأن إنبات النبات، فهو ظاهرةٌ كبيرة، تدل على عظمة الخالق سبحانه، كما تدل على سعة فضله

وإحسانه على الناس، فلولا أن الله سبحانه أنزل المطر وأخرج الثمر لهلك الناس جوعاً وعطشاً.

### • الزوجية في المخلوقات:

ودل قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ على حقيقة علمية، ما عرفها الناس إلا في العصور الحديثة، وهي الزوجية في النبات، وانقسامها إلى زوج مذكر وزوج مؤنث، فقلوه: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض<sup>(١)</sup>.

جاء الخبر عن هذه الحقيقة في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].  
 وذكرت بعض الآيات أن الزوجية موجودة في جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].  
 فالذكورة والأنوثة، والسالب والموجب، وانقسام المخلوقات إلى صنفين متكاملين، يكمل كل صنف الصنف الآخر الذي يقابله، ظاهرة مبثوثة في جميع المخلوقات، وتدل على حدوثها ونقصها وافتقارها، أما الخالق فهو واحدٌ أحدٌ، فرد صمد، قوي قاهر، حي قيوم، غني عن كل شيء، وكل الأشياء تقوم به، وتفتقر إليه جلّ وعلا.

وبعد أن بين سبحانه للناس دلائل وجوده وفضله وإحسانه، وجّه الخطاب لهم بأسلوب المتفضل المحسن، فقال:

(١) تفسير البضاوي: ٢٠٢/٤.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ ﴿٥٤﴾

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ﴾ فقد خلق الله سبحانه طعامكم وطعام أنعامكم .  
والأمر هنا للإباحة، ولا يخفى ما فيه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المنعم وحده العبادة والطاعة، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله:  
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكر في الآية .

﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي: لبراهين ودلائل ينتفع بها أصحاب العقول الناهية عن اتباع الباطل وعبادة غير خالقها ورازقها جلّ وعلا، فالتفكير والنظر سبيلُ الإيمان بالله تعالى ووحدانيته .

#### • الإنسان والأرض:

الإنسان مرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً مُحْكَمًا، قدّر هذا الرباط وأحكمه الخلاق العظيم سبحانه، فبنية الإنسان المادية مكونة من تراب الأرض:

﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾

﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ كما قال تعالى في آيات كثيرة:  
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].  
﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].  
﴿فِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ومصير أجسادكم بعد الموت إلى الأرض .  
﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ في يوم القيامة يوم البعث والنشور، كما قال تعالى:  
﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

إنه ناموس علوي قدره العليم الحكيم القادر القاهر للإنسان، ومهما أوتي الإنسان من وسائل القوة والتمكين فلن يستطيع التفلّت من هذا الناموس القدري، ولن يجد الباحثون بين النجوم كوكباً يلائم الإنسان مثل الأرض، إنَّ جهودهم

ضائعة، يبُدُّون فيها طاقات كبيرة لو وجهت إلى عمارة الأرض لكان ذلك أنفع للناس، ولوجد المحرومون ما يسدُّ حرمانهم، والجائعون ما يسد جوعهم.

### • عناد وجحود:

وتابعت الآيات بعد هذا التوقف القصير في محطة الدلائل والبراهين استعراض أحداث قصة موسى مع فرعون:

﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ﴾ أي: فرعون.

﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: كل المعجزات الدالة على صدق رسالة موسى وصحة نبوته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بالآيات وردَّ البيّنات.

﴿وَأَبَىٰ﴾ الانقياد والإذعان لرب الأرض والسموات.

لقد بيّن الله تعالى لفرعون سبيل الهداية وطريق السعادة، فأعرض عنه استكباراً وعناداً، وأتبع هوى نفسه، فخاب وخسر، وشقي شقاء الأبد، وبهذا أظهر الحق لنا أن مصدر شقاء الإنسان نابع من نفسه، من كسبه واختياره.

كذب فرعون بالآيات البيّنات، وهو يعلم أنها حق وصدق، وقد كشف سبحانه هذه الحقيقة في قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٦﴾ وَحَدُّوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل].

وردَّ فرعون على موسى متهماً له بأنه يطمع في الحكم والسلطان، وأنه أتى ينازع فرعون في سلطانه على أرضه وشعبه، وأن المعجزات التي أيده الله تعالى بها ليست سوى عمل من أعمال السحرة:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾

وهو سؤال استنكار، ومعناه: ما جئتنا نبياً هادياً، إنما جئتنا تريد لنفسك الحكم والسلطان، فتخرجنا بسحرك من ديارنا، وتغلبنا عليها.

وهي الحجة نفسها التي يحتجُّ بها كل الطغاة والظالمين في جميع العصور، يتهمون كل داعية ومصلح ومعارض لطغيانهم وظلمهم بأنه يريد الحكم والسلطان لنفسه، وأنه لا يريد إصلاحاً ولا عدلاً، فدعوة موسى في نظر فرعون دعوة سياسية، بحسب الاصطلاح الدارج في العصر الحاضر، وقد يكونُ بين الدعاة والمصلحين مَنْ يتطلَّعُ إلى الدنيا ورتبتها ومراتبها وزخرفها وزهرتها، ويكثر هذا في عصور الفتن، كما أخبر ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «بادِرُوا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبحُ الرجلُ مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبحُ كافراً، يبيعُ دينه بعرضٍ من الدنيا قليل» [رواه مسلم (١٨٦)].

وقوله: «بادرُوا» أي: سارعوا إلى الأعمال الصالحة قبل تعذُّرها والانشغال عنها بالفتن الحادثة.

لكنَّ الأنبياءَ ﷺ لا يكونُ منهم شيء من هذا أبداً، فدعوتهم منزهة عن جميع الأغراض الدنيوية خالصة لله تعالى، فهم معصومون بعصمة الله تعالى لهم، وهو سبحانه الذي اصطفاهم واختارهم وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد مرَّ معنا قوله تعالى في موسى ﷺ: ﴿وَأَنَا آخَرَتَكَ﴾ [١٣]، ﴿وَلِصْنَعِ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [٣٩] ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾ [٤١] وسيأتي معنا في آخر السورة قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وأراد فرعون أن يقوِّيَ تهمته لموسى ويعزِّزها، فقال له على سبيل التحدي:

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۖ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ ۚ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا﴾ [٥٨].

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ معارضاً لسحرك، ومماثلاً له.  
﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ ۚ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ وحتى لا نتخلف عنه اجعله في مكان معلوم.

﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾ يستوي الجميع في معرفته.

ولم يُقبل فرعون على تحدي موسى مباشرة، بل رجع أولاً إلى أعوانه ومستشاريه كما دلت على ذلك الآيات في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْبَعٌ فِي الدَّيْنِ حَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ [الشعراء].

#### • الاستعداد ورسم الخطط:

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُحَىٰ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى.

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيد لهم كما تدل عليه الصفة التي وصف بها.  
﴿وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُحَىٰ﴾ أي: وأن يُجمع الناس في وقت الضحى من النهار.

﴿فَقَتَلَىٰ فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

أي: جمع أسباب مكره واحتياله، وأخذ يشجع السحرة، ويعددهم بالوعد والبراقة، ويمنيهم الأمانى الخلابه، قال تعالى: ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لَمِيقَتِ يَوْمِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٦﴾ لَعَلْنَا نَبْعِثَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء].

ووقف موسى ﷺ في وسط الميدان حاملاً عصاه في مواجهة عدد كبير من السحرة الحاملين جبالهم وعصيهم ووسائل سحرهم.

ووجه موسى ﷺ قبل بدء المبارزة الدعوة إلى السحرة، وبلغهم الرسالة التي كلفه الله تعالى بتبليغها، ثم حذرهم من عذاب الله وغضبه إذا أصرروا على الوقوف بجانب الطاغية ومساعدته على طغيانه وظلمه:

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلَيْكُمُ اللَّهُ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَتَكُمْ عَذَابٌ وَقَدْحَابٌ مِّنْ أَفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلَيْكُمُ اللَّهُ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تصفوا معجزات الله تعالى

بصفة السحر.

﴿فَيْسَجِّتُكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي: فيهلككم الله تعالى بعذاب يستأصلكم به .  
 ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْرَتِي﴾ أي: خسر من كذب على الله تعالى .  
 ويبدو أن كلمات موسى قد أثرت فيهم ، وأحدثت بينهم تنازعا واختلافاً :

﴿فَنُنَزِّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ ﴿٦٢﴾ .

فتنازعوا واختلفوا، واضطروا إلى الحديث الخفي فيما بينهم ليستروا تنازعهم واختلافهم، وتوصلوا أخيراً إلى الاتفاق، وخلاصة ما اتفقوا عليه :

﴿قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ ﴿٦٣﴾ .

﴿قَالُوا﴾ بعضهم لبعض .

﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ﴾ يشيرون إلى موسى وهارون .

﴿بُرِيدَانِ﴾ أي: أرض مصر .

﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ أي: ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر

دونكم، ويسيطرا على مكاسبها المادية ومراتبها .

وهذا يدل على أن السحرة نظروا إلى موسى وهارون على أنهما منافسان

خطيران لهم على صناعة السحر وأرباحها وفوائدها، كما يدل على أنه كان للسحرة

في المجتمع المصري في ذلك الوقت انتشار كبير ومكانة عالية، وقد جعلهم

الخوف على الأرباح والمناصب يوحدون كلمتهم وصدقهم، ولا بد أن فرعون قد

دسَّ بينهم بعض أتباعه ليجعلوا السحرة ينظرون إلى موسى وهارون هذه النظرة .

فتحقق لفرعون ما أراد، واتفقت كلمة السحرة، ووحدوا موقفهم، وأوصى

بعضهم بعضاً قائلين :

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنْ أَسْتَعَلَى﴾ ﴿٦٤﴾ .

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: وحدوا عملكم الذي تكيدون به موسى وهارون .



﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا﴾ أي: تقدّموا إلى ميدان المباراة متعاونين متساندين .  
 ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾ أي: من فاز وغلب .  
 وهكذا أعادوا تنظيم صفهم، وتوحيد كلمتهم، ورسم خططهم .

### • الجولة الأولى:

وبثّ اجتماعهم واتفقهم الثقة في نفوسهم، فأقبلوا على موسى مخيّرين :

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ لَقِيَ ﴿٦٥﴾﴾ .

فاختار ﷺ الجولة الثانية ليرى ما يستطيعون أن يفعلوا من السحر ويُظهِر للناس حقيقة أمرهم :

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّمَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾﴾ .

ألقوا جباههم وعصيتهم وهم يرفعون أصواتهم يشيدون بفرعون تزلّفاً وتقرباً، كما ذكر سبحانه في سورة الشعراء فقال: ﴿قَالُوا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

وامتلأت ساحة الميدان الفسيحة بالحبال والعصي، وتمكّن السحرة من جعل الناس يتخيّلون أنّها تتحرك، فالسحر الذي صنعه أثر في أعين الناس، فأصبحوا يتخيّلون أنّ الحبال والعصي تتحرك وتسعى، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْهَبُوهُمْ وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ .

كان لهذا السحر وقع كبير على أعين الناس، وتأثرت الجموع البشرية المحتشدة حول الميدان الكبير بما شاهدت، كما تأثرت بأصوات السحرة المرتفعة التي تصدر عنهم، فهاجت واضطربت، حتى ساور موسى ﷺ شيء من الخوف والقلق على ضياع الحقيقة بين ركام هذا الباطل، ولكن الله سبحانه بثّته وبشّره بالنصر والظفر .

## ● الجولة الثانية:

فالحقيقة لن تضيع في ركام الباطل، بل ستأتي عليه، وتلغيه من الوجود، لأنّها من الله تعالى، وبالله سبحانه، والله جَلَّالٌ:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفَ ﴿٦٨﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ .

هكذا بصيغة التقرير المؤكّد، بكلام مستأنف مُصَدَّر بحرف التحقيق، مع تكرير الضمير: (أنت) وإظهار الخبر بصيغة أفعال التفضيل: (الأعلى).  
وأمره سبحانه بعد هذا التثبيت مباشرة أن يلقي عصاه:

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ لَلْفَ مَا صَنَعُوا ﴿٦٩﴾ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْب ﴿٧٠﴾﴾ .

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ لَلْفَ مَا صَنَعُوا﴾ تبتلع كل ما صنعوا بقدرة الله تعالى ومشيئته، فتلغي وجوده وتعدّمه، فلم يبقَ في الميدان غير المعجزة.  
﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ﴾ أي: حيلة ساحر، ومكر ساحر، والمراد به جنس الساحر، وهل يثبت كيد ساحر أم معجزة الحق جلّ وعلا؟! .  
﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْب﴾ أي: لا فلاح للساحر ولا نجاح له في أي مكان كان.  
ألقي موسى عصاه، فتحوّلت مباشرة إلى ثعبان مبین بقدرة الله تعالى، وابتلع الثعبان كلّ العصي التي كانت تملأ الميدان، تم كل ذلك بسرعة فائقة مذهلة، دل على هذه السرعة اختصار النص للأحداث المتتالية، وجاء بفعل ﴿لَلْفَ﴾ مجزوماً لوقوعه بجواب الأمر ﴿أَلْقَ﴾ فدل على الاستجابة السريعة للأمر الإلهي، فأرادته تعالى نافذة تامة في كل الموجودات.

## ● السجود لله تعالى:

وذهلت الجماهير وهذأت، وخيم على الميدان صمت رهيب، ودُغِر شديد للحظات قليلة، إذ تعلّقت أبصار الناس بالسحرة، وهم يخرون ساجدين على

أرض الميدان لله تعالى، بينما انطلقت أصواتهم تعلن إيمانهم برب العالمين، رب هارون وموسى، وجاء التعبير عما حدث بقوله تعالى:

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سِحْرًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سِحْرًا﴾ كأن قوة خفية ألقتهم، لم يتمالكوا أنفسهم أمام قوة الحق، ووضوح البرهان، فانقادوا له مستسلمين خاضعين، وأعلنوا انقيادهم وخضوعهم وإسلامهم بشكل جماعي تلقائي، دون أن يستشير بعضهم بعضاً، ويراجع بعضهم بعضاً:

﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

#### • القمع والإرهاب:

وشعر فرعون بمرارة الهزيمة أمام الجموع المحتشدة من الناس، الهزيمة التي هزّت عرش طغيانه وجبروته، فلجأ إلى الأسلوب الذي يلجأ إليه أمثاله من الفراعنة المستبدين في كل زمان، أسلوب القمع والبطش لإرهاب الجماهير، وجعل السحرة أول ضحايا قمعه وبتطشه وإرهابه، وحتى يستر جرائمه وظلمه اتهمهم بالتواطؤ مع موسى، وأنهم متآمرون معه:

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّهُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ﴾ قال فرعون: آمنتُم لموسى وصدقتم دعوته.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن أسمح لكم بذلك. كأن سلطان القلوب بيده وتحت أمره ومشيئته، مع أن أصحاب القلوب لا سلطان لهم على قلوبهم؛ القلوب بيد خالقها سبحانه القائل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿إِنَّهُ﴾ أي: موسى.

﴿لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي: هو معلمكم الكبير الذي تعلّمتم السحر منه، وتأمّرتُم معه عليّ وعلى رعيتي. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣] (١).

﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَجْلِكُمْ مِّنْ خَلْفِكُمْ﴾ أي: أقسم أن أقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف، اليد من جانب، والرجل من الجانب الآخر.

﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: لأثبتن أجسادكم على جذوع النخل بواسطة مسامير تفرس في أجسادكم.

أراد اللعين بهذا التعذيب العلني للسحرة المؤمنين أن يخوف جماهير الناس ويردعهم حتى لا يؤمنوا بالله تعالى، ويصدّقوا دعوة موسى ﷺ.

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ يعني أنا أم رب موسى أشد عذاباً وأكثر دواماً.

#### • الإيمان يتحدى الطغيان:

ولم يابه السحرة الذين ملأ الإيمان قلوبهم لتهديد فرعون ووعيده، وردوا عليه:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٦).

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ﴾ أي: لن نختارك ونسير وراءك.

﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ ونترك البراهين الواضحة التي بينت لنا طريق

الحق والهدى.

وهذا يدل على أن إيمانهم لم يكن نزوة عاطفية آنية، كردة فعل عكسي لمشاهدتهم معجزة العصا، ولكنه إيمان راسخ قائم على البراهين القطعية، فكأن المعجزة أيقظتهم من غفلتهم، وجعلتهم يستعملون عقولهم، وينظرون فيها نظر

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف، وقد أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف).

المتفكر الباحث عن الحقيقة، فوجدوها وعرفوها من خلال النظر والتفكير الموضوعي الصحيح.

ثم أكدوا تمسكهم بإيمانهم وثباتهم عليه، فأقسموا بالله تعالى الذي فطرهم:

﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: خلقنا وأخرجنا من العدم.

ثم قالوا لفرعون متحدين له:

﴿فَأَقْضَ مَا آتَاكَ قَاضٍ﴾ أي: افعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك.

﴿إِنَّمَا نَقْضُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فسלטانك محدود في حدود هذه الحياة الدنيا الزائلة الفانية الحقيرة.

هكذا تحدى إيمان السحرة طغيان فرعون، بعد أن كانوا قبل الإيمان خاضعين له، يستجدون ما عنده من حطام الدنيا، ويطلبون منه شيئاً من فئاتها كما مر معنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٧٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف].

ثم كرروا تحديهم لطغيانه وجبروته، فصرخوا في وجهه قائلين:

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وهذا يدل على أن فرعون قد أكرههم على تعلم السحر ليستعين بسحرهم عند الحاجة في تضليل الجماهير، وجعلهم يصدقون ادعاءه صفة الألوهية والربوبية.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وهو رد على قوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع في المثوبة، والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان<sup>(١)</sup>.

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٤.

وفَجَّرَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى يَنْبِيعَ الْحِكْمَةِ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَنَطَقَتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ  
دَعَاةً وَعَظِيمِينَ :

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ .

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بِأَن يَمُوتَ مُصِرًّا عَلَىٰ كُفْرِهِ وَفُجُورِهِ .  
﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ الْحَيَاةَ السَّعِيدَةَ ، بَلْ يَشْقَىٰ فِيهَا أَبَدًا .

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ فِي الدُّنْيَا .  
﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ أَي : الْمَنَازِلُ الْعَالِيَةُ فِي الْجَنَّةِ .

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ حَيْثُ الْإِقَامَةُ الدَّائِمَةُ .  
﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أَي : طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنْ أَدْنَسِ  
الْكَفْرِ وَالْفُجُورِ .

#### ● عاقبة الطفيان:

ثم بينت الآيات عاقبة طغيان فرعون وظلمه بإيجاز:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا  
تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أَي : سَرَّ بِهِمْ لِيَلَّا لَتَنْقِذَهُمْ مِنْ ظَلَمِ  
فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ .

﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أَي : جَافًا لَا مَاءَ فِيهِ وَلَا بَلَلٌ .  
﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أَي : أَن يَدْرِكَكَ فِرْعَوْنُ الَّذِي خَرَجَ وَرَاءَهُمْ بِجُنُودِهِ .

﴿وَلَا تَحْشَى﴾ من الغرق في البحر.

﴿فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾

أي: فغمرهم من مياه البحر ما غمرهم، ونزل بهم من الغرق والعذاب ما لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى.

وقد فصل سبحانه ما حدث في سورة الشعراء فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتَيْنَاهُمْ مُشْرِقِيكَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْفْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

هكذا كانت عاقبة طغيان فرعون وظلمه وفجوره مع جنوده الذين كانوا أعوانه على الظلم والطغيان:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

لأنه قادهم في طريق الشقاء والتعاسة، وما دلهم على طريق السعادة والهداية، وهو ردُّ على فرعون وتهكُّم به عندما كان يقول لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وتلك هي العاقبة الأليمة التعيسة لكلِّ الذين يسيرون في ركاب الظالمين من أمثال فرعون، ويعرضون عن عبادة الله تعالى وطاعته والتزام أحكام شريعته.

• تحذير وترغيب:

ختمت الآيات الكريمة قصَّة موسى مع فرعون بهذا التحذير الموجه من قبَل الحق سبحانه إلى بني إسرائيل بعد نجاتهم من ظلم فرعون وطغيانه:

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ قَدْ أُنْجِیْنَاکُمْ مِّنْ عَدُوِّکُمْ وَوَعَدْنَاکُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَیْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَیْکُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلَویٰ﴾ (٨٠).

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ قَدْ أُنْجِیْنَاکُمْ مِّنْ عَدُوِّکُمْ وَوَعَدْنَاکُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَیْمَنِ﴾ أي: وعدكم سبحانه أن ينزل على موسى التوراة في مكان المناجاة بالجانب الأيمن من جبل الطور، وهو المكان الذي كلم الله تعالى فيه موسى، كما مرَّ معنا في أول القصة. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَیْکُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلَویٰ﴾ وأنعم الله تعالى عليهم بعد خروجهم من مصر وهم في صحراء سيناء فأنزل عليهم المنّ: وهو طعام يشبه الكمأة، والسلوى: وهو طائر معروف.

ثم أمرهم أمر إباحة على سبيل الامتنان وبيان الفضل والإحسان:

﴿كُلُوا مِمَّنْ طَيَّبْتُمْ مَا رَزَقْنَاکُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَیْکُمْ غَضَبِيْ وَمَنْ يَحِلَّ عَلَیْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (٨١).

﴿كُلُوا مِمَّنْ طَيَّبْتُمْ مَا رَزَقْنَاکُمْ﴾ ثم حذرهم من الطغيان ومجاوزة الحد المشروع لهم فقد أعطاهم سبحانه كل أسباب الراحة والسعادة، رزق ميسر وشريعة التوراة تنظم حياتهم وتبين كيف يعبدون ربهم ويطيعونه.

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ بتجاوز حدود ما شرع الله تعالى لكم وعبادة غيره سبحانه، واستعمال نعمه بالمعاصي والفجور، فإنَّكم إنَّ حصل منكم طغيان حرمت أنفسكم أسباب السعادة، وعرضتموها للشقاء والحرمان والتعاسة.

﴿فَيَحِلَّ عَلَیْکُمْ غَضَبِيْ﴾ أي: فيغضب سبحانه عليكم، وينزل بكم عذابه وانتقامه.

﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَیْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: سقط وتردَّى في هاوية الشقاء والتعاسة.

فسعادة الإنسان من الله تعالى وبالله جلَّ وعلا، بعبادته وطاعته وذكوره، وشقاء الإنسان من إعراضه عن الله تعالى وعن عبادته والتزام شريعته.

وقد عودنا سبحانه في كتابه الكريم أن يقرن الترغيب بالترهيب، وهو



أسلوبٌ تربوي رفيع، فلا يئس أحد من فضله ورحمته، ولهذا قال جلّ وعلا  
بعد التحذير والوعيد:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (٨٢)

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ فترك الكفر والفجور.

﴿وَأَمَنَ﴾ بالله الواحد الأحد وصدق رسله وانقاد لشرعه.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فأدى التكاليف التي كلفه ربه بها.

﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي: استمر ثابتاً على طريق الحق مستقيماً عليه حتى الموت.

وبهذا ختمت الآيات قصة موسى ﷺ مع فرعون وطغيانه وظلمه، ومهدت  
بنداء بني إسرائيل وتحذيرهم إلى القصة الثانية في السورة: قصة موسى ﷺ مع  
السامري وطغيانه، إلا أن طغيان السامري يختلف عن طغيان فرعون كما سنرى  
في الفصل التالي.



## الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ السَّامِرِيِّ  
صَاحِبِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

﴿٨٤﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٥﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَنْزَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٦﴾  
 قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ  
 يَقَوْمِ آلِمَ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَطَّلَعَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ  
 رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٨﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ  
 فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٩﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ  
 مُوسَى فَنَسَى ﴿٩٠﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ  
 هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٢﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ  
 عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٤﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ  
 أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُ ﴿٩٧﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ  
 فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٨﴾ قَالَ فَادْهَبْ  
 فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ يُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي  
 ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ  
 إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٠٠﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا  
 ذِكْرًا ﴿١٠١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٢﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا  
 ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَتَحْمُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٤﴾ يَتَخَلَّفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٥﴾

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٤٤﴾ وَاسْتَأْذِنَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ  
يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٤٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٤٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٤٧﴾ يَوْمَئِذٍ  
يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٤٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ  
الْشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٤٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ  
بِشَيْءٍ عِندَهُ ﴿١٥٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٥١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ  
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٥٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ  
مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٥٣﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِئِكُ الْحَقَّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ  
قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٤﴾

## • تمهيد:

ضرب الله تعالى لموسى ﷺ موعداً يأتي فيه إلى موضع المناجاة بجانب  
الطور لينزل عليه التوراة، وطلب منه سبحانه أن يعتزل قومه ثلاثين يوماً، ثم  
زادها عشرة يقضيها موسى في عبادة الله تعالى وذكره، ثم يأتي بعدها المكان  
الموعود، ويبدو أن الشوق إلى مناجاة الحق سبحانه جعل موسى يُسرع إلى  
مكان المناجاة قبل قومه، فسأله سبحانه وهو أعلم:

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ ﴾

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي ﴾ أي: قريين مني.

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ أي: لتزداد عني رضا.

فما عرف لذة مناجاة الحق سبحانه إلا من ذاقها وسعد بها، ومن تذوقها  
لا بد أن يشاق إليها، ويطلب المزيد منها.

وبعد أن أكرمه سبحانه وأنزل عليه التوراة مكتوبة في الألواح، أخبره

سبحانه بما أحدث قومه في أثناء غيابه عنهم.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥).

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: امتحناهم واختبرناهم.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ وتمكّن السامري من إضلالهم، فعبدوا العجل الذهبي.

#### • قبضة السامري:

والسامريُّ رجلٌ من عبّاد بني إسرائيل كانت نفسه تتطّلع للزعامة في بني إسرائيل، ورأى الفرصة سانحةً له في غياب موسى ﷺ، فقام في بني إسرائيل واعظاً داعياً لهم للتوبة والتخلص من الأوزار التي يحملونها.

وكان بنو إسرائيل يحملون قطعاً من الحلبيّ الذهبية التي كان فرعون وجنوده يتزيّنون بها، التقطها بنو إسرائيل بعد أن أغرق الله فرعون وجنوده.

ومن المعلوم أنّ المصريين القدماء كانوا حريصين على التحليّ بالذهب، ودل على ذلك ما حكاه الله سبحانه من كلام فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنُ﴾ (٥٢) ﴿فَلَوْلَا أَلْفَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف].

وكتّم القوم عن موسى ﷺ أمر هذه الغنائم التي غنموها من المصريين، فقد كانوا يعلمون أنها لا تحلُّ لهم، فما أحلَّ الله الغنائم إلا في الشريعة الإسلامية للمسلمين كما جاء في الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «أعطيتُ خمساً لم يُعْطهنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرعبِ مسيرة شهرٍ، وجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مسجداً وطهوراً، فأَيُّما رجلٌ مِن أمتي أدركته الصلاةُ فليصل، وأُجِلَّتْ لِي المغانمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعْطِيَتْ الشفاعةُ، وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصةً، وبُعثتُ إلى الناسِ عامّةً» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) واللفظ للبخاري].

وقام السامري، كما سبق، واعظاً في بني إسرائيل، لكي يتخلّصوا من هذه الحلبي، ولما سألوه: كيف يتخلّصون منها، أمرهم أن يلقوها في نارٍ أوقدها لهم، وألقوا الحلبي فيها.

ويبدو أن السامري كان خبيراً بصياغة الذهب، فأخذ الذهب الذائب في النار، وصنع منه تمثال عجل، ثم أخذ قبضةً من ترابٍ كان يحتفظُ بها، قبضتها من أثر ملكٍ رآه، وهو متشكّلٌ بهيئةِ البشرِ عند انفلاق البحر، فقد انتبه السامريُّ إلى أن الأرض التي يطوها تخضرتُ بقدرة الله تعالى، كأنَّ حياةً سرت فيها، فأخذ قبضةً من ترابِ هذه الأرض واحتفظَ بها لأمرٍ دبره في نفسه، ولما أكملَ صياغة العجلِ الذهبيّ ألقى قبضةَ التراب فيه.

### • اعتذار كاذب:

رجع موسى من مكان المناجاة حاملاً ألواح التوراة، وقد غلب حُزنه وغضبه - مما أحدثه قومه - على فرحه بالتوراة، قال تعالى:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾﴾ .

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ ولما وصل إليهم بادر إلى لومهم وتعنيفهم:

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ بأن يكرمكم بالتوراة التي جعل الله فيها أسباب الهداية والسعادة لكم.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾؟ أي: مدة غيابي عنكم ومفارقتي لكم، يقال: طال عهدي بك، أي: زمني بسبب مفارقتك، والاستفهام للإنكار، يعني: لم يطل عهدي بمفارقتكم، وفي المثل: وما بالعهد من قدم، لأنَّ طولَ العهد مظنة النسيان، والعهد قريبٌ لم يطل فكيف نسيتُم؟! (١).

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بل أردتم أن ينزل سبحانه عليكم غضبه وعذابه.

(١) أضواء البيان: ٤/٤٩٣.

﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ أي: أخلفتم موعدي الذي وعدتموني به، وهو الثبات على عبادة الله تعالى وطاعته وحده.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧).

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أي: ما أخلفنا موعدك باختيارنا، فلو ملكنا أمرنا ما أخلفنا موعدك.

اعتذروا بأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم، وهم كاذبون بهذا الاعتذار، إذ سيأتي معنا أن هارون عليه السلام زجرهم ونهاهم عن عبادة العجل، ولكنهم أصروا على عبادته.

﴿وَلَكِنَّا حَمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أي: حملنا ذنوباً وآثاماً بسبب ما كنّا نحمل من حلي قوم فرعون، كما سبق بيان ذلك.

﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ في النار التي أوقدها السامري.

﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي: ألقى قبضة التراب التي كانت معه في جوف العجل الذهبي، فأثرت قبضة التراب هذه بتقدير الله تعالى في تمثال العجل، كأن شيئاً ما سرى من التراب إليه.

ويمكن تقريب هذا المعنى بما نشاهد من تأثير قطع الحديد بالمغناطيس القريب منها، وتأثير بعض المواد المشعة في الأجسام التي حولها.

وقد اكتشف الإنسان المعاصر وجود بعض العناصر المشعة المؤثرة في غيرها، ويمكن لهذه الإشعاعات أن تحدث آثاراً تدميرية ضارة إن استعملت في التدمير، كما يمكن أن تحدث آثاراً إيجابية نافعة إن استعملت في البناء والتعمير.

#### • عبادة العجل الذهبي:

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ (٨٨).

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ مصنوعاً من الذهب.

﴿لَهُ خَوَارٌ﴾ أي: له صوت كصوت البقر.

ولقد تمكّن الإنسان المعاصرُ من صنع آلات كثيرة، يمكنها أن تُصدِرَ أصواتاً مختلفة كأصوات الحيوانات.

﴿نَقَالُوا﴾ أي: السامري ومن فُتِنوا بالعجل:

﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ أي: هذا معبودكم ومعبود موسى.

﴿فَنَسَى﴾ أي: نسيه موسى هنا، وذهب يطلبه عند جبل الطور.

فكيف فُتِنوا به وعبدوه من دون الله تعالى، ودلائل العجز والضعف والنقص

والحدوث ظاهرة عليه!؟:

﴿أَفَلَا يَرُونَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩).

﴿أَفَلَا يَرُونَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: ألا يرون أنه لا يكلمهم، ولا يرد عليهم

جواباً.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب

لهم نفعاً، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَتَّخَذُوا مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ

عَجَلًا جَسَدًا آلَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٨٤).

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ

ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

#### • موقف هارون:

ولم يقصّر هارون عليه السلام في نهيهم عن عبادة العجل، وسجّل الله سبحانه له

ذلك فقال:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقَوْمٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (٩٠).

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقَوْمٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي: ابتليتُم بعبادة العجل،

واختبرتُم به فلا تعبدوه.

﴿وَأَنَّ رَبَّكُمْ أَرْحَمُنَّ فَأَتَّبِعُونِي﴾ في عبادة الرحمن وحده .  
﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ .

ولم يلقَ ﷺ منهم أدنى استجابة، وضاعت كلماته في خضمِّ الفتنة الطاغية التي غلبت عليهم، وأجابوه بوقاحة وجرأة:

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ .

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ﴾ أي: لن نزال على عبادة العجل مقيمين .  
﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ .

وألقى موسى ﷺ ألواح التوراة من يده بسبب شدة غضبه، وقبض بيده على رأس أخيه هارون، وأخذ يجذبه ويشده إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابِحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٠]:

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ .

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل .

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: تتبع أمري ووصيتي التي أوصيتك بها .

وكان موسى ﷺ قد أوصى هارون عندما استخلفه في غيابه على بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ الذي أمرتك به .

وأجابه هارون ﷺ مترفقاً مستعظفاً ورأسه بين يديه:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ .

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ ذكر الأم ترقيقاً لقلب موسى عليه .



﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إن قاتلت بعضهم ببعض .

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وهو الوصية بالإصلاح، فإنَّ الإصلاح لا يكون إلا بمداراتهم والصبر عليهم حتى ترجع .

وأضاف هارون إلى قوله هذا ما حكاه سبحانه عنه في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ .

وقبل موسى اعتذار أخيه هارون ﷺ ، واقتنع بسلامة موقفه فترك رأسه ، وأقبل على الله تعالى داعياً يسأله الرحمة له لأخيه فقط: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] .

كأنه ﷺ رأى أن بني إسرائيل لا يستحقون مغفرة ولا رحمة بسبب الجريمة الكبرى التي أحدثوها بعبادة العجل .

#### ● شقاء وطرد وحرمان:

والتفت موسى بعد ذلك إلى رأس الفتنة السامري يسأله مستجوباً:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ﴾ ﴿٩٥﴾ .

أي: ما شأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ﴿٩٦﴾ .

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت شيئاً لم يره غيري، وهو أثر الملك في الأرض التي يمشي عليها .

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: فأخذت قبضةً من تراب الأرض التي يمشي عليها الملك المرسل .

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ألقيتها في تمثال العجل الذهبي .

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِي نَفْسِي﴾ أي: وهذا أمر زينتَه لي نفسي .

وهكذا أقر السامريُّ بجريمته، وبين أن الذي دفعه إليها نابعٌ من أعماق نفسه، وكأن قصة موسى مع السامري ذكرت في السورة بكلّ هذه التفاصيل لإظهار هذه الحقيقة، وهي: أن ضلال الإنسان وشقاءه من داخل نفسه، من كسبه واختياره .

أقرَّ السامريُّ بجريمته ودافعه الذي دفعه إليها دون أن تدر منه أي بادرة تدل على ندمه وتوبته، وكأنه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِي نَفْسِي﴾ معجبٌ بنفسه وبعمله . فما كان من موسى ﷺ في مقابل هذا الإعجاب بالنفس، والإصرار على الكفر، إلا أن أصدر عليه هذا الحكم الرهيب الذي يلازمه طول حياته، وهو الطردُ من المجتمع البشري، والعيشُ بعيداً عن الناس كما تعيش الوحوش:

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٧).

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾ أي: لا تخالط أحداً، ولا يخالطك أحدٌ مدى الحياة .

فابتلي بالنفرة من الناس، فكان إذا دنا منه أحدٌ نأى عنه وهو يقول: ﴿لَا مِسَاسٌ﴾ أي: لا تمسني ولا تدنُ مني، وعاش بعيداً عن المجتمعات البشرية في الفلوات شقياً طريداً محروماً حتى مات، والجزاء من جنس العمل، فقد أراد لنفسه المكانة بين الناس، والشهرة والسمعة، فأحدث لهم ما أحدث، فعذبه الله تعالى بصد ما أراد وقصد، وهذا في الدنيا، وأما بعدها:

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة .

﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي: لن تستطيع أن تتخلف عنه، ولا نجاة لك منه، وهو

العذاب في نار جهنم .

﴿وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ﴾ أي: معبودك وهو العجل الذهبي .

﴿الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: بقيت مصراً على عبادته.  
 ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالمبرد حتى يصبح ذرات صغيرة.  
 ﴿ثُمَّ لَنَسْفَعَنَّهُ﴾ أي: لنذرين ذراته.  
 ﴿فِي أَلْيَسٍ نَسْفًا﴾ في مياه البحر وبين أمواجه.  
 فعل ذلك ﷻ بالعجل ليظهر للذين فُتِنوا به شدة غباثتهم.  
 ثم التفت ﷻ مخاطباً لهم يبين لهم المعبود الحقيقي الذي يجب عليهم أن يلتزموا عبادته وطاعته دائماً فقال:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق العبادة غيره جلّ وعلا، فهو المتصف وحده بصفات الغنى والكمال والجلال.  
 ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنها نفس الكلمة التي دارت في فلکها آيات السورة، ففي أولها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]، وفي أول نداء إلهي أسمعها الحق لموسى ﷺ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤] كما هي هنا، إنها السبيل الوحيد لسعادة الإنسان في الدارين، ولقد شقي السامريُّ وأمثاله بإعراضهم عنها شقاءً ملازماً لهم في الدنيا والآخرة.  
 ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه سبحانه بكل المعلومات.

#### • حاملو الأوزار:

وعادت الآيات كما بدأت تخاطبُ النبي ﷺ في تعقيبها الأول على ما ورد في القصتين، فكانه عليه الصلاة والسلام هو المقصود من عرض قصة موسى مع فرعون، وقصته مع السامري:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: هكذا نقص عليك يا محمد من

أخبار الأمم الماضية مواساةً لك، وزيادةً في علمك، وتكثيراً لمؤيدات صدقك، وتنبهاً وتبصيراً للمستبصرين من أمتك.

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ وهو القرآن الكريم، وسُمِّي ذكراً، لأنه يذكر بالله تعالى وأسمائه وصفاته، ويذكر أيضاً بعبادته وطاعته وبدينه وشريعته.

وهو سبيل الهداية والسعادة، فمن تركه وأعرض عنه شقي شقاوة الأبد:

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠).

أي: يحمل عقوبة باهظة ثقيلة، وقد أخبرنا سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أن الكفار والفجار يُحشرون يوم القيامة، وهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم؛ كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَطَرْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقوله أيضاً: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ويا لسوء ما يحملون، إنها أحمال وأثقال تلازمهم أبداً، لاصقة بظهورهم دائماً!

﴿خَلِيلِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ (١٠١).

﴿خَلِيلِينَ فِيهِ﴾ فلا محيد لهم ولا فكاك عن العناء والشقاء بما يحملون.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أي: بس الحمل حملهم يوم القيامة.

#### • النفخ في الصور:

وفي هذا اليوم يزداد حاملو الأوزار شقاءً وعناءً بسبب أهواله وأفزاعه بالإضافة إلى ما يحملون على ظهورهم:

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٠٢﴾ .

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١): ثبت في الحديث: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عن الصور؟ فقال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» .

وهذا الحديث أخرجه أبو داود [٤٧٤٢]، والترمذي [٢٤٣٠] وحسنه، والنسائي في الكبرى [١١٢٥٠]، وصححه ابن جِبَان [٧٣١٢]، والحاكم [٥٥٩/١]: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاء أعرابي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما الصور؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» .

ورواه الترمذي أيضاً وحسنه من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «كَيْفَ أَنْعُمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ التَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ» (٢) .

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي: عطاشاً، قد ازرقَّت أعينهم من شدة العطش، أو نحشُرهم مشوهين بزرقه عيونهم وسواد وجوههم (٣) .

ويؤيد القول الأول الآية الكريمة: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدَّا﴾ [مريم: ٨٦] أي: عطاشاً .

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ﴿١٠٣﴾ .

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتحادثون سراً بينهم لشدة خوفهم .

﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا إلا عشر ليالٍ .

يستقصرون حياتهم في الدنيا بسبب ما يرون من أهوال يوم القيامة، تضاءلت الدنيا في حسهم، وقلَّت أيامها في مشاعرهم، حتى أصبحت أياماً قليلةً

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٩٣/٢ .

(٢) فتح الباري: ٣٦٨/١١ .

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٤/١١ .

في نظرهم. ومع أنهم يتحادثون سرّاً بينهم، فإنّ الله سبحانه يسمعهم، ويعلم كلامهم، إنّه سبحانه يعلم السرّ وأخفى:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّيْتَمَّ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أصوبهم وأعقلهم.  
 ﴿إِن لَّيْتَمَّ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا إلا يوماً واحداً، هكذا تضاءلت أعمارهم في الدنيا في نظرهم عندما عاينوا أهوال يوم القيامة.

#### • نسف الجبال:

وكان بعض منكري يوم القيامة يسأل رسول الله ﷺ عن حال الجبال في هذا اليوم سؤال المستبعد لها، والمستهزئ بها، فما كانوا يتصورون أن تُزال الجبال عن مواضعها، وأجابت الآيات عن سؤالهم هذا في معرض حديثها عن أهوال يوم القيامة، فلا شك أنّ إزالة الجبال ونسفها يزيد من أهوال هذا اليوم:

﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: يذريها ربي بقدرته تذريةً كاملةً. فالنسف: التذرية، فالله سبحانه يفتت هذه الكتل الصخرية الهائلة حتى تكون كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

ثم ينثر أجزاءها ويفرق ذراتها: ﴿وَيُسَّتُّ الْجِبَالُ بَسًا ﴿١٠٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًا﴾ [الواقعة].  
 ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيترك مواضع الجبال.  
 ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ سهلاً مستويًا أملس.

﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ .

أي: لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً .

#### • تلبية الدعوة:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ .

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ الذي يدعوهم إلى أرض المحشر، لأنهم عندما يخرجون من قبورهم يتحيرّون، لا يدرون أين يذهبون، يكونون حينئذٍ كما وصفهم الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ﴾ [الفارعة: ٤] .

ثم يدعوهم الداعي إلى أرض المحشر، فيؤمنون صوت الداعي ويتبعونه:

﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا يعدل عن إجابته واتباعه أحد، فيتوجهون جميعاً مسرعين حيث يؤمرون بذلة وانكسار وخضوع، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ .

﴿وَرَخَّعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: سكنت لجلاله تعالى ومهابته .

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: لا تسمع إلا صوتاً خفياً خافتاً، ولعلّه صوتٌ خفق أقدامهم ونقلها إلى أرض المحشر .

وينخيم على أرض المحشر سكون رهيب، فلا يجروء أحدٌ على كلام، ولا يتقدم أحد لشفاعَةٍ، حتى يأذن الحق سبحانه له:

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ .

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: لا تقبل، فلا يجروء أحد عليها .

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي: وقبل قوله في الشفاعة، كما قال

تعالى في سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٢٨﴾ [النبأ].

فلا يتقدم أحد للشفاعة إلا بإذن منه سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

حتى النبي ﷺ صفوته سبحانه من خلقه لا يقوم مقامه المحمود الذي يشفع فيه حتى يأذن له الحق سبحانه، قال ﷺ في حديث الشفاعة: «... فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأته وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع...» [رواه البخاري (٦٥٦٥)].

وقد أحاط سبحانه علماً بحال الشافعين والمشفوع لهم، وبحال الذين لا يستحقون الشفاعة:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ﴿١١٠﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدم من أعمالهم وما تأخر. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ أي: لا يحيطون بالله تعالى علماً. وأنى للمخلوق أن يحيط بالخالق، وللضعيف العاجز القاصر أن يحيط بالقوي القادر القاهر.

● خيبة الظالمين:

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ﴿١١١﴾.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت وذلت الوجوه كلها للحَيِّ الْقَيُّومِ، فهو سبحانه وحده المتصف بالحياة الحقيقية التي لا موت معها، والتي لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال وانتهاء.

وهو سبحانه وحده القيوم، القائم بذاته، فلا يحتاج إلى أحد، والمقيم



لغيره، فكل المخلوقات تستمد وجودها وقيامها منه جلّ وعلا، فهو الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: وقد خسر من حمل ظلماً.

والشرك بالله تعالى أقبح أنواع الظلم، وكثيراً ما أطلقت كلمة الظلم على الشرك؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله ﷺ أيضاً: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

فخيبة كل ظالم بقدر ما حمل من ظلم، فخيبة المشرك دائمة مؤبدة، وخيبة المؤمن العاصي مؤقتة بوقت العقوبة المقدره لمعاصيه، إلا إذا غفر الله تعالى له، وتجاوز عن معاصيه، وهذا إذا كان ظالماً لنفسه فقط، أما إذا كان ظالماً لغيره، فلا بد أن يُبرِّكه المظلوم من مظلّمته.

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» [رواه البخاري (٢٤٤٩)].

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾

أي: فلا يخاف أن يُظلمَ فيزادَ في سيئاته، ولا أن يُهضمَ فينتقص من حسناته، لأنّه سبحانه الحكم العدل المنزه عن الظلم، القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

والقائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

فالمؤمن الذي لم يظلم أحداً آمينٌ يوم القيامة من أهواله وأفزاعه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ ءُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

### • القصة عبرية والتنزيل عربي:

قصَّ الله تعالى على النبي ﷺ أنباء السابقين كقصة موسى مع فرعون ومع السامري باللغة العربية؛ ومع أن القصة عبرية، فالتنزيل عربي مبين، وهذا يدل على أن القرآن الكريم كلامُ الله تعالى العليم الحكيم، ولهذا قال تعالى في التعقيب الثاني على قصة موسى:

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ في أعلى درجات البلاغة والفصاحة والبيان.

وقد أكد سبحانه هذه الحقيقة في عدد من الآيات، منها قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَلَنَبِّئَنَّهُمْ لِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾ .

وقوله تعالى أيضاً في سورة فصلت: ﴿تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿لِسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وأنزل الله تعالى في صدر سورة يوسف قوله الكريم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾ وأشار بذلك إلى أن قصة يوسف أيضاً عبرية، وأنزلها سبحانه باللغة العربية، وتحدى ببلاغتها فصحاء العرب وأدباءهم وشعراءهم.

وكل ذلك يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على الرسول العربي النبي الأمي ﷺ.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: رددنا فيه الوعيد، وكررناه بأساليب كثيرة متنوعة، هي الغاية في البلاغة والفصاحة والإتقان.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ الكفر والمعاصي .

﴿أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: عظةً وتذكراً تدفعهم إلى طاعة الله وعبادته وحده، أو يذكرهم بالله تعالى وصفاته العلى وأسمائه الحسنى ودلائل وجوده جلّ وعلا . ولا شك أن القرآن الكريم أعظم مذكّر بالله تعالى، وقد سماه سبحانه ذكراً كما سبق معنا في قوله: ﴿ءَأَنْتَ أَتَىكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، ولعلّ هذا سر إسناده فعل الذكر على القرآن نفسه ﴿يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، بينما أسند فعل التقوى إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ .

#### • الملك الحق سبحانه:

وعظمة القرآن الكريم من عظمة منزله جلّ وعلا، ولهذا عظم الله نفسه في سياق الآيات التي تتحدّث عن القرآن الكريم، فقال:

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ .

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾ أي: جلّ الله وعظم وارتفع وتنزّه في ذاته وصفاته وأفعاله عن مماثلة المخلوقين، وعن مماثلة صفاتهم وأفعالهم، وتنزّه أيضاً عن إحداد الملحدين، وعمّا يقوله المشركون والجاحدون. وفيه تنبيه عما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده<sup>(١)</sup>.

﴿الْمَلِكُ﴾ المتصرف بالأمر والنهي، الحقيق بأن يرضى وعده، ويخشى وعيده . وهذا يدل على أن قوارع القرآن سياسات إلهية تتضمن صلاح الدارين لا يحيد عنها إلا مخذول هالك<sup>(٢)</sup>.

﴿الْحَقُّ﴾ أي: الثابت في ذاته وصفاته، أو الملك الحق، فملكيته سبحانه حق يستحقها لذاته وحده، فهو جلّ وعلا الملك على الحقيقة، وأما غيره

(١) انظر: الخازن والبيضاوي: ٢٢١/٤ .

(٢) روح المعاني: ٢٦٨/٦ .

فَمُلْكُهُمْ مُّؤَقَّتٌ زَائِلٌ مَّحْدُودٌ، وقد مرَّ معنا قول السحرة لفرعون: ﴿فَأَقْضِي مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مَلُوكُ الأَرْضِ؟!» [رواه البخاري (٦٥١٩)].

وبعد التعظيم والتمجيد لذاته سبحانه يأتي التوجيه والإرشاد لنبه صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن الكريم، والمخاطب بآيات السورة من أولها كما مرَّ معنا:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ فقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً أشدَّ الحرص على استيعاب القرآن الكريم وحفظه فور تلقيه من أمين الوحي جبريل عليه السلام، فكان يردد كلماته وهي تُلقى عليه، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشقَّ عليه، فقال: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة] (١).

وقال سبحانه هنا: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته وتبليغه، ويتفق هذا المعنى تماماً مع ما قرَّره سبحانه في أول السورة في قوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) فالله سبحانه وضع عن النبي صلى الله عليه وسلم مؤونة حفظه واستيعابه، وتكفل بتحفيظه للنبي صلى الله عليه وسلم وجمعه في قلبه الشريف كما مرَّ معنا في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧]، وقوله أيضاً: ﴿سَنُقْرَأُكَ فَلَا تَسَى﴾ [الأعلى: ٦].

### ● فضل العلم:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: زدني علماً بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، وكما لا تتك التي لا تعد ولا تحصى.

ومن المعلوم أنه كلما ازداد الإنسان علماً بالله تعالى ازداد خشية منه،

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٤٩٥/٢.

وتعظيماً له ﷺ، ونبينا ﷺ أعلم الخلق بالله جلّ وعلا، وأشدهم له تعظيماً وخشية، وكان يقول: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا».

فمن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه ثم يقول: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا» [رواه البخاري (٢٠)].

أو: ربّ زدني علماً من الوحي الذي تنزله علي. ولا شك أن الوحي علم، وهو أوثق مصادر العلم وأعلاها وأعزها وأشرفها<sup>(١)</sup>.

أو: زدني علماً بالقرآن الكريم الذي لا تنتهي معانيه، ولا يشبع منه العلماء.

أو: أي علم نافع لي في ديني ودنياي، وقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً» [رواه الترمذي (٣٥٩٩) وابن ماجه (٣٨٣٣)].

ودلت الآية على فضل العلم حيث أمر النبي ﷺ بطلب زيادته، وذكر بعضهم أنه ما أمر عليه الصلاة والسلام بطلب الزيادة في شيء إلا العلم<sup>(٢)</sup>.



(١) انظر: تفسير سورة يوسف (الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف)، في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

(٢) روح المعاني: ٦/٢٦٨.



## الْفُضَيْلُ الرَّابِعُ

### قِصَّةُ آدَمَ ﷺ مَعَ الشَّيْطَانِ

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنسِي السُّعْيَ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾

عرضت الآيات الكريمة جانباً من قصة آدم ﷺ مع الشيطان، لتبين من خلال ذلك أن سعادة الإنسان في طاعته لله تعالى، وفي وقوفه عند الحدود التي شرعها له، وأن الله تعالى الرحمن أعطى الإنسان كل أسباب الراحة والسعادة، وأنه لا يشقى الإنسان إلا عندما يعرض عن عبادة ربه وطاعته، ويغفل عن ذكره، ويتجاوز الحدود التي شرعها الحق سبحانه له، وهذا هو موضوع السورة الأساس كما بينا في بدايتها:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: وصيناه أن لا يأكل من الشجرة، كما ذكره

سبحانه في قوله: ﴿يَتَّادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجِكَ الْجَنَّةَ كُلًّا مِمَّا رَغَدَا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] (١).

﴿فَنَسِيَ﴾ أي: فترك الوصية وغفل عنها.

﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي: لم نجد له ثباتاً وصبراً عن الأكل من الشجرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود التكريم والتحية، وهذا قبل أن يخالف أمر الله تعالى، ويأكل من الشجرة، عندما أظهر الله تعالى فضله على الملائكة بما علمه سبحانه، فصل ذلك سبحانه في سورة البقرة فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَتَّادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ عَلِمْتُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي كان يعيش مع الملائكة، وشمله الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم.

﴿أَبَى﴾ أن يسجد تكبراً كما مر معنا في سورة الأعراف في قوله أيضاً: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ﴾ (١٦).

﴿فَقُلْنَا يَتَّادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

﴿فَقُلْنَا يَتَّادَمُ إِنَّ هَذَا﴾ أي: إبليس.

﴿عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ فكونا على حذر منه.

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي: فلا تطيعاه حتى لا يتسبب في إخراجكما من الجنة.

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف (أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف)، في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

﴿فَتَشَقَّى﴾ أي: فتقع في الشقاء والتعب والعناء إذا أخرجتما من الجنة. وسببُ هذا الشقاء والعناء: أنَّ أسبابَ العيش في الأرض غيرُ ميسرةٍ، فلا بدَّ أن يتعب الإنسانُ وينصبَ في تحصيلها والوصول إليها، وتعب الرجل وشقاؤه في هذا المجال أكثر من تعب المرأة، لأنَّه هو المكلَّفُ بالإنفاق على المرأة، ولعلَّ ذلك سببُ إسنادِ الشقاء إلى آدم دون حواء في قوله: ﴿فَتَشَقَّى﴾. والحال في الجنة يختلف، فالعيشُ فيها سهل ميسور، لا تعب فيها ولا نصب، وكل ما يحتاجه الإنسان فيها حاضر موفور؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ ﴿١١٨﴾

لكثرة ما فيها من طعام ولباس.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ ﴿١١٩﴾

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ أي: لا تعطش، فالأشربة فيها كثيرة ومتنوعة. ﴿وَلَا تَصْحَى﴾ أي: ولا يصيبك فيها حرُّ الشمس، لأنَّ ظلَّها ممدودٌ، فلا تحتاج إلى أسباب الوقاية من الحر ولا من البرد، لاعتدال مناخها.

﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ ﴿١٢٠﴾

﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: أنهى الشيطان إلى آدم وسوسته وأوصلها إليه. والوسوسة: الصوتُ الخفيُّ.

#### • الأكل من الشجرة:

﴿قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: الشجرة التي لا يموت من أكل منها. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ أي: لا يبئد ولا يفنى.

والإنسان بأصل فطرته يحبُّ البقاء، ويكره الموتَ والفناء، وهي نقطةٌ ضعفٌ كبيرة في الإنسان، اكتشفها إبليس الخبيثُ في الإنسان، وعن طريقها



تَمَكَّنَ مِنْ إِغْوَاءِ آدَمَ وَحَوَاءَ؛ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَيَّبْتُمْ ﴿١٢١﴾﴾ .

وهكذا غرهما بالأماني والأيمان الكاذبة حتى أكلتا من الشجرة:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٢﴾﴾ .

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ فماذا كانت النتيجة؟ .

﴿فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أي: ظهرت لهما عوراتهما، وزالت عنهما الحرمة والكرامة اللتان كانا يتمتعان بهما من قبل، إذ كانا لا يريان عورتيهما تكريماً لهما . وهذا أول شيء أصابهما من شؤم المعصية، نُزِعَ عنهما لباس الجنة، ورأى كلُّ منهما عورة الآخر، فغلبَ عليهما الحياءُ من الله تعالى، فأخذا يبحثان عن شيء يستتران به، فلم يجدا غيرَ ورق شجر الجنة .

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: شرعا يجمعان ورق الجنة، ورقة فوق ورقة لكي يستترا به .

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ بالأكل من الشجرة .

﴿فَغَوَى﴾ أي: ضلَّ عن طريق الرشد، واغترَّ بكلام عدوه .

ونسب سبحانه العصيان والغواية إلى آدم وحده دون حواء، مع أنَّها أكلت معه، لأنَّ آدم هو المقصودُ في القصة، وحواء تبع له في الحكم<sup>(١)</sup> .

• توبة وهداية:

﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٣﴾﴾ .

﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ﴾ أي: اختاره سبحانه للنبوة بعد أن أهبطه إلى الأرض، ففعل

المعصية صدرَ منه قبل النبوة .

(١) انظر: روح المعاني: ٦/ ٢٧٥ .

﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قَبِلَ سبحانه توبَةَ آدم وعفا عنه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهي الكلمات التي تلقَّها آدمُ من ربه ليستغفره بها، ويتوبَ عليه: ﴿فَنَلَقَّ عَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوْبُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

﴿وَهَدَى﴾ أي: ووفقه سبحانه أيضاً في الثبات والاستقامة، أو بيَّن له سبيل الهداية والسعادة بما أوحى إليه.

ثم أمرهما سبحانه بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض:

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣).

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بسبب ابتلاء بعضهم ببعض، فحياة الإنسان في الأرض حياة ابتلاء واختبار، وقد قدر سبحانه أن يكون ابتلاء الناس بعبادة الشيطان لهم، وكذلك ابتلاؤهم ببعضهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ بواسطة الرسل والكتب المنزلة عليهم.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ لأنه سار على طريق الهداية والسعادة.

#### ● الشقاء في الدنيا والآخرة:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِن لَّهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: عن الكتاب الذي فيه ذكري وعبادتي وطاعتي وهو القرآن الكريم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩) وبين سبحانه هناك شقاء المعرضين عن القرآن وعذابهم يوم القيامة فقال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ (١٠١).

وأضاف هنا سبحانه إلى بيان شقائهم في الآخرة بيان شقائهم وتعاستهم في الدنيا، فقال:

﴿فَإِنَّ لَهُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: ضيقة شديدة قاسية تعيسة شقية.

فلا سعادة للإنسان إلا في ظلّ دين الله تعالى وشرعه، ومهما أوتي الإنسان من أسباب الغنى والمتاع والسرف والترف، فإنه يبقى شقيّاً قلقاً مضطرباً مهموماً، ما دام بعيداً عن حلاوة الإيمان وسكينته، وبرد اليقين وطمأنينته، ولذّة ذكره سبحانه وعبادته.

فالحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضنكٌ مهما يكن فيها من سعة المتاع، إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله، والاطمئنان إلى حماه... ضنك الحرص على ما في اليد، والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع، والحسرة على كل ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله... إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طويلاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان<sup>(١)</sup>.

إن أجمل تصوير لشقاء الإنسان المعرض عن الله وعبادته ورد في قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهم كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهُ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٤٩).

ذلك هو سبب شقائهم وتعاستهم، ينصبون ويتعبون وراء آمال براءة خادعة، ثم يسقطون على الطريق، ليوажوها بعد ذلك مسؤوليتهم أمام ربهم سبحانه.

#### • الجزء من جنس العمل:

وبين سبحانه حالهم عندما يُحشرون يوم القيامة فقال:

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ أي: أعمى البصر كما كان في الدنيا أعمى

البصيرة، فالجزء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٥٥.

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكَمَا وَصَّمَا مَا وَوَلَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وهذا في أول الحشر، أما بعد ذلك فدللت الآيات على أنهم يبصرون ويسمعون ويتكلمون، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١١٥).

في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ (١٢٦).

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتُنَا فَنَسِينَهَا﴾ أي: فتركتها وأعرضت عنها.

﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ أي: وفي مقابل إعراضك عن آياتنا، فإنك تعامل اليوم معاملة المنسي المهمل، فترك في العذاب والشقاء.

وقد أكد سبحانه هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نُنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

ومر معنا أنه ﷻ لا ينسى في قوله: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] فهو سبحانه منزّه عن كل صفات النقص.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وهكذا.

﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ فتجاوز الحد وطغى.

﴿وَلَمْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل كذب بها، وأعرض عنها، فنجعل حياته وعيسته في الدنيا تعيسة شقية.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ من شقاء الدنيا وعذابها، فالله سبحانه يجمع للمكذبين بآياته بين شقاء الدنيا وشقاء الآخرة.



## الخاتمة

## التَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾  
 وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامِهَا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ  
 طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ  
 إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ رَهْرَهَةً الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ  
 بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ  
 رَبِّنَا أَلَمْ تأتِهِمْ بَيِّنَاتٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا  
 لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسُدَّ وَنَحْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا  
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ .

## ● الاتعاظ بالأولين:

فالسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، وفي أخبار الأمم  
 الماضية مواعظ كثيرة، وعبر بليغة، ولهذا قصَّ الله علينا في القرآن الكريم كثيراً  
 من قصص الأولين وأخبارهم، كما في هذه السورة، ودعانا سبحانه إلى الاتعاظ  
 بمن سبقنا، قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾﴾ .

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أفلم يبين القرآن الكريم للكفار المعرضين المكذبين .

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: ما أكثر الأجيال البشرية التي أهلكتها

بسبب كفرهم وطغيانهم .

﴿بِمَشُورَةٍ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ أي: والكفار المعرضون يمشون في مساكن أولئك الهالكين، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (١٤٥).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: إن في النظر في مصائر الأمم السابقة لدلائل ومواعظ وعبراً لأصحاب العقول الناهية عن التغافل والطغيان، فلا ينبغي لهؤلاء الكفار أن يغتروا بإمهال الله تعالى لهم، وتأخير العذاب عنهم، إنه قدر سبق به علمه سبحانه، وتعلقت به مشيئته، ولولاه لعاجلهم بالعقوبة:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير العذاب عنهم.

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ أي: لكان العذاب ملازماً لهم، فاللزائم: مصدر لازم يلازم ملازمةً ولزماً.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ولولا الأجل المسمى أيضاً لكان عذابهم لزماً، ففي الآية تقديم وتأخير.

#### • الصلاة والرضا:

ومن المناسب عندما بين الله سبحانه أنه لا يعاجلهم بالعقوبة وأنه يؤخرهم إلى أجل مسمى، أن يأمر تعالى النبي ﷺ بالصبر على أذاهم وما يسمع من أقوالهم وعنادهم على سبيل المواساة له والتثبيت، فما كان رسول الله ﷺ يستعجل عذابهم، لأنه نبي الرحمة، بل كان يتألم ويحزن عليهم بسبب إعراضهم، كما مر معنا في أول السورة.

﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (١٣٠).

﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وما أكثر ما قالوا في حقه ﷺ من أكاذيب

وافتراءاتٍ، سيأتي معنا بعضها في أول سورة الأنبياء في الآية الكريمة: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلْ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٥﴾﴾.

فلا تلتفت إلى أقوالهم، ولا تأبه بهم، واستعن على ذلك بالصلاة والذكر والتسبيح:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: وصلِّ حامداً لربك جلَّ وعلا، فقد يُراد بالتسبيح: الصلاة، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سَبَّحَ سُبْحَةَ الضْحَى، وإِنِّي لَأَسْبِّحُهَا» [رواه البخاري (١١٧٧)].

﴿فَبَلِّغْ طُلُوعَ الشَّمْسِ﴾ أي: صلاة الصبح.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: صلاة العصر.

﴿وَمِنْ أَمَّا يَ اللَّيْلِ﴾ أي: ومن ساعات الليل.

﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصلِّ، ولعلَّ المراد صلاة العشاء، أو التهجد في الليل.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ عند الزوال، وهو طرف النصف الأول من النهار، وقت

صلاة الظهر، وعند الغروب، وقت صلاة المغرب.

وبهذا تكون الآية قد ذكرت الصلوات الخمس المفروضة.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ فُرِّتْ بفتح التاء وبضمها. ومعناها بالفتح: لعلَّكَ ترضى بعباء

الله تعالى وفضله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

ومعناها بالضم: لعلَّ الله أن يرضيك بسبب كثرة صلواتك وتسبيحك.

والمعنيان متفقان، وذلك أنَّ الله تعالى إذا أرضاه، فلا شكَّ أنه يرضى،

وأنه إذا رضي فقد أرضاه<sup>(١)</sup>.

#### • الرضا والغنى:

وأقوال أكثر المفسرين تتجه إلى حصر الرضا بالآخرة، مع أنَّ الكلمة مطلقةٌ

تشمل الرضا في الدنيا والآخرة.

وقد منَّ الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم بالرضا في الدنيا وفي الآخرة: في الدنيا

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٦/١٦٩.



بالعزِّ والنصر، وبالقناعة وغنى النفس، فما توفيَّ ﷺ حتى قرت عينه برؤية دين الله تعالى ظاهراً، وكلمته سبحانه عالية عزيزة.

ولقد آتاه ربُّه قناعةً في نفسه، وغنى في قلبه حتى كان ﷺ يقول: «ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكنَّ الغنى غنى النفس» [رواه البخاري (٦٤٤٦)].

فالمتمتِّص بغنى النفس يكونُ قانعاً بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلحُّ في الطلب، ولا يلحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجدٌ أبداً، والمتصف بفقر النفس على الضد منه، لكونه لا يقنع بما أُعطي، بل هو أبداً في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه.

ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره، علماً بأن الذي عند الله خيرٌ وأبقى<sup>(١)</sup>.

القناعة والرضا من أهم أسباب السعادة الدنيوية، ولا يشعر المؤمن براحة القلب والنفس إلا بهما، وهذا ما أبرزته الآيات وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿١٣١﴾

﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظر نظر الرغبة والميل.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إلى ما أعطينا بعض الناس من متاع الدنيا وزينتها وزخرفها.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم بما أعطيناهم، هل يشكرون أم يكفرون؟.

فالعطاء في الدنيا للاختبار لا للتكريم، ويخطئ الذين يظنون أن توسعة الرزق عليهم في الدنيا دليلٌ على كرامتهم عند الله تعالى القائل في سورة المؤمنون: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ نَسَائِرِ هُمْ فِي الْحَيَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فالدنيا لهوانها على الله تعالى يعطيها لمن يحبُّ ولمن لا يحب، كما قال

سبحانه: ﴿كَلَّا تُمَدُّ هَتُوْلَاءُ وَهَتُوْلَاءُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، أما الآخرة فلا يعطيها إلا لأحبابه.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ الذي قدره سبحانه لك، والمراد منه: إما ثوابه في الآخرة، وإما الغنى والقناعة في الدنيا<sup>(١)</sup>.

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: أفضل وأدوم.

ولا شك أن التعلق بالدنيا يؤدي إلى الطمع والجشع والحسد، وهي أهم أسباب التنافس والخصام والاختلاف بين الناس، وكم أورثتهم شقاءً وعناءً وكوارثً ونكباتٍ. بينما القناعة والرضا يمنحان صاحبهما هدوء النفس، وراحة القلب، ويبعدانه عن القلق والهم وتعب الأعصاب.

وما أجمل قول النبي ﷺ في هذا المعنى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرِزْقَ كِفَافًا، وَفَنَعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ» [رواه مسلم (١٠٥٦)].

والرزق الكفاف: ما يكفي صاحبه ويغنيه عن الناس.

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» [رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له].

والقوت: ما يقوت البدن، ويكف عن الحاجة، وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً<sup>(٢)</sup>.

وهذا يدل على أنه ﷺ كان أبعد الناس عن التطع للدنيا، والخطاب في الآية له عليه الصلاة والسلام ليكون أسوتهم وقوتهم.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٢).

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أي: بالصلاة المفروضة، والمراد أهل بيته الذين يعيشون معه فيه.

ويؤمر بأدائها الصبي، وإن لم تجب عليه ليعتاد عليها كما في الحديث

(١) انظر: زاد المسير: ٣٣٥/٥.

(٢) فتح الباري: ٢٩٣/١١.

الشريف: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين<sup>(١)</sup>، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» [رواه أبو داود (٤٩٥) بإسناد حسن].  
ولا شك أن البيت الذي تؤدَّى فيه الصلاة، ويذكرُ فيه الله سبحانه، تنزّل فيه الرحمة، وتغشاه الملائكة، وتناهى عنه الشياطين، بينما البيت الذي لا تقام فيه الصلاة تغلب عليه الوحشة، وعلى أهله الجفوة والقسوة، وتغشاه الشياطين، ويزداد فيه الشر والفساد والخصام والاختلاف، ولهذا فإن صلاة التطوع في البيوت أفضل من صلاتها في المساجد، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبوراً» [رواه البخاري (١١٨٧) ومسلم (٧٧٧) واللفظ للبخاري].

### • الصلاة وطلب الرزق:

﴿وَأَصْطِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: داوم عليها، والمراد أداء الصلوات دائماً في أوقاتها المعينة لها لاستغراق الليل والنهار بها.  
وأكد هذا المعنى الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «برّ الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [رواه مسلم (١٣٧)].  
فلو كان المراد من الآية استغراق كل الوقت بالصلاة ما ذكر رسول الله ﷺ بعد ذلك برّ الوالدين والجهاد في سبيل الله.  
وقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ دفع لما عسى أن يخطر ببال أحد من أن المداومة على الصلاة ربما تضرُّ بأمر طلب الرزق، فكأنه قال: داوموا على الصلاة، ولا يشغلنكم الاكتساب وطلب الرزق عنها، فإن الرزق بيد الله تعالى، فإذا ما حان وقتها، فاتركوا العمل وطلب الرزق، وانصرفوا إلى الصلاة.

قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ فَإِذَا قُضِيَتْ

(١) إذا أمر الصبي بالصلاة وهو ابن سبع سنين، فعلى وليه أن يعلمه الصلاة قبل هذا السن (ن).

الصلوة فأنشروا في الأرض وابغوا من فضل الله وأذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴿١١﴾.

فالإسلام دين النظام، نظم حياة الإنسان، فجعل للعبادة بمعناها الخاص وقتاً معيناً محدداً، كما مر معنا في أوقات الصلوات المفروضة: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَتَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

وكذلك خصص لبقية العبادات أوقاتاً مخصوصة كالصيام والحج، وأمر الإنسان في غير أوقات العبادة المخصوصة أن يسعى في تحصيل رزقه، وألا يكون عالماً على غيره، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشوا في مناكبها وكلوا من رزقِهِ وَإِذِ ابْتِئَازَ الشُّورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويعد سعي الإنسان في تحصيل رزقه عبادة إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى بإعفاف نفسه، وسعيه على عياله المكلف بالإنفاق عليهم، قال رسول الله ﷺ: «إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها، كانت له صدقة» [رواه البخاري (٥٣٥١)].

وتوعد النبي الرجل الخامل الكسول الذي يتقاعس عن القيام بمسؤوليته نحو أهله وأولاده فقال: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» [رواه أبو داود (١٦٩٢) والنسائي (الكبرى: ٩١٣٢)].

﴿وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، يكفي منها قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

#### • القرآن الكريم أعظم المعجزات:

ختم سبحانه السورة بذكر صورة من صور عناد المشركين وبعض أقوالهم في حق النبي ﷺ بمناسبة أمره سبحانه له بالصبر على ما يقولون، فقال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؕ﴾ أي: هلا يأتينا محمد - ﷺ - بمعجزة من ربه

تدلُّ على صدقه في دعوى النبوة. قالوا ذلك وهم يتغافلون عن المعجزة الكبرى التي تحدّاهم الله تعالى بها، وهي القرآن الكريم.

ولهذا ردَّ سبحانه عليهم بتذكيرهم بمعجزة القرآن الكريم الكبرى التي تغافلوا عنها فقال:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: ألم تأتهم معجزةً هي أمَّ المعجزات وأعظمها وأدومها، لأنها باقية خالدة، وهي معجزة القرآن الكريم، المشتمل على زبدة ما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، والمصدق لها، والشاهد على صحتها؟! وهذا كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذَٰلِكَ لِرَحْمَةٍ وَّذِكْرٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

وهكذا عادت آياتُ السورة إلى القرآن الكريم كما بدأت به في قوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ فهو الكتابُ الذي أنزله الله تعالى ليكون سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، وهو أيضاً المعجزة الكبرى الخالدة للنبي ﷺ على مدى العصور، وكر الدهور.

#### • قامت الحجة وأنزل القرآن الكريم:

القرآن الكريم حجةٌ الله تعالى البالغة على الناس، لا عذرَ لهم بعد إنزاله أبداً، ولهذا أبقاه الله تعالى في الأرض كما أنزله وتكفَّل بحفظه، وهو سبحانه العليم الحكيم يعلمُ أنه لو لم ينزله لاعتذروا بعدم نزوله، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَخْزَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل نزول القرآن الكريم وبعثة النبي ﷺ.

﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴿﴾ بكتاب منزل عليه .

﴿فَتَبِعَ آيَاتِكَ ﴿﴾ التي جاءنا بها .

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ ﴿﴾ بعذاب الدنيا وشقائها وتعاسفها .

﴿وَنَحْزَى ﴿﴾ بعذاب الآخرة في النار . والخزي: أشد أنواع الذلة .

وما هو القرآن الكريم بحمد الله تعالى قد أنزل، والرسول الكريم خاتم

النبيين ﷺ قد بعث، وقام ﷺ بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فأقام الله به الحجة

على الناس، فلا عذر لأحد بعد ذلك، وما على الرسول ﷺ إلا أن يقول لهم

بعد أن بلغهم:

﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا ﴿﴾ فَسَتَعْلَمُونَ ﴿﴾ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴿﴾ وَمَنْ أَهْتَدَى ﴿﴾ (١٣٥) ﴿﴾ .

﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِّصٍ ﴿﴾ أي: كل واحد منا ومنكم منتظر .

﴿فَتَرَبِّصُوا ﴿﴾ أي: فانتظروا، وهو أمر فيه تهديد ووعد .

﴿فَسَتَعْلَمُونَ ﴿﴾ عن قريب .

﴿مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴿﴾ المستقيم المؤدي إلى السعادة في الدنيا

والآخرة .

﴿وَمَنْ أَهْتَدَى ﴿﴾ أي: ومن عرف الصراط وسار عليه، وتمسك بهديه، حتى

يلقى الله تعالى .

أسأله سبحانه الهداية والثبات والتوفيق .



## تفسير سورة الأنبياء كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَأَمَّةُ التَّوْحِيدِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: يعاني المسلمون في العصر الحاضر من التمزّق والاختلاف، وضعف الشعور بالانتماء إلى الإسلام، مما جعلهم يصلّون إلى مرحلة فقدان ذاتهم الإسلامية، وهويتهم الإيمانية، فهم في أمسّ الحاجة إلى الالتفاف حول دينهم ورسالتهم، وتقوية ارتباطهم بها، وانتمائهم إليها، لكي يعرفوا حقيقتهم، ويدركوا منزلتهم، ويتحمّلوا مسؤوليتهم التي خصّهم الله تعالى بها.

ولا يتحقّق لهم هذا إلا بالعودة إلى كتاب الله تعالى، يتدبرون آياته، ويستشعرون من خلالها التبعات الجسام الملقاة على كواهلهم.

ولقد اهتمّت سورة الأنبياء بهذا الموضوع، وركزت آياتها عليه، وهذا التفسير لسورة الأنبياء يبرز هذه المعاني من خلال السورة الكريمة.

وقد قسمته إلى فصلين:

● الفصل الأول: كلمة التوحيد أساس الرسالة الإسلامية، ومسؤولية

المسلمين عنها، ومواقف المشركين منها، والأدلة عليها.

- الفصل الثاني: الأنبياء رُوَادَ وَحَمَلَةَ هذه الكلمة، وصلتهم بالامة المسلمة.  
أسأله سبحانه أن يجعلنا من هذه الأمة، ويثبتنا على طريقها وسنة نبيها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.





## تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

سورة الأنبياء من السور المكيّة التي نزلت على النبي ﷺ في وقت مبكر من دعوته عليه الصلاة والسلام، دلّ على ذلك قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «بني إسرائيل (الإسرائيل)، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هنّ من العتاقِ الأوّل، وهنّ من تِلادِي. [رواه البخاري (٤٧٣٩)].

والعتاق: جمع عتيق، وهو القديم. وقوله: «مِنْ تِلَادِي» أي: مما حُفِظَ قديماً. والتلادُ: قديمُ الملك، وهو بخلاف الطارئ.

قال ابن حجر رحمته الله: «ومرادُ ابن مسعود أنهم من أوّل ما تعلّم من القرآن، وأنّ لهم فضلاً لما فيهنّ من القصص وأخبار الأنبياء والأمم»<sup>(١)</sup>.

وقال في موضع آخر: «وحاصله أنّه ذكر خمس سور متوالية، ومقتضى ذلك أنهم نزلن بمكة، ولكن اختلف في بعض آياتٍ منهنّ... وفي الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا﴾ الآية [الأنبياء: ٤٤] قيل في جميع ذلك: إنه مدني، ولا يثبت شيء من ذلك، والجمهور على أنّ الجميع مكيات، وشذ من قال بخلاف ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وتلتقي السورة مع السور المكيّة في التركيز على الموضوعات المتّصلة بالعقيدة، وقد انفردت سورة الأنبياء من بينهنّ، بأنّها أبرزت كلمة التوحيد ودعاتها من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ومهدت لهذا بوصف مواقف المشركين من النبي ﷺ وأقوالهم في الوحي المنزل عليه.

(١) فتح الباري: ٣٨٨/٨.

(٢) المرجع السابق: ٤٣٥/٨.

ولمَّا شرعتْ في الحديثِ عَنْ حَمَلَةِ لَوَاءِ التَّوْحِيدِ وكلمته، بدأت به عليه الصلاة والسلام، كما أَنَّهَا خُتِمَتْ بالحديثِ أيضاً عنه ﷺ وعن رسالته وميزاتها وارتباطها بأساسها الأول وهو كلمة التوحيد، فهو ﷺ في السورة الفاتحُ الخَاتِمُ، ورسالته أعظم الرسالات وأشملها، وأمته أعظم الأمم، ولها ارتباط وثيق بجمع الذين آمنوا بكلمة التوحيد ورسالته، وأذعنوا لها مستسلمين مسلمين.



## الْفُضَيْلُ الْأَبْرَارُ

## المُؤْمِنُونَ وَكَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَمَوَاقِفُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهَا وَالْأَدَلَّةُ عَلَيْهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَعْوَهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمِ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بُولَئِيْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَالِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْخُدَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَوْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُشْبِلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٤﴾  
 وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ  
 الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْئُرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ  
 ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ  
 ﴿١٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِثْمَنُ رَبِّيَ اللَّهُ مِمَّن دُونِهِ فَإِنَّكَ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾  
 أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا  
 أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ  
 يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُّعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ  
 وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِن مَّن مَّتَّ  
 فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٢٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾ .

#### ● اقترب الحساب:

بدأ سبحانه سورة الأنبياء بالإخبار عن أمرٍ مقدّرٍ مقرّر، وهو يوم الحساب والجزاء، يوم القيامة، وهو ركنٌ من أركان الإيمان، وهو أعظمُ الموضوعات الفكرية في القرآن، فقال جلّ وعلا:

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾ .

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ لأنه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ أيضاً بالنسبة إلى ما مضى من عمر الدنيا، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى (١).

وبعثة نبينا ﷺ تدلُّ على اقترابِ القيامة، إذ هو خاتمُ الأنبياء والمرسلين، لا نبيَّ بعده، قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وانشقاقُ القمرِ من المعجزات الحسية الكبرى التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١/٢٦٧.

وفي الحديث الشريف: عن سهل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» ويشيرُ بأصبعيه فيمُدُّهما. [رواه البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠) واللفظ للبخاري].

وأخرجه الطبري [٦٢١/١٤] بلفظ: وأشار بالسبابة والوسطى.  
قال البيضاوي: «معناه أن نسبة تقدُّم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الإصبعين على الأخرى»<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ . . .» [رواه البخاري (٥٥٧)].  
وظاهر الحديث الشريف: أَنَّ بقاء هذه الأمة وقع في زمان الأمم السالفة، وليس ذلك المراد قطعاً، كما قال ابن حجر رحمته الله، وإنما معناه أَنَّ نسبة مدَّة هذه الأمة إلى مدَّة مَنْ تقدَّمَ من الأمم مثل ما بين صلاة العصر وغروب الشمس إلى بقية النهار<sup>(٢)</sup>.

وهذا لا يدلُّ على أَنَّهُ ﷺ يعلمُ وقتَ الساعة على وجه التحديد، فهذا مما استأثر الله تعالى بعلمه، وإنَّما يدلُّ على أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام عَلِمَ اقترابَ الساعة وأشراتها بالوحي المنزَّل عليه.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: والناسُ عن الآخرة والحسابِ ساهونَ لاهونَ.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن الاستعداد ليوم الحساب.

فأمرُ الناس في غفلتهم وإعراضهم عن الاهتمام بأمر الساعة، وانسلاخهم عن الشعور بمسؤوليتهم عن حياتهم، أمرٌ عجيب، مع أَنَّ الإيمان بيوم القيامة والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى يعطي للحياة معناها، ويجعلُ الإنسان يتدوَّقُ طعمها الحقيقي، ويدركُ جوهرها، ومع هذا يتغافل الناس عنها، ويهتمُّون بلهو الحياة ومتاعها القليل الزائل.

(١) فتح الباري: ٣٤٩/١١.

(٢) المرجع السابق: ٣٩/٢.

## ● والقلوب لاهية:

وكلما أرسل الله تعالى إليهم رسولاً، وأنزل عليهم الآيات لكي ينتبهوا من غفلتهم، ويستشعروا مسؤوليتهم، ويتذكروا يوم الحساب والجزاء، ويعرفوا حكمة حياتهم، وجوهر وجودهم، استقبلوها لاعبين لاهين:

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ في تنزيله.

﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: استمعوه لاعبين، غير جادّين ولا مهتمين،

مما يدل على شدة غفلتهم، وانهماكهم بشهوات الدنيا.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلَكُم أَفَاتُونَ ﴿٣﴾﴾  
السِّحْرَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ ﴿٣﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: غارقة قلوبهم في اللهو، مشغولة عن الآيات الكريمة

النازلة عليهم بشهوات الدنيا وزخرفها وزهرتها، فلا يتدبّرون كلمات القرآن الكريم، ولا يتأملون في معانيه، ولا يفكّرون في بلاغته وإعجازه، كأنّ بينهم وبين آياته حجاب يحجبهم عن أنواره، حتى إنهم كانوا يواجهون النبي ﷺ بهذه الحقيقة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنِنَا عَمِلُون﴾ [فصلت: ٥].

فالتعلّق بالدنيا، والانهماك بها، يصرف الإنسان عن التأثر بآيات التنزيل

الحكيم، وعن التفكير في يوم القيامة، ومسؤوليته أمام الله تعالى، وقد مرّ معنا في خواتيم سورة طه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٦١﴾﴾، ثم قال تعالى في فاتحة سورة الأنبياء بعدها: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

وقد تكرر في القرآن الكريم مثل هذا التنسيق والاحتباك بين خواتيم السورة

وبين فواتح السورة التي بعدها عموماً، وتكرّر على وجه الخصوص لإبراز هذا المعنى وتأكيده، ففي خواتيم سورة الحجر قال تعالى: ﴿لَا تَدْنَنَّ عَيْنِكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وفي أول سورة النحل بعدها قال جلّ وعلا: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

وكذلك صوّرت الآيات الكريمة في ختام سورة النجم شدة غفلة الكفار وإعراضهم بقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٦﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٥٨﴾ فَاسْتَعِذُوا بِاللَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٥٩﴾﴾ ، ثم قال تعالى بعدها مباشرة في أول سورة القمر: ﴿اقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَالنَّسْفُ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ .

### • والنفوس مضطربة حائرة:

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: وأسرّ الذين ظلموا أنفسهم بالإعراض عن آيات القرآن الكريم النجوى، وهي اسمٌ من التناجي، ولا تكون إلا سرّاً، ومعنى إسرارهم لها مبالغتهم في إخفائها، وإبدال ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من فاعل ﴿أَسْرُوا﴾ وهو الواو، ينبئ عن كونهم متّصفين بالظلم القبيح الفاحش<sup>(١)</sup>.

ومبالغتهم في إخفاء نجواهم يدلُّ على خطورة موضوعها، وشدة اهتمامهم به، وهو معارضة دعوة النبي ﷺ، والبحث عن تهمة يتهمونه بها، لكي يصدّوا الناس عن الاستماع إليه وقبول دعوته.

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ هذا أوّل اعتراض لهم على النبي ﷺ، فهو بشر مثلكم، يتّصف بكل ما يتّصف به البشر من الأكل والشرب والحياة والموت، كما حكى سبحانه عنهم في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ .

واعترضهم على بشرية النبي ﷺ يدل على أنّ الحسد هو الباعث لهم على هذا الاعتراض، فكيف يمتارّ عليهم بالرسالة والنبوة وهو بشر مثلهم؟! .

ولهذا أضافوا إلى اعتراضهم على بشريته ﷺ اتهامه بالسحر:

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٥٤/٦ .

﴿فَأَتَاتُوكَ السِّحْرَ وَأَتَمَّتْ بُجُورُكَ﴾ وهو سؤال إنكارٍ، يَنْكِرُ فيه بعضهم على بعض إتيان النبي ﷺ والاستماع إليه، ويتهمونه بالسحر، فكأنَّ كُلَّ واحد منهم يلوم الآخر قائلاً: كيف تأتي السحر وأنت تعلم أنه سحر؟!.

وهذا يدلُّ على أنَّ سلطان القرآن الكريم كان يجذبهم إليه، وأنَّهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنَّه ليس سحراً، وأنَّه عليه الصلاة والسلام أبعد الناس عن السحر والاتصاف بصفات السحرة.

وقد سجَّلت كتبُ السيرة صوراً من صور استماعهم للقرآن الكريم، قال ابن إسحاق: «وحدَّثني محمدُ بن مسلم بن شهاب الزُّهري: أنَّه حدَّث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شُرَيْق، خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسولِ الله ﷺ وهو يصليُّ من الليلِ في بيته، فأخذ كلُّ رجلٍ منهم مجلساً يستمعُ فيه، وكلُّ لا يعلمُ بمكانِ صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلعَ الفجرُ تفرَّقوا، فجمعهم الطريقُ فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتَّى إذا كانت الليلةُ الثانيةُ عاد كلُّ رجلٍ منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلعَ الفجرُ تفرَّقوا، فجمعهم الطريقُ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتَّى إذا كانت الليلةُ الثالثةُ أخذ كلُّ رجلٍ منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلعَ الفجرُ تفرَّقوا، فجمعهم الطريقُ، فقال بعضهم لبعض: لا نبرحُ حتَّى نتعاهدَ ألا نعودَ على ذلك، ثم تفرَّقوا»<sup>(١)</sup>.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قَالَ﴾ أي: النبي ﷺ يرُدُّ عليهم. وفي قراءة: ﴿قُلْ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ أن يرد عليهم قائلاً:

(١) سيرة ابن هشام: ١/٢٧٥.



﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أقوالكم في نجاكم مهما بالغتم في إخفائها .

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ المتصف بكمال السمع والعلم جلّ وعلا .  
ثم أضافت الآيات أقوالاً أخرى للمشركين بأسلوب الإضراب والانتقال من قولٍ إلى قولٍ، يدلُّ على مدى الاضطراب والحيرة، وأنهم لا يكادون يقولون قولاً حتى ينصرفوا عنه إلى غيره:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنَسْ بِشَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ .

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ أي: قالوا: القرآن مجموعة أحلام مختلطة .  
ثم لم يرتاحوا إلى هذا القول، فانصرفوا عنه إلى غيره قائلين:  
﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾ أي: النبي ﷺ من تلقاء نفسه .  
ثم انتقلوا عنه إلى غيره فقالوا:  
﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما كان ﷺ شاعراً أبداً، وما عُرف عنه ذلك .  
هكذا شأن المحجوج المُبطل، يتردد بين باطل وأبطل منه، ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه<sup>(١)</sup> .

وأخيراً أعرضوا عن كل أقوالهم السابقة، وطلبوا من النبي ﷺ معجزة تدلُّ على صدقه:

﴿فَلْيَأْنَسْ بِشَايَةِ﴾ أي: إن لم يكن محمداً كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فلْيأتنا بمعجزة تدل على صدق رسالته وصحة نبوته .

﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ أي: مثل المعجزات التي أرسل بها المرسلون السابقون .

#### • الردود:

وبعد أن صوّرت الآيات الكريمة حيرة المشركين واضطراب أقوالهم

(١) تفسير أبي السعود: ٥٥/٦ .

شرعت تردُّ عليها، وبدأت بقولهم الأخير، وهو طلب المعجزة، فردت عليهم بقوله تعالى:

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: ما آمن من أهل بلد قبل مشركي قريش عندما جاءتهم المعجزات التي اقترحوها، فأهلكهم سبحانه بسبب ذلك. ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أفيؤمن هؤلاء المقترحون؟ أم يستمرون على كفرهم وعنادهم، كما فعل الكفار قبلهم.

ولقد علم سبحانه أنه لو أعطي هؤلاء ما يقترحون لظّلوا على كفرهم وعنادهم، فمن رحمته سبحانه أنه منع عنهم ما اقترحوا من معجزات، حتى لا يهلكهم كما أهلك الأمم المكذبة قبلهم، ولو أرادوا الإيمان لاكتفوا بالمعجزات التي أيّد الله تعالى بها رسوله ﷺ ابتداءً، وأوضحها دلالةً معجزةً القرآن الكريم.

وأما اعتراضهم على بشرية الرسول ﷺ فيبين سبحانه بطلانه وسقوطه بقوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ من البشر، ولم نرسل ملائكة. ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: أهل العلم بأحوال الرسل السابقين، وهم أهل الكتاب.

﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أحوال الأنبياء السابقين وأخبارهم، فكُلُّهم كانوا من البشر، يجوزُ عليهم ما يجوزُ على البشر:

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٨﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: المرسلين.

﴿جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ بل جعلناهم أجساداً يأكلون ويشربون. ووحد الجسد لأنه مصدر أريد به الجنس.

﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ لا يموتون، بل ماتوا كما مات مَنْ قبلهم وَمَنْ بعدهم من البشر.

ثم نَبَّهتِ الآياتُ إلى أَنَّ موت الأنبياء والمرسلين ما كان بسبب العذاب الذي أنزله الله تعالى بأمرهم المكذبة لهم، فقد وعدهم الله تعالى أن ينجيهم من هذا العذاب:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ بإنجائهم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ من المؤمنين المصدقين برسالة الأنبياء ﷺ، كما أخبر سبحانه في سورة يونس فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وهم الطاغون الباغون المتجاوزون للحدود المشروعة، والعاثون اللاهون.

#### • العرب والقرآن الكريم:

ثم التفتت الآياتُ إلى مشركي مكة تخاطبهم على وجه الخصوص بأسلوب التقرير والتأنيب، تبينُ لهم فضلَ الله العظيم عليهم بإنزال القرآن الكريم بلغتهم، وعلى رجلٍ منهم، فهو شرفٌ كبيرٌ خَصَّهم الله تعالى به دونَ سائر الأمم والشعوب، جعله لهم امتيازاً رفيعاً على الناس، فلماذا يعرضون عنه؟!:

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: فيه شرفٌ لكم، وعزٌّ لكم، إن آمتم به وعملتُم بما فيه.

والمراد بالذكر هنا: الشرف، أي: فيه شرفكم، ... وقيل: فيه ذكركم، أي: ذكر أمر دينكم، وأحكام شرعكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب ... وقال مجاهد: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: حديثكم، وقيل: مكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم، والقول الأول يعمها إذ هي شرفٌ كلها، والكتاب شرفٌ لنا بِسْمِ اللَّهِ، لأنه معجزته، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه <sup>(١)</sup>.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قدر هذه النعمة الجليلة التي خصَّكم الله تعالى بها، فأين عقولكم؟! وهو سؤالٌ إنكاريٌّ توبيخي، يبعثهم على التفكير، ويدفعهم إلى إعادة النظر في موقفهم المعارض للنبي ﷺ ورسالة القرآن الكريم.

لقد كان القرآن الكريم شرفاً للعرب وعزاً لهم، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا ... وقادوا به البشرية قروناً طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب، حتى إذا تخلَّوا عنه تخلَّت عنهم البشرية، وانحط فيها ذكركم.

وما يملك العربُ اليومَ من زادٍ يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد، وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة، فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم <sup>(٢)</sup>.

#### ● إفناء وإنشاء:

وبعد ما تقدّم من توبيخٍ وتقريعٍ وتقريرٍ ملزمٍ لهم بمسؤوليتهم عن حمل رسالة القرآن الكريم، ذكرت الآيات الكريمة صورةً من صور الأمم الهالكة المعدّبة عند نزول العذاب بهم، لإثارة الهلع والرعب في قلوبهم؛ ذكرتها أولاً مجملة في قوله تعالى:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١)

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: ما أكثر البلاد التي أهلكها الله

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١/٢٧٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٧٠.

ودمَّرها بسبب ظلم أهلها وطغيانهم .

وكلمة ﴿كَمْ﴾ للتكثير، والقَصْمُ: الكسر الشديد الذي يفصل بين الأجزاء فصلاً كاملاً، ولا يتأتى ذلك إلا في الأشياء الصلبة القاسية، فدلَّت كلمة (القصم) على قوة هذه الأمة الظالمة، وشدة شكيمتها، فهي كالحجر الصلد في القوة والصلابة<sup>(١)</sup>، ومع ذلك دمَّرها الله تعالى، وأهلكها بسبب ظلمها، وهو الكفر والشرك .

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي: أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم واستئصالهم وقطع دابرهم بالكلية:

﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ .

وبهذا أظهر الحق سبحانه كمال قدرته على الإفناء والإنشاء .

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، وبأساليب متنوعة، منها قوله ﷻ في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَأُ يَدْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ .

وقوله أيضاً في سورة المؤمنون: ﴿فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُثَاءً فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ .

وبعد إجمال فصَّلت الآيات تفصيلاً موجزاً مرعباً أحوال أمة من هذه الأمم الهالكة عند نزول العذاب ببلدهم وساحتهم، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٧) .

﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ﴾ أي: رأوا عذابنا، أو أدركوه بحواسهم، وتذوقوا مقدماته وبدائته .

﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ويفرون مسرعين من بيوتهم وقصورهم وأماكن لهوهم وفجورهم .

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾ [١٣]

﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ أي: قيل لهم ذلك، ويحتمل أن يكون القائل ملائكة العذاب، أو مَنْ كان نَمَّةً من المؤمنين، قالوا ذلك على سبيل الهزء بهم<sup>(١)</sup>.

وقد يكون المنادي لسان الحال تقریباً وتشنيعاً لحالهم وتفظيلاً، لأنهم كانوا قبل نزول العذاب بهم يتوَعَّدون المؤمنين بالنفي عن البلد والوطن والتشريد، قائلين لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]<sup>(٢)</sup>.

### • سقوط المترفين:

﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: ارجعوا إلى النعيم الذي كان سبب بطركم وطغيانكم. والمترف: المتنعم، يقال: أُتْرِفَ على فلان، أي: وُسِّع عليه في معاشه<sup>(٣)</sup>.

ولا شك أن الله تعالى هو المنعم المتفضل، وقد انشغل القوم عن المنعم بالنعمة، ولهذا جاء بناء الفعل ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ بصيغة المجهول ليشير إلى غفلتهم عن ربهم سبحانه.

والترف مظهرٌ من مظاهر السقوط في الاختبار بالنعمة، وما أكثر الذين سقطوا في هذا الاختبار، وسارعوا إلى تكذيب الرسل، وعارضوا دعوتهم، كما قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ولهذا شرع الإسلام التوسط والاعتدال في الإنفاق، ونهى عن الإسراف

(١) روح المعاني: ١٦/١٧ - ١٧.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٣٩٥/١٢.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٧٥/١١.

والترف، قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوًّا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وأثار الترف والسرف تظهر بشكل واضح جلي في مساكن المترفين، وهي تدل على مدى ترف أصحابها وسرفهم، ولعل ذلك سبب تخصيصها بالذكر في قوله تعالى:

﴿وَمَسَكِنِكُمْ﴾ التي شيدتموها وزخرفتموها لتكون موضع ترفكم وبطركم وطغيانكم وفجوركم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عما جرى عليكم ونزل بكم من أنواع العذاب، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة بلسان الحال التي تحوّلتم إليها وأصبحتم فيها.

#### • سؤال الأطلال:

ولا شك أن آثار الهالكين شواهد ناطقة، يسمعا المعترفون المتعظون، فلا يمرون عليها مرور الغافلين العابثين اللاهين، كما يفعل أكثر الناس في العصر الحاضر، يهتمون برؤية آثار الأمم الغابرة، ويرون آثار الخراب والدمار الذي حلّ بها، ولا يفكرون في أسباب الخراب والدمار، ولا قدرة الخالق العظيم الذي أنزل بهم هذا الخراب والدمار.

السياحة في الأرض للاعتبار والاتعاظ أمر مشروع في الإسلام، ندب إليه القرآن الكريم في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

وقوله في سورة آل عمران: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾.

وأنكرت الآيات الكريمة على أولئك الذين يمرون على أطلال الأمم

الهالكة وآثارها، وينقبون في خرائبها، دون أن يتعظوا ويعتبروا، قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَنُفِرُونَ عَلَيْهِمْ مَّصْحَبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِلَيْكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ .

ولما مرَّ النبي ﷺ على الحجر بلادِ ثمود قوم صالح، وهو في طريقه إلى تبوك، أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه إذا دخلوا مساكنهم أن يدخلوها معتبرين خائفين من الله تعالى وسطوته وانتقامه، فقال: «لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» [رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠) واللفظ له].

● إيمان اليأس:

ولا ينتبه المسرفون المترفون من سكرة السرف والترف إلا عند نزول العذاب بهم، حينئذٍ تزول عنهم نشوة الترف، ويصحون من سكرة السرف، ويعترفون بقبح ما كانوا عليه وخسته:

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: الويل والهلاك لنا بسبب إعراضنا عن طاعة ربنا، وانشغالنا بأسباب لهونا وسرفنا وفجورنا .

اعترفوا في وقت متأخر حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا ولات ساعة مندم، إذ جاء اعترافهم متأخراً في وقت نزول اليأس، واليأس من النجاة، وإيمان اليأس لا ينفع صاحبه، لأنه صدر عنه عندما يئس من الحياة، وشاهد أسباب الهلاك والعذاب؛ فهو مثل إيمان فرعون عندما أدركه الغرق، قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغِيًّا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس] (١) .

(١) انظر: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو تفسير سورة يونس في هذا التفسير الموضوعي الكبير.



ودل قولهم: ﴿يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ على أنهم يئسوا من النجاة، وأيقنوا بالهلاك، فلا ينفعهم فرار، فما كان منهم إلا الإقرار:

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ﴾ يرددونها، لا دعوى لهم غيرها، لأن أسباب الويل والهلاك قد طوتهم.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: كالزراع اليابس المحصود بأسنة المناجل.

﴿خَمِيدِينَ﴾ أي: لا حركة لهم ولا صوت، كالنار المنطفئة التي صارت رماداً، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٤٨].

أصبحت مدنتهم وقصورهم التي كانت تموج بالحركة والنشاط قبوراً خامدة ساكنة هامة، لا حِسَّ فيها ولا حركة.

• تنزُّهه سبحانه عن اللعب:

بهذه الصورة المخيفة المرعبة هيأت الآيات الكريمة النفوس الغافلة العابثة اللاهية، لمواجهة حقيقة الحياة، ومعرفة جوهرها، والوقوف على حكمتها. فالحق سبحانه الخالق العظيم، والعليم الحكيم، ما خلق المكوّنات، وأبدع الموجودات للهو واللعب والعبث، حاشاه جلّ وعلا وهو القائل:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينِ﴾ ﴿١١﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسها وأفرادها، ولا تحصر أنواعها وصفاتها وخصائصها، على هذا النمط البديع المتقن المحكم.

﴿لِعِبِينِ﴾ أي: للهو واللعب، يتنزّه الخلاق العظيم والعليم الحكيم عن

هذا، فهو كقوله جلّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَتٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان].

وكم رد ﷺ على منكري الحساب والجزاء والبعث بعد الموت بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنٍ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلقَةً فَخَلَقَ فَسُوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَعَلَّ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتِينَ﴾ [القيامة].  
ثم أكد ﷺ تنزهه عن اللعب والعبث فقال:

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: لاتخذناه على الوجه اللائق بكمالنا وقدرتنا وحكمتنا، وحينئذ لا يكون لهواً، بل يكون عين الحكمة والحق والجد. فاللهو ممتنع في حقه جلّ وعلا، لأنه من صفات النقص التي لا تليق بجلاله سبحانه، وكمال قدرته وعلمه وحكمته.  
﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: ما كنا فاعلين.

● قذف الحق على الباطل:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي: بل شأننا الذي يليق بكمالنا؛ إثبات الحق، وإبطال الباطل، وذلك برمي الحق على الباطل.  
﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يصيبه في أمّ دماغه، مما يؤدي إلى إزالته ومحوه، فالحق قوي أصيل، لا ثبات للباطل أمامه.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب بالكلية.

وفي ﴿فَإِذَا﴾ الفجائية، والجملة الاسمية، من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى، فكأنه زاهق من الأصل<sup>(١)</sup> كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فكأن الحقَّ جرْمٌ صَلْبٌ قوي كالصخرة، فُذِفَ بها على جرم رخو أجوف. فالحقُّ: هو القرآن الكريم المنزَّل على خاتم المرسلين. والقذْفُ: الرمي الشديد. والباطل: كل ما استحدثه الناس من العقائد الفاسدة والأفكار الضالة.

﴿وَلَكُمْ أَوْلِيٌّ مِمَّا نَصَفُونَ﴾ أي: لكم يا أصحاب الباطل الهلاك والعذاب مما وصفتهم به النبي ﷺ والقرآن الكريم، حين قلتُم ما قلتُم، ما حكاه الله تعالى عنهم في أول السورة.

وقد يخيلُ لبعض الناس أحياناً مخالفة الواقع لهذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير، وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً كأنه غالب، ويبدو فيها الحقُّ منزوياً، كأنه مغلوبٌ، وإن هي إلا فترة من الزمان، يمد الله فيها ما يشاء للفتنة والابتلاء<sup>(٢)</sup>.

وأعمارُ الأمم والشعوب لا تُقاس بأعمار الأفراد، إنها فترات تمحيص لأهل الإيمان، تنتهي بإحقاق الحق وثباته، وزهق الباطل وهزيمته، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ بَدْبُهُ جَفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

وسياتي معنا في آخر السورة زيادة تقرير لهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾.

#### • تسبيح وتمجيد:

كيف تجرأ المشركون على الله ﷻ، فوصفوه بصفات لا تليق بكماله

(١) روح المعاني: ٢٠/١٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٧٢.

وجلاله، وأنكروا حكمته في خلقه، وتكبروا عن طاعته، وأعرضوا عن عبادته، وكذبوا أنبياءه ورسله؟! .

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) .

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ﴿عَلَّامٌ﴾ جميعُ المكونات خلقاً وملكاً، وإنشاءً وإفناءً، وإحياءً وإماتةً، وتدبيراً وتقديراً، وإثابةً وتعذيباً، وفوق كل ذلك: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ أي: وله ﴿عَلَّامٌ﴾ من عنده، وهم الملائكة المقربون، الذين لا يعلم حقيقتهم وعظمتهم إلا هو .

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ جلَّ وعلا، وعن الانقياد والخضوع لأمره ومشيئته .  
﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: ولا يطلبون الانقطاع والتوقف عن عبادته جلَّ وعلا وطاعته، بسبب إعياءٍ وتعَبٍ يلحقهم . بل:

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠) .

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ينزهونه جلَّ وعلا بأنواع التقديس والتمجيد والتعظيم دائماً في الليل والنهار .  
﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: دون توقف وانقطاع، ودون ضعف وملل وسامة .  
ثم اتجهت الآيات بعد هذا التنزيه والتمجيد للحق سبحانه إلى توبيخ المشركين، لأنهم عبدوا غير الله تعالى، واتخذوا آلهة ضعيفة عاجزة:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾ (٢١) .

﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: من تراب الأرض وأحجارها .  
﴿وَأَمْ﴾ للإضراب والانتقال لتحكي جريمة أخرى من جرائم المشركين مع الإنكار عليهم .  
﴿هُمْ يُشْرُونَ﴾ أي: هم قادرون على نشر الأموات، وإخراجهم من قبورهم؟ .

فالإله الذي يستحقُّ العبادة يجب أن يكونَ قادراً على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء والابتداء، وهذه الأصنام التي اتخذوها بأيديهم من الأرض ضعيفة عاجزة، فكيف عبدوها وأعرضوا عن عبادة الله تعالى القوي القادر القاهر، المبدئ المعيد، المحيي المميت، جَلَّالَهُ؟! .

وهكذا بعد هذه المقدمة عن النبيِّ الخاتم، ومواقف المشركين منه ومن دعوته أوصلتنا الآيات إلى الموضوع الأساس للسورة، وهو كلمة التوحيد والأدلة عليها، وبدأت ببيان الدليل العقلي الملزم:

#### • دليل التوحيد العقلي:

أين عقولُ المشركين التي ميزهم الله تعالى بها، والتي جعلها سبحانه أعظم الوسائل التي يتعرفون بها على خالقهم جَلَّالَهُ، الذي يجب عليهم عبادته وطاعته؟! وأين أبصارهم وأسماعهم؟! .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا آلَٰهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْنَ آلَٰهَ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض .

﴿آلَٰهَةٌ إِلَّا آلَٰهُ﴾ أي: غير الله تعالى .

﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي: لاختلَّ نظامُهما، وفسدت نواميسُهما .

فلو قدرنا إلهين، فإمَّا أن يتفقا أو يختلفا، فإن اتفقا على الشيء الواحد، فذلك الواحد مقدورٌ لهما، ومرادٌ لهما، فيلزم وقوعه بهما وهو محال، وإن اختلفا، فإمَّا أن يقع المرادان، أو لا يقع واحد منهما، أو يقع أحدهما دون الآخر، والكل محال، فثبت أنَّ الفسادَ لازمٌ على كل التقديرات<sup>(١)</sup> .

فلا يجري أمرُ العالمِ إلا بأمر واحد، ومدبر واحد، ومقدر واحد جلَّ وعلا، وهي حقيقةٌ يدركها الإنسان بأدنى تفكير ونظر، قررها سبحانه في هذه الآية، وفي آياتٍ أخرى، منها قوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٥١/٢٢ .

وَلَوْ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ .

وقوله أيضاً في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ .

وكما ختم تعالى تلك الآيات بتنزيهه عما يقولون ويشركون، ختم الآية أيضاً بتنزيهه وتقديسه فقال:

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يتنزه الله رب العرش العظيم عما لا يليقُ به من صفات النقص التي يصفه بها المشركون، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.  
ومن كماله جَلَّالَهُ أنه:

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ أي: لا يعترضُ عليه أحد، لأنه لا كفاء له سبحانه في أي صفة من صفات كماله وجلاله، فهو واحدٌ في ذاته، وواحد أيضاً في أفعاله وفي صفاته جَلَّالَهُ، تقدّست ذاته، وتسامت صفاته.

﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لأنهم مملوكون مقهورون، فهم مسؤولون أمامه جلَّ وعلا وحده، فهو مالكهم ورازقهم ومدبر أمرهم.

فلا ينبغي لأحدٍ أن يعترضَ على الله جَلَّالَهُ، ولا يسعنا إلا أن نستسلمَ ونذعنَ لأمره التكليفي والقدري، فلا يقال: لم خلق الله الكافر؟ وإنما يتوجَّه السؤال إلى الكافر: لِمَ كفرَ بالله تعالى، وكلُّ الدلائل العقلية والنقلية تدلُّه على وجوده ووحدانيته جلَّ وعلا؟! وهو سبحانه حكيمٌ عليمٌ، لا يفعل شيئاً عبثاً ولعباً - كما مرَّ معنا - فله الحكمة التامة والحجة البالغة.

فإذا ما استبانَت لك الحكمةُ، فاحمد الله تعالى على ما أعطاك وأولاك،

وإذا ما قصر عقلك عن إدراك الحكمة، فالزم الأدب مع الله تعالى، وأتمم عقلك بالقصور، وقل: الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

### • دليل التوحيد النقلي:

ثم اتجهت الآيات إلى بيان دليل التوحيد النقلي السمعي بعد بيان الدليل العقلي، والتزمت الأسلوب السابق نفسه، أسلوب الإضراب والانتقال من دليل إلى دليل، مع الإنكار والتوبيخ، واستدعى المقام أن تضيف إليه هنا التحدي في إظهار دليل سمعي واحد يستندون إليه في شركهم وكفرهم:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ أي: كيف اتخذوا من دونه جلّ وعلا آلهة مزعومة. وأفاد تكرير صيغة ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ تأكيد حدوث الشرك، فهو أمر مفتعل حادث طارئ، لم يكن مصاحباً للوجود البشري على الأرض، فالتوحيد هو الأصل الثابت الذي يتفق مع صفاء الفطرة الإنسانية، والشرك دخيل طارئ. وبعد الإنكار جاء التحدي:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تدعونه من شرك وكفر من جهة السمع والنقل، ففي أي كتاب أنزل؟.

﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾ أي: هذا القرآن الكريم الذي معي ليس فيه إلا الدعوة إلى توحيد الحق ﷻ .

﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ في التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب المنزلة قبلي، هل في كتاب من هذه الكتب أن الله تعالى أمر باتخاذ آلهة سواه جلّ وعلا؟! .

فلا يُعقل أن يأمر الله تعالى بعبادة أحد سواه، فهو شرك وكفر لا يأمر الله تعالى به، ولا يرضاه، وقد نزهه كتبه سبحانه عنه، كما نزهه رسله وأنبياءه عنه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ

اَلْكِتٰبِ وَالْحَكْمِ وَالنُّبُوَّةِ ثُمَّ يَقُوْلُ لِلنَّاسِ كُوْنُوْا عِبَادًا لِّيْ مِنْ دُوْنِ اِلٰهٍ وَّلٰكِنْ كُوْنُوْا رَبِّدِيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُوْنَ اَلْكِتٰبِ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ ﴿٧٩﴾ وَّلَا يَأْمُرُكُمْ اَنْ تَتَّخِذُوْا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ اَرْبَابًا اَيُّكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ اِذْ اَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ﴿٨٠﴾ .

فالشرك بالله تعالى لا يدل عليه دليل عقلي ولا دليل نقلي، وليس له سند سوى الجهل والتعصب واتباع الهوى، ولهذا قال تعالى:

﴿لَّ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ الْحَقَّ﴾، وجهلهم بالحق أدى بهم إلى الإعراض عنه:

﴿وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ﴾ .

### • كلمة التوحيد:

ثم بينت الآيات وحدة الرسالات الإلهية، وأن جميع الأنبياء والمرسلين أجمعوا على كلمة التوحيد، ودعوا إليها:

﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ اِلَّا نُوْحِيْ اِلَيْهِ اَنْهٗ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدُوْنَ ﴿١٥﴾﴾ .

فكلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» هي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وهي التي تدل عليها الأدلة العقلية والنقلية، ولم يرسل الله تعالى نبياً إلا بها، كما قرر سبحانه هنا وفي آيات كثيرة من آيات التنزيل الحكيم، إذ هي أعظم المبادئ التي أنزل الله تعالى القرآن من أجل تقريرها، وهي الأصل الأصيل الذي تدور في فلكه جميع آيات الكتاب الكريم، وتبنى عليها جميع تعاليم الإسلام؛ قواعده وأصوله وفروعه.

وهي الكلمة التي تلتقي عندها جميع دعوات الأنبياء والمرسلين، وما من نبي إلا قال لقومه هذه الكلمة: ﴿يَقُوْمُ اَعْبُدُوْا اِلٰهَ مَا لَكُمْ مِنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وهذا يؤكد أن مصدر جميع الرسالات السماوية مصدر واحد، وهو الوحي الإلهي، كما قال تعالى: ﴿اِنَّا اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ كَمَا اَوْحَيْنَا اِلَى نُوْحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَاَوْحَيْنَا اِلَى اِبْرٰهِيْمَ وَاِسْمٰعِيْلَ وَاِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَاَلْسَبٰطِ وَعِيْسَى وَاَيُوْبَ وَيُوْسُفَ وَهٰرُونَ وَسُلَيْمٰنَ وَاَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوْرًا﴾ [النساء].



وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَجْبُطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر].

نادى بها إبراهيم عليه السلام ، وحطّم من أجلها أصنام قومه - كما سيأتي معنا - قال تعالى: ﴿وَإِذْ هَبْنَا دُخَانًا مِنْ أَنْوَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَغَطَّىٰ ذَٰلِكُمْ وَجْهَ الْأَرْضِ لِيَخْلُقَ مِنْهَا حَتَّىٰ إِذَا رَأَىٰ مِنْهَا أَنَّهَا كُنْتَ مَعْلُومَةٌ﴾ [العنكبوت: ١٦].

ودعا إليها يوسف عليه السلام وهو في قعر السجن: ﴿يَصْطَلِحِي السِّجْنَاءَ أَزْوَاجٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف].

وتكلم بها عيسى عليه السلام وهو في المهد فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وتوسّل بها إلى الله تعالى ذو النون عليه السلام وهو في بطن الحوت كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وأمر بها خاتم المرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَٰلِكَ أُبْرِتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام].

#### • براءة الأنبياء مما نسب إليهم:

والأنبياء عليهم السلام بريئون من كل أنواع الشرك التي نسبها الكفار إلى بعضهم زوراً وكذباً، ولهذا اتجهت الآيات بعد أن بينت أنهم مجمعون على كلمة التوحيد إلى الشهادة ببراءتهم مما نسب إليهم:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أي: قال ذلك بعض المنتسبين إلى الأنبياء زوراً

وبهتاناً، فالآية مشنعة على كل من نسب إليه سبحانه ذلك؛ كالنصارى القائلين: عيسى ابن الله، واليهود القائلين: عزيز ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر الله أقوالهم هذه في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّكَونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

فهو مجرد قول قالوه بأفواههم، لا نصيب له من الصحة أبداً، فما أمرهم أنبياءهم إلا بعبادة الله الواحد الأحد - كما مر معنا - ولهذا نزه سبحانه ذاته المقدسة عن هذا القول الباطل فقال:

﴿سُبْحٰنَهُ﴾، ثم بين حقيقة هؤلاء الذين ينسبونهم إلى الله تعالى بنسب البتة

فقال:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ فهم ليسوا أبناءً لله تعالى، بل هم عباد له ﷻ، كرمهم فاخترهم للنبوّة والرسالة.

وهم أكمل الخلق طاعة لله تعالى، وتذلاً له جلّ وعلا، شهد لهم سبحانه بذلك فقال:

﴿لَا يَسْئِفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَسْئِفُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يتقولون على الله تعالى بشيء أبداً، فلا يقولون قولاً حتى يأذن لهم، أدباً معه ﷻ، فأقوالهم تبع لقوله سبحانه، وأعمالهم أيضاً تبع لأمره سبحانه:

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعملون إلا بما يأمرهم به سبحانه، فهم بقوله تعالى يقولون، وبأمره يعملون.

ووصفه سبحانه للأنبياء بكمال انقيادهم له قولاً وفعلاً صدر عن علمه

المحيط بكل شؤونهم:

(١) روح المعاني: ٣٢/١١.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨)

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما قدموا وأخروا .

وإلى جانب كل ما تقدم من الصفات الكريمة التي يتصف بها الأنبياء ﷺ ، فهم أكمل الناس معرفة بالله تعالى ، وأكثرهم تعظيماً له ، وخشية منه ﷻ ، يظهر ذلك منهم على وجه الخصوص يوم القيامة عندما تتجه إليهم أبصارُ الناس ، مستشفعين بهم إلى الله تعالى ، فلا يشفعون إلا بعد أن يأذن الحقُّ لهم بالشفاعة :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أي : إلا لمن رضي عنه سبحانه ، وأذن الرحمن لهم أن يشفعوا له ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه : ١٠٩] .

﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي : خائفون وجلون ، وأصل الخشية : الخوف مع التعظيم ، ولهذا خص الله ﷻ بها العلماء<sup>(١)</sup> في قوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨] .

ولا شكَّ أنَّ الأنبياء ﷺ أعلمُ العلماء بالله تعالى وبكمالهِ وجلالهِ ، فهم أعظم الناس خشيةً منه ﷻ ، وفي الحديث الشريف : عن عائشة رضي الله عنها قالت : صنع النبي ﷺ شيئاً ، فرخص فيه ، فتنزه عنه قومٌ ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فخطب ، فحمد الله ، ثم قال : «ما بالُ أقوامٍ يتنزهون عن الشيءِ أصنعهُ ، فوالله إنني لأعلمهُم بالله ، وأشدُّهم له خشيةً» [رواه البخاري (٦١٠١)] .

وفي مقابل كمال عبودية الأنبياء لله تعالى أظهرت الآيات عزَّ ربوبيته سبحانه بقوله :

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكِ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩)

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي : من الأنبياء ﷺ ، على سبيل الافتراض .

﴿إِنِّي إِلَهٌُ مِّنْ دُونِهِ﴾ أي: يدعي لنفسه صفة الألوهية التي لا يتصف بها إلا الله ﷻ.

﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: نجزي الذي يدعي هذه الدعوى جهنم كائناً من كان.  
 ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: وبهذا الجزاء العظيم نجزي الظالمين، الذين يضعون طاعتهم وعبادتهم في غير موضعها.

وحاشا الأنبياء ﷺ أن يكونوا ظالمين، وهم أكثر الناس معرفة بالله تعالى، وانقياداً لأمره، وإذعاناً لمشيئته ﷻ الذي قال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِيهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴿١٧٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء].

#### • من أدلة التوحيد المحسوسة:

وما إن فرغت الآيات من بيان أدلة التوحيد العقلية والسمعية، حتى شرعت تبين بعض أدلة التوحيد المحسوسة المثبوتة في الكون:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقَّْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقَّْنَهُمَا﴾:

والرتق في اللغة: الضم والالتحام خلقة كان أم صنعة، ومنه الرتقاء: المرأة الملتحمة محلّ الجماع.

وقرأ الحسن وزيد بن علي وأبو حيوّة وعيسى: (رَتْقًا) بفتح التاء، وهو اسم المرتوق، والقياس أن يثنى ليطباق الاسم، فقال الزمخشري: هو على تقدير موصوف؛ أي: كانتا شيئاً رتقاً<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: روح المعاني: ٣٤/١٧.

والفتق: الفصل بين الشيئين، فهو ضد الرتق.  
وللعلماء قولان في المعنى المراد من الآية:

القول الأول: أن السماوات كانت لا تمطر، ففتقها الله بالمطر، والأرض كانت رتقاً لا تنبت، ففتقها الله تعالى بالنبات، وهو المأثور عن ابن عباس.  
فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في «الحلية» من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجلاً أتاه فسأله عن الآية، فقال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني، وكان ابن عباس، فذهب إليه فسأله، فقال: نعم كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلمَّا خلقَ اللهُ تعالى للأرض أهلاً، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن علمتُ أن ابن عباسٍ قد أوتي في القرآن علماً، صدق ابن عباس، هكذا كانت<sup>(١)</sup>.

القول الثاني: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: كانت السماوات والأرض شيئاً واحداً ملتزقتين ﴿فَفَنَنَّا هُمَا﴾ أي: فصلنا بينهما، وهو قول أكثر المفسرين المعاصرين، وقد استدلوا به على إعجاز القرآن الكريم العلمي، لأنه يتفق مع النظرية السائدة عند العلماء، التي تقول: كان الكون كتلة واحدة، ثم حدث انفجارٌ كبير أدى إلى انفصال الأرض والشمس والنجوم عن بعضها.

ولكن يعترض على هذا القول بأنه لا ينسجم مع قوله تعالى في صدر الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ وسواء قلنا: المراد من الرؤية: رؤية البصر أو رؤية البصيرة، وهي العلم، فمتى رأى الكفار هذه الظاهرة الكونية التي حدثت قبل وجودهم بزمن بعيد؟!.

والقول الأول الذي ذهب إليه ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما أولى، فالآية توجه الأنظار إلى الظاهرة الكونية المشاهدة الدالة على وجود الله تعالى ورحمته ووحدانيته، وهي ظاهرة إنزال المطر من جهة السماء بقدرته تعالى، وإنبات

(١) روح المعاني: ٣٦/١٧.

النبات من الأرض بقدرته تعالى أيضاً، وهو أمرٌ مشاهد ملموس، خاضعٌ لنواميس إلهية دقيقة، تدل على عظمة مكنونها ومدبرها ومبدعها ووحدانيته جلّ وعلا .

ويؤكد أنه هو المعنى المراد قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ .

وجاء هذا المعنى موضحاً في آيات أخر من كتاب الله تعالى، كقوله ﷻ في سورة الطارق: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ لأنّ المراد بالرجع: نزول المطر تارةً بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات .

وكقوله تعالى أيضاً في سورة عبس: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿١٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١﴾ .

### • الماء والحياة:

وأما قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ فمعناه: وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كلَّ شيءٍ من الحيوان والنبات والشجر (٢) .

فالماء سببٌ وجود الحياة بتقدير الله تعالى، والآيات بهذا المعنى في القرآن كثيرة، منها قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

ومنها قوله تعالى في سورة الروم أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فترى الودقَ يخرجُ من خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنجِي الْمَوْتِطِّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ يفيدُ العموم، وأريد به الخصوص، وله نظائر في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

(١) انظر: أضواء البيان: ٤/٥٦٤ .

(٢) تفسير الخازن: ٤/٢٤٥ .

وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿النمل: ٢٣﴾ ولا شك أنه كان عند سليمان أشياء ما كانت موجودةً عندها .

وقوله أيضاً: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿الأحقاف: ٢٥﴾ ولا شك أنه أريد به الخصوص، لقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقد يكون المراد من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ ماءً مخصوصاً هو ماء النطفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

وقوله أيضاً: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٦﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [المرسلات].

وثمة قول آخر يذهب إليه كثير من العلماء المعاصرين، ذكره سيد قطب رحمته في «الظلال» فقال: «فأما شطر الآية الثاني: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ فيقرر كذلك حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً، ويمجدون داروين لاهتدائه إليها، وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول؛ وهي حقيقة تثير الانتباه حقاً، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقيناً بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا أنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوفات العلمية له، وأقصى ما يقال هنا كذلك: إن نظرية النشوء والارتقاء لداروين وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه الآية بالذات»<sup>(١)</sup>.

وأرى أن هذا قول لا يخلو من مجازفة، ولا يتفق كما سبق مع صدر الآية ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فمهد الحياة الأول غيب عن الإنسان، لا يعلمه إلا الله

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٧٦.

تعالى القائل: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَخَذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فآلية تتحدث عن ظواهر كونية مرئية محسوسة تدل على وجود مكوناتها ووحدانيتها سبحانه، ولهذا ختمها سبحانه بقوله:

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدقون بأن خالق هذه الظواهر الكونية واحدٌ أحدٌ، منزّه عن الشريك والصاحبة والولد.

### • الجبال أوتاد الأرض:

وتابعت الآيات لفت الأنظار والأفكار إلى الدلائل الكونية المحسوسة الدالة على عظمة خالقها ووحدانيتها:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [٣١].

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾ أي: جبالاً ثابتة.

﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لتلا تميد بالناس، أي: تضطرب ويختل توازنها فيتعذر قرارهم عليها.

ومن الثابت علمياً أنّ للجبال دوراً في توازن الأرض وتثبيت قشرتها بتقدير الله تعالى، فهي للأرض كالأوتاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: جعل الله تعالى في الأرض أو في الجبال، طرقاً واسعة، ليتمكن الناس بواسطتها من الانتقال من مكان إلى مكان، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣].

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدهم ومصالحهم، أو لعلهم يهتدون إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة<sup>(١)</sup>.

(١) روح المعاني: ٣٨/١٧.



## ● السماء سقف الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٢١)

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أي: جعلنا السماء بمثابة السقف للأرض، تحيط بها، وتعلوها من جميع جوانبها، وهي مرفوعة محفوظة بتقدير الله تعالى عن السقوط، كما قال جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وهي محفوظة أيضاً من الزوال إلى الأجل المسمى الذي قدره العليم الحكيم القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وزوالها يكون عند قيام الساعة، عندما تشقُّ بقدرته تعالى وتطوى.

وهي محفوظة أيضاً من أي خلل يطرأ على نوايسها الدقيقة المحكمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿أَفَأَنْتَ نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: وهم عن كل هذه الأدلة الواضحة معرضون عن التفكر في خالقها ومبدعها، وعن الإيمان بأنه حكيم عليم واحد أحد، منزّه عن الشريك والولد، فرغم كثرة الأدلة الدالة على وحدانية الخالق وعظمته، ورغم وضوحها وظهورها، فإن أكثر الناس لا ينتفعون بها، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

### ● الليل والنهار والشمس والقمر:

الليل والنهار، والشمس والقمر، أقربُ الظواهر الكونية إلى حواس الإنسان، وأكثرها اتصالاً بحياته ومعيشته، ولهذا ذُكرت كثيراً في القرآن الكريم كأدلة واضحة على عظمة قدرة الله تعالى ووحدانيته:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣)

﴿وَهُوَ﴾ الله سبحانه وحده.

﴿الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ اللذين يتعاقبان بنظام محكم ثابتٍ دقيقٍ لا يتغير، يدل على وحدة مُبدعه ومُدبره.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ اللذين أيضاً يسيران بحسب نظام دقيق بديع ثابت، لا يلحقه أدنى خلل.

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ مما يدل على دقة النظام وإحكامه وإتقانه، كما في قوله تعالى في سورة يس: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤١).

وقوله أيضاً في سورة الأنعام: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٩٦).

### ● ناموس الموت والحياة:

وانتقلت الآيات من نواميس الأفلاك السابحة في الفضاء، إلى ناموس الموت والحياة المقدر على جميع الأحياء، فهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله تعالى، لأنه وحده جلّ وعلا الذي لا يموت، فكل مخلوق يعرف أنه سيموت، فالموت هو اليقين الذي تستيقن به الأحياء كلها، وهماهي الآيات الكريمة تخاطب صفوة الله تعالى من خلقه خاتم الأنبياء بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤).

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْخُلْدَ﴾ أي: البقاء والدوام.

﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ كما مات من قبلك الأنبياء والمرسلون.

﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أي: أفإن مت أنت أبقى هؤلاء الكفار المشركون؟! كلا

بل سيموتون كما مات من قبلهم، وسيموت أيضاً كل الذين يأتون من بعدهم، فلا نجاة لأحد من الموت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمُوتُونَ﴾ ثم إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ [الزمر].

فلقد قهر الله جلَّ وعلا بالموت كل المخلوقات، وهو يدل على كماله جلَّ وعلا ووحدانيته، كما يدل على ضعف المخلوقات ومحدوديتها، وخضوعها لمشيئته سبحانه وقدرته.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَنَسَنَّا وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥).

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ هكذا على الإطلاق، ف (كل) إذا أضيفت إلى نكره تعم،

ويدخل في هذا العموم نفوس الأنبياء والملائكة المقربين.

﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: مدركة حقيقة الموت وطعمه، لأنها ستصاب به.

والله عَزَّ وَجَلَّ وحده الباقي الذي لا يموت، فهو المحيي والمميت، والمبدئ والمعيد، وهو الأول بلا بداية، والباقي أزلاً بلا نهاية، فهو وحده المتصف بالقدم والبقاء، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصص: ٨٨].

وقال أيضاً: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٦١) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن].

ولهذا فهو وحده الإله المستحق أن يُعبد ويُطاع، وأما غيره من المخلوقات الحادثات القابلة للموت والفناء، فلا تستحق أن تُعبد وتُطاع، وهو سبحانه وحده الذي ينبغي الاستعانة به والتوكل عليه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

ولا يخفى أن الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تشير إلى عبودية الأنبياء والمرسلين لله تعالى الذي قدر عليهم الموت كما قدره على غيرهم من المخلوقات، وهو رد على الذين غلوا في أنبيائهم، حتى رفعوهم عن مقام عبوديتهم لله تعالى إلى مقام الألوهية، كما أنه تهديد ووعد لجميع الكفار والمشركين، لأنهم سيحاسبون، ويسألون عن شركهم وكفرهم بعد الموت.

فالموت ليس هو النهاية، والحياة الدنيا بما فيها من خير وشر اختبار وابتلاء، تظهر نتائجه بعد الموت، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نختبركم تارة بالشر، وتارة بالخير، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

﴿وَاللَّيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: تُرجعون بعد الموت إلى قدرنا وقضائنا فنجازيكم على أعمالكم في الدنيا.





## الْبَصِيَّةُ الثَّانِي

### حَامِلُو كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَرُؤَادُهَا

﴿وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَمُوكَ وَعَابَأْتَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِنْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا هِيَ عِدَدِي ﴿٥٢﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٥﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَعُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٦﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَاًا إِلَّا كَثِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ

يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُهُمْ يُقَالُ  
 لَهُ إِبرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا  
 بِآلِهَتِنَا يَا إِبرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾  
 فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا  
 هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ  
 لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
 فَعَالِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ  
 ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ  
 نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ  
 الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا  
 وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْتَقْبَيْنَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي  
 رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ  
 الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ  
 فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا  
 لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَهَمَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۗ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ  
 يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُنحَصِنَكُم مِّنْ بَاسِكُمْ ۗ فَهَلْ  
 أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسَلَّمْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِنَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ  
 عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوِيكَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ  
 ﴿٨٢﴾ وَيُؤْتِيكَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ  
 فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرِّهِ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ  
 ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۗ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ  
 مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَقَطَّنْ ۗ أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ  
 لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۗ

وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَرَكْرَكُنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْبَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خِشَعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَانَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَسْعَىٰ جُحُودًا ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ إِذَا هِيَ سُخْرِيَةٌ الْأَذِينَ كَفَرُوا يَبُولُونَ قَدًّا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَمَكُنَّ فِيهَا خَلِيدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَادَّبْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ آدَرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُونَ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنِ آدَرِي لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

• تمهيد:

وبعد أن فرغت الآيات الكريمة من الحديث عن كلمة التوحيد وأدلتها

شرعت بالحديث عن حَمَلَة كلمة التوحيد وروّادها، عن بعض الأنبياء والمرسلين الذين شَرَّفهم الله تعالى بحملها إلى الناس.

وأبرزت الآياتُ في حديثها عن الأنبياءِ نقطتينِ هامّتينِ يشترُكُ جميعهم بالاتصاف بهما:

أولهما: حاجةُ الأنبياءِ وافتقارُهم إلى الله تعالى، مما يدل على عبوديتهم له سبحانه.

ثانيهما: عنايته سبحانه بهم، واستجابته لدعائهم، وكثرة رحماته وألطفه المحيطة بهم عليهم الصلاة والسلام.

#### • الفاتح الخاتم:

بدأت الآياتُ حديثها عن الأنبياءِ بخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، كما ختمته بالعودة إليه، والحديث عنه - عليه وعليهم الصلاة والسلام - فهو الفاتحُ الخاتم، وكلمةُ التوحيد التي حملها إلى جميع الناس، قدَّر الله تعالى أن تكون الكلمةُ الباقيةُ في الناس إلى قيام الساعة، فهو سيِّدُ الموحِّدين، وخاتم النبيِّين والمرسلين. أنزل الله تعالى عليه سورة الأنبياء، وهو في مكة المكرمة، يواجه بكلمة التوحيد جهل المشركين وعنادهم، ولهذا بدأت الآياتُ حديثها عنه ﷺ من موقف العناد والجهل الذي كان عليه المشركون، تثبيتاً له عليه الصلاة والسلام في مواجهتهم، وتخفيفاً لمعاناته وأحزانه:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ  
وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما ينظرون إليه إلا نظرةً المهزوء به، ويقول بعضهم لبعضٍ بلغة الإنكار والاستصغار:

﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بتقبيحها وعبثها وبيان عجزها وضعفها،



فهم يرون أن هذا من الأمور التي تؤخذُ عليه، ويتتقدُّ بسببها، مع أنها من مناقبه وكمالاته .

﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ﴾ المتصف بكل صفات الكمال والجلال والإحسان .  
 ﴿هُم كٰفِرُونَ﴾ أي : منكرون جاحدون لفضله سبحانه وإحسانه ووحدانيته ،  
 التي تدلُّ عليها الأدلة العلمية والسمعية والمشاهدة المحسّسة ، كما مرَّ معنا .  
 فهم إذن الذين ينبغي أن يُهزأَ بهم ويُسخَّرَ منهم ، وجاء بالضمير الثاني  
 ﴿هُم﴾ زيادة في تأكيد المعنى .

#### • المستعجلون للعذاب:

وكانوا بسبب عنادهم وشدّة جهلهم واغترارهم بأنفسهم يستعجلون نزولَ  
 العذاب بهم ، وغابَ عنهم أنّ تأخير العذاب عنهم رحمة من الله تعالى بهم ببركة  
 النبي الكريم نبي الرحمة الذي أرسل إليهم ، فللعذابِ موعدٌ قدره العليم  
 الحكيم ، فلا ينبغي لهم استعجاله :

﴿خُلِقَ الْاِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُوْنَ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿خُلِقَ الْاِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي : خُلق الإنسان وهو مطبوع على الاستعجال ، وقلة  
 التأمّني والثبات ، فكأنّه مخلوق من نفس العَجَل ، تنزيلاً لما طُبِعَ عليه من الأخلاق  
 منزلة ما طبع منه ، والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم : خُلق من الكرم<sup>(١)</sup> .

ونظيره في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [الروم :  
 ٥٤] . فمعناه كما قال في سورة النساء : ﴿وَخُلِقَ الْاِنْسَانُ ضَعِيْفًا ﴿٢٨﴾﴾ .

وكذلك قال تعالى في معنى ﴿خُلِقَ الْاِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ : ﴿وَكَانَ الْاِنْسَانُ جَبُوْلًا﴾

[الإسراء : ١٠] .

واستعجالهم الذي طبعوا عليه جعلهم يستعجلون العذاب ، ولهذا قال الله تعالى :

(١) انظر : تفسير البيضاوي وتفسير النسفي : ٤ / ٢٤٨ .

﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: سأريكم الدلائل الدالة على صدق آياتي، وهي آياتُ العذاب التي توعدّهم الله تعالى بها.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا تستعجلوني بالإتيان بها، لأن فيها هلاككم وعذابكم.

ولا يقال: كيف نهاهم عن الاستعجال وقد طُبعوا عليه؟.

لأننا نقول: نعم جُبل الإنسان على العجل، ولكن في استطاعته أن يلزم نفسه بالتأني، كما أنه جُبل على الشهوات، كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وفي استطاعته أن يلزم نفسه بالكف عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: (١)].

وثمة باعث آخر كان يبعثهم على استعجال العذاب، وهو تكذيب النبي ﷺ واستهزاؤهم به عليه الصلاة والسلام، دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ وهو يوم القيامة، أو وقت نزول العذاب.

﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنه سيأتي ويتحقق.

وردّ سبحانه عليهم بيان صورة من صور عذابهم يوم القيامة، فقال:

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾.

أي: لو يعلم الذين كفروا حين وقوع العذاب بهم، وإحاطة النار بهم، وعجزهم عن دفعها عن ظهورهم ووجوههم، وعدم وجود مَنْ ينصرهم؛ فظاعة

وَسَنَاعَةٌ وَشِدَّةُ الْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَعْجِلُونَ نَزْوَلَهُ، لَمَّا اسْتَعْجَلُوا نَزْوَلَهُ وَاسْتَخَفُوا بِهِ، فَجَهَلَهُمْ بِشِدَّةِ الْعَذَابِ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ.

وحذف مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ لدلالة الكلام عليه، كما حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للدلالة على أنه من المسلمات المفروغ منها التي لا حاجة للتصريح بها. والشؤون منوطة بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتهم، ولهذا يأتيهم العذاب فجأة دون سابق اقتراح منهم:

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تدهشهم وتحيرهم بوقعها الشديد المفاجئ وقوتها.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: فلا يقدرُونَ على دفعها والتخلص منها.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ولا هم يُمهَلون ويؤخرون كما أمهلوا في الدنيا.

#### ● مواسة وتثبيت وتحذُّر:

والتفتت الآيات إلى النبي ﷺ تواسيه عما يلقي من عناد المشركين واستهزائهم، بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ بك المشركون.

﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل وأحاط بالمستهزئين

عقوبة استهزائهم، انتقم الله تعالى منهم، وكذلك سينتقم الله تعالى من هؤلاء الذين يستهزئون بك ويكفيك شرهم وكيدهم.

وقد فعل الله سبحانه ذلك، وانتقم منهم، وأنزل على نبيه الكريم قوله: ﴿إِنَّا

كفيناك المستهزئين﴾ [الحجر: ٩٥].

وأمرت الآيات النبي ﷺ في معرض مواساته وشد أزره أن يقول للمشركين متحدياً لهم:

﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٢).

﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه في الليل والنهار، فأنتم معرّضون لعذابه وانتقامه في أي وقت، ونبههم بالاسم الكريم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على أنه لا كاليء لهم غير رحمته العامة، التي بسببها أنظروهم، وأمهلهم، وأخر العذاب عنهم<sup>(١)</sup>.

ثم بيّن سبحانه أن المشركين لا يستحقون رحمته سبحانه، ولا يصلحون لها، لإعراضهم عن ذكره وعبادته، فقال:

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وكما هم عاجزون عن دفع عذاب الله تعالى عنهم، كذلك ألهتهم، فهي أعجز منهم:

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَتَّابُونَ﴾ (٤٣).

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ أي: ألهم آلهة سوى الله تحميهم وتحفظهم من عذابه، وكيف تحفظهم وهي ضعيفة عاجزة لا تستطيع أن تحمي نفسها.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: لا يستطيعون حماية أنفسهم، بل يحتاجون إلى من يحميهم وينصرهم، كما قال سبحانه في سورة يس: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٤) لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴿٧٥﴾.

وقال هنا:

﴿وَلَا هُمْ مَتَّابُونَ﴾ أي: ولا يصحبهم نصر من الله تعالى، فكيف ينصرون غيرهم؟! ففاقد الشيء لا يعطيه.

(١) تفسير البضاوي: ٢٥٠/٤.

وقد يكون المعنى: ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا، فالله سبحانه يجير ولا يجار عليه، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

والعرب تقول: أنا جارٌ لك وصاحبٌ من فلانٍ، أنا مجيرٌ لك منه<sup>(١)</sup>.

### • دفع التوهّم:

وقد يتوهّم متوهّم فيقول: ألا ترى إلى ما هم فيه من طول الأعمار وسعة الأرزاق، أليس هذا من حفظ آلهتهم ورزقها لهم؟  
ودفعاً لهذا التوهّم الباطل، قال سبحانه:

﴿بَلْ مَعْنَا هَؤُلَاءِ وَاَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤).

﴿بَلْ مَعْنَا هَؤُلَاءِ وَاَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فتمتّعهم هم وآباؤهم بطول الأعمار وسعة الأرزاق، بمشيئتنا وتقديرنا وحدنا، وهو استدراجٌ من الله تعالى لهم وابتلاء واختبار، وقد مرّ معنا أنّ الابتلاء يكون بالخير وبالشر عند قوله: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فلا ينبغي الاغترار ببعض ما يتمتع به الكفار في الدنيا، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٩٦) متعٌ قليلٌ ثمّ ما أولئهم جهنّمٌ وبئس المهادٌ ﴿[آل عمران].  
والمتمائل لأحوال الزمان وتقلباته وما يحدث في الأرض من أحداث وتقلبات تستبين له الحقيقة:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتدمير قراها، وإهلاك أهلها، بسبب تكذيبهم وإعراضهم عن طاعة ربهم.

قال ابن كثير ﷻ: «وأحسن ما فُسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنْ

(١) انظر: أضواء البيان: ٤/٥٨٠.

أَلْقُرْآنَ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ [الأحقاف: ٢٧] والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة؟<sup>(١)</sup>.

وقد مرَّ معنا في أول السورة قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَفَهُمْ الْغٰلِبُونَ؟﴾ وهم أضعف حالاً وأقل عدداً من الأمم التي أهلكتها سبحانه قبلهم؛ فهم إذن مغلوبون لا غالبون.

وكأنني أرى في الآية الكريمة إشارةً إلى كروية الأرض، فأى مكانٍ من سطحها المكوَّر يعد طرفاً من أطرافها. والله تعالى أعلم.

#### • الإنذار بالقرآن العظيم:

ثم أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ مرةً ثانيةً أن يقول للمشركين:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ وهو القرآن العظيم، فمهمتي أن أنذركم به، وأحذركم من مخالفته، وليس من مهمتي أن آتيكم بما تقترحون من معجزات، وبهذا الإنذار أقيم حجةً الله عليكم، وأقطع أعداركم، ومهما تغافلتم عنه، وتصامتم عن سماعه، فقد قامت به الحجة عليكم.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي: مهما بالغت في إنذاركم فالقوم سادرون في غيهم وضلالهم، لا يسمعون الإنذار، ولا ينتفعون به، مما يدل على شدة غفلتهم، فلا يتنبهون من غفلتهم إلا عندما ينزل العذاب بهم.

#### • نفضة عذاب:

﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي: إن أصابهم شيء يسير قليل من

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٠٩/٢.

عذاب الله تعالى الذي توعدّهم به .

فالنَّفْحَةُ تدل على القلة، لأنها تفيّد معنى المرة الواحدة، وأصل النّفح هبوبُ رائحةِ الشيء، وكلمة (المس) تدل على القلة أيضاً .

قال القرطبي رحمه الله: «النّفحة في اللغة: الدفعةُ اليسيرةُ، والمعنى: ولئن مسهم أقل شيء من العذاب»<sup>(١)</sup> .

﴿يَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: عندئذٍ ينتبهون من سكرتهم وغفلتهم، ويدعون على أنفسهم بالهلاك، معترفين بأنهم كانوا ظالمين، تماماً كما اعترف أهل القرى الظالمة التي قصمها الله تعالى قبلهم، كما مرّ معنا في أول السورة (الآية: ١١) .

نفحة عذاب واحدة تجعلهم هكذا، فكيف يكون حالهم إذا أصابهم العذاب كله بعد أن يحاسبهم الله تعالى يوم القيامة على جميع ما صدر منهم من أقوال وأفعال بموازن عدله الدقيقة؟! ..

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾<sup>(٤٧)</sup> .

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أي: ذوات العدل، ووضعها: إحضارها .

﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لأجل محاسبتهم يوم القيامة .

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ مهما كان قليلاً يسيراً .

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ حتى ولو كان مقداره مقدار حبة خردل، فحبة الخردل مثل للصّغر .

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: أحضرناها للحساب والسؤال، فلا ينقص من إحسان

(١) تفسير القرطبي: ١١/٢٩٣ .

محسن، ولا يزداد في إساءة مسيء، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة].

وقوله ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَوَالِبِ إِلَهُ أَحَدٌ﴾ أيضاً: ﴿يَبْتِئُ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، فاللطيف الخبير هو الحكم العدل جلّ وعلا.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ فلا مزيد على علمه سبحانه وعدله.

### • التوراة والقرآن:

ولمّا وصلت الآيات إلى هذا المستوى من الوعيد والتهديد للمشركين المستهزئين بخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، عادت للحديث عن حملة كلمة التوحيد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فذكرت النبيين الكريمين موسى وهارون، واقتصرت على التوراة وصفاتها التي تجمعها بالقرآن الكريم إبرازاً لوحدة الرسالتين فيهما:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: آتيناهما التوراة الكتاب الفارق بين الحق والباطل.

وتلتقي التوراة مع القرآن الكريم بهذه الصفة؛ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال أيضاً: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال أيضاً: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران] وهو القرآن.

﴿وَضِيَاءً﴾ أي: ونوراً يُستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة.

وكذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ



تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: ٥٢﴾.

﴿وَذِكْرًا لِلْمُنْتَفِعِينَ﴾ أي: موعظة للمتقين، أو شرفاً وِعزاً للمتقين، والقرآن الكريم كذلك أيضاً، وقد مر معنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: الذين يخافون من الله سبحانه ولم يروه، أو يخافون من الله تعالى في الخلوات بعيدين عن الناس.  
﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون من يوم القيامة.

ولا يخفى ما في الآيات من تعريض بالمشركين المعرضين عن القرآن الكريم، والمستعجلين ليوم القيامة، ولهذا انتقلت الآيات بعد ذلك من التعريض إلى التصريح تواجهم بالحقيقة:

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿وهذا﴾ أي: القرآن الكريم.

﴿ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ كثير الخير، غزير النفع.

﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ جاحدون لبركاته، وغافلون عن آياته.

فالقرآن الكريم لا يُجْحَدُ ولا ينكر، لظهور إعجازه، وقوة دلائله، لا يجحده إلا المعاندون المكابرون، الذين انطمست بصائرهم، وتجمدت أحاسيسهم ومشاعرهم.

• إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام:

ثم وقفت الآيات طويلاً عند إبراهيم عليه السلام، لأنَّ لدعوة التوحيد صلة كبيرة به عليه السلام، فجزورها متصلة به، ومنتهى إليه، فهو من أعظم المنادين بها في التاريخ

البشري القديم، ولهذا ارتبطت به دعوة التوحيد حتى غدا ﷺ عَلِمًا عَلَيْهَا، وإماماً بين الناس لها:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ألهمه الله تعالى دلائل التوحيد منذ نعومة أظفاره.

وكان ﷺ أهلاً لذلك، فما اصطفاه الله لهذه الدعوة، وبين له حججها وأدلتها منذ صغره إلا بعلمه وحكمته، ولهذا قال:

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام، مفردها تماثيل، وهو اسم للشيء المصنوع على صورة مخصوصة كصورة إنسان أو غيره.

﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي: مقيمون على عبادتها باستمرار.

وسؤاله ﷺ لأبيه وقومه سؤال إنكار، أنكر عليهم فيه عبادتهم للأصنام، وكثرة ملازمتهم لها، وأشار إليها محقراً لها، ومهوّناً من شأنها.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

فلا حجة لهم في عبادتها سوى تقليد آبائهم وأجدادهم! وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويمه الأشياء بقيمتها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداصات الوهمية التقليدية، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل<sup>(١)</sup>.

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٨٥.

وفي مقابل تحجرهم وتقليدهم حَكَمَ ﷺ عليهم وعلى آبائهم بالضلال وواجههم بحكمه عليهم بشجاعة وصراحة:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّرًا وَإِذَا بَأُؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

أي: بيّن واضح ظاهر، فالحق لا يصيرُ باطلاً بكثرة المعرضين عنه، والباطل لا يصيرُ حقاً بتوالي الأجيال عليه. وفوجئ القوم بجرأة إبراهيم ﷺ وشجاعته وصراحته، فما كانوا يتوقعون مثل هذه المواجهة الجريئة من أحد، فسألوه مستوضحين:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: الجد.  
﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أي: المازحين الهازلين.  
والمعنى: أبجدٍ تقول ما تقول، أم تقوله لاعباً مازحاً؟  
ولم يجد ﷺ حاجة إلى الجواب عن استفسارهم، بل بادر إلى تعريفهم بالإله الحقيقي الذي يجبُ عليهم أن يعبدوه، فمن خلال كلامه سيعرفون مدى جده وعزمه وحزمه:

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ فخالق السماوات والأرض من العدم هو ربكم شئتم أم أبيتم.  
﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الذين يشهدون أن ربكم هو رب السماوات والأرض، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﷻ.  
وهم الذين ذكروهم سبحانه بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وكلمات إبراهيم عليه السلام تدل على ثقته الكبيرة العظيمة بكلمة التوحيد التي يدعو إليها، إنه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه، مع أنه عليه السلام لم يشهد خلق السماوات والأرض... ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد يشهد المؤمنون عليه شهادة قائمة على العلم والمعرفة، فكل ما في الكون ينطق بوحدة الخالق المدبر<sup>(١)</sup> كما مر معنا عند الحديث عن أدلة التوحيد.

### • تحطيم الأصنام:

ثم أقسم عليه السلام على أنه سيدبر مكيدة لأصنامهم، يبين لهم فيها عجزها وضعفها، وأنها لا تستحق أن تكون مؤلَّهة معبودة:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي: والله لأبذلنَّ جهدي في كيد أصنامكم.

والتاء من حروف القسم، ولا تستعمل إلا مع اسم (الله) الجليل.

﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ أي: بعد أن تذهبوا بعيداً عنها، وما كانوا يتركونها إلا

في عيد لهم، يجتمعون فيه بعيداً عنها.

ويبدو أن قومه لم يحملوا تهديده على محمل الجد، إذ ما كانوا يتصورون

أحداً يتجرأ على أصنامهم.

ولما جاء يوم عيدهم خرجوا، وتخلف إبراهيم عليه السلام عن الخروج، واحتجَّ

أنه سقيم، كما أخبر سبحانه عن ذلك في قوله: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي التُّجُومِ﴾ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي

سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنُؤَلِّقُ عَنْهُ مُدْرِينَ﴾ [الصفات].

قال ابن كثير: «إنما قال إبراهيم عليه السلام لقومه ذلك، ليقيمَ في البلد إذا ذهبوا

إلى عيدهم، فإنه قد أذف خروجهم إلى عيدهم، فأحبَّ أن يختليَ بالهتهم

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٨٦.

ليكسرَها، فقال لهم كلاماً هو حقٌّ في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه»<sup>(١)</sup>.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٨).

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: جعل الأصنام قطعاً مكسرة محطمة.  
 ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أي: إلا أكبر الأصنام استبقاه، ووضع الفأس بجانبه.  
 ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلهم يرجعون إلى هذا الصنم، فيسألونه عن كاسرها، فيتبين لهم عجزه، وتقوم بذلك الحجة عليهم.  
 وعندما رجعوا إلى أصنامهم ووجدوها محطمة مكسرة:

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠).

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا﴾ أي: قال الذين سمعوا إبراهيم يتوعد الأصنام:  
 ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ﴾ أي: يعيهم.  
 ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ذكروه بصيغة التجهيل، تليلاً لشأنه ﷺ.

#### • المحاكمة:

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (٦١).

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ﴾ أي: أحضروه ليحاكم أمام الناس.  
 ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ العقوبة التي سيحكم عليه بها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١٨٥.

فما فعله إبراهيم عليه السلام عدواناً في نظرهم على مقدّسات الأمة، ومن حقّ كلّ فردٍ منها أن يشهد محاكمته وعقوبته.

وبدأت المحاكمة، وشرع القضاء يستجوبون إبراهيم عليه السلام:

﴿قَالُوا ءَأَتَّ فَعَلْتَ هَذَا يَا هَيْهَاتَا يَا بَرَّهَيْمُ﴾ (٦٢).

فهي لا تزال بنظرهم آلهة، مع أنها أصبحت جُذاذاً وحُطاماً.

وأجاب إبراهيم عليه السلام على سؤالهم جواب المستهزئ الساخر منهم:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبْرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٦٣).

وأراد عليه السلام بهذا استدراجهم إلى الإقرار بالظلم بعبادتهم لهذه الأصنام.

ونجح عليه السلام بأسلوبه الساخر المتهكّم أن يجعل القضاة يقرون على أنفسهم

بالظلم، وأنهم أحقُّ أن يكونوا في قفص الاتهام بدل إبراهيم عليه السلام، إذ لامست كلماته مواضع الوجدان في أعماق نفوسهم:

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤).

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض:

﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ عبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

وجاء إقرارهم بصيغة مؤكدة مُصدّرةً بـ ﴿إِنَّ﴾ ووضعوا ضمير الفصل

﴿أَنْتُمْ﴾ ليزيدوا في تأكيدهم.

ولم تدم صحوتهم هذه سوى فترة وجيزة، فسرعان ما رجعوا إلى ظلمهم

وعنادهم حرصاً على رتبتهن ومراتبهن وشهواتهن.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «كانت بادرة خيرٍ أن يستشعروا ما في

موقفهم من سُخْفٍ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظُلمٍ، وأن تفتح بصيرتُهم

لأول مرة، فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلم الذي

هم فيه سادرون، ولكنها لم تكن إلا ومضةً واحدةً أعقبها الظلام، وإلا خفقت واحدةً عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود»<sup>(١)</sup>.

﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه من ظلم. وأصل النكس: قلب الشيء بحيث يصيرُ أعلاه أسفله، وذكر الرأس للتصوير والتفويض<sup>(٢)</sup>.

شبهه عودتهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه، وقُرئ: (نَكَّسُوا) بالتشديد، و(نَكَّسُوا) أي: نكسوا أنفسهم<sup>(٣)</sup>. وقالوا لإبراهيم عليه السلام:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ وبهذا أقر القضاة بعجز أصنامهم، واتصافها بالنقص، مما يتنافى مع تأليهها وعبادتها، وهو ما كان إبراهيم عليه السلام يسعى إليه. ولعلها أوّل مرة في التاريخ يقوم المتهم باستجواب قضاة، ويأخذ منهم اعترافاً بظلمهم، وإقرارهم بخطئهم، مما يؤهله لإصدار الحكم عليهم. أصبح إبراهيم عليه السلام هو القاضي والحاكم وهو في قفص الاتهام، وأصبح القضاة هم المتهمين المعترفين بالجريمة، وهم وراء منصة الحكم!. وأصدر عليه السلام حكمه منكراً وموبخاً:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: كيف تعبدون شيئاً عاجزاً ضعيفاً لا يملك لكم نفعاً ولا ضرراً؟!.

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٨٧.

(٢) روح المعاني: ١١/٦٦.

(٣) تفسير البضاوي: ٤/٢٥٧.

ثم أعلن تضجره من عنادهم وإصرارهم على الباطل، وتمسكهم بالظلم، بسبب عبادتهم غير الله تعالى، فقال:

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧).

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أتضجروا منكم ومن عبادتكم غير الله تعالى، وبهذا حقرهم، وحقر معبوداتهم.

وكلمة ﴿أَفِ﴾ تدل على صوت المتضجر يعلن بها تضجره وسأمته. وهي الكلمة التي نهى الله تعالى الولد أن يواجه بها أحد والديه، لأنها تدل على سوء أدبه معهما، فقال: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أَفِي وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح ما أنتم عليه من تأليه هذه الأحجار وعبادتها، أين عقولكم التي ميزكم الله تعالى بها على كثير من خلقه؟!.

#### • الحكم والتنفيذ:

عند ذلك أخذت القضاة الظلمة عزة الإثم، كما تأخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة، ويعوزهم الدليل، فيلجؤون إلى القوة الغاشمة<sup>(١)</sup>؛ يلجؤون إلى القمع والبطش والإرهاب:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨).

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ بالنار، ووجهوا كلامهم إلى الجموع المحتشدة ليصرفوهم عن التفكير في كلمات إبراهيم عليه السلام، خشية أن تلامس موضع الفطرة في أعماق نفوسهم.

ثم أثاروا غضب الجماهير على إبراهيم، فذكروهم بأصنامهم المحطمة:

﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فأمر إبراهيم وعقابه موكول إليكم.

وبهذا نجحوا في إلهاء الجماهير الغاضبة عن رؤية الحقيقة، وشغلوهم بالانتقام من إبراهيم.

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٨٧.



وتدافعت الجماهيرُ النائرة الغاضبة إلى الانتقام، فجمعوا أكواماً كبيرة من الحطب، وأججوا ناراً هائلة، وبنوا في مكان مرتفع مشرف على النار بناءً، جعلوا في أعلاه منجنيقاً، ووضعوا إبراهيم فيه لإلقائه في النار بواسطته، كما أخبر سبحانه في سورة الصافات: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٩٧).

### • حسبي الله ونعم الوكيل:

ولم يتزعزع ﷺ ولم يهتز، بل بقي رابط الجأش، ثابت القلب، ولم تؤثر فيه ألسنة النيران المتصاعدة في جو السماء، ولا صرخات الرعاع والعوام من حوله، كان ﷺ يرددُّ بقلبه ولسانه: حسبي الله ونعم الوكيل.

ففي «صحيح البخاري» [٤٥٦٣]: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وأُلقي ﷺ في النار وهو يرددُّ هذه الكلمة، وجاءه الفرج من الله تعالى مباشرة، قال ابن كثير: «وذكر بعضُ السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، وأمّا من الله فلي، ويروى عن ابن عباس قال: لما أُلقي إبراهيم جعل خازنُ المطر يقول: متى أُومرُ بالمطر فأرسله، قال: فكان أمرُ الله أسرعَ من أمره» (١).

وليس غريباً أن تسعى ملائكة السماء لنصرة إبراهيم عليه السلام، فقد سعت دوابُّ الأرض لمساعدته، ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ إبراهيمَ حين أُلقي في النار، لم تكن دابةٌ إلا تطفئُ عنه النار، غيرَ الوزغ كان ينفخُ على إبراهيم» فأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقتله. [رواه أحمد (٨٣/٦) والنسائي (١٨٩/٥) وابن ماجه (٣٢٣١)].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥١٤/٢.

• نجاة إبراهيم عليه السلام من النار:

وأمر الله جلَّ وعلا النَّارَ بأمره الكوني القدري أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم:

﴿قُلْنَا يَنَّاؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلٰى اِبْرٰهِيْمَ ﴿٦٩﴾﴾ .

أي: كوني ذات بردٍ وسلام، أي: ابردي برداً غير ضار، ولذا قال علي كرم الله تعالى وجهه فيما أخرجه عنه أحمد وغيره: لو لم يقل: ﴿وَسَلَامًا﴾ لقتله بردها<sup>(١)</sup>. فالنار من خلق الله تعالى، مسخرةً لقدرته، منقادةٌ لأمره ومشئته، وإرادته جلَّ وعلا تامَّة، نافذةٌ في جميع المخلوقات.

وانقادت النار لأمره جلَّ وعلا ومشئته، فلم تحرق إبراهيم عليه السلام، مع أنها بقيت على ما كانت عليه ناراً، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ونجا إبراهيم عليه السلام من النار، وردَّ الله عنه كيد الكائدين، ومكر الماكرين:

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِصِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ .

أي: أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق قولاً وفعلاً، برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق، وهم على الباطل، موجباً لارتفاع درجته عليه السلام، واستحقاقهم لأشد العذاب<sup>(٢)</sup>.

• الهجرة إلى الأرض المباركة:

﴿وَجَعَلْنَاهُ وِلْدَانًا وَعِلْمًا وَوَلَدًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ .

﴿وَجَعَلْنَاهُ وِلْدَانًا وَعِلْمًا وَوَلَدًا﴾ وهو الإنسان الوحيد الذي آمن برسالة إبراهيم؛ كان من أبناء عمومته، وقيل: ابن أخيه.

(١) روح المعاني: ٦٨/١١.

(٢) المرجع السابق: ٧٠/١١.

وكانت نجاة إبراهيم ولوط عليهما السلام تطبيقاً عملياً للمبدأ الذي قرره سبحانه في أول السورة في قوله الكريم: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأُجْبِنْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض بلاد الشام.

هجر إبراهيم عليه السلام قومه ووطنه بعد أن رأى إصرارهم على شركهم وكفرهم، وكانوا في العراق، ولم تتعرض الآيات لبيان مصيرهم، واقتصرت على الحديث على الأنبياء عليهم السلام، ولا بد من أن سنته تعالى في إهلاك المكذبين المعاندين بعد رؤيتهم للمعجزات، قد شملتهم، وهي التي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦] كما مر معنا.

وخرج عليه السلام مهاجراً إلى الله تعالى، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصفات: ٩٩].

وقوله عليه السلام أيضاً: ﴿فَنَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وكان عليه السلام أول مهاجر في سبيل الله تعالى مع لوط عليهما السلام، كما كان عثمان رضي الله عنه أول مهاجر في سبيل الله تعالى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجته السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعد أن خرج عثمان مع زوجته مهاجراً إلى الحبشة: «إِنَّ عُثْمَانَ أَوْلُ مَنْ هَاجَرَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ لُوطٍ» [أخرجه البيهقي والطبراني].

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامة دينه واجب، وهذا النوع من الهجرة وجوبه باقٍ بلا خلاف بين العلماء في ذلك<sup>(١)</sup>.

#### • فضل بلاد الشام:

والأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، هي أرض بلاد الشام، بين

(١) أضواء البيان: ٤/٥٩١.

ذلك سبحانه في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله أيضاً في الآية التي ستأتي معنا: ﴿وَلَسَلِمْنَ الْرَيْحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وصفها سبحانه بالبركة العامة لأن أكثر الأنبياء ﷺ بُعثوا فيها، وانتشرت في العالم شرائعهم منها، وهي أسباب لكل خير ديني ودنيوي، وقيل: المراد بالبركات النعم الدنيوية من الخصب وغيره، والأول أظهر وأنسب بحال الأنبياء ﷺ<sup>(١)</sup>.

وفي السنة النبوية عدد من الأحاديث الشريفة في فضل بلاد الشام، حتى عقد الإمام المنذري رحمته الله في كتابه: «الترغيب والترهيب» فصلاً خاصاً، جعل عنوانه: «الترغيب في سكنى الشام وما جاء في فضلها» ذكر فيه ثمانية عشر حديثاً، منها:

عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيَصِيرُ الْأَمْرُ أَنْ تَكُونُوا أَجْنَاداً مَجْنَدَةً، جَنْدٌ بِالشَّامِ، وَجَنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجَنْدٌ بِالْعِرَاقِ» قال ابن حوالة: خِرْلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَدْرَكَتُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خَيْرَةٌ لِلَّهِ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خَيْرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِبِمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ عُذْرِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ - وَفِي رِوَايَةٍ: تَكْفَلُ - لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ» [رواه أبو داود (٢٤٨٣) وابن حبان (٧٣٠٦) والحاكم (٥١٠/٤)]. وقوله «عُذْرِكُمْ»: جمع غدِير.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوماً ونحن عنده: «طوبى للشَّامِ، إِنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بِاسْطِطَّةٍ أَجْنَحَتْهَا عَلَيْهِ» [رواه الترمذي (٣٩٥٤) وصححه ابن حبان (٧٣٠٤) والطبراني بإسناد صحيح].

وفلسطين هي أفضل أرض في بلاد الشام، لأنَّ فيها أولى القبلتين: المسجد الأقصى، ومسرى رسول الله ﷺ، وهي الأرض المقدسة التي ذكرها

(١) انظر: روح المعاني: ٧٠/١١.

سبحانه في قوله الكريم على لسان نبيه موسى ﷺ: ﴿يَقْوِمُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

وعندما جاء ملك الموت إلى موسى ﷺ سأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة رميةً بحجر، قال رسول الله ﷺ: «فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» [رواه البخاري (١٣٣٩)] وهي أرض فلسطين.

• إسحاق ويعقوب ﷺ :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٦).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: وهبنا لإبراهيم إسحاق وولد ولده يعقوب، زيادةً على ما سأل، وكان قد سأل الله تعالى أن يرزقه الولد، فوهب له سبحانه إسماعيل من هاجر، وهو الذبيح.

وقد قصَّ الله تعالى قصته في سورة الصافات بقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَتَّبِعُكَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٧﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّمَهُ الْغَاجِلِينَ ﴿١٠٣﴾ وَتَذَرْنَاهُ أَنْ يَتَّزِهُمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَٰى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾.

وعاش نبيُّ الله إبراهيم ﷺ حتى قرَّت عينه برؤية ولد ولده يعقوب ﷺ.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: جعلنا المذكورين جميعاً؛ وهم: إبراهيم،

ولوط، وإسحاق، ويعقوب، أهل خير وصلاح.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٧٣).

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾ يُقتدى بهم في الخير والصلاح.

﴿بِهَدُوتٍ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى عبادة الله الواحد الأحد بإذنه، فهم أنبياء مرسلون.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أي: أمرناهم بواسطة الوحي بفعل الخيرات ليكونوا القدوة الصالحة علماً وعملاً.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وأمرناهم أيضاً بأداء الصلاة على الوجه المستقيم، وإعطاء الزكاة للمستحقين.

وعطف الصلاة والزكاة على فعل الخيرات من قبيل عطف الخاص على العام، تنويهاً بشرف هاتين العبادتين، فهما رأسُ أفعال البر والخير.

﴿وَكَاذِبًا كَانُوا﴾ أي: كانوا مطيعين وخاضعين لله تعالى وحده.

وهي شهادة عالية رفيعة من الله تعالى، تدلُّ على براءتهم ﷺ من جميع افتراءات المفترين، وسهام المغرضين، المذكورة في الكتب التي يتداولها أهل الكتاب، والتي حاولوا بها تشويه سمعتهم عليهم الصلاة والسلام.

#### ● لوط ﷺ :

﴿وَلُوطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا فُؤُورًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ﴾ (٧٤)

﴿وَلُوطًا﴾ الذي آمن بدعوة إبراهيم - كما مرَّ معنا - وهاجر معه، اختاره الله تعالى واصطفاه للنبوَّة.

﴿ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ يحكم به على الأمة التي أرسل إليها.

﴿وَعِلْمًا﴾ بالوحي الذي أنزله الله سبحانه عليه.

﴿وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ﴾ وهي قرية (سدوم) وما حولها، وكان أهلها يعملون الأعمال المنكرة الخبيثة، ومن هذه الأعمال الخبيثة: الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾

أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿[الأعراف].

نَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا مَعَ مَنْ آمَنَ بِدَعْوَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ ﴿[العنكبوت].

وبسبب خبث قوم لوط وفجورهم وصفهم سبحانه بقوله:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوْءًا﴾ في كفرهم وفجورهم.

﴿فَاسْفِين﴾ أي: خارجين عن طاعة ربهم، وعن سنن الفطرة التي فطر الناس عليها بميل الرجال نحو النساء، لا ميل الرجال نحو الرجال.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ الخاصة التي جعلها سبحانه للمؤمنين الصالحين يوم القيامة.

﴿إِنَّهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ في عقيدته وعبادته وسلوكه وخلقه. وكأنه سبحانه بهذه الشهادة الكريمة أراد أن يظهر براءة نبي كريم من أنبيائه من تخرصات أهل الكتاب وافتراءاتهم عليه، وخاصة أحبار اليهود فيما دسوه في كتبهم.

• نوح ﷺ:

ثم استأنفت الآيات مسيرتها التاريخية مع بعض الأنبياء من حملة كلمة التوحيد، بعد أن توقفت عند نبي الله إبراهيم، ومن يتصل به من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، فمرت على أقدم الأنبياء المذكورين تاريخاً، وأطولهم عمراً، على نبي الله نوح ﷺ، الذي ظل يدعو قومه إلى كلمة التوحيد وعبادة الله تعالى وحده ألف سنة إلا خمسين عاماً، دون كلل ولا ملل، وهو في أثناء

ذلك يتحمل جفوتهم وخشونتهم ووقاحتهم وسوء أدبهم، ولما ازداد عناؤه وبلاؤه منهم توجه إلى الله تعالى ضارعاً مستنصراً:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: اذكر نبيَّ الله نوحاً عندما دعا الله تعالى من قبل إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿٩٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿٩٢﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَىٰ الْمَاءُ عَلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ فَكَدَّرَ ﴿٩٣﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ﴿٩٤﴾ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: نجيناه مع أهله المؤمنين من الغم الشديد الذي أصابه من عناد قومه وأذاهم.

والكرب: أقصى الغم، وهذا يدل أنه ﷺ بلغ الغاية في الشدة والمحنة، كما يدل على عبوديته لله تعالى، وافتقاره إلى معونته ونصره جلّ وعلا:

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: منعهنا وحميناه منهم بإهلاكهم وإغراقهم، أو نصرناه عليهم<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أي: غلب الشر والفساد عليهم، ولهذا أهلكهم الله تعالى، وهي سنته في الأمم الكافرة والمجتمعات الفاجرة.

﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

● داود وسليمان ﷺ:

ثم ذكرت الآيات نبيّين كريمين من أنبياء بني إسرائيل، هما: داود وسليمان

(١) انظر: روح المعاني: ١١/٧٣.



ﷺ؛ جمع الله لهما النبوة والملك، وكانت أيامهم أنصرَ الفترات التي عرفها تاريخ بني إسرائيل وأزهاها، ومع ذلك ما سلّمنا من أكاذيب وافتراءات أحبارهم ورهبانهم. أبرزت الآيات عنايته تعالى بهما، وأظهرت في الوقت نفسه شدة عبوديتهما له جلّ وعلا، وافتقارهما إلى رحمته ومعونته، مع ما كانا فيه من سعة الملك، وقوة السلطان والحكم، فهما مفتقران إلى الله تعالى في كل قضية تعرض لهما، ومثلت الآيات لهذا بقضية رُفعت إليهما في أثناء حكمهما:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨)

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي: اذكر داود وسليمان.

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي: عندما رفعت إليهما قضية حكومة في زرع.

﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: رعته غنم قوم في الليل، وكانت بغير راع.

فالنفس: رعي الماشية في الليل بغير راع، كما أنّ الهمل: رعيها في النهار كذلك، وأصل النفس: الانتشار والتفرق، أي: تفرقت وانتشرت<sup>(١)</sup>.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي: وكنا مراقبين لحكمهم، لا نقرهم على خلل

فيه، وهذا على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] في إفادة العناية والحفظ<sup>(٢)</sup>.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩)

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: علمناه وألهمناه حكم القضية، وهذا من فضله

تعالى على عبده ونبيه سليمان ﷺ، وهذه الخصوصية التي خصّه الله سبحانه بها

(١) روح المعاني: ٧٤/١١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

لا تدل على أنه أفضل من أبيه داود عليه السلام، فالخصوصية لا تقتضي الأفضلية، ولهذا قال تعالى بيّن فضله عليهما:

﴿وَكَلَّا﴾ يعني: داود وسليمان.

﴿أَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: أعطيناه علماً بوجوه الاجتهاد وطرق استنباط الأحكام.

ودلت الآية على أن المجتهد إذا أخطأ لا يؤاخذ، قال الحسن البصري رحمته الله: لولا هذه الآية: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ فحمد سليمان، ولم يلم داود، ولولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده<sup>(١)</sup>.

وهذا يدل أيضاً على جواز الاجتهاد للأنبياء، ليقتهي بهم العلماء في الحوادث التي لا نصّ فيها في الكتاب والسنة.

قال ابن حجر رحمته الله: «واستدل بهذه القصة على أن للنبي أن يجتهد في الأحكام، ولا ينتظر نزول الوحي، لأن داود عليه السلام على ما ورد اجتهد في المسألة المذكورة قطعاً، لأنه لو كان قضى فيها بالوحي، ما خصّ الله سليمان بفهمها دونه، وقد اختلف من أجاز للنبي أن يجتهد، هل يجوزُ عليه الخطأ في اجتهاده؟ فاستدل من أجاز ذلك بهذه القصة، وقد اتفق الفريقان على أنه لو أخطأ في اجتهاده لم يقر على الخطأ»<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث الشريف: عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» [رواه مسلم (١٧١٦)].

هكذا لفظ الحديث في «صحيح مسلم»: «إذا حكم الحاكم فاجتهد» فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد، والأمر بالعكس، فإن الاجتهاد مقدّم على الحكم، فلا

(١) فتح الباري: ١٣/١٤٦.

(٢) المرجع السابق: ١٣/١٤٧.

يجوز الحكمُ قبل الاجتهاد بالإجماع، وإنما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ...﴾ [النحل: ٩٨] إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسنن والقياس وقضاء مَنْ مضى، لأنَّ اجتهاده عبادةٌ، ولا يُؤجَرُ على الخطأ، بل يوضعُ عنه الإثم فقط... قال ابن المنذر: إنما يُؤجر على اجتهاده في طلب الصواب، لا على الخطأ، مما يؤيده قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾<sup>(١)</sup>.

ومهما قيل في الآية الكريمة، فإنها تدل على بشرية الرسل، وحاجتهم إلى معونة الله تعالى وهدايته ورحمته، وأنه سبحانه لا يتخلَّى عنهم أبداً، ولا يقرهم على ما يمكن أن يصدر عنهم بحكم بشريتهم، عليهم الصلاة والسلام.

#### • تسبيح الجبال والطيور:

وتابعت الآياتُ تبين فضلَه سبحانه على داود وسليمان، وبعض ما تفضَّل به عليهما من الخصائص والنعم، وبدأت بـداود عليه السلام، لأنه الوالد: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ أي: وسخرنا الجبال والطيور يُسبِّحَن مع داود، وكان عليه السلام جميل الصوت، فإذا ما سبَّح الله تعالى ومجَّده، رددت الجبالُ والطيور معه تسبيحه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُوبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّالُ لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ].

ولما سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ القرآن، وكان جميل الصوت، قال له: «يا أبا موسى لقد أُوتيتُ مزاراً من مزامير آل داود» [رواه البخاري (٥٠٤٨)].

والمراد بالمزمارة: الصوتُ الحَسَنُ، وأصله الآلةُ، أطلق اسمه على الصوت للمشابهة. وقوله: «آل داود» يريدُ داود نفسه، لأنَّه لم ينقل أن أحداً من أولاد داود ولا من أقاربه كان أعطي من حُسْنِ الصوت ما أعطي<sup>(٢)</sup>.

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ للأنبياء مثل هذه الأعمال الخارقة لعادات الناس.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣١٠/١١.

(٢) انظر: فتح الباري: ٩٣/٩.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨١).

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ أي: علمناه صنعة الدروع التي تلبسونها.  
 ﴿لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتحميكم في أثناء حرب عدوكم، فلا يصل سلاحه إلى أجسادكم، وقد جاء في سورة سبأ أنه تعالى ألان له الحديد، فكان الحديد طوع يديه، يجعله خيوطاً، ينسجها بعد ذلك دروعاً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (١١) **﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفِدْرًا فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** (١١).  
 ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي: فاشكروا الله على هذه النعم.

#### • تسخير الريح والجن لسليمان ﷺ:

أما سليمان فقد مكّن الله تعالى له في الأرض تمكيناً كبيراً، وسخر له كثيراً من مصادر القوة المادية فيها؛ منها الريح، قال تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١).

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض بلاد الشام.  
 ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ فما أعطيناه وأنعمنا عليه إلا عن علم وحكمة.  
 والملاحظ أنه سبحانه وصف الريح هنا بأنها ريح عاصفة، بينما وصفها في سورة ص بأنها تجري رخاءً، فقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦).  
 فهل كان تسخير الريح لسليمان أنها تتحول بأمره من ريح عاصفة مدمرة إلى ريح رخيّة طيبة، تبشّرُ بقدوم الخيرات، ونزول البركات، وتدفع السفن الجارية في أعماق البحار، وهذا من أعظم فوائد الرياح الرخيّة، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيُجَرِّبَ أَلْفَاكَكُمْ بِأَمْرِهِ وَلِيُنَبِّئَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]؟ (١).

(١) انظر: تفسير سورة النمل، وأطلق عليه هنا في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ ﴿٨٢﴾

﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ﴾ أي: وسخرنا له من الشياطين من يغوصون له في أعماق البحار، ليستخرجوا له ما فيها من اللآلئ والدرر.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: وسخرهم سبحانه لسليمان ليعملوا له ما ذكر من بناء القصور، وتشيد القلاع والحصون، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نُدْغُهٗ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْدَرٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ﴾ [سبأ].

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أي: مراقبين، فلا يزيغ أحد عن أمر سليمان، أو يتوانى في عمله.

● أَيُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

الابتلاء، كما مر معنا، يكون بالخير والشر، وقد عرضت لنا الآيات الكريمة كيف ابتلى الله تعالى داود وسليمان بالخير، فشكرا الله تعالى على ما أعطاهما من القوة والسلطان والتمكين في الأرض، واستعملا النعمة في طاعته تعالى والتقرب إليه، وهاهي الآيات تعرض لنا نبياً كريماً ابتلاه سبحانه بالشر، فصبر على ابتلاء الله تعالى، ورضي بما قدر عليه وقضى، فلم يسخط، ولم يعترض، ولجأ إليه سبحانه يسأله المعونة والثبات، ويشكو إليه ما أصابه من ضر في أهله وماله وبدنه:

﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٨٢﴾

أي: واذكر أيوب عندما دعا الله تعالى واصفاً نفسه بالعجز والضعف والافتقار، مثنياً على ربه بغاية الفضل والإحسان، فكأنه قال: أنت يا ربي أهلُّ أن ترحم، وأيُّوبُ أهلُّ أن يرحم، فارحمه واكشف عنه الضر الذي أصابه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ، وَعَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا  
وَذِكْرَى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ .

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبنا دعاءه .

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ﴾ في جسده، وذلك بأن يسّر الله تعالى له سبيلاً للشفاء، فأمره أن يضرب الأرض برجله، ففعل، فنبتت بإذن الله تعالى عين ماء بارد، اغتسل به وشرب منه، فزال بإذنه تعالى كل داء كان به، كما قال تعالى في سورة ص: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ .

ثم ردّ سبحانه على أيوب أهله، وبارك له فيهم:

﴿وَعَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذِكْرَى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: رد الله على أيوب أهله، وبارك له فيهم، رحمةً من الله لأيوب ﷺ، وتذكراً لغيره من العابدين، ليكونوا مثله في الصبر على البلاء، والرضا بما قدر الله وقضى .  
ثم أجملت الآيات ذكر بعض الأنبياء، واكتفت بوصفهم بصفتي الصبر والصلاح:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

أي: كلهم متصفون بصفة الصبر .

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ الخاصة بالمؤمنين .

﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح .

ولا شك أن هاتين الخصلتين: الصبر والصلاح، تجمعان للمتصف بهما كل الفضائل الطيبة والأخلاق الحسنة .

## • صاحب الحوت يونس ﷺ :

وتوقفت الآيات قليلاً عند نبي الله ذي النون، أي: صاحب الحوت، وهو يونس بن متى ﷺ، وكانت له قصةٌ عجيبةٌ، وخبرٌ مذهلٌ معجز، مع حوت من حيتان البحر:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْرِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْرِبًا﴾ أي: اذكر ذا النون عندما ترك قومه وهجرهم غضباً منهم، فقد أرسله الله تعالى إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فلم يستجيبوا له، فغضب منهم، وهجرهم قبل أن يأذن الله له بذلك.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه القصةُ مذكورة هاهنا وفي الصافات وفي سورة ن، وذلك أنَّ يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل نينوى، وهي قريةٌ في أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم... فركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفون منه، فوَقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها، فوَقعت عليه أيضاً، ثم أعادوها، فوَقعت عليه أيضاً، قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] فقام يونس عليه السلام، فألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت، وأوصى الله إليه ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، فإنَّ يونس ليس لك رزقاً، قال تعالى: ﴿فَالْتَمَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]»<sup>(١)</sup>.

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: ترك قومه وهو يظنُّ أن الله تعالى لن يؤاخذه ويضيق عليه بسبب تركهم.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥١٨/٢.

فمعنى (يَقْدِرُ) يَضِيقُ، كما في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٢٦).

وقوله أيضاً: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيِّجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقَدِرَ، وقَدِرَ، مثل: قَتَرَ وقَتِرَ، أي: ضَيَّقَ وضَيِّقَ. والقول بأنه من القدرة والاستطاعة، مردود مرغوب عنه، لأن المعنى يكون: فظن أن الله لا يقدر عليه، ومن ظن بالله هذا الظن يكفر، ولا يصدر مثل هذا عن نبي من الأنبياء أبداً. ويمكن أن يكون المعنى: فظن أن لن نقضي عليه بعقوبة، من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، وهذا يتفق مع قراءة: (نُقَدِّرُ).

وكان على يونس عليه السلام ألا يترك قومه ويهجرهم، حتى يأذن الله له بذلك، ولهذا فإن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لم يترك مكة مهاجراً إلى المدينة حتى أذن الله تعالى له بالهجرة، ومما أنزله سبحانه عليه وهو في مكة قوله الكريم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُتُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [ن: ٤٨].

والجدير بالذكر هنا: أن الله تعالى خَصَّ قوم يونس بخصوصية عظيمة، فبعد أن خرج يونس من بينهم مغاضباً، أرسل الله عليهم العذاب، ولما رأوا مقدماته تابوا وآمنوا، فقبل الله توبتهم، وكشف العذاب عنهم، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤَسُّ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآذَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ولعلَّ سبب هذه الخصوصية أنه سبحانه علم صدقهم في إيمانهم، وإخلاصهم في توبتهم، حتى إنهم لما رفع عنهم العذاب ثبتوا على إيمانهم، واستقاموا على التوبة، ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر<sup>(١)</sup>.

﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: نادى يونس عليه السلام ربه ودعاه بعد أن التقمه

(١) انظر: تفسير سورة يونس، وقد أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).



الحوت، وهو في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، جعلت الظلمة الشديدة المتكاثفة كأنها ظلمات، أو المراد: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل<sup>(١)</sup>. نادى بكلمة التوحيد، وهي:

﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا أنت.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: أنزهك تنزيهاً لا تقاً بكمالك وغناك ووحدايتك.

﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسه، عندما تركت قومي قبل أن تأذن لي.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِجْنَهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ ببركة تسيحه ومناجاته، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ

الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفات].

فسبحان الذي وسع سمعه كل شيء حتى سمع تسيح ذي النون وهو في بطن الحوت، ورضي الله عن السيدة عائشة أم المؤمنين التي قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تكلمه في جانب البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُ فِي زَوْجِهَا﴾ الآية [المجادلة: ١]» [ذكره البخاري تعليقاً (٣٧٢/١٣)، ووصله أحمد (٤٦/٦) والنسائي (١٦٨/٨) وابن ماجه (١٨٨)].

﴿وَجِجْنَهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ الذي كان فيه.

﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كذلك نخلص المؤمنين من غمهم وهمهم

إذا تابوا وأنابوا إلى الله تعالى، وتوجهوا إليه داعين مسبحين.

وفي الحديث الشريف: عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعاه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك

إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله

له» [رواه الترمذي (٣٥٠٥) والنسائي (١٠٤١٦) والحاكم (٥٨٤/٢)].

## • زكريا عليه السلام :

وكان نبيُّ الله زكريا عليه السلام آخر الأنبياء الذين ذكرتهم الآيات، وأبرزت عند ذكرها له نداءه ربه، وهو يدعو ويسأله :

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ .

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي : اذكر زكريا عندما دعا الله قائلاً :

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي : لا تتركني وحيداً بلا ولد يرثني .

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي : أنت خيرُ حيٍّ يبقى بعد ميت، وهو ثناء على الله بأنَّه الباقي بعد فناء الخلق، وأنَّه الوارث لهم، فكلهم يموتون إلا هو سبحانه، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

وقد فصل سبحانه دعاء زكريا في سورة مريم، فقال : ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُہُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ (١) .

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ دعاه .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ كما قال تعالى : ﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٧] .

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي : جعلناها صالحةً للولادة، وأزلنا أسباب العقم

(١) انظر: تفسير سورة مريم، الذي جاء في هذا التفسير الموضوعي تحت عنوان: (التوحيد والتنزيه في سورة مريم).

منها، فقد كانت عقيماً لا تلد، كما مرَّ معنا في الآيات السابقة الذكر، وقوله بعد ذلك أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

### • رجاء وخوف:

وبعد ذكر زكريا عليه السلام أثنى الله تعالى على جميع الأنبياء الذين سبق ذكرهم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يسرعون إلى فعل الطاعات والقربات التي تقرّبهم إلى الله تعالى، فالأنبياء عليهم السلام دعاةٌ خير وصلاح، فهم يعملون الخير، ويدعون الناس إليه، ولا يصلح أمرُ الناس إلا بالأنبياء، ومن يقتدي بهم من عباد الله الصالحين.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: يلجؤون إلى الله تعالى وحده، ويفزعون إليه في حال الرخاء وحال الشدة، وهذا يدل على كمال عبوديتهم لله تعالى، فهم مفتقرون إليه في جميع أحوالهم، فلا غنى لإنسان عن الله تعالى، فهو محتاج إليه مهما كان قوياً متمكناً، وعليه أن يذكره ويدعوه في حال الرخاء والقوة كما يلجأ إليه ويدعوه في حال الشدة، وهذا حال الأنبياء عليهم السلام، وهم الأسوة الطيبة لجميع الناس.

ومن وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لابن عباس رضي الله عنهما قوله: «تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦)].

وقد يكون المعنى: يدعوننا وقت تعبدهم، وهم بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف، لأنَّ الرغبة والرهبة تتلازمان<sup>(١)</sup>.

وهو أمر واجب على كل مؤمن، بأن يكون بين حال الخوف من الله تعالى، فلا يأمنُ عذابه، وبين حال الرجاء في رحمته تعالى، فلا يبئس من رحمته ومغفرته سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال أيضاً بعد ذلك: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ

(١) تفسير القرطبي: ٣٢٦/١١.

إِنَّ اللَّهَ يَعْفُرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٣﴾ [الزمر].

﴿وَكَاؤُنَا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ أي: متواضعين لجلال الله تعالى خائفين منه.

وهذا يدلُّ على أن حال التعظيم لله تعالى والخوف منه يغلب على قلوب الأنبياء ﷺ، لأنَّ الخشوع: هو الخوف اللازم للقلب، فيكون الخاشع هو الحذر، الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الوقوع في الإثم<sup>(١)</sup>.

وبهذا أتى الله تعالى على الأنبياء بأعلى ما يمدحُ به الإنسان، وهي صفةُ المسارعةِ إلى الخيرات، التي تدلُّ على حرصهم الكبير على طاعة الله تعالى، والوصول إلى رضوانه، دون عجبٍ أو غرورٍ، يصابُ به كثيرٌ من العباد، بل مع فزعٍ من الله تعالى ورغبة في رحمته، وقلوب خاشعة لجلاله.

#### • مريم وابنها عيسى ﷺ:

قدَّرَ ﷺ أن يكون جميع المرسلين رجالاً، لا نساءً، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]؛ إذ يترتب على حمل الرسالة تحمل أعباء ثقيلة، لا يستطيع النساء القيام بها.

أما النبوة فيمكن أن يكرم الله تعالى بها الكاملات من النساء كالسيدة مريم، عليها وعلى ولدها السلام، وقد يستأنس لهذا بأنه سبحانه ذكر السيدة مريم هنا في سورة الأنبياء في سياق من ذكر من الأنبياء ﷺ.

قال العلامة الألوسي رَحِمَهُ اللهُ: «واستدلَّ بذكر مريم ﷺ مع الأنبياء في هذه السورة على أنها كانت نبيَّة، إذ قرنت معهم بذكر، إلا أن يقال: إنما ذُكرت لأجل ولدها عيسى ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

وقد وصفها سبحانه بأنها صديقة، في قوله الكريم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) تفسير الخازن: ٤/٢٧٧.

(٢) روح المعاني: ١١/٨٩.

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِالطَّعَامِ أَنْظَرُ  
كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنَّ يُؤْفَكُونَ ﴿ [المائدة: ٧٥].  
وشهد لها سبحانه هنا بالعفة والطهر، فقال:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً  
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ .

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: اذكر مريم التي صانت نفسها، وحفظت عرضها،  
وأحصنت فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً، كما حكى سبحانه من  
قولها: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] (١).  
﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا﴾ أي: أجرينا فيها روح المسيح، أو أمرنا  
جبريل فنفخ في جيب درعها، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها، وإضافة  
الروح إليه تعالى لتشريف عيسى ﷺ (٢).

أو لكون الروح من أمره تعالى، فلا يعلم حقيقتها إلا هو جلّ وعلا القائل:  
﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].  
والجدير بالذكر هنا أنه تعالى نسب روح آدم أيضاً إلى ذاته القدسية فقال:  
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ  
مِنْ رُوْحِي فَقُولْ لَهُ سَجْدًا﴾ [الحجر].

قال السهيلي رحمه الله: فلا يذهب وهماً إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية،  
لأن القرآن أنزه معنى، وأوزن لفظاً، وألطف إشارة، وأحسن عبارة من أن يريد  
ما يذهب إليه وهم الجاهل، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس،  
فأضف القدس إلى القدوس، ونزّه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب (٣).

(١) انظر: مجموعة التفاسير (الخازن والنسفي والبيضاوي): ٢٧٧/٤.

(٢) تفسير النسفي: ٢٧٧/٤.

(٣) تفسير القرطبي: ٣٣٨/١١.

وبهذا أصبحت مريم وولدها آية معجزة دالة على كمال قدرته تعالى وتمام مشيئته .  
﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: وجعلنا شأنها وشأن ولدها وأمرهما آية للعالمين، ولم يقل سبحانه (آيتين) لأن الآية فيهما واحدة.

### • أمة التوحيد:

وجاء ذكر (العالمين) تمهيداً لتوجيه الخطاب إليهم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٩٦﴾

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: إن كلمة التوحيد التي دعا إليها جميع الأنبياء هي ملتكم ودينكم، والخطاب للناس قاطبة، والإشارة إلى كلمة التوحيد، واكتفى بالإشارة عن التصريح لبروزها وظهورها من خلال ما تقدّم من آيات السورة.

والأمة في الأصل: القومُ يجتمعون على دينٍ واحدٍ، ثم أُتسع فيها حتى أطلقت على نفس الدين، والأشهر أنّها الناس المجتمعون على أمر ومقصد واحد، وإطلاقها على نفس الدين مجاز<sup>(١)</sup>.

والجملة خبريةٌ أريد بها الأمر والإنشاء، والمعنى: أنّ ملة التوحيد أو الإسلام ملتكم التي يجب عليكم أن تحافظوا عليها.

فجمهور المفسرين ذهبوا إلى أنّ المراد بـ (الأمة) هنا الملة والدين، ولا مانع من حملها على معناها الأصلي، وأن المراد منها الناس المتمسكون بملّة التوحيد، ويكون المعنى المراد من الآية: تقرير وحدة المتمسكين بملة التوحيد، ولو اختلفت أجناسهم وأزمانهم، وما الأنبياء الذين سبق ذكرهم إلا رواد هذه الأمة الواحدة. وسياق الآيات أكثر انسجاماً مع المعنى الثاني.

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قُرئت بالنصب على الحال، أي: في حال اجتماعها على

(١) انظر: روح المعاني: ٨٩/١١.

الحق، كما يقول: فلان صديقي عفيفاً، أي: ما دام عفيفاً، فإذا خالف العِفَّةَ لم يكن صديقي (١).

وَقُرَّتْ بِالرَّفْعِ، بَدَلَ مِنْ ﴿أُمَّتِكُمْ﴾ أَوْ خَبَرَ ثَانَ لَهَا.

فكُلٌّ مِنْ يَتَمَسَّكُ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ يَعُدُّ فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ وَجِزَاءً مِنْهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ أَي: اعْبُدُونِي وَحْدِي، وَأَطِيعُونِي وَحْدِي، فَلَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرِي، فَرَبُّكُمْ وَاحِدٌ، وَدِينُكُمْ وَاحِدٌ، وَبِهَذَا قَرَّرْتُ الْآيَةَ بِكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَعْظَمَ رَابِطَةٍ تَرْتَبُطُ بَيْنَ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سَائِرَ الْكُتُبِ فِي شَأْنِهَا، وَبَعَثَ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ دَعَاةً إِلَيْهَا.

#### • اختلاف الناس:

ومع ذلك اختلف الناس، وأخبر سبحانه عن اختلافهم، فقال:

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَلُّوا إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (٩٣).

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: جَعَلُوا أَمْرَ دِينِهِمْ بَيْنَهُمْ قِطْعًا.

وَالْآيَةُ تَلْقِي فِي النَّفْسِ الشُّعُورَ بِالْأَسْفِ وَالْإِحْبَاطِ، بِسَبَبِ مَا أَحْدَثُوا بَيْنَهُمْ مِنْ تَقْطِيعِ وَاجْتِهَادِ، وَلِهَذَا تَفَتَّتْ إِلَى الْغَيْبِ لِتُنْعَى عَلَيْهِمْ مَا أَفْسَدُوهُ مِنَ التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ؛ وَجَعَلَ أَمْرَهُ قِطْعًا مُوزَعًا، وَتَنَهَى قَبَائِحَ أَعْمَالِهِمْ إِلَى الْآخِرِينَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى عَظِيمِ مَا ارْتَكَبَ هَؤُلَاءِ فِي دِينِ اللَّهِ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ ﷺ كَافَةً (٢).

فالتوحيد هو الأصل الذي كان الناس عليه، والشرك طارئ عليهم، وهو الذي جعل الناس ينقسمون ويختلفون، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

(١) تفسير القرطبي: ٣٣٩/١١.

(٢) تفسير أبي السعود: ٨٤/٦.

الَّتِي سَنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اَخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اَخْتَلَفَ فِيهِ اِلَّا الَّذِينَ اُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ اٰمَنُوا لِمَا اَخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِاِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ اِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿البقرة: ٢١٣﴾ .

وقال سبحانه في سورة مريم بعد أن بين حقيقة عيسى ودعوته للتوحيد:  
﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ .

وقال أيضاً: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فُجُورٌ ﴿المؤمنون﴾ .

ثم قررت الآيات مسؤوليتهم عما أحدثوه من تقطيع في دينهم عندما يرجعون يوم القيامة إلى الله تعالى للحساب والجزاء بقوله سبحانه:  
﴿كُلُّ اِلْتِنَانٍ رَجُوعٌ﴾ أي: كل فرقة من هذه الفرق المتقطعة المختلفة راجعون إلينا وإلى حكمتنا ومشيتنا، فنسألهم ونجازيهم:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به من توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، وصدق الرسل الذين أرسلهم الله تعالى بدعوة التوحيد.

وهذا الإيمان شرط أساس لقبول العمل الصالح، فلا يقبل الله من كافر أي عمل صالح مهما كان عمله.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ أي: فلا يُجْحَدُ سَعِيهِ ولا يُرَدُّ عَمَلُهُ، بل يُشْكِر ويُثَاب عليه.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ﴾ أي: وإنَّا لسعيه وعمله حافظون، لا نضيع منه شيئاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كَرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار].



## • بطلان مزاعم التناسخ والتقمُّص:

والمسؤولية والجزاء في الحياة الثانية يوم القيامة، بينما السعي والعمل في الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت، فإذا مات الإنسان انقطع سعيه، وانتهى عمله، ولا عودة له إلى الدنيا مرة ثانية، هكذا قدر الحق سبحانه، ولا يستطيع أحد أن يخرق أسوار ما قدر جلّ وعلا، ويخالف هذا الناموس الكوني القدري، وقد أخبر سبحانه عن هذا الناموس الكوني في آيات كثيرة لكي يبادر الناس إلى العمل بطاعته قبل أن ينزل بهم الموت، فلن تتاح لهم الفرصة مرة ثانية، منها قوله تعالى هنا:

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أي: وحرام على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا إلى الحياة بعد إهلاكهم وموتهم، فلا رجوع إلى الحياة بعد الموت بأي شكل من الأشكال.

وهذا يدل دلالة قطعية على بطلان مزاعم كثير من الفرق الضالة بتناسخ الأرواح وتقمُّصها، ورجوعها إلى الحياة بعد مفارقتها لأجسادها بالموت بواسطة تقمُّصها لأجساد أخرى، هذه أقوال فاسدة باطلة تصادم دلالة النصوص القرآنية الكثيرة، فلا عودة إلى الحياة الدنيا بعد الموت أبداً.

وكلمة (حرام) تدل على المنع القطعي المطلق، وتؤكد القراءة الثانية (إنهم لا يرجعون)، كما تؤكد آيات كثيرة في سور آخر، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون].

وحتى الأجل المقدر لموت كل إنسان لا يغير ولا يؤخر أبداً: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المنافقون].

• **يأجوج وماجوج:**

والبرزخ الفاصل بين الدنيا والآخرة يبدأ بالموت وينتهي بالبعث والنشور يوم القيامة، وقد جعل الله تعالى لهذا اليوم علامات ومقدمات تدل على اقترابه، من أعظمها غلبةُ المفسدين، وظهورُ المشركين في الأرض، وضعفُ سلطانِ الموحدين، قال سبحانه:

﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي: حتى إذ قدَّر الله تعالى ظهورَ يأجوج وماجوج في الأرض، وغلبتهم عليها، وتمكنهم منها. فالفتح هنا: معناه الظهورُ والتمكُّنُ والغلبةُ، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِيهِ أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]. وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] (١).

﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي: وهم يسرعون في المشي إلى الفساد، وتخريبِ البلاد، وقتلِ العباد، والحذب: المرتفع من الأرض. وهذا يدلُّ على كثرتهم، وقد دلَّت على ذلك أيضاً الأحاديث النبوية الشريفة، وفيها: أنهم يظهرون في آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، وقتله الدجال، ففي حديث النواس بن سمعان عليه السلام: أن رسول الله ﷺ بعد أن وصفَ الدجالَ، ونزولَ عيسى عليه السلام إلى الأرض، وقتله الدجال قال: «... ثم يأتي عيسى ابنَ مريمَ قومٌ، قد عصمهم الله منه (أي: من الدجال) فيمسحُ عن وجوههم، ويحدِّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى: إنِّي قد أخرجتُ عبداً لي، لا يدان (لا قدرة) لأحدٍ بقتالهم، فحرَّزُ عبادي إلى الطُّورِ».

(١) انظر: تفسير سورة الكهف، المسمى في تفسيرنا الموضوعي هذا: (العواصم من الفتن في سورة الكهف).

وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهَمَّ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلَهُمْ عَلَى بَحِيرَةِ طَبْرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُخَصِّرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ (أَي: إِلَى اللَّهِ) فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ (دُودٌ يَصِيبُ الْبَهَائِمَ) فَيَصْبِحُونَ فَرَسَى (قَتْلَى)، كَمُوتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمَلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطْرًا، لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبْرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلْفَةِ (الْمَرَاةِ).

ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبَتِي ثَمْرَتِكِ، وَرَدِّي بَرَكَتِكِ، فَيَوْمئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرَّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَهْفِهَا (قَشْرِهَا) وَيُبَارِكُ فِي الرَّسْلِ (اللَبَنِ) حَتَّى إِنَّ اللَّقْحَةَ (الْحَلُوبَةَ) مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفَتَامَ (الْجَمَاعَةَ الْكَثِيرَةَ) مِنَ النَّاسِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاتِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شَرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ (يَزْنِي بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ) فِيهَا تَهَارُجُ الْحُمْرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ [رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٣٧)].

#### • الوعد الحق:

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوَّلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أَي: اقْتَرَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهُوَ الْوَعْدُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا شَكَّ فِي وَقُوعِهِ، وَالَّذِي ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ فِي أَوَّلِ آيَاتِ السُّورَةِ عِنْدَمَا قَالَ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: فَإِذَا هِيَ بَارِزَةٌ سَاكِنَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَا تَكَادُ تَتَحَرَّكُ أَوْ تَطْرَفُ، مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَالْهَوْلِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

ويقولون:

﴿بَوَيْلَنَا﴾ أي: الويل والهلاك لنا، أو يا حسرتنا.

﴿تَدَّ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي: كنا في الدنيا غافلين عن هذا اليوم.

﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بوضعنا العبادة والطاعة في غير موضعها.

وهي الكلمة نفسها التي نطقوا بها عندما نزل بهم العذاب في الدنيا، الذي سبق ذكره في أوائل السورة: ﴿قَالُوا يَبْوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿٩٥﴾. فتأمل الانسجام والاتساق بين أول السورة وآخرها.

وما إن انتهت الآيات من تقرير اقتراب يوم القيامة، حتى تفاعى المشركين بتقرير أمر آخر، أكثر هولاً وأشد فرعاً:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: إنكم ومعبوداتكم من الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله، وقود جهنم، فالحصب: كلُّ ما يُرمى في النار لزيادة لهبها واشتعالها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَٰكِن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ أي: داخلون.

ولا يخفى ما في الخطاب للكافرين من تقرير وتأکید مع الجزم والحزم.

﴿لَوْ كَانَتْ هُوْلَاءَ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوْهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿لَوْ كَانَتْ هُوْلَاءَ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوْهَا﴾ أي: لو كان هؤلاء الذين تعبدونهم آلهة ما دخلوا النار، فالمؤاخذ المعذب لا يكون إلهاً معبوداً.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: وكل من العابدين والمعبودين خالدون في

النار، ماكنون فيها أبداً.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ .

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهم في جهنم تنفسٌ شديدٌ عسير بسبب شدة حرها، والزفير: صوت نفس المغموم، ومعناه في الأصل إخراج النفس الطويل بعد حبسه في الرئتين، وضده الشهيق، وهو يدل على شدة الغم والضيق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ سَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].  
﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول، وفضاعة العذاب، أولاً يسمعون شيئاً يسرهم.

#### • السابقة الحسنی:

وقد عودنا ربنا في كتابه العزيز أنه كلما ذكر صورة من صور العذاب في جهنم، ذكر في مقابلة صورة من صور رحمته وفضله في الجنة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: إن الذين وعدهم الله تعالى أن يرحمهم ويكرمهم بدخول الجنة، بسبب إيمانهم به جللاً وعلاً، وانقيادهم لأمره، واتباعهم لرسله.

﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي: أولئك عن جهنم مبعدون بفضله سبحانه ورحمته، فهم أصحاب السابقة الحسنة، أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ .

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: لا يقربونها حتى لا يسمعوها وأصوات المعذبين فيها، فلجهنم صوتٌ شديد مزعج مخيف، دل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أي: وهم مقيمون إقامة دائمة في

الجنة، يتمتعون بكل ما تشتهيهِ أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

### • الفرع الأكبر:

﴿لَا يُخْزِنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٠٣).

﴿لَا يُخْزِنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ وفي قراءة: (لا يُخْزِنُهُم) وهو يدل على نجاتهم من كل الأفرع والأهوال الكائنة يوم القيامة، فمن نجا من الفرع الأكبر نجا من غيره من الأفرع.

وثمة أفرع وأهوال كثيرة، فأيهما هو الفرع الأكبر؟:

أهو فرع البعث من القبور وهول المطلع الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿١﴾ تَتَّبِعُهَا الرِّادَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [النازعات].  
وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج].

أم عندما يساقون إلى أرض المحشر: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

ويحشر المجرمون على وجوههم: ﴿وَتَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبِكُمًا وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧].

أم عندما تُعرض عليهم جهنم، ويرون ما فيها من أنواع النكال والعذاب: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْأَنسَانَ وَأَنَّهُ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

أم عند تطاير صحف الأعمال ونشرها وتوزيعها، فلا يدري الإنسان أيُّعطى كتابه يمينه أم شماله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا بَسِيراً ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً ﴿١١﴾ وَيَصِلَىٰ سَعيراً﴾ [الانشقاق].

أم عندما توضع الموازين القسط، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعُ

الْمُوزِنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أم عند الوقوف بين يدي الملك الجبار للسؤال والحساب، كما في قول النبي ﷺ: «ثُمَّ لِيَقْفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدِي اللَّهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجَمَانٌ يَتَرَجَّمُ لَهُ، ثُمَّ لِيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوْتِكَ مَا لَأ؟ فليقولنَّ: بلى، ثم ليقولنَّ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فليقولنَّ: بلى. فينظرُ عن يمينه، فلا يرى إلا النارَ، ثم ينظرُ عن شماله، فلا يرى إلا النارَ، فَلْيَتَّقِينَ أَحَدُكُمْ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» [رواه البخاري (١٤١٣)].

أم عند الورود على جهنم والمرور على الصراط فوقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧٦﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾ [مریم]؟ أم... أم... أم...؟ إلخ.

فيومُ القيامة يومٌ طويلٌ وعسيرٌ، وفيه من الأهوال والأفزع ما لا يعلمُ قدرها إلا الله جلَّ وعلا، أسأل الله أن ينجينا منها برحمته وفضله، وأن يجعلنا من الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر.

﴿وَنُنَاقِلُهُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: تستقبلهم ملائكةُ الرحمة تهنئهم بنجاتهم من الفزع الأكبر، وفوزهم بالجنة والرضوان، قائلين لهم:

﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيومُ القيامة في الحقيقة يومكم، لأنكم الفائزون فيه الفوز العظيم، وهو الذي كنتم توعدون به في الدنيا فصدقتم به وآمنتم، وعملتم لتكونوا فيه من الفائزين: ﴿بُشْرَتِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

#### • طي السماوات:

هذه أحداثٌ كائنة لا محالة، قدَّرها الحكيم العليم القادر القاهر، وأكدها

ﷻ، فقال:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا  
كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ .

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ أي: يوم القيامة نجمع السماء إلى بعضها بعد تقطيعها  
وتشقيقتها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بَقَضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يقبض الله  
الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟!»  
[رواه البخاري (٦٥١٩)].

﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: كما تطوي الصحيفة ما كتب فيها.

قال ابن كثير رحمته الله: «الصحيح عن ابن عباس: أن السجل هو الصحيفة،  
ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير، لأنه المعروف  
في اللغة، فعلى هذا يكون المعنى: يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب،  
أي: على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:  
١٠٣] أي: على الجبين. وله نظائر في اللغة»<sup>(١)</sup>.

#### • كيفية الحشر:

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي: كما أوجدناه أولاً نعيده ثانياً، وهي  
قاعدة منطقية مسلمة، ذكرها سبحانه في مواضع كثيرة، منها قوله الكريم:  
﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ  
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس].

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٢٤/٢.



من يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١٠٤﴾ [الإسراء].

وقد يكون المعنى: نعيده مثل الذي بدأناه، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب، فقال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاءَ عُرَاءٍ غُرْلًا» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] [رواه البخاري (٦٥٢٦)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تَحْشُرُونَ حُفَاءَ عُرَاءٍ غُرْلًا» قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ» [رواه البخاري (٦٥٢٧)].

قال ابن حجر رحمته الله: «غُرْلًا: جمع أغرل، وهو الأقف، وهو من بقيت غرلته، وهي الجلد التي يقطعها الخاتن من الذكر. ثم نقل عن ابن عبد البر قوله: يحشر الآدمي عارياً، ولكل من الأعضاء ما كان له يوم ولد، فمن قُطِعَ منه شيء يُرَدُّ، حتَّى الأقف»<sup>(١)</sup>.

﴿وَعَدَا عَلَيْنَا﴾ أي: نعيد الخلق بعد الموت وعداً كائناً لا محالة، لأنه تعلق به مشيئتنا، وسبق به علمنا.

﴿إِنَّا كُنَّا فَعَالِينَ﴾ أي: منجزين هذا الوعد، فاستعدوا له لكي تنجوا من أهواله وأفزاعه.

#### • تمكين الصالحين من الأرض:

والحياة في الدنيا تستمر، والعمران فيها يبقى، ما دامت كلمة التوحيد قائمة في الأرض، فما خلق الله تعالى الخلق إلا للموحدين، الذين يَعْمُرُونَ الأرض بطاعته وعبادته وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ [الذاريات].

ولا يقيم الله الساعة وينهي الحياة في الدنيا حتى يعرض الناس كلهم عن عبادته سبحانه وذكوره، وتتعلل حكمة الخلق والوجود، حينئذ يقيم الله الساعة، كما جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يَقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ اللَّهُ».

وفي رواية: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللَّهُ اللَّهُ» [رواه مسلم (١٤٨)].

فالأرض وما فيها خلقها الله تعالى من أجل الموحدين، لا من أجل العابثين واللاهين والمشركين والظالمين، قرر ذلك سبحانه وأخبر عنه في كل الكتب المنزلة:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ﴾ أي: الكتب التي أنزلت على الأنبياء ﷺ.

﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: من بعد ما كُتِبَ في اللوح المحفوظ، فالذكر هنا هو اللوح المحفوظ، الذي ذكر الله تعالى فيه كل ما يكون إلى قيام الساعة.

وفي الحديث الشريف: عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ» [رواه البخاري (٧٤١٨)].

﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي: المؤمنون الصالحون، الذين يلتزمون بدين الله تعالى وحده وشريعته.

وهذا المعنى ذكره سبحانه في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومنها قوله أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وذكره أيضاً النبي ﷺ في قوله: «إِنَّ اللَّهَ زَوْيَ (أي: جمع) لي الأرض، فرأيتُ مشارقتها ومغاربها، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلِكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» [رواه مسلم (٢٨٨٩)].

وقد يقول قائل: فما بال المسلمين في العصر الحاضر، قد ضعف سلطانهم، وتمكّن منهم أعداؤهم؟!.

فأقول: صار حال المسلمين إلى ما ذكرت، لأنهم ابتعدوا في كثير من جوانب حياتهم عن طاعة ربهم، وعن منهجه وشريعته، إذ قدّر الله تعالى أن تكون قوتهم وعزّتهم بتمسّكهم بدينهم وشريعتهم، كما قال سبحانه: ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَإِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقد قلّ في المسلمين الصالحون العاملون بدين الله تعالى وشريعته، فأصبحوا كما قال ﷺ: «يذهب الصالحون الأوّل فالأوّل، ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله بالة» [رواه البخاري (٦٤٣٤)].

والحفالة: الحثالة، ومعنى: «لا يباليهم الله بالة» أي: لا يرفع لهم قدراً، ولا يقيم لهم وزناً.

فالمراد من (الأرض) في الآية، أرض الدنيا كلها، والمعنى المراد ظاهر، وهو منسجم مع ما تقدم من الآيات ومع ما يأتي أيضاً، ولا حاجة إلى القول بأن المراد أرض الجنة، كما قال بعض المفسرين، كما لا حاجة إلى أن نخصصها بالأرض المباركة والمقدسة، كما قال مفسرون آخرون، فرسالة التوحيد عامّة شاملة جميع البشر في كل الأرض.

#### • البلاغ والرحمة:

ويدل على عموم الوعد قوله سبحانه:

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰكِبِيْنَ﴾ (١٠٦)

أي: إن في هذا القرآن لكفاية موصلة إلى البُعْية، فهو الطريق الموصل إلى

النصر والتمكين في الأرض ووراثتها، من اتبع القرآن، وعمل بما فيه، وصل إلى ما يرجو من الخير والثواب.

وقيل: البلاغُ: الكفايةُ، أي: فيه كفاية، لما فيه من الأخبار، والوعد والوعيد، والمواعظ البالغة فهو زاد العباد إلى الجنة<sup>(١)</sup>.

ولا يخفى أنَّ المعنى الأول أوجه، لأنَّه يتفق مع ما تقدم من قول الله تعالى: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولا وراثة للأرض إلا بالتمسك بشريعة القرآن الكريم.

﴿لِقَوْمٍ عِبَادِينَ﴾ الله وحده، وهم أمة محمد ﷺ.

قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هم الذين عبدوا الله فيما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم»<sup>(٢)</sup>.

والله سبحانه ما رضي للناس إلا الإسلام وشريعة القرآن: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وشريعة القرآن الكريم هي الرسالة التي بعث الله بها خاتم الأنبياء والمرسلين إلى العالمين، فهي رسالة شاملة عامة تتجاوز حدود الزمان والمكان. قرر سبحانه هذا المعنى بهذا الخطاب الصريح الواضح الموجه إلى النبي ﷺ والمؤكد بأسلوب النفي والإثبات:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧).

أي: ما أرسلناك إلا لرحم العالمين بإرسالك.

فهو ﷺ مرسل من الله تعالى الرحمن الرحيم، البر الكريم، رحمة للعالمين، لا لعالم واحد، وإنما لجميع العالمين، فمهما امتد الزمان، وتوالت

(١) تفسير الخازن: ٢٨٤/٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٢٥/٢.

الأجيال، وتقلّبت العُصُورُ، فإنَّ بعثة النبي ﷺ بالإسلام أعظمُ رحمةٍ تفضّل بها سبحانه على الخلق، وهو أمر ظاهر من جوانب كثيرة، منها:

١ - الرسالة الإسلامية التي أرسل بها النبي ﷺ هي سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، فما أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلا لهداية الناس إلى أقوم طريق، وأكمل دين، وأتم شريعة، ولا سعادة للناس إلا في ظلال هذه الرسالة، فهي سبيل سعادتهم في الدنيا والآخرة كما مر معنا في سورة طه.

٢ - جعل الله تعالى أحكام هذه الشريعة سمحة ميسرة خالية من الآصار والأثقال التشريعية التي كانت في الشرائع السابقة، كما قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ونفى عنها سبحانه كل ما يؤدي إلى الحرج والمشقة، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقد بوّب الإمام البخاري ﷺ في صحيحه باباً خاصاً لإبراز هذه الميزة الكبرى في الشريعة الإسلامية، فقال: باب الدين يُسر، وقول النبي ﷺ: «أحَبُّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة»، ثم روى بسنده (٣٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوءِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ».

٣ - قررت الشريعة الإسلامية مبادئ إنسانية رفيعة، كانت البشرية في أمس الحاجة إليها؛ منها:

مبدأ وحدة الأصل البشري، مهما اختلفت ألوان الناس وأعراقهم.

مبدأ المساواة بين الناس أمام دين الله تعالى وشريعته.

مبدأ تكريم الإنسان واحترام حقوقه وصيانتها وحمايتها.

مبدأ التعارف والتعاون بين الناس ولو اختلفت ألوانهم وأوطانهم.

مبدأ العدل، ومقاومة الظلم، ونصرة المظلوم، ومساعدة الضعفاء في المجتمع، وصيانة حقوقهم.

مبدأ الشورى، ومقاومة الاستبداد والطغيان... إلى غير ذلك من المبادئ الإنسانية التي جعلت الشريعة الإسلامية بحق رحمة كبرى للبشرية.

٤ - ولقد أثبت الواقع التاريخي هذه الحقيقة بالحضارة الإسلامية التي كانت أنصرَ حضارةً، سعدَ الناسَ في ظلالها على مدى أجيال وقرون كثيرة.

ولقد شملت هذه الرحمة الكفار الذين ما آمنوا برسالة الإسلام، والذين عاشوا في ظل هذه الحضارة، وتمتعوا بكل المبادئ الإنسانية التي قررتها الشريعة الإسلامية.

٥ - فضلاً عن ذلك فإنه ﷺ نبي الرحمة، لم يدعُ على الكفار الذين قاوموا دعوته، وعاندوا رسالته، ولم يأتهم بعذاب يستأصلهم ويهلكهم، كما حدث للأمم انسابقة، ولما قيل له: يا رسول الله ادعُ على المشركين، قال: «إني لم أُبعثُ لعاناً، وإنما بُعثتُ رحمةً» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

وقال أيضاً: «إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ» [رواه ابن عساکر].

٦ - ومراً معنا أن استمرار الوجود في الدنيا منوطٌ ببقاء الموحدين من الأمة المسلمة، وأن الساعة لا تقوم ما بقي في الدنيا من يعبد الله ويذكره.

● لا إله إلا الله محمد رسول الله:

وكلمة التوحيد هي الأساس الأول لرسالة الرحمة التي بُعث بها النبي ﷺ وبهذا أمرته الآيات أن يقول للناس:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ فكلمة التوحيد التي أنزلها الله على جميع الأنبياء والمرسلين، أنزلها سبحانه عليّ، وجعلها أساس دعوتي

وشريعتي، وقد مرَّ معنا في أوائل السورة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١٥).

ويلاحظ أنه مع كون الخطاب في الآيتين للنبي ﷺ، اختلاف في الأسلوب، ففي الآية الأولى أخبر عن حقيقة واقعة بأسلوب الخبر، بينما قررت الآية الثانية الحقيقة بأسلوب الأمر الصريح الملزم بأن يواجه النبي ﷺ الناس بكلمة التوحيد، يدعوهم إليها قائلاً:

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: فهل أنتم مدعنون مستسلمون لهذه الكلمة:

لا إله إلا الله؟.

وجاء الأسلوب أيضاً في الآية الثانية بصيغة الحصر: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ كأنَّ الله تعالى ما أوحى إليه إلا هذه الكلمة، مع أنه سبحانه أوحى إليه غيرها كآيات الأحكام، والقصص، والترغيب والترهيب... إلخ، وهذا يدلُّ على أنَّ المراد من الحصر هنا: تأكيد كلمة التوحيد، وإظهار أهميتها، لا نفي ما عداها، فهي الأصل الأصيل الأول لجميع ما أنزل الله تعالى في التنزيل الحكيم، وكل أحكام هذا الدين وشرائعه متصل بها، ومتفرع عنها.

فالاعتقادُ بأنَّ الله وحده المستحقُّ للعبادة والطاعة، معناه الانقياد له وحده في كل ما أمر وشرع، والإعراض عن كل ما نهى عنه وزجر، وهذه هي حقيقة الإسلام، فالإسلامُ هو: لا إله إلا الله اعتقاداً وقولاً، وسلوكاً وعملاً، ولهذا كان من لوازمها: محمد رسول الله ﷺ، لأنَّه الذي بيَّن للناس كيفية الاستسلام لكلمة التوحيد والعمل بها.

فلا يجوزُ الفصلُ بين الكلمتين، ولا يُستغنى بالأولى عن الثانية، فهما القرينتان، اعتقاداً وإقراراً وعملاً، ولهذا قرن الله تعالى طاعته بطاعة نبيه ﷺ في عدد من الآيات الكريمة، منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾

[الأنفال: ٢٠].

وجعل سبحانه طاعة الرسول ﷺ طاعة له، فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ودل قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتَ مُسْلِمُونَ﴾ على أنّ المعرفة وحدها لا تكفي في الإيمان؛ لا بدّ مع المعرفة من الانقياد والاستسلام، ولا يتحقق ذلك إلا بتصديق النبي ﷺ واتباعه والتزام شريعته، فمن علم أنه لا إله إلا الله، وعبد غيره، ولم يصدق برسالة نبيه ﷺ لا يكون مؤمناً، بل هو كافر مشرك.

#### • أذنتكم على سواء:

أمضى النبي ﷺ المرحلة المكية من دعوته، التي امتدت ثلاث عشرة سنة، يدعو الناس إلى كلمة التوحيد، والإذعان لها والاستسلام، تنفيذاً لأمره سبحانه. وقد بين له سبحانه الموقف الذي يقفه منهم في حال إعراضهم، فقال:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓٓٓ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ (١٠٩).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الاستسلام والإسلام.

﴿فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم ما أمرت به، وبلغتكم الكلمة التي ينبغي أن يعلمها جميع الناس، ولم أخصص أحداً بشيء دون غيره من الناس، فكلمة التوحيد لجميع الناس، وواجبي تبليغها لكل الناس.

وقد دلت هذه الآية على بطلان ما يعتقدّه أتباع بعض الفرق الضالة أنّ النبي ﷺ خصّ علي بن أبي طالب وأهل بيته بعلوم خاصة بهم، لا يعلمها أحد غيرهم، وبطلان قول من يقول: إنّ لآيات القرآن معنى ظاهراً ومعنى باطناً، وإن معانيه الباطنة لا يعلمها إلا أناس مخصوصون، وإن للشريعة الإسلامية ظاهراً وباطناً. كل ذلك من الأباطيل والأكاذيب التي روجّها أعداء الإسلام لتفريق الأمة المسلمة وتمزيقها منذ فجر وجودها، وقد نفاها علي رضي الله عنه. لما سُئِلَ عنها.

ففي «صحيح البخاري» [١١١]: عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهمٌ أعطيه رجلٌ مسلمٌ، أو ما في



هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العُقلُ، وفكاكُ الأسير، ولا يُقتلُ مُسلمٌ بكافرٍ.

ومعنى قوله: «هل عندكم كتاب؟» أي: مكتوب أخذتموه عن رسول الله ﷺ مما أوحى إليه، ويدل على ذلك رواية المصنّف في الجهاد: هل عندكم شيءٌ من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ وله في الديات: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ . . . وإنما سأله أبو جُحيفة عن ذلك لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أنّ عند أهل البيت، لا سيّما عليّاً، أشياء من الوحي خصّهم النبي ﷺ بها، لم يطلع غيرهم عليها، وقد سأل عليّاً عن هذه المسألة أيضاً قيس بن عبّاد، والأشتر النخعيّ وحديثهما في مسند النسائي<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِنْ أَدْرَى﴾ أي: وما أدري.

﴿أَقْرَبُ أَمَّ بَعِيدًا مَا تُوْعَدُونَ﴾ من نزول العذاب بكم، أو من يوم القيامة الذي استأثر سبحانه بعلمه.

فالمستقبل غيبٌ عني، لا أعلمُ منه إلا أن يطلعني ربي عليه، فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة.

والآية الكريمة تؤكد بشريته ﷺ، وتدل على صدقه أيضاً، فهي تقرّر الحقيقة، وتبيّن للناس أنّه عليه الصلاة والسلام لا يدّعي علم ما لم يعلم، كما يفعل الدجالون الكاذبون فكمال العلم لله تعالى وحده.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

في قلوبكم وأعماق نفوسكم.

﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيْنِ حِينَ﴾.

﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَكُمْ﴾ أي: وما أدري لعلّ تأخير عذابكم استدراجٌ لكم وابتلاء واختبار.

﴿وَمَتَّعْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: وتمتيع لكم إلى حين وأجل مقدر، وهو ردُّ على ما تقدم من استعجالهم نزول العذاب بهم، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

### ● الخاتمة:

وفي ختام السورة:

﴿قُلْ رَبِّ أَعْمَرَ بِالْحَقِّ ۗ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۗ﴾

﴿قُلْ﴾ أي: الرسول الخاتم ﷺ، وفي قراءة ﴿قُلْ﴾.

﴿رَبِّ أَعْمَرَ بِالْحَقِّ﴾ أي: افض بيني وبين المعرضين عن دعوتي بالحق، ويكون ذلك بإظهار الحق وأهله، وبإعزازهم وتمكينهم، وقد فعل سبحانه ذلك كما مر معنا.

﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ﴾ كثير الرحمة، المنعم المتفضل على خلقه، والذي أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين.

﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ أي: الذي يُستعان به وحده.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على إبطال أقوالكم وأكاذيبكم التي سبق ذكرها في أول السورة، والتي توعدهم الله من أجلها أشد الوعيد عندما قال: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨).

وبهذا ظهر لنا اتساق آيات السورة واحتباكها، واتصال أولها بآخرها، كما ظهر لنا موضوعها الأساس، الذي دارت آياتها في فلكه، وهو كلمة التوحيد - دعوة جميع الأنبياء والمرسلين - الذين هم رواد الأمة المسلمة أمة التوحيد، وهي الأصل الأصيل لرسالة القرآن، رسالة الرحمة العظمى التي أنزلها الله تعالى على النبي الخاتم عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأتم التسليم.



## تفسير سورة الحج الطَّرِيقُ إِلَى الْأَقَّةِ الْمُسْلِمَةِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اشتدت مؤامرات أعداء الإسلام على شعوب العالم الإسلامي في السنوات الأخيرة، واستهدفت أكثر هذه المؤامرات تفتيت الروابط الداخلية للمجتمعات الإسلامية، وإحداث الانقسامات العرقية والإقليمية والطائفية والمذهبية في داخلها.

ويبدو أنّ أعداء الإسلام يصدرون في كلّ مؤامراتهم وكيدهم ومكرهم عن خطة خبيثة، هدفها الأول والأخير اجتثاث جذور الصحوّة الإسلامية التي بدأت تنتشر في العالم الإسلامي منذ منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

وقد أقلقت هذه الصحوّة أعداء الإسلام، وأزعجتهم، وجعلتهم يستشعرون خطر عودة المسلمين إلى تسنّم القيادة السياسية والحضارية في العالم بعد انتزاعها من أيديهم، فحشدوا كلّ ما لديهم من الكيد والمكر، وجنّدوا كلّ مراكز بحوثهم العلمية والاستراتيجية، وصدروا عن خطة موحّدة - رغم ما بينهم من اختلاف

ونزاع - للعمل على امتصاص الصحوة الإسلامية بين المسلمين، وهي لا تزال تحبو ضعيفةً هزيلةً قبل أن تقوى وتشتدّ، وللعمل أيضاً على استنزاف خيرات العالم الإسلامي؛ وإمكاناته المادية الكبيرة، كي يبقى عالماً مقسماً متخلفاً محطماً، ومنشغلاً بتخلفه ومشاكله الداخلية عن إحراز أيّ تقدّم وتحقيق أيّ تغيير.

لقد بدأت هذه الخطة الماكرة الخبيثة تفرز سموها في جسم المجتمعات الإسلامية، وتنشر شباكها وشراكها حول أية بادرة تقدّم، وبارقة أمل تظهر بين المسلمين، وقد أدّى ذلك إلى زيادة الانقسامات والنزاعات المصطنعة بين الشعوب الإسلامية، كما أدّى بالتالي إلى زيادة كبيرة في ركام المشاكل التي تُعاني منها هذه الشعوب والمجتمعات.

ولا سبيلَ لمواجهة هذه الخطة الماكرة إلا بتوعية عامّة المسلمين، وتحذيرهم من أخطارها، وتذكيرهم بروابط الأخوة الإسلامية التي أقامها الإسلام بينهم.

وإنّ على قادة الفكر الإسلامي مسؤوليةً كبيرةً وجسيمةً في هذا المجال، وإنّ لديهم رصيلاً كبيراً يستطيعون الاستفادة منه في التصديّ لمؤامرات أعداء الإسلام وإبطالها:

لديهم القرآن الكريم الذي لا يزال بحمد الله تعالى غصّاً طريّاً كما أنزل، وكلّ ما فيه أسبابٌ تُوحّد المسلمين وتجمّعهم، وتُبعد عنهم كل أسباب الاختلاف والانقسام.

ولديهم أيضاً الحجُّ إلى بيت الله الحرام، الذي تهوي إليه قلوبُ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتأتي إليه وفودهم كل عام من شتى بقاع الأرض، يلتقون في رحابه عابدين، ويلتفون حوله طائفين، ويعيشون في جواره وحرمة ساعاتٍ من أعمارهم أمةً واحدةً، لا يُفرقهم اختلافُ ألوانهم، ولا يميّزُ بينهم كثرةُ أجناسهم وتعدّد ألسنتهم.

لقد قُدِّر لي أن أشهد حجَّ عام (١٤٠٧هـ)، ويسَّر الله تعالى لي في هذا الموسم أداء أكثر مناسك الحج في أوقاتها المستحبة التي أَدَّاهَا فيها رسول الله ﷺ، فتذوقتُ من خلال هذه المناسك معاني روحية كبيرة ما تذوقت مثلها من قبل، لقد شعرتُ أنني جزءٌ من أمة مسلمة واحدة ذات جذور قوية راسخة في أعماق التاريخ، فحمدتُ الله تعالى أن جعلني من هذه الأمة، وشرفني بالانتساب إليها، وعدتُ من هذا الموسم قرير العين، قويَّ الأمل بمستقبل هذه الأمة المسلمة رغم كل المشاكل والصعاب التي تواجهها، ورغم كل المؤامرات التي تُحاك في داخلها ومن حولها.

عُدت إلى كتاب الله تعالى، وأخذتُ أمعن النظر في آيات (سورة الحج) على الخصوص، فوجدتها ترسم الطريق إلى بناء المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة، والعجيب أنني وجدتُ آياتها قد نزلت على الرسول ﷺ وهو يعيشُ المرحلة التي كان يتصدَّى فيها لبناء المجتمع الإسلامي الجديد، ووضع نواة الأمة الإسلامية الجديدة.

ثم يسَّر الله تعالى لي بعد ذلك الانتقال إلى مكة المكرمة، والعيش في جوار بيت الله الحرام، حيث يسَّر الله تعالى لي استكمالَ كتابة سطور تفسير هذه السورة (سورة الحج)، فجاء بحمد الله تعالى سوانح فكر وخواطر قلب في جوار بيت الله الحرام، كما جاء في أربعة فصول منسجماً مع تسلسل آيات السورة الكريمة.

• الفصل الأول: الإيمان بالله واليوم الآخر.

• الفصل الثاني: البيت الحرام، وفريضة الحج.

• الفصل الثالث: الجهاد.

• الفصل الرابع: الاصطفاء والاختبار للأمة المسلمة.

وإنني لأسألُ الله تعالى ألا يُبقي هذه الكلمات حبيسةً أوراقها، وأن يسَّر

لها طريقاً إلى قلوب المسلمين، كما أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعي به بفضلته ورحمته يوم الدين، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].



## تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

ابتدأ الله تعالى آيات سورة الحج بهذا الخطاب الشامل لجميع المكلفين من الناس، الموجودين عند نزول الآية، والحادثين بعد ذلك إلى قيام الساعة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رِيكُمُ﴾ [١].

وقد تكرر هذا النداء في سورة الحج عدّة مرات:

- ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [٥].

- ﴿قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [٤٩].

- ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ﴾ [٧٣].

- وختم الله تعالى سورة الحج بنداء خاص للمؤمنين بعد هذه النداءات الموجهة لجميع المكلفين من الناس: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْعُلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٧٧].

وإذا تأملنا الموضوعات التي ركّزت عليها آيات النداء للناس في السورة وجدناها تدور حول تقوى الله تعالى، وهي أعظم ثمار الإيمان بالله تعالى وبالיום الآخر، وبيان قدرته سبحانه على بعث الناس من قبورهم، وتفرد سبحانه بالخلق، مع الكشف عن عجز الآلهة المزعومة وبيان ضعفها، والتصديق برسالة النبي ﷺ مع الإذعان والقبول.

ومن خلال عرض هذه الموضوعات الكبيرة ذكرت الآيات الكريمة الحجّ إلى بيت الله الحرام، وحثّت على تعظيم شعائره ومناسكه.

ثم شرعت الجهاد، وبيّنت الحكمة من مشروعيتها.

فكأنّ السورة الكريمة بمعالجتها لهذه الموضوعات ترسم الطريق المؤدي

إلى بناء المجتمع الإسلامي، وظهور الأمة المسلمة، الأمة التي يجمعها الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، والتصديق برسالة الإسلام، ويمثل وحدتها وقوتها الحجُّ بمشاعره ومناسكه، ويحمي كيانها ويصون حُرُماتها الجهادُ في سبيل الله تعالى، ولهذا ابتدأت السورة ببناء الناس عامَّةً وانتهت ببناء المؤمنين خاصة.

لقد نزلت سورة الحجِّ في المرحلة التي انتقلت خلالها الدعوة الإسلامية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وهي مرحلة الهجرة، ومن المعلوم أن النبي ﷺ بدأ بعد الهجرة مباشرةً ببناء المجتمع الإسلامي، ووضع نواة الأمة المسلمة، فجاءت آياتُ السورة مزيجاً من الآيات المكيَّة والمدينية على خلاف بين العلماء في تعيين المكي منها والمدني.

قال القرطبي رحمه الله: «وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكياً ومدنيّاً، سلمياً وحريراً»<sup>(١)</sup>.

وإنَّ من حكمة الله تعالى في نزول القرآن الكريم مفرقاً على النبي ﷺ أن تنزل الآياتُ الكريمةُ مواكبةً للمراحل المختلفة التي مرَّت بها الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ، ترسم له طريق الدعوة في كل مرحلة، وتلبّي الحاجات التشريعية لها، وتبيّن الحلول المناسبة لما يجدُّ من الحوادث في وقت حدوثها، ومواجهتها.

وقد نزلت آياتُ سورة الحجِّ في مرحلة الهجرة تضع الأسس الكبرى للمجتمع الإسلامي، وترسمُ الطريقَ إلى ظهور الأمة المسلمة.





## الْفَضْلِ الْآخِرِ

## الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مُرْمِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَاتَّهَمُ بِغَيْبِهِ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ

سَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقَطَعَنَّ فَلْيَنْظُرَنَّ هَلْ يَدْرِهَبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ  
 بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصِرَى وَالْمَجُوسَ  
 وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ  
 أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ  
 وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ  
 يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَانِ حَصَمَانِ أَحْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ  
 نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَلِّعٌ مِنَ  
 حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ  
 اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَاكُونَ فِيهَا  
 مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ  
 وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

### • زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ﴾ يأمر الله تعالى بهذا النداء جميع الناس بأن يتَّقوه. والاتقاء: تجنب المكروه والاحتراس منه، والمعنى: احترسوا بطاعته عن عقوبته<sup>(١)</sup>، أو افعلوا وأوامره، واجتنبوا نواهي.

ورغبتهم سبحانه بتقواه بتذكيرهم بأنه سبحانه ربهم، فهو مالك أمرهم ومرئيتهم، فلا يأمرهم إلا بما يصلحهم ويسعدهم، ولا ينهاهم إلا عما يؤذيهم ويشقيهم.

ثم رهبهم سبحانه ببيان موجب الأمر بالتقوى فقال:

(١) تفسير القرطبي: ١٢/٣.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فلا نجاة لهم من أهوال الساعة وأفزاعها إلا بتقوى الله تعالى، فهي طريق النجاة وسُلم الأمان.

والزَّلْزَلَةُ أمر عظيم، وخطبٌ جليل، وحادثةٌ هائل، وكائنٌ عجيب، ويكفي أنه سبحانه عَظَمَهَا، ولا عَظِيمٌ أعظمُ ممَّا عَظَمَهُ اللهُ تعالى.

ومعنى الزلزلة: شدة الحركة، وهي على هذا المعنى حادثة قبل بعث الناس من قبورهم، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ [الزلزلة].

وقال أيضاً: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٣﴾ وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٤﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٥﴾ [الواقعة].

فهي حادثة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال يوم القيامة، وتصبح الأرض فيها كالسفينة في البحر الهائج، وتضطرب اضطراباً شديداً، وتختل النظم والقوانين الكونية الدنيوية، فتتناثر النجوم، وتنخسف الشمس والقمر، وتنشق السماء وتكشط.

وللزلزلة معنى آخر: وهو ما يحصلُ للنفوس والقلوب من الرعب والفرع، وهي على هذا المعنى كائنة داخلَ الصدور، وفي سويداء القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] عندما حاصرتهم جيوش الأحزاب في غزوة الخندق.

وهذه الزلزلة للقلوب تحدث بعد بعث الناس من القبور، عندما يرون أهوال القيامة وأفزاعها.

ويمكن أن يكون المراد من الآية كلا المعنيين: تضطرب الأرض وتزلزل قبل قيام الساعة، وتزلزل القلوب والنفوس بعد قيام الساعة في عرصات القيامة.

### • ذهول المَرْضَعَاتِ والحاملات:

وبعد الحديث المجمل عن زلزلة الساعة في الآية الأولى تتجه الآية الثانية إلى شيء من التفصيل، فتتحدث عن أثر الزلزلة على النفوس البشرية، وشدة وقعها على قلوبهم، فالمرأة المرضعة، وهي التي تباشر الإرضاع فعلاً، تذهل عن رضيعها من شدة ما يعتربها من الخوف والحزن:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٢).

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ وجاء التعبير عن الرضيع بـ (ما) لتأكيد شدة الذهول، فالطفل الرضيع شيء تعرفه، ولكنها لا تدري من هو بخصوصه (١).

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تلقي كل ذات جنين جنينها قبل تمام حملها، وقوله: ﴿ذَاتِ حَمَلٍ﴾ ولم يقل حامل أو حاملة، ليدل على شدة اتصال الجنين بأمه، وقوة ملازمته لها، ومع ذلك فإن شدة الهول والفرع تحملها على وضعه وإلقائه (٢).

وقد لاحظ الأطباء كثرة حوادث الإجهاض أثناء الحروب والقصف الجوي واختراق جدار الصوت، بسبب الرعب الشديد الذي يصيب الحوامل، ويؤدي إلى الإسقاط (٣).

ويحمل الكلام في الآية على التمثيل إذا كانت الزلزلة يوم القيامة، فلو كان هناك مرضعةٌ ورضيعٌ لذهلت المرضعة عن رضيعها، ولو كان هناك حامل لوضعت حملها، لشدة الهول والفرع. وأما إذا كانت الزلزلة في الدنيا فببيل الساعة فيمكن أن يكون الكلام على حقيقته.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ على التشبيه من شدة الأمر الذي نزل بهم.

﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ على التحقيق.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو

الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم.

(١) انظر: روح المعاني، للآلوسي: ١١٢/١٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: كتاب القرار المكين، ص ٦٦.

وجاء الخطابُ في رؤية الزلزلة للجمع بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ لأن جميع الناس يرونها، بينما جاء الخطاب لرؤية الناس سُكاري بصيغة المفرد: ﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾ لأن الرائي لا ينبغي أن يتَّصف بحال السكر، فلا بدَّ من إفراد المخاطب على وجه يعمُّ كل واحد منهم من غير أن يكون متَّصفاً بتلك الحالة، ويمكن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ، ولكن تعميم الخطاب لكل من يصلح خطابه أبلغ في التهويل<sup>(١)</sup>.

### • أصنافُ الكُفَّار:

وفي ظل هذا الهؤل المرعب عرضت الآيات الكريمة أصناف الكفَّار بحسب الدوافع التي دفعتهم إلى الكفر إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: وهم الذين كفروا بسبب التقليد الأعمى لغيرهم، فهم المقلِّدون.

والصنف الثاني: وهم الذين كفروا بسبب الكبر والحسد، فهم المتكبرون.

والصنف الثالث: وهم الذين كفروا بسبب حرصهم على مصالحهم المادية فهم النفعيون.

### • الصنف الأول من الكفَّار: المقلِّدون:

قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يقول الله تعالى ذاماً لمن كَذَّبَ بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، مُعْرِضاً عَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، مُتَّبِعاً فِي قَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِ وَكُفْرِهِ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ الْمَعْرِضِينَ عَنِ الْحَقِّ، الْمَتَّبِعِينَ لِلْبَاطِلِ، يَتْرَكُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَيَتَّبِعُونَ أَقْوَالَ رُؤُوسِ الضَّلَالَةِ الدُّعَاةِ إِلَى الْبِدْعِ بِالْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ»<sup>(٢)</sup>:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: وبعض الناس.

(١) انظر: روح المعاني: ١١٣/١٧؛ والتفسير الكبير: ٤/٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢٠٦/٣.

﴿مَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ينازع في شأن الله تعالى، سواء في وجوده سبحانه أو في وحدانيته أو في صفة من صفات كماله سبحانه، وهذا الجدل - كما قال سيد قطب رحمته - يبدو عجيباً من ذي عقل وقلب لا يتقي شر ذلك الهؤل المزلول المجتاح، وهو جدال (بغير علم) جدال التناول المجرد من الدليل، جدال الضلال الناشئ من اتباع الشيطان<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾: متجرد للفساد، بعيد عن الخير، فهو من قولهم: شجرة مرداء، لا ورق لها، والأمرد: المتجرد عن الشعر، ففيه معنى التجرد والتعري، والمراد به إبليس وجنوده ورؤساء الكفر والضلال<sup>(٢)</sup>.

ويدل قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على أن الجدل في وجود الله تعالى ووحدانيته لا يكون مع العلم، لأن العلم مع الإيمان بالله ووحدانيته، وإذا رأيت بعض من يُنسبُ إلى العلم يجادل في الله تعالى، فاعلم أن جداله جدال مكابرة وجحود وعناد.

كما تدل الآية الكريمة على أن الإيمان بالله تعالى ينبغي أن يكون مستنداً إلى النظر والاستدلال، لا على مجرد التقليد الأعمى، فلا تقليد في أصول الاعتقاد.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الشيطان وأمثاله من رؤوس الضلالة، وهي كتابة قدرية - كما قال ابن كثير رحمته - أي: قدر الله تعالى عليه.

﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده.

﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ أي: يضلُّه في الدنيا عن طريق الحق.

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير في جهنم.

(١) في ظلال القرآن: ٧٣/١٧.

(٢) انظر: روح المعاني: ١١٤/١٧.

## ● تقرير الأدلة:

وتقريراً للأدلة والبراهين وتقريباً لها من أذهان هؤلاء الناس قال الحق سبحانه:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّنُوفٌ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٥﴾﴾ .

ويبدو أن الصنف الأول من الكفار، صنف المقلدين، كان كفرهم ناشئاً بسبب شكهم في صفة من صفات كماله سبحانه، وهي كمال قدرته على إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم وبعثهم من قبورهم ليوم القيامة، ولهذا وجه سبحانه النداء إلى هؤلاء الناس وأمثالهم فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ﴾ أي: إن كنتم في ريب من البعث فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم وشككم.

## ● الإنسان والتراب:

وخلق الناس من ترابٍ في ضمن خلق أبيهم آدم ﷺ منه . أو: بخلق الأغذية التي يتكون منها المنّي، فالمني يستخلص من الدم، والدم مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان، والتراب مصدرُ أغذية الإنسان، ولعلّ المعنى الثاني هو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

والسُّلالة: فُعالة من السَّل، وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول: سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد، والمعنى: خلقنا الإنسان من شيء مستخرج من طين.

وقد ثبت علمياً أنَّ العناصر التي تكوّن البنية المادية لجسم الإنسان هي

العناصر الأساسية نفسها المكوّنة للتراب، إلّا أنّ تحوّل التراب إلى جسم إنساني يحتاج إلى قدرة قادر عليهم حكيم، فهو دليل على وجود الله تعالى وكمال قدرته وعلمه وحكمته، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال سيد قطب رحمته الله: «والإنسان ابن هذه الأرض، من ترابها نشأ، ومن ترابها تكوّن، ومن ترابها عاش، وما في جسمه من عنصرٍ إلا له نظير في عناصر الأرض... ولكن أين التراب وأين الإنسان؟! أين تلك الذرّات الأولى الساذجة من ذلك الخلق السويّ، والمركبّ الفاعل، المستجيب المؤثر المتأثر، الذي يضع قدميه على الأرض، ويرفّ بقلبه إلى السماء، ويحلّق بفكره فيما وراء المادة كلها، ومنها ذلك التراب، إنها نقلةٌ ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وهي أنشأت ذلك الخلق من التراب»<sup>(١)</sup>.

ومن الثابت علمياً أننا لو أخذنا قطعةً من جسم الإنسان وحلّلناها لوجدناها تتألف من ستة عشر عنصراً، وهي العناصر نفسها المكوّنة للتراب، وإنّ نسبة هذه العناصر فيما بينها في جسم الإنسان هي نفسها فيما بينها في التراب<sup>(٢)</sup>.

### • النطفة:

ويأتي بعد التراب طور النطفة:

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهي مبدأ وجود الإنسان، فلا وجود له قبلها، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

وقال أيضاً: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة].

والنطفة في لغة العرب: الماء القليل، ويُطلق على الكثير، إلا أنها بالقليل أخصّ. وقد ورد ذكر النطفة في القرآن الكريم في اثني عشر موضعاً. ودُكرت أحياناً باسم الماء المهين: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

(١) في ظلال القرآن: ١٧/٧٤.

(٢) انظر: مجلة أخبار العالم الإسلامي، العدد (١٠٦٤): الإعجاز العلمي في القرآن.



وَذُكِرَتْ بِاسْمِ الْمَاءِ الدَّفَاقِ : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق].

وذكرت باسم المنى أيضاً : ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُطْفَئُونَ مِنْ مَنِيِّ يَمِينٍ﴾ [القيامة : ٣٧].  
وليست هذه الألفاظ مترادفة ومتطابقة تماماً في المعنى، فلفظ المنى والماء يشمل النطفة ويزيد عليها السوائل التي تحتويها، يؤكد ذلك قوله تعالى الذي سبق ذكره : ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُطْفَئُونَ مِنْ مَنِيِّ يَمِينٍ﴾ [القيامة : ٣٧]؛ فالنطفة جزء من المنى.  
والأطباء يجعلون النطفة ثلاثة أنواع :

١ - النطفة المذكورة : وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المنى، والتي تفرزها الخصية.

٢ - النطفة المؤنثة : وهي البيضة التي يفرزها المبيض في المرأة.

٣ - النطفة الأمشاج : وهي البيضة الملقحة المختلطة من الحيوان المنوي والبيضة المؤنثة، قال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان : ٢].

#### • الأربعينات:

وبداية طور النطفة غيرٌ محدودة، وربما كانت مفرطة في القدام - كما يقول الطبيب مأمون شقفة في كتابه «القرار المكين» - لأنَّ النطفة تتولد من النطف حتى النطفة الأولى في ظهر أبينا آدم، ويؤكد هذا قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٧٢].

وأما نهاية طور النطفة فمختلفٌ فيه بين الأطباء، فالطبيب محمد علي البار في كتابه «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» ذهب إلى أن طور النطفة ينتهي في اليوم السابع بعد التلقيح، عندما تلتصق البيضة الملقحة - والتي أصبحت بسبب الانقسامات الخلوية فيها كرة جراثومية - بجدار الرحم<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٣٦٧.

فهو يرى أنّ المراحل الثلاث، وهي: مرحلة النطفة، ومرحلة العلقة، ومرحلة المضغة؛ تستغرق كلها أربعين يوماً فقط، هي الأربعون الأولى من حياة الجنين، واضطر بسبب هذا إلى تأويل الحديث الشريف الذي أخرجه الشيخان [البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدّثنا رسولُ الله ﷺ - وهو الصادقُ المصدوقُ - قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ...».

وذهب الطبيب مأمون شقفة إلى التمسك بظاهر الحديث، وأكد أن الأطوار الثلاثة متميزة في الزمن، يستغرق كلُّ طور منها أربعين يوماً، وأكد رأيه بأحدث ما توصل إليه الطب، وأيده بالصور والحسابات الدقيقة، وخصّص لحديث الأربعينات فصلاً خاصاً في كتابه «القرار المكين». والله سبحانه أعلم.

#### • العلقة:

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ ويأتي بعد طور النطفة طور العلقة.

ومعنى العلقة في اللغة: قطعة الدم المتخثر الجامد، وكلُّ ما علّق أو علّق بالشيء، أو دودة في الماء تعلق في حلوق الدواب، وتمتصُّ منها الدم، وكان علماء التفسير يقولون عن العلقة في الآية الكريمة: قطعة الدم الجامد، وقد بدأ المحدّثون من العلماء والأطباء ينصرفون عن هذا المعنى إلى المعنى الآخر للعلق المشتقة من العلوق والتعلق، فالعلق هي النطفة بعد أن تتعلّق بالرحم وتكتسب صفة العلوق.

ويؤكد الطبيب مأمون شقفة أنّ انطمار النطفة الأمشاج في جدار الرحم لا يعدُّ علوقاً، فلا تصبِحُ علقَةً حتى تكبر، وتأخذ بالتدلي في جوف الرحم مرتكزةً من أحد أطرافها على جداره، ويبدأ هذا التعلق بعد مرور أربعين يوماً من أول أيام طمث المرأة الحامل، وينتهي في اليوم الثمانين عندما تكبر العلقة، وتملأ جوف الرحم وتستند إلى جدرانها<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: القرار المكين، ص ١٩٧.

## ● المضعفة:

﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾ والمضعفة: القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ، إلا أنها لا تتقيّد بهذا المقدار بدليل تسمية الحديث الشريف لقلب الإنسان مضغَةً: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مضغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القلب» [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)]<sup>(١)</sup>.

ووصف الله تعالى المضعفة بأنها مُخْلَقَةٌ وغير مُخْلَقَةٌ، وقد تعددت أقوال المفسرين في المعنى المراد من هذا الوصف، والمشهور المتبادر أن المخلقة: المستبينة الخلق، أي: مضغعة مستبينة الخلق مصوِّرة، وغير المخلقة: التي لم يستبن خلقها وصورتها بعد.

وقالوا أيضاً: المخلقة: المسوِّاة التي لا نقصان فيها ولا عيب، وغير المخلقة: غير المسوِّاة، التي فيها نقص وعيب، وهذا يؤدي إلى تفاوت الناس في خلقهم وصورهم، وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم<sup>(٢)</sup>.

وقالوا أيضاً: قوله تعالى: ﴿مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾ صفة لما تسقطه المرأة قبل الولادة الطبيعية، فبعضها تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقىها وقد صارت ذات شكل وتخطيط<sup>(٣)</sup>. إلا أن صدر الآية يردُّ هذا القول، فالآية تنادي الناس المخلوقين الموجودين، ولا يشمل الخطاب الذين لم يكتمل خلقهم، وأسقطوا وهم أجنَّة في بطون أمهاتهم.

ويقول الأطباء في العصر الحاضر: إنَّ العلقه عندما تعلق في جدار الرحم تبدأ في التمايز إلى طبقتين:

الأولى: خارجية، ووظيفتها قضم خلايا الرحم، والاتصال المباشر بالبرك الدموية الرحمية، لامتنصاص الغذاء منها.

(١) انظر: إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس، للمؤلف؛ وكتاب: القرار المكين.

(٢) انظر: روح المعاني: ١١٦/١٧.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٠٦/٣.

والثانية: داخلية، ووظيفتها تكوينُ الجنين وأغشيته.

فالتبقة الخارجية غير مخلّقة، والداخلية مخلّقة يخلق منها الجنين<sup>(١)</sup>.

ولصاحب كتاب «القرار المكين» رأي قريب من هذا إلا أنه أوضح، يقول فيه: لا يمكن أن توجد كلمة في لغة العرب تصفُ محصولَ الحمل في اليوم الثمانين أبلغ وأدق وأكثر إعجازاً من هذه الكلمة: ﴿مُضَغَّةٌ مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ!﴾ إنها تتألف من جزء مخلّقت مصوّر تعرفه إذا أخرج لك من الداخل على أنه بشر سويّ، ومن قرص لحمي أحمر، ليس عليه تصوير ولا تخلّق ولا أعضاء، هو المشيمة، وهما مرتبطان معاً<sup>(٢)</sup>.

### • تحريم قتل الأجنّة المعوّقين:

ويجب التنبيه هنا إلى أنّ ولادة بعض الأطفال معوّقين ومُشوّهين اقتضته المشيئة الإلهية والحكمة الربانية، فالحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، ولا بدّ فيها ليتم الابتلاء والاختبار من التفاوت بين الناس في الرزق والأولاد، والخلق والصور، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

فقد ابتلى سبحانه الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء، والمرضى بالأصحاء، وكاملي البنية بناقصيها من المعوّقين والمشوّهين... إلخ، ولا يعرف الإنسان قدرَ نعمة الله تعالى عليه إلا عندما يفقدها أو يرى من ابتلى بفقدتها.

ولا تتوقّف سعادة الإنسان على كمال بنيته، فكم من المعوّقين من يستشعر السعادة في حياته أكثر من كاملي البنية الأصحاء، بل إنّ في المعوّقين من أنعم الله تعالى عليهم بقدرات ومواهب لا يوجد مثلها عند كثير من الأصحاء.

أقول هذا رداً على أولئك الداعين إلى قتل الأجنّة الذين يكتشف الأطباء أنهم ناقصو التخليق، وأنهم سيولدون معوّقين، لقد وضع هؤلاء أنفسهم في غير

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن.

(٢) القرار المكين، ص ٢٣٢.

موضعها، وتجاوزوا حدودَ عبوديتهم لله تعالى خالق الحياة ومالكها، فأرأوا أنفسهم كأنهم أصحابُ الحياةِ وصانعوها، يسمحون بالحياة لمن يريدون من البشر، ويحرمون منها مَنْ يريدون، ونسي هؤلاء أو تناسوا أَنَّ الحياةَ مُلْكُ الله تعالى وحده، وهو سبحانه أعلمُ منهم بما يصلح للحياة وما يناسبها، فعليهم أن يعرفوا قُدْرهم، ويلزموا حدَّهم، ويتركوا شأنَ تدبير الحياة وتنظيمها لخالقها وبارئها سبحانه.

﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معناه: لنبيِّن لكم قدرةَ الله تعالى على تطويرِ خلقِ الإنسانِ حالاً بعد حالٍ، وطوراً بعد طورٍ، فإنَّ كل ذلك يتمُّ بقدرته سبحانه ومشيئته، فكلُّ تغييرٍ يحدثُ للجنين داخلَ الرحم يتمُّ بقدرته سبحانه ومشيئته وعلمه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

فكمالُ التخليق والتصوير ونقصه منوطٌ بمشيئته سبحانه وحده وقدرته وحكمته، ولا يستطيعُ أحدٌ تغييره وتبديله.

قال سيد قطب رحمته الله: «﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾...» ﴿فَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ وَاجْتَنِبُوا نَهْيَ اللَّهِ إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾» [البقرة: ٢١٧].

يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح في المضغة، وذلك على طريقة التناسق الفني في القرآن<sup>(١)</sup>.

أو: لنبيِّن لكم ما يُزيلُ عنكم الريب والشك في قدرة الله تعالى على بعثكم يومَ القيامة من قبوركم وإعادة الحياة إليكم<sup>(٢)</sup>.

#### • القدرُ المعلوم:

وبعد أن يتم تخليق الجنين وتنفخ فيه الروح يبقى في رحم أمه بمشيئة الله تعالى إلى وقت وضعه وخروجه من بطن أمه، قال تعالى:

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الوقت الذي قدره الله تعالى لخروج الجنين طفلاً، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات].

(١) في ظلال القرآن: ٧٥/١٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٢٢/٦.

والقرار المكين: هو الرحم الذي جعله الله تعالى بقدرته وحكمته مكيناً حافظاً للنطفة التي تُجَعَلُ فيه حتى يكتمل نموها، وتصل إلى الأجل المسمّى في علم الله ومشيتته، فيلفظها الرحم، ويخرجها طفلاً:

﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي: طفلاً طفلاً، فهو مصدر يستوي فيه الواحد وغيره<sup>(١)</sup>.

وجاء قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على سبيل الاستئناف ولم يُعطف على ما قبله، لأنّ دلالة ما قبله على كمال قدرة الله تعالى أجلى وأظهر، أي: ونحن نقرّ في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقرّه فيها إلى أجلٍ مسمّى، وفيه إشارة إلى أنّ بعض ما في الأرحام لا يشاء الله تعالى إقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه<sup>(٢)</sup>.

فالإقرار بمشيئته سبحانه، والإسقاط بمشيئته أيضاً، والأجل المسمّى محسوبٌ بدقة وعناية، وإنّ الزيادة عليه أو الإنقاص منه ليس في مصلحة الجنين والأم.

وتقديرُ الأجل المسمّى لولادة الجنين يتعلّق بنموّه، بحيث يستطيع التلاؤم مع الظروف خارج الرحم، وحين تصبح أقطارُ حجم رأسه قد بلغت أقل من أقطار حوض أمه بقليل، بحيث تتم ولادته ببطء ولطف، فلا يمرُّ فجأة فيؤذي ويتأذى، ولا يتأخّر أكثر مما يلزم، وذلك لأنّ حوض الأم قناة مفصّلة تفصيلاً دقيقاً على قياس رأس الجنين عند تمام الحمل، ولولا أنّ الحوض قد أُعِدَّ على قياسه بعناية لما أمكنت الولادة، فلو كان الرأس صغيراً فإنه يمرُّ بسرعة تعرّضه للمرض والنزف الدماغي<sup>(٣)</sup>.

إنه التقدير الإلهي المحكم: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (٦١) إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٦٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدَرُونَ ﴿٦٣﴾ [المرسلات].

(١) روح المعاني: ١١٧/١٧.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٦/٤.

(٣) انظر: القرار المكين.

## • من الأشدَّ إلى أرذل العمر:

﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي: لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل والتميز. وذَكَرَتْ لام التعليل هنا لبيان أهمية مرحلة بلوغ الأشد، فهي المرحلة التي يصبح فيها الإنسان مكلفاً ومسؤولاً، ولهذا أسند الله تعالى فعل البلوغ إلى المخاطبين تذكيراً لهم بأهمية مرحلة التكليف، وأنه أصبح لهم فيها استقلال وكسب واختيار.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّي﴾ بمشيئة الله تعالى وتقديره قبل بلوغ الأشد وبعده، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُأْبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلٍ وَلَيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو سنُّ الضعف والهزم والخرف. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: ليعود كهيئته الأولى عندما كان طفلاً فينسى ما علمه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]. وكان النبي ﷺ يستعيد من الارتداد إلى أرذل العمر فيقول: «اللهم إني أعودُ بك من البخل، وأعودُ بك من الجبن، وأعودُ بك أن أرددَ إلى أرذلِ العُمُر، وأعودُ بك من فتنَةِ الدنيا وعذابِ القبرِ» [رواه النسائي (٥٤٩٦)].

## • الزوجية في المخلوقات:

ثم ساقَت الآية الكريمة دليلاً آخر يبيِّن قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم، وجاء هذا الدليلُ من الآفاق المحيطة بالإنسان بعد ما سبق من الأدلة القائمة في نفس الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ﴾ والخطابُ لكلِّ من تتأتى منه الرؤية، وصيغة المضارع (ترى) للدلالة على التجدد والاستمرار<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير أبي السعود: ٤/٧.

﴿هَامِدَةً﴾ أي: يابسةً ميتةً.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت ترابها لأجل خروج النبات.

﴿وَرَبَّتْ﴾ وانتفخت بسبب نمو النبات وتداخل الماء.

﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من كلِّ صنفٍ جميلٍ حسن المنظر.

وسمَّاه الله زوجاً لأن له زوجاً آخر يقابله من جنسه ونوعه.

ومن الثابت علمياً أنَّ عنصري المذكر والمؤنث موجودان في جميع النباتات كما هو الحال في الإنسان والحيوان، بل إنَّ الزوجية مشاهدة في كل المخلوقات، وهذا من الحقائق العلمية التي أخبر عنها القرآن الكريم قبل أن يكتشفها الإنسان بزمن طويل، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ

أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وهكذا يتحدث القرآن الكريم عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلكهم في آية واحدة من آياته، وإنَّها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة، وإنَّها للدليل على وحدانية الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والنبات والحيوان والإنسان<sup>(١)</sup>.

هذه الأدلة القائمة في نفس الإنسان وفي الكون المحيط به تدل دلالة قاطعة على وجود الله سبحانه ووحدانيته وكمال قدرته:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ فهو سبحانه الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله،

المحقق لما سواه.

﴿وَأَنَّهُ يُخِي الْمَوْتَىٰ﴾ بدءاً وإعادة، وإلا لما أحيى النطفة والأرض الميتة.

﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) في ظلال القرآن: ٧٦/١٧.



﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٧).

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ بمقتضى مشيئته سبحانه وحكمته .

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شك فيها .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ .

#### • الصنف الثاني من الكفار: المتكبرون:

ثم بيّن الله تعالى حال الصنف الثاني من الكفار، وهم المتكبرون رؤوس الكفر والبدع ودعاة الضلالة، فقال عزّ شأنه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٨).

أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى<sup>(١)</sup>.

﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٩).

﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ أي: معرضاً متكبراً، فإنّ ثني العطف كناية عن التكبر.

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا يكتفي بضلاله، بل يسعى لإضلال غيره.

وهذا الصنف من الناس لا ينفع معه بيان الدليل والبرهان، لا ينفع معه إلا التهديد والوعيد، ولهذا قال سبحانه مهذّباً ومتوعداً:

﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: ذلّة وصغار.

فلا يدع الله عزّ شأنه المتكبرين والمتعجرفين والضالّين المضلّين حتى يحطّم كبرياءهم الزائفة، وينكسها ولو بعد حين، وإنّما يمهلهم أحياناً ليكون خزيهم أعظم وتحقيرهم أوضح وأكبر، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِتْهُ» [رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣)].

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٨/٣.

﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِّ﴾: وله في الآخرة عذاب أشد وأوجع، ويقال له تقريباً وتوبيخاً:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ أي: ذلك العذاب نتيجة عملك السيئ الذي عملته بكسبك واختيارك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

### • الصنف الثالث من الكفار: الماديون النفعيون:

وهم طلاب الدنيا، عبيد الدرهم والدينار، الذين يزنون كل شيء حتى العقيدة بميزان الربح والخسارة، ويوجد هذا الصنف من الناس في كل زمان، ولكنهم في الزمن الحاضر أكثر عدداً وانتشاراً، بسبب طغيان الحضارة المادية المعاصرة. قال تعالى في شأنهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي: وهو على طرف من الدين لا ثبات له فيه، كالذي يقف في طرف الجيش فإن أحسن بظفرٍ قرٍّ، وإلا قرَّ.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ دنيوي في الصحة والسعة.

﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: ثبت على ما كان عليه ظاهراً، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين<sup>(١)</sup>، فثباته في الحقيقة ليس على الإيمان، إنما ثباته على ما حصل له من منفعة مادية.

﴿وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ بلاء أو مكروه في نفسه أو أهله أو ماله.

(١) تفسير أبي السعود: ٩/٤.

﴿أَنْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِي﴾ أي: ارتدَّ ورجع عن دينه إلى الكفر.

وفي «صحيح البخاري» [٤٧٤٢]: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجلُ يقدمُ المدينةَ، فإن ولدتُ امرأتهُ غلاماً ونتاجتُ خيله، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلدِ امرأتهُ، ولم تُنتجِ خيله، قال: هذا دينُ سوءٍ <sup>(١)</sup>.

وقد جرت سنته سبحانه في خلقه أن يمتحن المؤمنين ويبتليهم تمحيصاً لهم، فيظهر سبحانه بهذا صدق الصادقين وكذب المنافقين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت].

### • في حَمَى الإِيمَانِ:

﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لأنَّ الإيمان بالله تعالى فيه خير الدنيا والآخرة.

ورحم الله سيد قطب عندما تحدَّث في ظلال هذه الآية الكريمة عن أهمية العقيدة الإسلامية في حياة الإنسان الدنيوية، فقال: «إنَّ العقيدةَ هي الركيزةُ الثابتةُ في حياة المؤمن، تضرب الدنيا من حوله، فيثبت هو على هذه الركيزة، وتتجاذبه الأحداثُ والدوافعُ، فيتشبَّث هو بالصخرة التي لا تتزعزع... لا ينتظر عليها جزاءً، فهي في ذاتها جزاءً، ذلك أنَّها الحمى الذي يلجأ إليه، والسند الذي يستندُ عليه، أجل هي في ذاتها جزاءً على تفتح القلب للنور، وطلبه للهدى، ومن ثمَّ يهبه الله العقيدة ليأوي إليها، ويطمئنَّ بها، هي في ذاتها جزاءً يدركُ المؤمنُ قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله تتجاذبهم الرياح، وتتقاذفهم الزوابع، ويستبدُّ بهم القلق، بينما هو في عقيدته مطمئن القلب، ثابت القدم، هادئ البال، موصول بالله، مطمئن بهذا الاتصال» <sup>(٢)</sup>.

وتصديق ذلك في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٩/٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٧٩/١٧.

فما أعظم خسارة هذا الصنف من الناس! :  
﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ﴾ الذي لا عوض عنه ولا تلافي له .

### • الضلال البعيد:

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٦)

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: يعبد ويطيع غير الله تعالى .

﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ في حال الإعراض عن عبادته وطاعته .

﴿وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ﴾ في حال عبادته وطاعته، لأنَّ النفع والضرب بيد الله سبحانه وحده، وهو القائل: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] .

وقال رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح] .

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: عبادة وطاعة ما لا يملك نفعاً ولا ضرراً

ضلال بعيد عن الحق والهدى، وعن من بيده وحده النفع والضرر .

ثم بين سبحانه لأولئك الماديين النفعيين الذين يزنون عقيدتهم بميزان الربح والخسارة، ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل، بين لهم خطأهم باللغة التي يفهمونها ويتأثرون بها، لغة النفع والضرر، فهم عندما يتوجهون لغير الله تعالى استجاباً للنفع ودفعا للضرر، فإنهم يتوجهون إلى من ضرره أقرب إليهم من نفعه:

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَكَانَ الْعَشِيرُ﴾ (١٧)

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ لأنه يجلب لهم في الدنيا الخزي والذلة

والعار، ويوصلهم في الآخرة إلى العذاب الأليم في النار.

ثم بَيَّنَّ سوءَ حالِ معبودهم بعد أن بَيَّنَّ سوءَ عبادتهم، فقال سبحانه:

﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ الناصر.

﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ الصاحب من الأوثان والأصنام ورؤساء الكفر والضلال.

### • الفَعَالُ لما يريد:

فعلى الذين يبحثون عن السعادة الحَقَّةَ أن يتوجَّهوا بقلوبهم وعملهم إلى الجنة، فهناك السعادة الحقيقية والنعيم المقيم، عليهم أن يشمروا لها، ويعملوا من أجلها، ويتسابقوا على مضمارها ويتنافسوا في ميدانها، ففيها المنفعة الحَقَّةَ التي تُرجى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤).

فهل يوجد أحدٌ غير الله يفعل ما يريد؟! هل في هؤلاء الذين يخشى الناس شرَّهم، ويرجون نفعهم مَنْ يستطيعُ فعلَ كل ما يريد؟! هل فيهم فعَّال لما يريد؟! مَنْ غيرُ الله تعالى يتَّصف بالإرادة المطلقة، والمشيئة التامة النافذة في كل ذرَّة من ذرَّات الموجودات؟! مَنْ غيرُه تعالى يخلقُ الأسبابَ والمسبِّبات؟! مَنْ بيده ملكوتُ الأرض والسموات؟! : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]!.

### • حُسنُ الظنِّ بالله تعالى:

الله ﷻ هو الخالق المالك المُدبِّر، وإرادته سبحانه نافذة في كل المخلوقات، والإنسان مملوك ومخلوق، وإرادته تابعة لإرادة خالقه ومالِكه ومدبِّر أمره، ولا يمكن أبداً أن تكون إرادة المخلوق أقوى من إرادة الخالق سبحانه، فلا يتحرك متحرِّك، ولا يسكن ساكن في الكون كله إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته. هذا الاعتقادُ أصلٌ كبيرٌ من أصول عقيدة التوحيد يجب الانتباه إليه

وملاحظته في كثير من الأمور التي يواجهها الإنسان في حياته، فلا تعترض أيها الإنسان على الله تعالى إذا ضيق عليك في الرزق، فالأمر منوط بمشيئته سبحانه لا بمشيئتك، ولن يأتيك من الرزق إلا ما شاء الله تعالى وقدره لك.

وإذا دعوت الله تعالى فلا تتعجل الإجابة وتقول: دعوتُ فلم يُستجب لي، فقد تكفل سبحانه بالإجابة في الوقت الذي يشاء، لا في الوقت الذي تشاء، واعلم أن استعجال الإجابة من موانع الإجابة، كما في الحديث الشريف: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: قد دعوتُ فلم يُستجب لي» [رواه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥)].

وإذا كنت في محنة أو ضائقة فثق بالله تعالى، وكن قوي الرجاء برحمته سبحانه وفضله، فلا ينبغي لطول المحنة وقوة الضائقة أن تزعزع ثقتك بالله تعالى ورحمته، فلا تستبطئ نصر الله تعالى، اعتصم بالله، وتمسك بتقواه، وتذكر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق].

فاستبطاء النصر لن يؤدي إلى تعجيله، بل يؤدي إلى حرمانك منه، لأنك تسيء الظن بالله تعالى، وهو سبحانه معك يؤيدك وينصرك ما دمت تحسن الظن به سبحانه: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

وسوء الظن بالله تعالى يحرمك من فضله وإحسانه، فمن أنت حتى تسيء الظن بالله تعالى؟! أنت خلق صغير وضعيف من مخلوقاته التي يعجز عقلك عن الإحاطة بها، ومهما كنت قوي الإرادة واسع الحيلة فلن تستطيع أن تغير شيئاً أراد الله تعالى وقضاه:

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ  
فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهَبَ كَيْدُهُ مَا يَعْبُطُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴿١٥﴾﴾ أي:  
فليمدد جبلاً إلى سقف بيته.

﴿ثُمَّ لَيَقَطَعَنَّ﴾ أي: ليختنق بقطع نفسه.

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ أي: فليتصور في نفسه هل يُدْهِبُ عمله

هذا غيظ نفسه؟! .

فما عليه إلا أن يرضى عن الله تعالى، وأن يكون دائماً على ثقة به سبحانه

متوكلاً عليه متمسكاً بهدي كتابه:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، معتقداً أنه سبحانه الفعال لما يريد:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ﴾: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، له الحكمة

التامة، والحجة البالغة، لا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا راداً لقضائه.

وكما أن شأن الهداية والضلال في الدنيا منوطٌ بمشيئته تعالى، فهو سبحانه

أيضاً يتولَّى يوم القيامة محاسبة الناس والفصل بينهم مهما اختلفت مللهم ونحلهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ

يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾ .

فالله سبحانه شهيدٌ على أفعال جميع المخلوقات، حفيظٌ لأقوالهم، عليمٌ

بسرائرهم وما تكنُّ ضمائرهم، وهؤلاء المذكورون في الآية هم أصلُ جميع

الملل والنحل: المؤمنون وهو الناجون منهم، واليهود، والصابئون الذين لا دين

لهم، والنصارى، والمجوس، والمشركون.

#### • الخضوع والانقياد لله تعالى:

والدليلُ على كمال قدرة الله تعالى وتمام مشيئته سبحانه أن كلَّ مَن يتفكَّر في

المخلوقات التي حوله يعلم أنها منقادةٌ انقياداً تاماً لمشيئة الله تعالى وتدبيره،

خاضعة خضوعاً كاملاً للنواميس الكونية التي أحكمها الله تعالى ببالغ حكمته

وباهر صنعته، فالكلُّ في الحقيقة مسخَّرٌ ومذلَّلٌ لتدبيره سبحانه، ونافذ في الجميع

أمره ومشيتته، ولا يشذ عن الخضوع لأمره إلا المكلفون من الناس، فالمؤمنون منهم يسجدون لله تعالى سجوداً طاعة وعبادة، والكافرون الذين حَقَّ عليهم العذاب يأبون الخضوع والانقياد لله تعالى ويُعرضون عن أمره كُفْراً وعناداً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۝﴾، وحمل بعض المفسرين السجود على حقيقته وقالوا: إنَّ كل شيء يسجد لعظمته سبحانه، وسجود كل شيء مما يختصُّ به (١).

﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾: وما أعزَّ أحدٌ نفسه بمثل سجوده لله تعالى وطاعته له، وما أذلَّ أحدٌ نفسه بمثل إعراضه عن طاعة الله وعبادته، ولن يجد له مكرماً يكرمه إذا أهانه الله تعالى وأذَّله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾: لأنه سبحانه يفعل ما يشاء.

#### • الخصمان:

وتمام مشيئة الله تعالى وإرادته لا يعني أن الإنسان لا مشيئة له ولا إرادة، فقد شاء الله تعالى أن يكون للإنسان المكلف مشيئة وإرادة، فله كسب واختيار في إيمانه وكفره وطاعته لله تعالى وإعراضه عنه، والدليل على ذلك أن كثيراً من الناس اختاروا الكفر بالله تعالى، وأعرضوا عن عبادته وطاعته، فأصبح الناس نتيجة ذلك فريقين: فريق مؤمن، وفريق كافر، وحدث بينهم ما هو واقع مشاهد من الخصام والاختلاف والاقتيال بسبب الإيمان والكفر، قال تعالى:

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢١١/٣.



﴿ هَذَا خِصْمَانِ أَخْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يَصُبُّ مِنْ  
فَوْقَ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (١٩)

﴿ هَذَا خِصْمَانِ أَخْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾، وقد تعددت أقوال علماء التفسير في الذين نزلت بهم الآية الكريمة، وكان أبو ذر رضي الله عنه يقسم قسماً أن الآية نزلت في الذين برزوا يوم بدر: من المؤمنين: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنه، ومن الكفار: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة.

وقال بعضهم: هما المسلمون وأهل الكتاب.

وروي عن مجاهد عن ابن عباس: أنهم المؤمنون كلهم، والكافرون كلهم، من أي ملة كانوا. وهذا القول يجمع الذين نزلت فيهم الآية وغيرهم<sup>(١)</sup>. وهو أظهر من غيره، لأن خصوص السب لا يمنع عموم الحكم.

#### • ثياب من نار:

وما دام الإنسان يتمتع بأهلية الكسب والاختيار فهو مسؤول أمام الله تعالى يوم القيامة عن كسبه واختياره، ويترتب على هذه المسؤولية العقاب والثواب، قال تعالى:

﴿ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ ﴾ أي: تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار جهنم. وذكر بلفظ الماضي، لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق.

وقد تكون الثياب من قطران، كما في قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعَشَىٰ جُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقد يكون المراد من ثياب النار ما يحيط بهم من النار كإحاطة الثياب، فصارت النار كالثياب كما صار الليل كاللباس في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا ﴾ [النبأ: ١٠].

(١) تفسير القرطبي: ٢٦/١٢.

ومع ثياب النار:

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الحار المغلي بنار جهنم.

﴿يُصَهَّرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٦٠).

أي: يُذابُ به كلُّ ما في بطونهم حتى ينفذَ من جلودهم، قال ﷺ: «إنَّ الحميمَ ليصبُّ على رؤوسهم، فينفذُ الحميمُ حتَّى يخلصَ إلى جوفه، فيسلتُ ما في جوفه حتَّى يمرقَ من قدميه؛ وهو الصَّهْرُ، ثم يُعادُ كما كان» [رواه الترمذي].

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (٦١).

يُضربون بها، والمقامع: جمع مقمعة، وهي آلة القمع.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٦٢).

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي: من النار.

﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي: كلُّما أرادوا الخروجَ من النار بسبب ما يعترهم من الغمِّ العظيم.

﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ بأن يردوا من أعاليها إلى أسافلها بمقامع الحديد، فلا

خروج لهم من النار أبداً، ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً:

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

#### • ثياب من حرير:

ثم بيَّن سبحانه مصير الذين آمنوا بعد ما سبق ببيان مصير الذين كفروا فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٦٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾،

ولا يخفى على المتأمل تغيير الأسلوب من الشدَّة والغلظة إلى اللين والطلاوة.

وأسندت الآية الكريمة الإدخال إلى الله تعالى تكريماً للمؤمنين، وتعظيماً لشأنهم، وليبان فضله سبحانه عليهم.

﴿يُكَلِّمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يتمتعون بكل أنواع الزينة ومنها أساور الذهب.

﴿وَلَوْلُؤُا﴾ أي: ويحلون لؤلؤاً أيضاً، وهو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف.

﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ثيابهم في الجنة من حرير الجنة، فما أعظم الفرق بين ثياب النار وثياب الحرير!

#### • القول الطيب:

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (٢٤).

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: دلهم الله تعالى وأرشدهم إلى الجنة، التي لا يسمعون فيها إلا الكلام الطيب، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ (٢٥) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة].

﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الذي يحمدون فيه ربهم على إحسانه وإنعامه.

وقال بعض المفسرين: القول الطيب هو القرآن الكريم، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة. وأما الصراط الحميد فهو الطريق المستقيم في الدنيا.

وهذا المعنى لا يتنافى - كما قال ابن كثير رحمته الله - مع المعنى المذكور سابقاً<sup>(١)</sup>، ولعلّه هو المعنى المراد من الآية، لأنه يتفق مع ما سبق الحديث عنه في موضوع سورة الحج، فإنّ القرآن الكريم عموماً وكلمة (لا إله إلا الله) خصوصاً أساس المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة.

ففي القرآن الكريم المنهج الكامل لكل ما يحتاج إليه المجتمع من نظم

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢١٣/٣.

وتشريعات وأسس وقواعد، وفي كلمة (لا إله إلا الله) العقيدة التي تربط بين أفراد المجتمع الإسلامي، وتخرج منهم الأمة المسلمة التي جعلها الله تعالى خير أمة أخرجت للناس.

إنها الكلمة الطيبة ذات الجذور الراسخة الثابتة في قلب كل مسلم، والتي تمتد فروعها عالية شامخة إلى السماء، فيستظل بظلها المسلمون مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم، وتباينت ألسنتهم، وتباعدت بلادهم وأقطارهم.

إنها تمثل الرابطة المعنوية التي تربط بين أبناء الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، يستشعر المسلم من خلالها قوة وعمق الانتماء إلى الأمة المسلمة.





## الْبَيْتُ الثَّانِي

### الْبَيْتُ الْحَرَامُ وَفَرِيضَةُ الْحَجِّ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعُرَفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْهِمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمِ شَعْتِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْهِمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَجِدْ فَالَهُ اسْلِمُوا وَيَشِرَّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ لُحُومُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجِئَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْفُقَرَاءَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِن يَبَالُهُ النَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيَشِرَّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

## • الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ:

وثمة رابطةٌ أخرى للأمة المسلمة ذاتُ رحمٍ وثيقٍ بالكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، وهذه الرابطةُ هي الكعبةُ المشرفةُ في البلد الحرام مكة المكرمة، التي جعلها الله تعالى مثابةً للأمة المسلمة وأمنًا، ورمزاً مادياً وروحياً لوحدة المسلمين وتوحيدهم، يتوجّهون إليها في صلاتهم كل يوم خمس مرات، وهم يعبدون الله الواحد الأحد، كما يؤدون في حرَمها ورحابها مناسك حجّهم وعمرتهم، ولهذا جاء الحديث عن بيت الله الحرام في الآيات الكريمة بعد الحديث مباشرة عن الكلمة الطيبة لما بينهما من ارتباط، ولكونهما يمثلان الأساس المادي والروحي للأمة المسلمة، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

لقد عرف أعداء الإسلام منذ فجر الإسلام أنّ القرآن الكريم وبيت الله الحرام وما يؤدّي فيه من المناسك مقوماتُ الأمة المسلمة، فعملوا جاهدين ليُبعدوا المسلمين عن هدي القرآن الكريم وشرعه، كما عملوا على وضع المعوقات - ولا يزالون - لصدّ المسلمين عن التوجّه إلى بيت الله الحرام وأداء مناسك الحج والعمرة فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الصَّدُّ: المنع، أي: وهم يصدّون غيرهم، وبهذا حسنَ عطفُ المستقبل على الماضي، فالماضي (كفروا) والمستقبل (يصدّون) فكأنه قال: إن الذين كفروا من شأنهم الصَّدُّ<sup>(١)</sup>.

وإن وقائع الماضي والحاضر في المحاولات الكثيرة التي قام بها أعداء الإسلام ولا يزالون يقومون بها للصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام لتؤكد حقيقة ما أخبر الله عنه في هذه الآية الكريمة، وتبيّن إعجاز كلام الله سبحانه،

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣١/١٢.

وهو يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

### • الصَّدُّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ:

فقد كان رسول الله ﷺ أول مَنْ صُدَّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عندما منعه المشركون من قريش من الدخول إلى مكة بعد خروجه إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام، ثم صدته قريش مرة ثانية مع أصحابه في العام السادس من الهجرة عندما أتى مكة معتمراً، وكان ما حدث بعده من صلح الحديبية.

وبقي أعداء الإسلام يعملون على وضع المعوّقات في وجه الحُجَّاج والعمَّار بعد أن فتح الله تعالى مكة للنبي ﷺ في العام الثامن من الهجرة، وطهرها من الأصنام والأوثان، وأعاد عليه الصلاة والسلام للكعبة المعظمة صفاء التوحيد الذي بُنيت من أجله.

وكانوا يستغلون ضعف المسلمين وتفريقهم بعد أن دبَّ الوهن والضعف إلى الخلافة الإسلامية، فيتعرَّضون للحُجَّاج والعمَّار، بل كانوا أحياناً يتمكنون من الوصول إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، ففي سنة (٣١٧هـ) تمكَّن بعض القرامطة الباطنيون من الوصول إلى مكة المكرمة، فعاثوا في رحاب حرمتها وشعابها فساداً، وقتلوا عدداً كبيراً من الحُجَّاج في داخل المسجد الحرام، وألقوا بجثثهم في بئر زمزم، ونزعوا كسوة الكعبة، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم اثنتين وعشرين سنة حتى ردَّوه في سنة (٣٣٩هـ)<sup>(١)</sup>.

وكذلك حاول الصليبيون بعد ذلك الوصول إلى بلاد الحجاز، ودخول أرض الحرم، ففي سنة (٥٧٨هـ) تعرَّض أرناط الذي كان مسيطراً على حصن الكرك لقافلة من الحُجَّاج، فاستولى عليها، ثم وضع مشروعاً ضخماً للزحف على الحجاز، فبنى أسطولاً بحرياً في أيلة على ساحل البحر الأحمر بعد أن استولى عليها، ثم أغار بأسطوله على ساحل الحجاز، ونزل بالحوراء قرب ينبع، ثم أبحر إلى رابغ، فنزل بها وخرَّبها، فسارع العادل أخو صلاح الدين

(١) انظر: البداية والنهاية: ٣١٧/١١.

فأرسل أسطولاً من مصر تعقّب سفنَ أرناط ودمرها أمام ساحل الحوراء، وقتل كلَّ من كان فيها من الصّليبيين، وتعقّب الفارّين إلى الشاطئ فأسرهم جميعاً، وأرسل بعضهم إلى منى، فقتلوا هناك في موسم حج هذا العام<sup>(١)</sup>.

وفي العصر الحاضر أدرك المستشرقون والمنصّرون أهمية المسجد الحرام ودوره في التّأليف بين المسلمين وتوحيدهم، فعملوا على توجيه الدول النصرانية المستعمرة لوضع العراقيل والمعوقات في وجه المسلمين الذين يريدون أداء مناسك الحج والعمرة.

ولما لاحظت الحكومة الهولندية عندما كانت تستعمر أندونيسية أن أكثر الذين ثاروا على حكمها من أجل الاستقلال كانوا من حجاج بيت الله الحرام، أرسلت جاسوساً ادعى الإسلام، وسمّى نفسه عبد الغفّار بعد أن كان اسمه كريستيان ستوك، لمراقبة الحجاج، وإرسال التقارير عن مكة وما يجري فيها وخاصة في مواسم الحج.

ومن الكلمات المشهورة التي قالوها ما نُقل عن وليم جيفور ديلجران أنه قال: «متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربيّ يتدرّج في سبيل الحضارة الذي لم يبعده عنها إلا محمّد وكتابه»<sup>(٢)</sup>.

وفي موسم حج عام (١٤٠٧هـ) حاول الحجاج الإيرانيون الحُمينيون إثارة الشغب في مكة بعد عصر اليوم السادس من ذي الحجة، وتوجهوا إلى المسجد الحرام، وهم يرفعون صور الخميني، لكنّ قوات الأمن السعودية تمكنت بحمد الله تعالى من إيقافهم وتفريقهم، وأعادت النظام والأمن إلى ربوع الحرم الشريف، وأدى الحجاج مناسك حجّهم بسُر وسهولة.

إن الصّدّ عن المسجد الحرام صدٌّ عن سبيل الله ودينه وشرعه، والصّدّ عن سبيل الله صدٌّ عن المسجد الحرام، لما بينهما من تلازم واتصال، ولهذا توعدّ الله تعالى الذين ينتهكون حرمة المسجد الحرام بأشدّ أنواع الوعيد بعد أن بيّن

(١) انظر: الصراع بين العرب وأوروبا.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي؛ وكتاب اللسان العربي والإسلام معاً في معركة المواجهة.



حق جميع المسلمين بعبادة الله وحده فيه، فقال:

﴿إِنَّ الذِّبْنَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: فلا فرق بين العاكف فيه وهو المكي المقيم فيه، والباد وهو غير المكي المسافر إليه؛ فلكل منهما الحق في عبادة الله تعالى في المسجد الحرام.

#### • الإلحاد في الحرم:

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحُكَادِ يُظْلَمِ﴾؛ وهي جملة شرطية جوابها:

﴿تَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

والإلحاد في اللغة: الميل، والمراد: الميل إلى الظلم في المسجد الحرام، والمقصود أرض الحرم بحدوده المعروفة حول مكة، حيث يمتد الحرم من المسجد ثلاثة أميال من جهة المدينة المنورة، وسبعة أميال من جهة العراق والطائف، وعشرة أميال من جهة جدة، وسبعة أميال من جهة اليمن.

والإلحاد إلى الظلم يشمل جميع المعاصي الكبائر والصغائر حتى الإرادة السيئة، فلعظم حرمة المكان توعّد الله تعالى على النية السيئة فيه، فمن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة المكرمة، هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة من الصحابة وغيرهم<sup>(١)</sup>.

#### • الأمة المسلمة والبيت الحرام:

وكما أن للبيت الحرام ارتباطاً وثيقاً بعقيدة التوحيد، فله ارتباط وثيق أيضاً بالأمة المسلمة ووجودها على الأرض، فتاريخ وجود الأمة المسلمة مرتبط بتاريخ البيت الحرام، فمنذ كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان قواعد بيت الله الحرام، كانا يرفعان إلى الله تعالى كلما ارتفع البناء هذه الدعوات: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة].

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٦/١٢.

وعندما بَوَّأَ اللهُ تعالى لإبراهيم عليه السلام مكان البيت، وأرشده إليه، وأمره أن يرفع قواعده، أوصاه أن يطهره من كلِّ مظاهر الشرك، ويجعله خالصاً لعبادة الله وحده:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ  
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ قال ابن كثير رحمه الله: «هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش، في البقعة التي أُسِّسَتْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له»<sup>(١)</sup>.  
﴿وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له من الطائفين الذين يؤدون عبادة الطواف حول الكعبة المشرفة، وهو من أخصَّ العبادات التي لا تؤدَّى في مكان من الأرض سوى بيت الله الحرام، والمصلِّين القائمين في الصلاة الراكعين الساجدين، وقرن الطواف حول البيت بالصلاة إليه، لأنَّهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف حوله، والصلاة إليه في غالب الأحوال إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب، وفي النافلة في السفر<sup>(٢)</sup>.  
والأمر بالطهارة يشمل الطهارة الحسيَّة والمعنوية، أي: وطَّهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي عنده.

#### • تلبية الدعوة:

وبعد أن تمَّ البناء أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يدعو الناس إلى حج بيت الله الحرام، ويعلمهم بذلك:

﴿وَإِذْ نَادَى فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ إِنِّي آتِيكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأَنَا نَذِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿وَإِذْ نَادَى فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ فذكر أن إبراهيم عليه السلام لما أمر بدعوة الناس إلى حج

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢١٦/٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بيت الله الحرم قال: يا ربَّ كيف أُبلِّغُ النَّاسَ، وصوتي لا ينفذهم؟! فقال تعالى: نادِ وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقال: يا أيها النَّاسُ إنَّ ربَّكم قد اتخذَ بيتاً فحجُّوه، فيقال: إنَّ الجبال تواضعتُ حتَّى بلغَ الصوتُ أرجاء الأرض، وأسمعَ مَنْ في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل من كتب الله له أن يحجَّ إلى يوم القيامة: لبيك اللهمَّ لبيك<sup>(١)</sup>.

وهكذا ظهرت الأمة المسلمة للوجود، أمة التوحيد وأمة الإجابة التي عبدت الله وحده، ولبَّت دعوته، وأصبح الحج منذ ذلك التاريخ رمزاً لتوحيد الأمة المسلمة ووحدتها، الأمة التي تجاوزت الحدود والحواجز، وقطعت البلاد طولاً وعرضاً إلى حرم الله تلبية دعوة الله.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مُشاة.

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾: وركباناً.

﴿يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: من كل طريق بعيد.

ومن لم يتمكن من هذه الأمة أن يأتي بيت الله الحرام بجسده بسبب العجز والفقر، أتاه بروحه وقلبه واستقبله كلُّ ما وقف يناجي ربه في صلاته.

#### • منافع الحج:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةٍ

الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَ لَهُمْ﴾ وللحج منافع كثيرة كبيرة جامعة لأُمور الدنيا

والآخرة، وجاء التعبير عنها بصيغة التنكير للتعظيم والتكثير.

وأعظم منافع الحج الدينية: حصول الحاج على التوبة والمغفرة، ووصوله

(١) ذكره ابن كثير (٣/١٢٦) وقال بعده: هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف، والله أعلم.

إلى رضوان الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [رواه البخاري (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠)].

وقال أيضاً: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» [رواه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩)].

وهو مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ إبراهيم عليه السلام، ويجدون محورهم الذي يشدُّهم جميعاً إليه: الكعبة المشرفة، التي يتوجهون إليها جميعاً، ويلتفون حولها، ويجدون رايتهم التي يفيثون إليها، راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان<sup>(١)</sup>.

والحج موسم عبادة وتجارة، ففيه فوائد دنيوية لما يحدث فيه من مبادلات تجارية في مواسمه، فقد أباح الله تعالى الاكتساب في مواسم الحج، فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّاكِلِينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ثم قال تعالى منوهاً بمنافع الحج الدينية:

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ وجاء ذكرها على وجه الخصوص بعد ذكر منافع الحج إجمالاً لأهميتها، ولأنها المقصد الأساس من مشروعية الحج. وذكر الله تعالى: بعبادته وطاعته والتوجه إليه بالدعاء، مع التلبية والتسبيح والتكبير والتهليل في هذه البقاع الشريفة التي حرّمها الله تعالى وفضلها على غيرها من بقاع الأرض.

#### • الأيام المعلومات:

ومن منافع الحج: أنه سبحانه جمع للحجاج فضيلة العبادة في أفضل مكان وزمان:

(١) في ظلال القرآن: ٨٩/١٧.

- فالمكان: بيت الله الحرام الذي قال فيه النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يَنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقُطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ» قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر. فقال ﷺ: «إِلَّا الْإِذْخِرَ» [رواه البخاري (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣)].

وقوله: «الإذخر» نبات طيب الرائحة.

وقال رسول الله ﷺ أيضاً في مكة المكرمة: «مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبُّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنْ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ» [رواه الترمذي (٣٩٢٦)].

- والزمان: الأيام المعلومات، وهي أيام النحر والتشريق، وقيل: عشر ذي الحجة، وقد أقسم الله تعالى بها تنويهاً بفضلها وشرفها بقوله سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر].

وقال فيها النبي ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «وَالْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يَخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ» [رواه البخاري (٩٦٩)].

#### • من مناسك الحج:

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل، وينضمُّ إليها البقر والضأن والمعز.

وذكرها سبحانه ليدلَّ على أن ذبحها في أيام النحر منسكٌ من مناسك الحج، يُسنُّ بعد رمي جمرة العقبة، ويستحبُّ الأكل منها، ولهذا قال سبحانه:

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهو أمرٌ للإباحة، وقد أكل النبي ﷺ من لحوم هديه.

﴿وَأَطْعَمُوا الْأَبْيَاسَ الْفَقِيرَ﴾ أي: المحتاج الذي أصابه بؤس وشدة.

ومن مناسك الحج: حلق الشعر أو تقصيره بعد رمي جمرة العقبة وذبح

الهدي، قال سبحانه:

﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم عليهم بعد الحلق أو التقصير أن يزيلوا ما لحق بأجسامهم من أوساخ وأظفار وشعور زائدة.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ بإكمال أعمال حجهم، فإنَّ الإحرام بالحج أو بالعمرة التزامٌ بأداء جميع مناسكهما، فلا ينبغي التحلل من الإحرام إلا بعد أداء جميع المناسك.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهو طواف الإفاضة، ويسمى أيضاً طواف الزيارة، وهو الطواف المفروض في الحج، ويُعدُّ ركناً من أركانه، ويؤدَّى في أيام النحر بعد الوقوف بعرفة ورمي جمرة العقبة، وسُمِّي البيت بالعتيق تعظيماً له، فهو أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى وحده: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

والعتيق أيضاً معناه: الجيد الأصيل، وفيه يعتق الله تعالى بفضلته وكرمه رقاب المذنبين إذا أتوا تائبين مستغفرين.

#### • تعظيم حُرُمَاتِ الله:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأَجَلَتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ وحرمات الله: جميع ما حرَّمه الله تعالى ونهى عنه في الحج وغيره، ولَمَّا كانت مقارفة حرمات الله تعالى في أرض الحرم وأثناء القيام بمناسك الحج أقبح وأشنع، ذكرها سبحانه في سياق آيات الحج، والمعنى: ومن يجتنب المحارم التي حرَّمها الله تعالى، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه:

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جليل، فكما جعل الله تعالى على فعل الطاعات ثواباً كثيراً وأجرأً جزيلاً، كذلك جعل على

ترك المحرّمات واجتناب المحظورات<sup>(١)</sup>.

وفي معظم الحالات يكون ترك المحرّمات، والابتعاد عنها، أشقّ على الإنسان من فعل الطاعات، إذ يحتاج الإنسان إلى مجاهدة نفسه الأمّارة بالسوء ومغالبة إغراءات شياطين الإنس والجن.

وتشتد المجاهدة، وتزداد المعاناة، كلما ازداد الفساد، وانتشرت المعاصي، حتى يأتي زمانٌ يصبحُ القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر، كما جاء في الحديث الشريف: «اتّمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتّى إذا رأيتمُ شحاً مطاعاً، وهوىً متّبعاً، ودنياً مؤثّرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بِنفسك، ودَعْ عنكَ أمرَ العوام، فإنّ مِنْ ورائكم أياماً الصبرُ فيهنّ كالقَبْضِ على الجمر، للعاملِ فيهنّ مثلُ أجرِ خمسين رجلاً يعملونَ مثلَ عملِكُمْ» [رواه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٦٠) وقال: حديث حسن غريب].

ويصبح أجر العبادة كبيراً يعدل ثواب الهجرة، قال رسول الله ﷺ: «عبادةٌ في الهَرَجِ كهجرةٍ إليّ» [رواه مسلم (٢٩٤٨) والهرج: الاختلاف والفتن].

وللشباب الذي يعظم حرّمات الله تعالى، فيجاهدُ نفسه ليمنعها عن المعاصي والآثام، فضلٌ كبير عند الله تعالى يوم القيامة، يجعله الله تعالى مع الأصناف السبعة الذين يظلّهم الله سبحانه في ظلّ عرشه، فلا يصيبهم خوف ولا فزع، قال رسول الله ﷺ: «سبعةٌ يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادةِ الله، ورجلٌ قلبُه معلقٌ بالمسجدِ حتّى يعودَ إليه، ورجلان تحابَّتا في الله، اجتمعا على ذلك، وتفرّقا عليه، ورجلٌ دعتُه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجمالٍ فقال: إني أخافُ الله، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتّى لا تعلمَ شمالُه ما تنفقُ يمينُه، ورجلٌ ذكّرَ الله خالياً ففاضتْ عيناهُ» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

وتعظيم حرّمات الله تعالى تعظيم له سبحانه، وخوف من حسابه وأليم عقابه، قال عزّ شأنه: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢١٨/٣.

وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

[النازعات].

### • التحذير من الشرك وشهادة الزور:

ومن فضل الله تعالى على الأمة المسلمة أنه ما حرّم عليها شيئاً إلا أحلّ لها من المباحات ما يُغني عنه، قال تعالى:

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْبَنَاتُ إِذَا مَا بُتِيَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحلّ الله تعالى لكم أن تنتفعوا بسائر وجوه الانتفاع الموجودة في الأنعام، كالانتفاع من أصوافها وأوبارها وجلودها وألبانها ولحومها وغير ذلك، واستثنى ما ذكر تحريمه في القرآن الكريم لعارض كالميتة والدم المسفوح وما ذُبح على غير اسم الله تعالى. فعلى المسلمين أن يعظّموا حُرْمَاتِ اللَّهِ بِاجْتِنَابِهَا، والابتعاد عنها، وخاصة كبائر المحرّمات، وأقبحها: الشرك بالله تعالى، وشهادة الزور:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي: اجتنبوا وابتعدوا عن الأوثان القذرة.

والأمر باجتناب ذوات الأوثان للمبالغة في التنفير عن عبادتها<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: قول الكذب، ومنه شهادة الزور، قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» - ثلاثاً - قلنا: بلى، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت! . [رواه البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٧٨)].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى» [رواه

أبو داود (٣٥٩٩) والترمذي (٢٣٠٠)].

وذهب بعض علماء التفسير إلى أن قول الزور هو الشرك بالكلام، وذلك أنهم في الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت، فيقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك<sup>(٢)</sup>.

(١) روح المعاني: ١٤٨/١٧.

(٢) المرجع السابق: ١٤٩/١٧.



﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ .

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ حنفاء لله، أي: مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق؛ وهو دين الإسلام القائم على توحيد الله سبحانه. أو: مخلصين لله تعالى<sup>(١)</sup>. والإخلاص لا يكون إلا بالابتعاد عن كل مظاهر الشرك والوثنية ومنها الرياء وهو الشرك الأصغر.

ثم ضرب سبحانه مثلاً للمشرك في ضلاله وهلاكه وحيرته فقال:

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها.

﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه الطيور الجارحة وهو في الهواء.

﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد مُهلك.

شبه الله تعالى بهذا المثل الإيمان بالسماء لعلوه وعزته، والإشراك بالسقوط منها، فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر، وشبه حيرة المشرك وقلقه واضطراب نفسه وتشتت أفكاره بالطيور الجارحة وهي تتخطفه وتقطعه وتمزقه.

#### • تعظيم شعائر الله:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ الشعائر: معالم دين الله تعالى، كالأوامر والنواهي والواجبات والمستحبات وأماكن العبادة والطاعات<sup>(٢)</sup>. فشعائر الله أشمل من حُرُمات الله، إذ الحُرُمات من الشعائر. وتعظيم كل شعيرة من الشعائر بحسبها، فإن كانت من العبادات فتعظيمها

(١) تفسير أبي السعود: ١٨/٤.

(٢) انظر: تفسير سورة المائدة في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

بأدائها على الوجه المشروع، مع الإخلاص لله تعالى، وإن كانت من أماكن العبادة فتعظيمها باحترامها، والمحافظة على حرمتها، وتطهيرها من أي مظهر من مظاهر الشرك.

والمراد من ﴿شَعَتِرَ اللَّهِ﴾ في هذه الآية هنا: مناسك الحج ومعالمه، فقد جاءت الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن مناسك الحج، فالكعبة المشرفة، والطواف حولها بقصد العبادة من شعائر الله، وكذلك أرض الحرم، والموقف في عرفات، ومزدلفة، وأماكن رمي الجمار في منى من شعائر الله تعالى، والهدي والسعي بين الصفا والمروة، وغير ذلك من المناسك كلها من شعائر الله ومعالم دينه، يجب تعظيمها والمحافظة على حرمتها.

وحمل كثير من المفسرين الشعائر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَتِرَ اللَّهِ﴾ على الهدايا التي تذبح يوم النحر بعد رمي جمرة العقبة، وتعظيمها بأن يختارها حسناً سماناً غالية الأثمان، ولا شك أنها من شعائر الله تعالى ومن مناسك الحج، ولكنني أرى حمل كلمة الشعائر في الآية على مناسك الحج عموماً أولى.

﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي: فإن تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب، وهي التقوى الحقيقية التي يتصف بها المؤمن الصادق، أما تقوى الأعضاء فهي التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي تخشع أعضاؤه ولكن قلبه ساهٍ لاهٍ<sup>(١)</sup>.

#### • التحلل من الإحرام:

﴿لَكَرُّ فِيهَا مَنْفَعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿لَكَرُّ فِيهَا مَنْفَعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهي منافع الحج الذي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنْفَعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، والمراد من الأجل المسمى: انقضاء أيام الحج. ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا﴾ أي: ثم تحلل الحجاج من إحرامهم وأعمال حجهم.

﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي: منته إلى الطواف حول بيت الله الحرام طواف

(١) انظر: روح المعاني: ١٧/١٥١.

الزيارة أو الإفاضة بعد قضاء المناسك، ويتحللون بهذا الطواف التحلل الأكبر من الإحرام، كما يقول الفقهاء، ويحلُّ لهم كل ما كان محظوراً عليهم في الإحرام حتى النساء.

وأما التحلل الأصغر من الإحرام فيكون بالحلق أو التقصير بعد رمي جمرة العقبة، فلا يحلُّ لهم بالتحلل الأصغر كل شيء، بل يبقى الجماع محظوراً عليهم حتى يطوفوا طواف الإفاضة.

● الإسلام لله تعالى:

والتقرب إلى الله تعالى بالذبح من العبادات التي شرعها سبحانه لكل الأمم، قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ أي: عبادة يتقربون بها إلى الله تعالى، والمراد هنا التقرب إليه سبحانه بذبح الأنعام كالهدايا في الحج، والأضاحي يوم النحر، والقصد من هذه العبادات تعظيم الله تعالى وبيان فضله سبحانه على عباده.

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، ولهذا يجب ذبحها على اسمه سبحانه وحده، والتقرب بذبحها إليه سبحانه وحده، وفي تشريع عبادة الذبح لكل الأمم دليل على وحدانية الله تعالى.

﴿فَاللَّهُمَّ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي: معبودكم واحد، ولو تنوعت شرائع الأنبياء، ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واستسلموا لحكمه وحكمته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: وهم المستسلمون لله تعالى، والراضون بحكمه وقضائه.

والإخبات: الخشوع والخضوع والتواضع. والمخبتون هم:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣٥).

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت وخشعت.  
 ﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من المصائب والنوائب كالأعراض والمحن  
 والغربة عن الأوطان، فهم راضون بأحكام الله تعالى الشرعية والقدرية.  
 ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أي: الذين يؤدّون الصلاة كاملةً مستقيمةً بمراعاة  
 أحكامها وأوقاتها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في وجوه الخير ومساعدة المحتاجين.  
 وهكذا تُظهر لنا الآيات الكريمة تأثير عقيدة التوحيد على سلوك الإنسان  
 المسلم، وشدة ارتباطها بعبادته ومنهج حياته.

#### • البُدن من شعائر الله:

مرّ معنا أن تعظيم شعائر الله دليل على التقوى في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج]، وهنا يبيّن لنا سبحانه ارتباط  
 التقوى بشعيرة من شعائره بقوله:

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦).

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ والبُدن: جمع بدنة، وهي ناقة أو بقرة  
 تُذبح تقرباً لله تعالى، وسمّيت بدنة لضخامة بدنها، وكثرة لحمها.  
 ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: نفع في الدنيا، وأجر في الآخرة.  
 ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: قولوا عند ذبحها: باسم الله والله أكبر، اللهم  
 منك ولك. [أخرجه جماعة عن ابن عباس] (١).

(١) كما في روح المعاني: ١٧/١٥٦.

﴿صَوَافٍ﴾ أي: وهنَّ قائماتٌ قد صففن أيديهنَّ وأرجلهنَّ. وكانوا إذا أرادوا ذبحها قيّدوها وهي قائمةٌ وذبحوها.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت على الأرض، وهو كناية عن الموت.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهو أمر للإباحة والندب، ولو لم يأكل وتصدَّق بكل لحمها جاز.

﴿وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ﴾ وهو الراضي بما عنده من غير مسألة ولا تعرُّض لها.

﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ وهو الفقير المتعرِّض للسؤال.

والأمر بالإطعام للإباحة والندب أيضاً، فيستحبُّ أن يأكل من هدي التطوع والتمتع والقرآن والضحايا، ويستحب أيضاً أن يتصدَّق.

ثم بيَّن سبحانه فضله علينا بتسخير هذه الحيوانات لمنافعنا الدينية والدينية، فقال:

﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ﴾ أي: ذللناها لكم مع قوتها وضخامة أجسامها، فلا تستعصي عليكم، بل تقودونها وتعقلونها صافَّةً قوائمها، ثم تطعنون في لبَّاتها، وهذا كله فضل من الله تعالى عليكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على فضله وإحسانه.

#### • التقوى والإحسان:

ولا يكون الشكرُ على الحقيقة إلا بتقوى الله تعالى، والانقياد لأمره، والرضا بشرعه وقدره، ولهذا قال سبحانه:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النَّفُوسَ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ وَيَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٧)

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ فهو سبحانه غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم، ولم يأمركم أن تقتربوا إليه بذبحها لحاجته سبحانه إلى لحومها ودمائها.

﴿وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النَّفُوسَ مِنكُمْ﴾ ولكنَّه سبحانه يتقبل منكم طاعتكم لأمره، وانقيادكم لشرعه.

﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لِكُلِّ﴾ كرهه سبحانه تذكيراً بنعمته وفضله .  
 ﴿لِتَشْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: لتعظموا الله تعالى وتوحدوه وتمجدوه .  
 ﴿عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾ أي: على هدايتكم وإرشادكم إلى عبادته وطاعته .  
 ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يخلصون الله تعالى في عبادته، ويحسنون تطبيق شريعته .

وهكذا نلاحظ أنّ الآياتِ الكريمةَ تشدُّنا إلى تقوى الله تعالى في كل شعيرة من شعائر دينه، وهي التقوى التي أمر الناس بها في أول السورة عندما قال:  
 ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ١] .

فكأن الآيات الكريمة تبين للناس حقيقة التقوى، وأنها تلازم المسلم بكل عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، كما تبين مآل التقوى وعاقبتها الطيبة؛ وهي الوصول إلى مرتبة الإحسان، وهي أعلى المراتب في العبادة، وكثيراً ما نرى اقتران التقوى بالإحسان، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] .

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] .

فالتقوى تصل بصاحبها إلى مرتبة الإحسان إذا استقام عليها صاحبها، والإحسان أعلى المراتب، وأرفع المنازل، كما جاء في الحديث الشريف عندما أتى جبريلُ إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان: قال - أي جبريلُ -: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)] .



## الْقَصَصُ الثَّلَاثُ

## الْجِهَادُ

﴿٣٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ  
 بِأَنَّهُمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُحْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ  
 يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا  
 يُذَكَّرُ فِيهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ كَثِيرًا وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِذَا  
 مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ  
 عِزَّةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ  
 وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ  
 ﴿٤٤﴾ فَكَانَ مِنْ قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَدِلَةٌ  
 وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا  
 فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَسَتَجْلِبُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ  
 اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا  
 وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ  
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ  
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَخَّيَ أَلْفَى الشَّيْطَانَ فِي  
 أَمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ  
 مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقِ  
 بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْفِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ  
 وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ

مَنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّهِ بِحَمِّكُمْ  
 بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا  
 بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ  
 مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا  
 يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بَغَى  
 عَلَيْهِ لَيَصْرُنَّهُ اللَّهُ إِيَّاكَ اللَّهُ لَعَفُوًّا غَفُورًا ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي  
 النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ  
 مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٢﴾

### • تَمْهِيدٌ: سُؤَالٌ وَجَوَابٌ:

أثار ابن كثير رحمته الله سؤالاً في كتابه «البداية والنهاية» [٣١٧/١١] بعد أن ذكر ما فعله القرامطة الباطنيون عندما انتهكوا حرمة بيت الله الحرام، وقتلوا الحجاج، وأخذوا الحجر الأسود، وقد سبق ذكره في بحث: (الصدء عن المسجد الحرام)، فقال رحمته الله: «وقد سألت بعضهم سؤالاً فقال: قد أحلَّ الله سبحانه بأصحاب الفيل ما ذكره في كتابه، ومعلوم أنَّ القرامطة فعلوا بمكة ما لم يفعله أحد، فهلاً عوجلوا بالعذاب كما عوجل أصحاب الفيل؟».

ثم أجاب على ذلك فقال: «إنَّ أصحابَ الفيل إنَّما عوقبوا إظهاراً لشرف البيت، ولما يُراد به من التشريف العظيم بإرسال النبي الكريم من البلد الذي فيه البيت الحرام، ولم تكن شرائع مقررة تدلُّ على فضله، وأمَّا هؤلاء القرامطة فإنَّما فعلوا ما فعلوا بعدَ تقرير الشرائع، وتمهيدِ القواعد، والعلم بالضرورة من دين الله بشرف مكة والكعبة . . . وكل مؤمن يعلم أنَّ هؤلاء قد أهدوا في الحرم إلحاداً بليغاً عظيماً فلماذا لم يحتج الحالُ إلى معاجلتهم بالعقوبة، بل أخرهم الربُّ تعالى ليومٍ تشخص فيه الأبصار».

وأقول إلى جانب ما ذكره ابن كثير رحمته الله: إنَّ معاجلة الله تعالى بالعقوبة



لأصحاب الفيل بواسطة الطير الأبايل: حدث قبل الإسلام وقبل ظهور الأمة المسلمة المكلفة بالجهاد، التي أناط الله تعالى بها مسؤولية المحافظة على حرّماته وشعائره، ومن أهمها وأعظمها: بيت الله الحرام.

فلا ينبغي للمسلمين أن ينتظروا نزول الطير الأبايل على من ينتهكون حرمة بيت الله الحرام، فالواجب ألقي عليهم، والويل لهم إن قصّروا في القيام بواجب الجهاد وحماية حرّمات الله تعالى وشعائره وقدسيتها بيته الحرام.

ولعلّ مجيء أول آيات الجهاد في سياق الآيات الكريمة في سورة الحج بعد الآيات التي تحدّثت عن بيت الله الحرام، وارتباطه بالأمة المسلمة وعقيدتها ومناسك حجّها، يؤكّد مسؤولية الأمة المسلمة في المحافظة على حرّمات الله تعالى، وأنّ من أهمّ واجباتها وتبعاتها مجاهدة أعداء الإسلام عندما يحاولون انتهاك حرمة بيت الله الحرام، فقد أنهت آيات الجهاد في سورة الحج عصور الطير الأبايل، وفتحت عهداً جديداً، عهد الأمة المسلمة المجاهدة التي تعرف كيف تصون حرّمات دينها، وتبذل دماءها وأرواحها للمحافظة على حرمة بيت الله الحرام رمز وحدتها وتوحيدها.

#### • مشروعية الجهاد:

ويستدعي تعظيم شعائر الله تعالى حمايتها، والمحافظة على حرّماتها، وقد مرّ معنا أنّ أعداء الإسلام ما فتئوا منذ فجر الإسلام يصدّون الناس عن دين الله تعالى وعن المسجد الحرام، ويسعون بكل ما أوتوا من قوة ومكر لينتهكوا حرمة شعائر الله تعالى، فلا بدّ إذن من قوة تقمّعهم، وتدفع شرهم وكيدهم، ولهذا شرع الله تعالى الجهاد، وجعله من أفضل العبادات التي يتقرب بها المسلم المجاهد إلى الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله: أي الأعمال أحبّ

إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [رواه البخاري (٥٩٧٠) ومسلم (٨٥)].

والجهاد ضرورة للأمة المسلمة لا غنى لها عنه، إذ لا يمكن للأمة المسلمة أن تحمل رسالة الإسلام، وتتحمّل تبعاتها الجسام، وتسعى لنشرها بين الأنام إلا إذا كانت أمة قوية، تستطيع حماية الدعوة إلى الله تعالى، حتى يبلغوا الدعوة للناس في يسر وأمان.

ولهذا كان تشريع الجهاد في الإسلام مرتبطاً ببداية بناء المجتمع الإسلامي وظهور الأمة المسلمة، فما إن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وشرع بيني المجتمع الإسلامي، ويصوغ نواة الأمة المسلمة حتى نزلت أول آيات الجهاد في سورة الحج.

#### • وعد ووعد:

ومن رحمته ﷺ بعباده المؤمنين: أنه أخبرهم قبل أن يكلفهم بالجهاد وقاتل أعداء الإسلام أنه سبحانه يدافع عنهم ويؤيدهم وينصرهم على أعدائهم، فقال عزّ شأنه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وتدل صيغة المبالغة في كلمة ﴿يُدْفِعُ﴾ على شدة عنايته سبحانه بالمؤمنين المجاهدين، فدفاعه سبحانه عنهم مستمر لا ينقطع، لأنه سبحانه يعلم أن عدوان الكفار على المؤمنين مستمر لا ينقطع.

وبعد أن وعد الله سبحانه المؤمنين توعد الكافرين فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، لأنه سبحانه يبغض الكفار لكثرة خيانتهم لأمانات الله تعالى، وأهمها الإيمان بالله الواحد الأحد، وطاعته وعبادته، والتصديق برسالة رسله، ويبغضهم أيضاً لكثرة كفرانهم لنعمة وجودهم لفضله.

## ● الإذن بالقتال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أي: رُحِّصَ للذين يقاتلهم المشركون ويعتدون عليهم بالقتال.

﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلم المشركين لهم، وكانوا يؤذونهم، فيأتي المسلمون النبي ﷺ بين مضروبٍ ومشجوجٍ يتظلمون إليه ﷺ، فيقول لهم: «اصبروا، فَإِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بِقِتَالٍ»، حتَّى هاجر، فأنزلت هذه الآية، وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نُهي عنه في نيفٍ وسبعين آية، على ما روى الحاكم في «المستدرک» [٢٣٧٦] عن ابن عباس رضی اللہ عنہما، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وكلمة ﴿أُذِنَ﴾ تدلُّ على أنهم كانوا ممنوعين من القتال، وكانت الآيات الكريمة المكية تأمرهم بالصبر، وتقضُّ عليهم قصص المؤمنين من أتباع الأنبياء قبلهم، كيف أوذوا وصبروا حتى أتاهم نصر الله تعالى، وهذا يدلُّ على أنَّ القتال في الإسلام ليس غايةً في حدِّ ذاته، بل هو وسيلة لحماية الدعوة الإسلامية وتأمين نشرها بين الناس.

## ● قاعدة الانطلاق:

وتدلُّ الآية أيضاً على أنه لا ينبغي القتال حتى يصبح للمسلمين قاعدة انطلاق وارتكاز ينطلقون منها، ويفيئون إليها، فقد بقي النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة المنورة عدة سنوات يعرضُ نفسه على قبائل العرب في أسواقها ومواسم حجِّها، يبحث عن مكانٍ يمتنع به حتى يبلغ دعوة ربه<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء، المسمَّى: (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء)، وهو جزء من هذا التفسير الموضوعي الكبير.

قال ابن كثير رحمته الله: «فلما استقروا في المدينة، ووافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك»<sup>(١)</sup>.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير في طريق نشر الدعوة وبناء المجتمع الإسلامي على منهج دقيق مقدر قدره الله العليم الحكيم، ولم تكن تصرفاته عليه الصلاة والسلام ارتجالية انفعالية للأحداث التي واجهها، صبر عليه الصلاة والسلام وأمر أصحابه بالصبر واحتمال المكروه والأذى عندما كان الصبر ضرورة من ضرورات المرحلة التي مرت بها الدعوة الإسلامية حينئذٍ، وقاتلَ عندما أصبح القتال ضرورةً لحماية الدعوة، وتأمين نشرها بين الناس، بعد أن تمكن من استكمال أسباب القتال المادية، وصالح في الحديبية، لأنَّ مصلحة الدعوة في مرحلتها التي وصلت إليها اقتضت الصلح، وفي كلِّ هذا لم يتأثر عليه الصلاة والسلام بعواطف أصحابه الثائرة وحماسهم الديني المتأجج في صدورهم، فالحماس العاطفي لا يصلحُ لبناء الأمم وإقامة المجتمعات والحضارات.

لماذا يغفل كثيرٌ منَّا عن هذه الحقائق الناصعة الواضحة في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!.

فما أكثر ما استغلَّ أعداء المسلمين بذكاء ومكر عواطف المسلمين ومشاعرهم الدينية، فقادوهم إلى مزالق خطيرة، وأوقعوهم في شرك مكرهم وخداعهم.

ثم بين سبحانه سبب الإذن بالقتال فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ أي: بسبب ظلم المشركين لهم.

ولا يعني هذا أنَّ عليهم أن يقاتلوا فور وقوع الظلم عليهم، فوقع العدوان سبب لمشروعية القتال، ولكنَّ مباشرة القتال لا تكون إلا بعد الاستعداد له، والأخذ بالأسباب المادية الموصلة بإذن الله تعالى إلى النصر.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٢٢٥.

فقد بقي الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحملون الظلم والأذى قبل الهجرة ما يزيد على عشر سنوات، حتى أذن لهم سبحانه بالقتال.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وهو سبحانه قادر أن ينصر دينه، ويُعلي كلمته من دون قتال، ولكن حكمته تعالى اقتضت أن يبتلي المؤمنين بقتال الكافرين ومجاهدتهم، جاء ذلك صريحاً في قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبُلُوا بِعَصَمِكُمْ بَعْضٌ بِالَّذِينَ فُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وفي قوله سبحانه أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

### • الإخراج من الديار:

وإكراه الإنسان على ترك دياره ووطنه من غير سبب يستدعي ذلك من أشد أنواع الظلم الذي يتعرض له الإنسان، وخاصة إذا أخرج من داره، وأبعد عن أرضه بسبب إيمانه وعقيدته، ومهما وجد الغريب بيتاً يؤويه، وبلداً يطمئن فيه، فسبقى يستشعرُ ضعفَ الغربة وكربتها، ويعاني شوقَ الحنين إلى الأوطان، ويبكي على مفارقة الخلان، ولهذا ذكر سبحانه الإخراج من الديار في معرض بيان بعض أنواع الظلم الذي تعرّض له المسلمون عندما اضطروا للهجرة من أجل دينهم:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: الذين أخرجوا من مكة إلى المدينة من دون إساءة ولا ذنب إلا أنهم وخذوا الله تعالى وعبده وحده لا شريك له، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

## ● من سماحة الإسلام:

ثم بيّن سبحانه الحكمة من مشروعية الجهاد وقاتل الأعداء، فقال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أنه سبحانه يدفع بقوم عن قوم، ويكفُّ شرَّ أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، ولأهلك القويُّ الضعيف<sup>(١)</sup>.

أو: لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهلُ الشرك، وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات<sup>(٢)</sup>.  
فلا آية تحضُّ على القتالِ المأذونِ به، وتبيِّن ما يترتَّبُ عليه من قمع لأهل البغي والشرك والكفر.

﴿لَهَدَمْتُ صَوَامِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان.

﴿وَبَيْعُ﴾ وهي كنائس النصارى.

﴿وَصَلَوَاتُ﴾ وهي كنائس اليهود.

﴿وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ والمعنى: لهدمت صوامع الرهبان، وبيعُ النصارى، وصلوات اليهود، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً.  
وقد دلَّت الآية الكريمة على المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيوت عبادتهم، لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم، ولا يجوز أن يمكننا من الزيادة عليها، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها<sup>(٣)</sup>.

## ● بشارة وثناء:

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ فنصر الله سبحانه عباده المؤمنين مؤكِّد الوقوع

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٢٦/٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٧٠/١٢.

(٣) المرجع السابق نفسه.

والحدوث إذا نصرَ المؤمنون ربهم بطاعته وحده، والتزام شريعته وأحكام دينه،  
 كقوله عزَّ شأنه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيَبِيَّتْ أقدامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ثم بيَّن سبحانه ما يترتب على انتصار المسلمين على أعدائهم من نتائج  
 طيبة: من حُسن السيرة، وإقامة العدل، وقمع الشر والظلم، مما يؤدي إلى  
 اتساع العمران وازدهار الحضارات:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا  
 عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ﴾ (٤١).

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا  
 عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من بشارة لأصحاب النبي ﷺ  
 بالنصر والتمكين في الأرض، وما فيها أيضاً من ثناء عليهم.

وعن عثمان رضي الله عنه: هذا والله ثناءٌ قبلَ بلاءٍ. يريد أنه سبحانه أثنى عليهم قبل  
 أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا<sup>(١)</sup>.

﴿وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ﴾ أي: ومرجع الأمور كلها إلى حكم الله تعالى وحده  
 وتقديره.

#### • نبي الرحمة:

اقتضت حكمة الله تعالى ومشيتته أن يكون للنبي عليه الصلاة والسلام الظفر  
 بأعدائه والظهور عليهم بواسطة جهادهم وقتالهم، فشرع الله تعالى الجهاد في  
 الإسلام، وجاهد النبي ﷺ أعداءه بنفسه مع أصحابه حتى أظهره الله عليهم،  
 بينما كان نصرُ الله تعالى للأنبياء السابقين يتمُّ بإهلاك الحقِّ سبحانه لأعدائهم  
 بواسطة ما أنزل عليهم من أنواع العذاب الذي استأصلهم.

(١) تفسير أبي السعود: ٢٢/٤.

فقد أهلك سبحانه قومَ نوحٍ بالغرق، وكذلك فعل سبحانه بفرعون وقومه، كما أهلك قومَ صالح بالصيحة، وقومَ لوطٍ بقلب بلادهم، وجعل عاليها سافلها، وقوم هود بالريح الصرصر العاتية... إلخ.

وبهذا امتاز النبي ﷺ على غيره من الأنبياء، فهو نبي الرحمة الذي لم يدعُ على قومه رغم كل الأذى والعذاب الذي لقيه منهم، وكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم، وإذا قيل له: ادعُ على المشركين؛ قال ﷺ: «إني لم أبعث لعناً وإنما بُعثتُ رحمة» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

ومما يدل على كمال رحمته وشفقته عليه الصلاة والسلام أنه لما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ أَمَرَ مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمَرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاهُ مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: مُرْنِي بِمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِينَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يَخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» [رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

والأخشبان: جبلان في مكة يكتنفانها؛ وهما: أبو قبيس وقعيقان.

#### • الاعتبار بالآثار:

ولهذا جاءت الآيات الكريمة بعد آيات الجهاد مباشرة تتحدث عن الأمم السابقة التي كذبت رسلها، وإهلاك الله سبحانه لها بما استأصلها، حتى لم يبق منها إلا آثارها لتكون عبرة لكل من يأتي بعدها:

﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلمهم قوم نوح وعاد وثمود ﴿٤٢﴾ وقوم إيزهيم وقوم لوط ﴿٤٣﴾ وأصبح مدبرين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴿٤٤﴾﴾.

أي: فكيف إنكاري عليهم، ومعابتي لهم، بعد أن أنظرتهم وأخرتهم.



﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلِّةٌ  
وَقَصْرِ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كم من قرية .  
﴿أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مكذبة لرسولها .  
﴿نَهَى خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وهاهي الآن قد أصبحت خالية، قد تخرب  
عمرانها، وتهدمت أركانها، بعد أن أهلك الله تعالى أهلها وسكانها .  
﴿وَيَبُرُّ مُعْتَلِّةٌ﴾ لا يستسقي منها أحد .  
﴿وَقَصْرِ مَّشِيدٍ﴾ منيع مرتفع، ومع شدة بنائه وارتفاع حصونه أنزل الله تعالى  
عذابه على سكانه .  
ثم وجهت الآية الكريمة الدعوة إلى المشركين للسير في الأرض، والنظر  
في آثار الأمم السابقة نظر الاعتبار:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى  
الْأَبْصُرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فيعتبرون  
بما يرون من آثار، وما يسمعون من أخبار .  
﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصُرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمى الحقيقي  
عمى البصر، ولكنه عمى القلوب التي لا تعتبر .  
• الأجل المُسَمَّى:

والله سبحانه لا يعجل لِعَجَلَة عباده، فقد كان مشركو قريش يستعجلون نزول  
العذاب بهم عناداً ومكابرة، جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ  
هَذَاهُ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ وَأُنزِلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] .  
فأنزل الله تعالى رداً عليهم:

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧)

فاليوم الذي قدره سبحانه للانتقام منهم لا بد أن يأتي، وإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحدٍ عنده بالنسبة إلى حِلْمِهِ سبحانه<sup>(١)</sup>.  
 فلكل شيء عنده أجلٌ لا يتقدم ولا يتأخر، وحتى الأمم والحضارات لها آجالها المحددة التي لا تتغير ولا تتبدل، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّمَن أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيْرِ﴾ (٤٨)

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: أحررت عنها العذاب مع أنها ظالمة.

﴿ثُمَّ أَخَذَتْهَا﴾ بالعذاب عندما حان الأجل المسمى لها.  
 ﴿وَإِلَى الْمَصِيْرِ﴾ فمآل ومرجع جميع الكائنات إلى حكم الله تعالى وقدره.

#### • النبيُّ النذير:

ثم أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ أن يوجِّه للناس هذا النداء:

﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٤٩)

إن جو التخويف والتهديد هو الجو المخيم على سورة الحج في أغلب آياتها، فإن كثيراً من آياتها اتجهت إلى الوعيد والتهديد، فقد ابتدأت بمطلع عنيفٍ مخيفٍ: ﴿يَتَّيْبُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١).  
 ثم انتقلت إلى مشاهد العذاب في جهنم: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُّصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَهُمْ مَقْلَعُونَ مِنْ حديدٍ.

(١) تفسير ابن كثير: ٢٢٨/٣.

ثم بدأت بتشريع الجهاد والقتال، وفيه ما فيه من عنف وشدة.  
وبعدنا نقلنا الآيات إلى مصارع المكذبين وآثار المعذبين: ﴿فَكَأَنِّ مِّن قَرْيَةٍ  
أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.  
ثم أوصلنا الآيات إلى هذا النداء من النبي ﷺ للناس:  
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولا يخفى ما تحمل كلمة (نذير) من  
تهديد ووعيد، مع أنه عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة كما مر معنا، فهو بشيرٌ  
قبل أن يكون نذيراً.

تُرى هل لهذا الجو المخيم على سورة الحج علاقة بالمرحلة التي نزلت  
السورة فيها؟ وقد مر معنا أن سورة الحج نزلت في الوقت الذي بدأ فيه النبي  
ﷺ يُرسي قواعد المجتمع الإسلامي الجديد، ويضع نواة الأمة المسلمة، وجوُّ  
التهديد والوعيد يعكس لنا شدة الحرص على سلامة القواعد والأسس ومثانتها.  
فبناء المجتمع الإسلامي الجديد وظهور الأمة الإسلامية من أعظم  
الأحداث التي شهدتها تاريخ البشرية على هذه الأرض، إنه يمثل ولادة حضارة  
إنسانية جديدة، يمتدُّ تأثيرها إلى جميع شعوب الأرض ومجتمعاتها، فالواجب  
يقتضي أن تكون الأسس للمجتمع الجديد متينةً وسليمةً وواضحةً كي تتمكن هذه  
الأمة من تحمُّل تبعاتها ومسؤولياتها الكبيرة تجاه البشرية كلها في مشارق  
الأرض ومغاربها.

وبعد الإنذار الذي توجه به النبي ﷺ إلى جميع الناس بينت الآيات حال  
من آمن ورجع عما هو عليه من الكفر فقالت:

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

وحال الذين ظلُّوا متمسكين بكفرهم معارضين لدعوة النبي ﷺ:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِبِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ أي: بذلوا جهدهم في إبطالها.

﴿مُعْجِزِينَ﴾ معارضين لها .

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ سَمَّاهُمْ أَصْحَابًا لَجَهَنَّمَ ؛ لشدَّة ملازمتهم لها وطول

مكثهم فيها .

### • جدال وضلال:

وسعي المشركين في إبطال آيات الله تعالى أمر معهود عند جميع الأمم التي

كذبت دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ ، والنبي أعمُّ من الرسول، فالنبي مَنْ

نَبَّأَهُ اللهُ تعالى، وأوحى إليه، فإذا أمره تعالى بالتبليغ صار رسولاً .

﴿إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: إذا قرأ شيئاً من الآيات ألقى

الشیطان الشُّبه على الكفار، ليجادلوا الرسولَ بالباطل، ويردُّوا ما جاء به، كما

قال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

زُحْرَفِ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] .

وقوله ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من مواساة للنبي ﷺ، وتسلية عمَّا يلقاه من

عناد المشركين وجدالهم في آيات الله تعالى التي كان يتلوها عليهم .

﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: فيبطل الله تعالى ما يلقيه الشيطان من

تلك الشبه، إما بتوفيق النبي ﷺ لردِّه، أو بإنزال ما يرده .

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي: يأتي بها محكمةً مثبتةً، لا يستطيع أحد أن

يعترضَ عليها بوجه من الوجوه .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

ثم بيَّن ﷺ الحكمة من تمكين الشياطين من إلقاء الشبه على الكفار، فقال:

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً واختباراً.

﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الكفار المُجاهرين بكفرهم.

#### • قسوة القلب:

فكلا الفريقين من الكفار يحمل في قلبه علةً تجعله يتقبل نزغ الشيطان ووسوسته، فالعلة في قلوب الفريق الأول النفاق والشك، والعلة في قلوب الفريق الثاني قسوة القلب.

وثمة علاقة بين العلتين، فقسوة القلب مقدمة للنفاق والكفر. وكثرة المعاصي وإدمانها تؤدي إلى قسوة القلب، التي تدفع بصاحبها إلى اتباع هواه، حتى لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرب من هواه، كما جاء في الحديث الشريف: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكْتُ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكْتُ فِيهِ نَكْتَةٌ بِيضَاءٌ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلَ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مُرْبَادًا، كَالْكُوْزِ مُجْحِيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه البخاري (٥٢٥) ومسلم (١٤٤)].

و«المرباد»: الذي في لونه غبرة. و«المجحي»: المنكوس أو المائل.

وتدفع قسوة القلب صاحبها إلى إنكار آيات الله تعالى وجحودها كما فعل بنو إسرائيل، قال تعالى توبيخاً لهم على إنكارهم لآياته التي شاهدوها بعد إحياء الميت لهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا

يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ٧٤﴾ .

فلا خير يُرجى من أصحاب القلوب القاسية، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿وَأَنْتَ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في عداوةٍ وضلالٍ وعنادٍ بعيد.

ولا علاجٍ للقلوب القاسية إلا بالتوبة والإنابة والإكثار من ذكر الله تعالى وعبادته وطاعته: ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَ اللَّهَ بِالْبُرْهَانِ وَالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا أُولَئِكَ يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمْ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقد مر معنا في صفات المختبين قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٢٤].

وقال تعالى هنا يبين الآثار الحميدة الطيبة للخشوع والإخبات:

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، فستان بين أصحاب القلوب القاسية وعنادهم وجدالهم لإبطال آيات الله تعالى، وبين أصحاب القلوب المحببة الخاشعة الذين علموا أن القرآن الكريم حق ثابت أنزله الله تعالى:

﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ انقياداً وخشوعاً لكلام الله تعالى، الذي تخضع وتخضع لعظمته الجبال لو رُكِبَ فيها ما في الإنسان من شعور وإدراك، ثم أنزل عليها كلام الحق سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، مكافأة لهم على إخباتهم وخضوعهم وخشوعهم لكلامه سبحانه، فيتولاهم برحمته وعنايته، ويثبتهم على الصراط المستقيم، فلا يضلُّون ولا يزلُّون، ويحفظهم من فتن الشيطان وضلالاته بهدایتهم إلى ما يرُدُّها ويبتلعها.

## ● اليوم العقيم:

وأما أصحابُ القلوب القاسية من المنافقين والمشركين فيظنون يتخبطون في ظلماتِ كفرهم ونفاقهم وشكهم:

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك وحيرة من القرآن الكريم.  
﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وسمي عقيماً لأنه منفرد عن سائر الأيام، لا مثل له في شدته، أو لا يوم بعده، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً<sup>(١)</sup>.

ويؤكد أن اليوم العقيم هو يوم القيامة قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ فهو سبحانه وحده المالك والحاكم يوم القيامة فلا ملك لأحد غيره ولا حكم.  
﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ .

في مقابلة استكبارهم وجحودهم بآيات الله تعالى وسعيهم في إبطالها.

(١) روح المعاني: ١٧٥/١٧ .

## ● قصة الغرانيق:

لا بد لنا عند هذه الآيات الكريمة أن نتعرض لقصة الغرانيق التي ذكرها كثير من المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآيات الكريمة، وأولع بها المستشرقون وأعداء الإسلام.

والغرانيق: جمع غرنوق، وهو في الأصل الذكْرُ من طير الماء طويل العنق، وتقال للشاب الممتلئ شباباً وحُسنًا وبياضاً، وأريد بها هاهنا الأصنام<sup>(١)</sup>.

فقد روي: أن النبي ﷺ لما قرأ سورة النجم وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ ۖ ﴿١٦﴾ وَمَنْوَةٌ ثَالِثَةٌ الْآخِرَىٰ ۖ ﴿٢٠﴾﴾ قال: (تلك الغرانيقُ العُلى، وإن شفاعتها لُترتجى)، ويروى: (ترتضى)، وفي رواية: (إن شفاعتها لترتجى، وإنها لمع الغرانيقِ العُلى)، وفي أخرى: (والغرانيقُ العُلى، تلك الشفاعةُ ترتجى).

فلما ختم السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم، وما وقع في بعض الروايات: أن الشيطان ألقاها على لسانه، وأن النبي ﷺ كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء يقاربُ بينه وبين قومه، وفي رواية أخرى: أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه، وأن جبريل ﷺ جاءه فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين قال له: ما جئتُك بهاتين، فحزن بذلك النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى تسلياً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ الآية [الحج: ٥٢].

وهذه القصة مردودة من عدة وجوه:

- ١ - فهي من ناحية السند مردودة، فلم يخرج حديثها أحد من أهل الصِّحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل كما قال القاضي عياض في «الشفاء»<sup>(٢)</sup>.
- ووصف ابن كثير ﷺ أسانيدَها بعد أن أوردَها فقال: «ذكرها محمد بن إسحاق في «السيرة» بنحو من هذا، وكلُّها مراسلاتٌ ومنقطعات»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: شرح الشفا، للقاري: ١٤٠/٤.

(٢) شرح الشفا: ١٤٤/٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٣٠/٣.



وقال القرطبي رحمته الله: «الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ليسَ فيها شيءٌ يصحُّ، ثم نقل عن ابن عطية قوله: وهذا الحديثُ الذي فيه - هي الغرائق العلى - وقعَ في كتب التفسير ونحوها، ولم يدخله البخاريُّ ولا مسلمٌ، ولا ذكره في علمي مصنَّف مشهور»<sup>(١)</sup>.

وقال الشيخ الألوسي رحمته الله: «وقد أنكر كثيرٌ من المحققين هذه القصة، فقال البيهقي: هذه القصة غيرُ ثابتةٍ من جهة النقل، وذكر الشيخ أبو منصور الماتريدي في كتاب «قصص الأنبياء» أنَّ قوله: (تلك الغرائق العلى) من جملة إيهامِ الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوها بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين، وحضرة الرسالة بريئةٌ من مثل هذه الرواية»<sup>(٢)</sup>.

٢ - وهي مردودة أيضاً بسبب اضطراب متنها، وكثرة الاختلاف بين رواتها، فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنةٌ، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إنَّ الشيطان قالها على لسانه . . . إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

#### ● عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان:

٣ - وهي مردودة من جهة المعنى، لأنها تدلُّ على أنَّ للشيطان تسليطاً على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو بالإجماع معصوم من الشيطان، فلا سلطان للشيطان على المخلصين من المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

فكيف يكون له سلطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم بعصمة الله تعالى ورعايته؟! ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]. وكيف يستطيع الشيطان أن يدنو من النبي صلى الله عليه وسلم حينما ينزل عليه الوحي

(١) تفسير القرطبي: ٨١/١٢.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٧٧/١٧.

والملائكة تحيط به من كل جانب، قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن] أي: قد يخصه بمزيد من الملائكة يحفظونه، ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

والمعنى: أنه سبحانه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي<sup>(١)</sup>.

ولا يستطيع الشيطان أن يتشكَّلَ بصورة النبي ﷺ كما أنه لا يستطيع أن يتصوَّرَ بصورة المَلَكِ، قال القاضي ابن العربي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تصور الشيطان في صورة المَلَكِ مُلَبَّسًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كتصوره في صورة النَّبِيِّ مُلَبَّسًا عَلَى الْخَلْقِ، وَتَسْلِيْطُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِهَذَا عَلَى ذَلِكَ كَتَسْلِيْطِهِ فِي هَذَا، فَكَيْفَ يَسُوْغُ فِي لُبِّ سَلِيْمٍ اسْتِجَازَةَ ذَلِكَ؟!»<sup>(٢)</sup>.

وقد صحَّ أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ رَأَىٰ فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَىٰ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي» [رواه البخاري (٦٩٩) ومسلم (٢٢٦٦) واللفظ له].

وقال أيضاً: «مَنْ رَأَىٰ فِي النَّوْمِ فَقَدْ رَأَىٰ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَشَبَّهُ بِي» [رواه مسلم (٢٢٦٨)].

وقال أيضاً: «مَنْ رَأَىٰ فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ» [رواه البخاري (٦٩٩٦) ومسلم (٢٢٦٧)].  
وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِيْنُهُ مِنَ الْجِنِّ» قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: «ولِيَايَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» [رواه مسلم (٢٨١٤)].

#### • السجود لله تعالى:

أما سجودُ المشركين مع النَّبِيِّ ﷺ حين سجدَ في آخر سورة النجم، فقد رواه البخاري [٤٨٦٣] ومسلم [٥٧٦] وأبو داود [١٤٠٦] والنسائي [٩٥٨] وغيرهم، وليس فيه أيُّ ذكر لقصة الغرانيق، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النَّبِيَّ ﷺ قرأ:

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٤٣٤.

(٢) روح المعاني: ١٧/١٧٨.

والنجم، فسجد فيها، وسجد كل مَنْ كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصي أو ترابٍ ورفعَه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا.

وروى البخاري [٤٨٦٢] والترمذي [٥٧٥] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والأنس.

وسبب سجود المشركين تأثرهم بسلطان آيات القرآن الكريم وبلاغتها، وما اعتراهم من خوفٍ عند سماع ما فيها من تهديدٍ شديدٍ، ووعيدٍ أكيدٍ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَعَسَىٰ مَا عَشَىٰ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكَ نَتَمَرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النجم].

فغلب الخوف على قلوبهم أن ينزل مثل ذلك فيهم <sup>(١)</sup>.

وتأثرهم بالقرآن الكريم عند سماع ما فيه من آيات الوعيد والتهديد ليس غريباً عليهم، فقد روي: أن عتبة بن ربيعة لما سمع النبي ﷺ يقرأ سورة فُصِّلَتْ، وفيها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَتَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] أمسك على فم الرسول ﷺ وناشده الرَّحِمَ، ورجع إلى المشركين من قريش، وهو يقول: أمسكتُ بفيه وناشدته الرَّحِمَ أن يكفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيتُ أن ينزل بكم العذاب <sup>(٢)</sup>.

وكانوا يتواصون برفع أصواتهم وإحداث ضجة أثناء قراءة النبي ﷺ حتى لا يسمعوا القرآن الكريم ولا يتأثروا به: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وسجود المشركين هذا كان سبباً لعودة بعض المهاجرين إلى الحبشة، فقد تناقل الناس خبر السجود حتى وصل إلى مسامع المسلمين في الحبشة، فظنوا أن المشركين من قريش دخلوا في الإسلام فعاد بعضهم إلى مكة المكرمة.

(١) انظر: روح المعاني: ١٧/١٨٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤/٩١.

## • اتهام باطل:

فقصّة الغرائق مردودةٌ من جهة النقل والعقل، ولا حاجة إلى تأويلها على فرض صحتها، كما فعل كثير من المفسرين.

وقد استبعد سيد قطب رحمته الله أن تكون قصة الغرائق سبباً لنزول الآية، ولكنه حاول تأويلها فلم يوفق، وجانبه الصواب، وذكر معنى يصادم ما قرره قبل ذلك عندما ردّ حديث قصّة الغرائق فقال: وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلاً من أصول العقيدة، وهو عصمة النبي صلى الله عليه وآله من أن يدسّ عليه الشيطان شيئاً في تبليغ رسالته.

أنّهم سيد قطب الرسل بأنهم يودّون لو هادنوا الناس فيما يعزّو على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات، فيسكتوا عنها مؤقتاً لعلّ الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة، ويودّون مثلاً لو جاروهم في شيء يسيرٍ من رغبات نفوسهم، رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتمّ فيما بعد تربيتهم التربية الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة، ويودّون... ويجدّ الشيطان في تلك الرغبات البشرية فرصةً للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات<sup>(١)</sup>.

ولا أدري كيف وقع رحمته الله في هذا التناقض، وأنّهم الرسل صلى الله عليهم بهذه التهمة الباطلة التي تصادم عصمتهم عليهم الصلاة والسلام؟!.

ولا أظنّ أن سيد قطب رحمته الله كان يجهل حياة الرسل صلى الله عليهم، ولا يعلم صلابتهم في دين الله تعالى، وشدة تمسكهم برسالته، وأتباعهم لوحيه، وخاصة نبينا محمداً صلى الله عليه وآله.

ألم يقرأ سيد سيرة النبي صلى الله عليه وآله في مكة، والمحاولات الكثيرة التي بذلها المشركون ليجعلوا النبي صلى الله عليه وآله يترك تسفيه أحلامهم، وعبأ آلهتهم، وأنهم سعوا إلى عمه أبي طالب لهذا الأمر؟! وكيف أنّ النبي صلى الله عليه وآله واجههم برده الحازم الذي

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/١٠٨.

قال فيه لعمّه: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهِرَهُ اللهُ أو أَهْلِكَ دونه ما تركته»؟! (١).

فكيف يمكن أن نتصور أن يجاريهم النبي ﷺ في شيء من رغبات نفوسهم؟! ألم يقرأ عن ثباته عليه الصلاة والسلام عندما كان يعرضُ نفسه على قبائل العرب في أسواقهم ومواسم حجّهم، يطلب منهم أن يمنعوه حتى يبلغ دعوة ربه؟! وكيف رفض ﷺ طلبَ بعض القبائل أن يجعل لهم الأمر من بعده، فردّ عليهم: «الأمر لله يضعه حيث يشاء»؟! (٢).

ثم ألم يقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٨) وَدُوًّا لَوْ تَدْرَهُنَّ فَيَكْفِهُنَّ ﴿[القلم]؟! فهل داهنهم النبي ﷺ وتمنى أن يجاريهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم؟! اللهم لا .

#### • أمثلة مردودة:

وجانب سيد قطب رحمه الله الصواب أيضاً في الأمثلة التي ذكرها تأييداً لرأيه: ذكر قصة النبي ﷺ مع ابن أم مكتوم الأعمى، عندما أتى إليه عليه الصلاة والسلام يسأله عن أمر من أمور دينه، فأعرض النبي ﷺ عنه، لأنه كان مشغولاً بدعوة بعض كبار مشركي قريش إلى الإسلام، فعاتبه الله سبحانه بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس]، لكن حرصه عليه الصلاة والسلام على نشر الإسلام ليس مجاراةً لرغبات المشركين، ولا سكوتاً على بعض عاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم، فالمثال بعيدٌ جداً عن المعنى الذي ذهب إليه سيد قطب رحمه الله.

ثم ذكر سيد قطب رحمه الله المثال الثاني، وهو ما روي في «صحيح مسلم» [٢٤١٣]: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

(١) سيرة نبي الهدى والرحمة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وقال سيد تعليقاً عليه: «وهكذا ردَّ الله للدعوة قيمها المجردة، وموازينها الدقيقة، وردَّ كيدَ الشيطانِ فيما أرادَ أن يدخلَ من تلك الثغرة، ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كُبراء قريش بإجابة رغبتهم»<sup>(١)</sup>.

ومن يقرأ هذه الكلمات يظن أن قيم الدعوة ضاعت، وموازينها الدقيقة اختلَّت، بمجرد حديثِ نفسٍ حدَّث النبي ﷺ به نفسه، وما ندري ما هو هذا الحديث، ولماذا نسيءُ الظنَّ بالنبي ﷺ ولا نقول: إن الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ...﴾ نزلت ردّاً على طلب المشركين - اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا - ولم تنزل ردّاً على ما وقع في نفسِ رسولِ الله ﷺ، ونحن لا ندري ما وقع في نفسه عليه الصلاة والسلام؟!.

وحاول سيد قطب رحمه الله أن يلحق قصة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه بالمثلين السابقين فقال بعد أن ذكر القصة المختصرة: «وهكذا أنفذ الله شريعته وأحكمها، وكشف ما خالَجَ خاطرَ رسولِ الله ﷺ من كراهية القومِ لزواجه من مطلَّقة دَعِيَّه، ولم يمكِّنِ الشيطانَ أن يدخلَ من هذه الثغرة»<sup>(٢)</sup>.

والمثالُ بعيدٌ جداً عن التأويل الذي ذهب إليه سيد قطب رحمه الله في الآية الكريمة، فليس في موقف النبي ﷺ أدنى مجارة لرغبات المشركين، ولا سكوتٌ على بعض عاداتهم وموروثاتهم، فقد بادر رسول الله ﷺ بعد أن طلق زيدَ السيدة زينب إلى الزواج منها تنفيذاً لأمر الله تعالى، وأرسل زيداً يخطبها له<sup>(٣)</sup>.

وما أخفى ﷺ في نفسه إلا ما أخبره الله تعالى به من أنها ستكون زوجةً له، والقصة حدثت في المدينة المنورة بعد عدة سنوات من هجرته عليه الصلاة والسلام، ولم يكن في المدينة مشركون ليجارِيهم في رغباتهم ويسكت عن بعض عاداتهم وموروثاتهم.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/١٠٩.

(٢) انظر المرجع السابق: ١٧/١١٠.

(٣) انظر: تفصيل القصة في: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب) في هذا التفسير.

## ● مصلحة الدعوة:

فما ذكره سيد قطب رحمته الله في حق الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لا نوافقه عليه، وأما ما ذكره في حق غيرهم من أصحاب الدعوات عندما تدفعهم حماستهم ورجبتهم الملحة في انتشار الدعوة إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة، حرصاً على سرعة انتصار الدعوة، واجتهاداً في تحقيق مصلحتها، فنحن نقره عليه كل الإقرار، ونقول معه لأصحاب الدعوات: إن كلمة (مصلحة الدعوة) يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات، لأنها مزلة ومدخل للشيطان، يأتيهم منه حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص، وإن على أصحاب الدعوات أن يتدبروا آيات سورة الحج، ويعيشوا جو الرعب المخيف الذي يخيم على السورة ليشعروا بمدى المسؤولية التي يحملونها، وعليهم أن يقفوا عند مدلولات الآية الكريمة: ﴿مَنْ كَانَتْ يَطْرُنُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، والآية الكريمة: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]؛ ليعرفوا الطريق الحقيقي إلى بناء المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة.

## ● فضل الهجرة:

شكّل المهاجرون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة مع إخوانهم الأنصار نواة الأمة المسلمة، فكان لهم فضل الهجرة التي نقلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة جديدة، مرحلة التمكين في الأرض والانتشار في آفاقها البعيدة، فلا بد من التنويه بفضلهم، وبيان ما أعد الله تعالى لهم من الكرامة يوم القيامة، فقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا  
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ وهم في طريق الهجرة،

فقد كان المشركون يتعرَّضون لهم، ويحاولون صدَّهم وردَّهم عن مقصدهم، أو قتلوا وهم يجاهدون في سبيل الله بعد أن أذن الله تعالى بالقتال - كما مرَّ معنا - .  
﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في الجنة .  
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنه سبحانه يرزق من غير حساب، بينما غيره يرزق مما رزقه الله جلَّ شأنه .

﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٥٩)

﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ وهذا تقرير لمضمون ما تقدم في الآية السابقة، والمراد من المُدخل: الجنة، أو درجات فيها مخصوصة لأولئك المهاجرين .  
﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وبما يرضيهم .  
﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجل أعداءهم بالعقوبة .

#### • مواجهة العدوان:

ويستدعي الإذن بالقتال مواجهة العدوان بمثله، ولهذا قال تعالى:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ (٦٠)

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ سَمَّى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين صورة، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].  
﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أي: ثم ظلم بالمعاودة إلى عقوبته .  
﴿لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ على من بغى عليه وظلمه .  
﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ مبالغ في العفو والغفران .  
وفي الآية الكريمة حثُّ على العفو والمغفرة، مع القدرة على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده<sup>(١)</sup> .

(١) تفسير أبي السعود: ٣٠/٤ .



ثم بين الله سبحانه قدرته على نصرة المظلومين بمثال كوني يراه ويشعر به كل الناس من الظالمين والمظلومين، فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ  
بَصِيرٌ﴾ (١١٩).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى نصرة المظلومين.

﴿بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فهو سبحانه قادر على إدخال الليل بالنهار، والنهار بالليل، ومن كان قادراً على المداولة بين الأشياء المتضادة، فهو قادر على نصر المظلومين على ظالمهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ لكل المخلوقات لا يخفى عليه منهم خافية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدٌ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ  
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١٢٠).

﴿ذَلِكَ﴾ الاتِّصاف بكمال القدرة والعلم دليل:

﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ذو الحق، فدينه سبحانه حق، وعبادته حق،

ووعده بنصر المؤمنين حق.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الذي لا يستحق العبادة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء والمخلوقات.

﴿الْكَبِيرُ﴾ ذو العظمة والجلال والكبرياء، فكل شيء تحت قهره وسلطانه

وعظمته؛ فهو العليُّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه عَمَّا يَقُولُ الظالمون المعتدون علواً كبيراً.



الاصْطِفَاءُ وَالاخْتِيَارُ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ وَإِنْ حَادِدُواكَ فَقُلْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَعِصَةَ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلِ فَاسْتَجْعَلُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٢٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٤﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّمَّا يَكُمُ إِتْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى  
وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ .

### • الأَرْضُ الْمُخْضَرَّةُ:

وجاءت الآيات الكريمة في القسم الأخير من سورة الحج تتحدث عن اصطفاء الله تبارك وتعالى للأمة المسلمة والتبعات الجسام التي أنيطت بها، بعد أن بينت لنا الآيات السابقة الأسس الكبرى للمجتمع الإسلامي والأمة المسلمة، وقدم الله لذلك بياناً أتصافه سبحانه بكمال القدرة والعلم، وذلك بلفت أنظارنا إلى بعض الظواهر الكونية المحيطة بنا المسخرة لفائدتنا، فمن تعاقب الليل والنهار، إلى إنزال المطر واخضرار الأرض بالنبات:

﴿الَّذِي تَرَى رَبَّكَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ  
خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ .

﴿الَّذِي تَرَى رَبَّكَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو استفهام تقييري، يبين قدرته سبحانه على إنزال المطر من السماء.

﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي: ذات خضرة، والفاء للتعقيب، تدل على استعجال ظهور النبات إثر نزول المطر، وفعل المضارع (تصبح) يدل على استمرار بقاء الخضرة بعد نزول المطر، كما هو الواقع المشاهد.

وقال بعضهم: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ المقصود به صباح ليلة المطر، قال القرطبي رحمته الله: «وقد شاهدتُ هذا بسوس الأقصى - من بلاد المغرب - نزل المطر ليلاً بعد قحط، وأصبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت نبات ضعيف رقيق»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بعباده.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٩٢/١٢.

﴿حَيْرٌ﴾ بتدبير أمور خلقه .

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلكاً وتدبيراً .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ﴾ عن كل شيء .

﴿الْحَكِيمُ﴾ المستحق للحمد لكَماله وإِحسانه .

### • النواميس الكونية:

ومن إحسانه وكرمه أنه سبحانه سَخَّرَ لِلْإِنْسَانِ كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ :

﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ فكل ما فيها مذلَّل لكم أيها الناس ومعدُّ

لمنافعكم .

﴿وَالْفُلْكَ﴾ : وسخر لكم أيضاً السفن .

﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي : تسير في البحر لمنافعكم ومصالحكم بأمره

سبحانه ومشيبته وتدبيره، فهو سبحانه الذي خلق النواميس التي تسمح بجريان السفن في البحر، ثم هدى الإنسان إلى هذه النواميس ليتمكن من الاستفادة منها .

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فكلُّ شيء في قبضة قدرته ﷻ

خاضع لمشيئته، فهو سبحانه الذي يُمْسِكُ السماء بقدرته فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ومشيبته، وما القوانين والنواتيس التي تنظم دورة الفلك إلا من صنع الله ﷻ وتدبيره وحكمته، وهو سبحانه وحده قادر على خرق هذه النواميس

وتعطيلها أو تبديلها، ولهذا قال ﷻ : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي : بمشيئته، وإن ذلك

لكائن يوم القيامة عندما يبدل الله ﷻ النظم الكونية كلها : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث هيأ أسباب حياتهم على الأرض، ويسّر لهم سبل الانتفاع بما فيها، وأوضح لهم الأدلة الدالة على وجوده وجوده تعالى.

### • إحكام واتساق:

والمتمأمل لهذه الآيات الكريمة يرى مدى الإحكام والتناسق بين كلماتها وبين صدر كل آية وذيلها.

فتصدير الآيات بكلمة ﴿ذَلِكَ﴾ وهي تستعمل إلى الإشارة للبعيد والدلالة على تفخيم المُشار إليه، يدل على أن قدرة الله تعالى لا يستعصي عليها شيء مهما كان بعيداً.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١] يتفق تماماً مع تغليب بعض الناس على بعض، ومع نصره سبحانه للمظلومين على الظالمين، وذليل الآية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يدل على كمال صفاته سبحانه، فهو سميعٌ بصيرٌ ليلاً ونهاراً، لا يؤثر على سمعه وبصره ليل ولا نهار.

ثم أكد هذا المعنى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فلا يستحق العبادة غيره.

وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣] يدل على افتقار الإنسان وحاجته إلى الرزق، فكما هو محتاجٌ إلى العدل والتخلص من الظلم والحيث، فهو محتاج إلى فضل الله وورزقه، ولما كان نزول المطر وخروج النبات أمراً محسوساً ملموساً ابتدأت الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وما أجمل خاتمة الآية، وما أشد اتساقها مع معناها! فاللطيف: هو المحكم للأمر برفق، وهو سبحانه لطيف بأرزاق عباده، خبير بحاجاتهم وافتقارهم إلى الرزق، لطيفٌ بخلق النبات واستخراجه، خبيرٌ بكيفية خلقه، فالأرضُ تصبحُ مخضرةً بكل ما فيها من جمال ونضرة بتدبير اللطيف الخبير.

وهو سبحانه المالك لكل ما في السماوات والأرض، الغني عن كل ما في

السماوات والأرض، فهو يعطي ويرزق كرماً وفضلاً لا يأخذ بدلاً وعضواً، فهو الغني الذي لا يفتقر إلى أحد، والمستحق للحمد لكماله وإحسانه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

وبعد كل ما تقدم كرم الله تعالى الإنسان، وجعل له امتيازاً في الأرض على سائر المخلوقات، فكل ما في الأرض مسخر للإنسان، ومذلل لفائدته، ولما كان هذا التسخير حقيقة يستشعر بها الإنسان ويلمسها صدر الله الآية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

ويحتاج الإنسان إلى جانب إحساسه بالتكريم والامتياز في الأرض إلى الشعور والإحساس بالأمن فيها، فلا سعادة لمن لا يستشعر الأمن في الأرض التي يسكنها، والبيت الذي يأوي إليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

أرأيت عظيم فضل الله عليك أيها الإنسان؟! فلو كنت تسكن بيتاً فيه كل ما يحتاج إليه من أنواع الطعام والأثاث واللباس والزينة إلا أن سقفه ضعيف على وشك السقوط، هل تحس بشيء من السعادة والطمأنينة وأنت تعيش تحت هذا السقف المتداعي؟! فاعرف أيها الإنسان فضل الله عليك، فكل ما أنت فيه من النعم من آثار رحمته ورأفته ﴿إِنَّ اللَّهَ بِاللَّاسِ لِرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

والعجيب بعد كل هذا أن أكثر الناس لا يشكرون الله على نعمه وفضله بل يكفرون:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ وأنتم في بطون أمهاتكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندما تحين آجالكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ كثير الجحود لنعم الله تعالى مع ظهورها وكثرتها.

## ● المنازعة في الدين:

كانت رسالة النبي ﷺ رسالةً شاملةً لكل الناس، ولما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة اتسعت دائرة المواجهة بينه عليه الصلاة والسلام وبين الكافرين، فقد كانت قبل الهجرة قاصرةً على مشركي مكة، فاتسعت بعد الهجرة، وشملت الكافرين من مشركي العرب وغيرهم من أصحاب الديانات السابقة.

ودعا النبي ﷺ أهل هذه الأديان إلى التصديق برسالته، والعمل بشريعته الإسلامية، فأبى أكثرهم، وتمسكوا بأديانهم السابقة، وجادلوا النبي ﷺ في هذا الأمر، فأنزله الله تعالى:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: لكل أمة وضعنا وعيّننا شريعة خاصة.

﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾ أي: هم عاملون بها لا غيرهم.

﴿فَلَا يُنزِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: أمر الدين، فإنّ تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم

شريعة مستقلة لا تتخطّاها إلى غيرها يوجب على الجميع طاعته عليه الصلاة والسلام وعدم منازعتهم إياه زعماء منهم أنّ شريعتهم هي ما في التوراة والإنجيل، فإنّ ذلك شريعة لمن مضى قبل نسخه بشريعة القرآن الكريم وبعثة النبي ﷺ، فإنّ هذه الشريعة هي التي عينها الله تبارك وتعالى لجميع الناس، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعوهم إليها، فكأنه سبحانه نهى كل أمة عن التمسك ببقايا دينهم القديم، وألزمها أن تتحوّل إلى اتباع الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>، ولذلك قال:

﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ادعُ جميع الأمم إلى توحيدِه وعبادته والتزام الشريعة

التي أنزلها عليك.

(١) انظر: روح المعاني: ١٣/١٩٧؛ والتفسير الكبير: ٢٣/٦٥.

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنك على منهج مستقيم وشريعة قيّمة مستقيمة.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ﴾ في أمر الدين.

﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد والتهديد:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأضاليل والأباطيل ومجازيكم عليها.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

من أمر الدين. وفي الآية كما قال القرطبي رحمته الله: أدب حسن علّمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومراءً ألا يُجاب ولا يُناظر<sup>(١)</sup>.

• كمال علم الله تعالى:

وتابعت الآيات الكريمة التمهيديّة للإخبار عن اصطفاء الأمة المسلمة، ببيان كمال علم الله تعالى بخلقه، وأنه سبحانه محيطٌ بما في السماوات والأرض، فالاصطفاء تم بعلم وحكمة:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾: وهو اللوح المحفوظ، ففي «صحيح مسلم»: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

(١) تفسير القرطبي: ٩٤/١٢.



والمراد أنه سبحانه أظهر في ذلك مقادير الخلائق التي سبق بها علمه الأزلي القديم، ومن جملة هذه المقادير التي قدرها سبحانه أمر الشرائع وأعمارها والعاملين بها.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. ألا ترى أن الله تعالى قال في القرآن الكريم: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٦٦﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٦٧﴾﴾ [البُرُوج].

ولا حجة ولا برهان لكل من يخالف دين الله تعالى، ويخرج على شريعته:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة سمعية منزلة من قبل الله سبحانه.

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: وليس لهم أيضاً أي دليل عقلي علمي. وتقديم الدليل السمعي في الذكر، وتسميته بالسلطان يفيد أن له الغلبة والظهور عند معارضة الدليل العقلي له، وقل أن تجد المعارضة والاختلاف بين الأدلة السمعية والأدلة العقلية.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم في الدنيا ويدفع عنهم العذاب يوم القيامة. وكيف يكون لهم نصير وقد عارضوا آيات الله تعالى وما فيها من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على توحيده سبحانه وصدق رسالة نبيه عليه الصلاة والسلام؟!.

﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءآيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادِبُونَ ﴿٦٦﴾ يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءآيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بُشْرٍ مِّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءآيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ أي: ترى الإنكار والشر والتجهُّم ظاهراً على وجوههم.

﴿يَكَاذُوبٌ يَسْتُطُونَ﴾ يهْمُونَ بالبطش من شدّة الغيظ .

﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ جهلاً وتعصباً لأباطيل وأضاليل أخذوها تقليداً .

﴿قُلْ﴾ رداً عليهم :

﴿أَفَأَنْتُمْ كُمْ﴾ أخبركم .

﴿يَسِّرْ مِّنْ ذَلِكَ﴾ الذي فيكم من الغضب والرغبة في البطش والانتقام .

﴿النَّارُ وَعَدَاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فالنار وما فيها من عذاب ونكال

أشد وأشق من غيظكم وحقدكم على المؤمنين الذين يتلون عليكم آيات الله تعالى .

### • كمال قدرته سبحانه:

ثم بينت الآيات كمال قدرة الله سبحانه بهذا المثل الرائع الموجّه إلى جميع

الناس على سبيل التحدي لهم ولما يعبدون من دونه سبحانه :

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُٓ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُٓ وَإِن يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ الذين تعبدون غير الله تعالى .

﴿ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُٓ﴾ استماع تدبّر وتفكّر .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُٓ﴾ أي : إن كل

الأصنام والأوثان والأشخاص الذين تعبدونهم من دون الله تعالى لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا وتساندوا على خلقه ، وخلق الذباب مستحيلٌ من قبل غير الله الخالق المصوّر كخلق الجمل والفيل ، لأنّ الذباب يحتوي على ذلك السرّ المعجز سرّ الحياة ، فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل ، ولكنّ الأسلوب القرآني المعجز اختار الذباب الصغير الحقير لأن عجز المخلوقات عن خلقه يلقي في الحس الشعور بالضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل<sup>(١)</sup> .

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/١٢٣ .

ثم بيّنت الآية ما هو أبلغ بالعجز والضعف في قوله تعالى :  
﴿إِن يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي : وإن يأخذ الذبابُ منهم شيئاً  
لا يقدروا على تخليصه منه ، رغم ضعفه ، وكان المشركون يظنون الأصنام بالطيب  
والزعفران ، ويضعون على رؤوسها العسل ، فيأتي الذبابُ فيأكله ويذهبُ به .  
وكلُّ عاقل يستمع إلى هذا المثل استماع تدبُّر وتفكُّر لا بدَّ أن يصلَ إلى هذه  
النتيجة التي قررتها الآية الكريمة :  
﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ أي : ضعف العابد والمعبود من دون الله تعالى ،  
أو ضعف الذباب الطالب لما يسلبه ، وضعف المعبود من دون الله تعالى .  
ولو حققت النظر وجدت الصنم أضعف من الذباب بدرجات ، وعابده  
أجهل من كل جاهل ، وأضلَّ من كل ضالٍّ<sup>(١)</sup> ؛ لأن الضعف يتنافى مع صفة  
الألوهية التي تستوجب كمال القدرة .

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٧٤﴾

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي : ما عرفوا قدرَ الله تعالى وعظمته حين عبدوا  
معه غيره .  
﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو سبحانه قادر على خلق المُمكنات كلها ، وإفناء  
الموجودات عن آخرها ، غالب على كل الأشياء .

#### • اصطفاء الرُّسُل :

وجاءت الآيات في ختام سورة الحج بهذا الإعلان :

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يحملون رسالته سبحانه إلى الأنبياء  
عليهم الصلاة والسلام . والاصطفاء : معناه الاختيار والاجتباء .  
وكذلك يصطفي سبحانه من الناس رُسُلًا يحملون رسالته إلى الناس ،

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٣٤ / ١٢ .

ويبلغونهم ما أنزل الله عليهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: ويصطفى من الناس رُسلًا.

واصطفاء الرسل من الملائكة ومن الناس يدلُّ على أهمية الرسالة، وعظم شأنها، فهي رسالته سبحانه إلى خلقه، وحجته البالغة على عباده، كما يدلُّ على فضل المصطفين الأخيار من الملائكة والبشر، فلا يكون اصطفاءه سبحانه إلا عن علم كامل وحكمة تامة: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ٢٤].

ولهذا ختم الله سبحانه الآية بقوله:

﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أحاط سمعه وبصره بالأشياء كلها.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم أحوال الرسل مستقبلاً وماضياً،

فهو سبحانه عليم بأحوالهم قبل الرسالة وبعدها.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره؛ لأنه سبحانه المالك المُدبر.

#### • اصطفاء الأمة المسلمة:

جاء الإعلان عن اصطفاء الله تعالى للرسول مقدمة وتمهيداً لإعلان آخر وهو اصطفاءه سبحانه لخير الأمم وأفضلها وهي الأمة المسلمة، فقد آن الأوان بعد هجرة النبي ﷺ وتأسيس المجتمع الإسلامي لظهور الأمة المسلمة، أمة التوحيد التي تجمع بين قلوبها كلمة التوحيد، وأمة الإجابة التي لبّت دعوة إبراهيم عليه السلام، بعدما رفع قواعد بيت الله الحرام، ولبّت أيضاً من بعده دعوة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فجاءت إلى بيت الله الحرام رمز توحيدها ووحدتها من كل فج عميق تعلن كلمة التوحيد: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شريك لك لَبَّيْكَ)، وأمة الجهاد التي شرع الله لها الجهاد لإعلاء كلمته سبحانه في جنات الأرض، ولهذا جاء النداء الأخير في سورة الحج موجهاً على الخصوص لأبناء هذه الأمة المسلمة بعد أن كانت النداءات في السورة موجهة إلى عامة الناس: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وهكذا فقد رسمت الآيات الكريمة في سورة الحج الطريق المؤدي إلى

ظهور الأمة المسلمة، وبعد أن اتّضحت معالم الطريق، وسار عليه من اختاره الله تعالى واصطفاه من الناس ليكون من هذه الأمة.

ولمّا كان الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد والتصديق بيوم القيامة وبقدرته سبحانه على بعث الناس من قبورهم لهذا اليوم، ولما كان ذلك مبدأ الطريق وقاعدة الانطلاق جاء النداء للسائرين عليه بأبرز الصفات التي يتّصفون بها؛ وهي صفة الإيمان والتصديق مع القبول والإذعان، وجاء بعد ذلك التكليف بالأركان من صلاة وزكاة وحج وصيام، ومعه الالتزام بسائر الأحكام من الحلال والحرام في مضمون هذا النداء.

وركزت الآيات الكريمة على الصلاة خصوصاً، وعبادة الله وطاعته عموماً، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ

تُقْلِحُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي: صلُّوا. وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنهما أعظم أركانها، ويدلّان على غاية الخضوع والتذلّل لله تعالى.

﴿وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبّدكم سبحانه به من أداء لبقية الفرائض، وطاعته سبحانه في كل ما أمر به ونهى عنه.

﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي: افعلوا كلّ ما فيه خيرٌ لكم ولسائر الناس، فأنتم خيرُ الأمم لأنكم تحملون الخير لكل الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويكفي أن هذه الأمة تحمل للناس رسالة الإسلام:

﴿لَعَلَّكُمْ تُقْلِحُونَ﴾ فهي طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

#### • الصلاة والتكليف بالجهاد:

وقد عوّدنا الله تعالى أنه إذا أراد اصطفاءً أحدٍ من خَلْقِهِ وتكليفه بمهمة

خاصة أن يأمره بالإكثار من الصلاة، ألا ترى كيف خاطبت الملائكة السيدة مريم عندما اختارها الله تعالى لتكون أمًّا لعيسى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران].

وتأمل الآيات الكريمة التي تخاطب النبي ﷺ وهو لا يزال في بواكير عهده بالتنزيل الحكيم: ﴿بِأَيِّهَا الْمُرْسَلُ ﴿١﴾ فُرِ الْبَلَّ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ يَصْفَهُ أَوْ أَنْصُ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل].

فالاصطفاء تشريف، والتشريف يقتضي التكليف، والصلاة تمدد المكلف بالقوة الروحية التي تمكنه من القيام بأعباء ما كُلف به، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ولهذا جاء التكليف بالجهاد بعد الصلاة بقوله تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: جاهدوا لأجل الله تعالى أهواءكم وأنفسكم وأعداء دينه وشريعته.

﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ جهاداً خالصاً لله تعالى.

ثم بيّن سبحانه سبب التكليف بالجهاد، وهو الشرف الذي شرفكم الله به عندما اختاركم واجتباكم لتكونوا الأمة المسلمة التي تحمل رسالة الإسلام لجميع الأمم والشعوب، فقال تعالى:

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: اختاركم من بين سائر الأمم ليشرفكم بحمل رسالة الإسلام، قال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: اختاركم للذَّبِّ

عن دينه، والتزام أمره، وهذا تأكيدٌ للأمر بالمجاهدة، أي: وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله تعالى اختاركم له<sup>(١)</sup>.

وتأتي المعونة من الله على قدر المؤونة، ومن لطف الله تعالى بالأمة المسلمة أنه جعل التكليف عليها منوطاً بوسعها، وجعل الدين الإسلامي ميسراً لا حرج فيه ولا مشقة، فقال سبحانه بعد أن ذكر منته على المسلمين بالاجتباء والاختيار، يذكر فضله سبحانه عليهم برفع الحرج وتيسير الدين:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، فلا عذر لكم إن ضعفتُم عن حمل الرسالة وتخاذلتُم في أداء الأمانة.

ثم بيّن سبحانه أصالة الأمة المسلمة وجذورها القوية المتينة الضاربة في أعماق التاريخ:

﴿بَلَّةَ أَيْكُمْ إِبراهيمَ﴾ أي: تمسكوا بملّة التوحيد المتصلة بالعقيدة التي نادى بها إبراهيم ﷺ الذي رفع قواعد بيت الله الحرام.

#### • خير الأمم:

﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إن الله سبحانه سمّاكم بهذا الاسم في الكتب السابقة من قبل نزول القرآن الكريم.

﴿وَفِي هَذَا﴾: وسمّاكم أيضاً بهذا الاسم في القرآن الكريم.

فاعرفوا قدر أنفسكم ومقدار التبعات الجسام الملقاة على عاتقكم، واتركوا الدعوات الجاهلية التي تفرّقكم وتبعّدكم عن شرف الدعوة الإسلامية، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثِّي جَهَنَّمَ» قال رجلٌ: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم؛ وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التي سمّاكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله» [رواه النسائي في الكبرى (٨٨١٥)].

وقوله: «جثي» جمع جاثٍ، وهو الجالس على ركبتيه.

(١) تفسير القرطبي: ١٢/١٠٠.

وانتسابكم إلى الأمة المسلمة شرفٌ كبيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، إنه يستدعي أن يكرمكم الله تعالى بشهادة الرسول ﷺ عليكم يوم القيامة أنه ﷺ بلَّغكم الرسالة، وحمَّلكم الأمانة، كما يستدعي شهادتكم على كلِّ الأمم يوم القيامة بأنَّ رُسُلَهُم بلَّغَهُم رسالة ربهم، قال تعالى:

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وهذا دليلٌ على أنكم عدولٌ خيار مشهودٌ بعدالتكم عند جميع الأمم، فالجميع معترفون بفضل الأمة المسلمة كما قال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢].

والوسط: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العربِ داراً، أي: خيرها، وكان رسولُ الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصَّها الله تعالى بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب<sup>(١)</sup>.

فاشكروا الله تعالى على نعمة الانتماء إلى خير الأمم، إلى الأمة المسلمة، وقابلوا هذه النعمة العظيمة الجليلة بأداء الصلاة كاملة مستقيمة، وإيتاء الزكاة لمستحقيها من أبناء الأمة المسلمة، والاعتصام بالله بالتوكل عليه والاستعانة به، والتمسك بشريعته.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ وَلَا تَجْعَلْ لِحُزْنِكُمْ آلَاءَ اللَّهِ ۗ سَاءَ الَّذِي يَصِفُكَ ۗ﴾  
ومتولِّي أموركم.

﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فلا وليٍّ ولا نصير في الحقيقة سواه، فثقوا بالله تعالى في جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه سبحانه.

وفي الختام: أسأله جلًّا وعلا أن يجعلنا من هذه الأمة، وأن يحشرنا يوم القيامة تحت لواء نبيها وقائدها سيِّدنا محمد ﷺ، وأن يسدّد خطانا، ويوفّقنا لما يحبه ويرضاه. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.



(١) تفسير ابن كثير: ١/١٩٠.



تفسير سورة المؤمنون  
الإنسان من البداية إلى الخلود  
في سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَرَّبَاتُ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أعظم الموضوعات التي اهتم بها القرآن الكريم بعد موضوع التوحيد، موضوع حياة الإنسان في الدنيا، وحكمة خلقه ووجوده فيها، وارتباط ذلك بتشريفه وتكليفه ومسؤوليته وحسابه وجزائه.

هذه القضية جزء لا يتجزأ عن موضوع العقيدة الأساس، وهو التوحيد، لأنه يؤكد توحيد الله تعالى واتصافه بصفات الكمال في ذاته وفي أفعاله، وتنزّهه تعالى عن كل صفات النقص.

فما خلق الله الإنسان للعبث وللعب في حياته الدنيوية القصيرة، ثم ينتهي بالموت، ينتزه الحق سبحانه عن ذلك، ما خلقه إلا للفلاح والبقاء والخلود.

فعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة، فيعرف حكمة وجوده، وجوهر حياته، وما يترتب على سلوكه فيها من خلود وبقاء في النعيم أو في الشقاء، فقد

ابتدأ وجود الإنسان وخلوده عندما أخرج من العدم، إنها بداية الرحلة الخالدة التي لا تنتهي بتقدير الله تعالى .

وإنَّ هذه الحقيقة أيضاً أهم قضية في حياة الإنسان، على تَفَهُّمِهَا يتحدّد سلوكه، وبها يعرف حكمة وجوده وجوهر حياته وطبيعة الطريق الذي يسير عليه، ولهذا كانت أعظم القضايا في التنزيل الحكيم عالجهما في سُورِهِ من جميع جوانبها، وطرحها بأساليب متنوعة، وخصّ سورة المؤمنون بعرض هذه القضية بأسلوب متفرّد متميز، بإبراز طرفي وجود الإنسان، وارتباط ذلك بتكليفه ومسؤوليته .

وقد جاء تفسير هذه السورة بحمد الله في فصل واحد، متفقاً ومنسجماً مع تسلسل آيات السورة، وموضحاً الاتساق والانسجام بين آياتها وموضوعها الأساس .  
أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .



## تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

اهتمت سورة المؤمنون بإبراز حكمة خلق الإنسان، وبيان أنه لا ينتهي بالموت، إذ ينتقل بالموت من الدنيا إلى البرزخ، الذي يفصله عن الآخرة، ثم يبعثه الله تعالى يوم القيامة للخلود في النعيم أو في الجحيم.

بدأت السورة بتقرير فلاح المؤمنين، وهو بقاؤهم في الخير، وخلودهم في النعيم، فأشارت بذلك إلى أن حكمته تعالى من خلقهم، هي أن يتشرفوا بعبادته وطاعته في الدنيا، ليرحمهم في الآخرة بالخلود في فرايس جنته، وساحات فضله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

فما خلقهم الله تعالى للشقاء والخلود في العذاب، فشقاء المعذبين نابع من كسبهم واختيارهم، وقد أبرزت الآيات هذا المعنى في آخر السورة عند خطاب التوبيخ والتقريع الموجّه للمعذبين في جهنم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَالٍ عَلَيْكَ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وأكدته أيضاً آيات السورة عندما تحدثت عن عنايته تعالى بالإنسان ورحمته به، من بداية خلقه في رحم أمه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾﴾.

وبيان تيسير سبل معيشته في الدنيا، بتسخير المكونات له: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٧﴾...﴾ .

وكما أنعم الله على الإنسان بنعمة الإيجاد والإمداد، أنعم عليه أيضاً بأسباب الهداية إلى طريق الفلاح والخلود في النعيم، وذلك بتوالي الرسائل الإلهية عليه، بواسطة الأنبياء والمرسلين، وهو ما بينته الآيات أيضاً عندما تحدّثت عن نبيِّ الله نوح عليه السلام ورسالته، ثم أعقبته بالحديث عن توالي الرسائل الإلهية مع توالي الأجيال البشرية: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

وركزت آيات السورة من خلال حديثها هذا، على عناد المعاندين، وإعراضهم عن رسالات الله تعالى، وعدم انتفاعهم بوسائل التمكين، التي زوّدهم الله بها، للتمييز بين الخير والشر: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

ومع ذلك بقي القوم في غمرة غفلتهم، وسكرة شهواتهم، حتى نزل بهم الموت، حينئذ انتبهوا وزالت عنهم غفلتهم وغمرة شهواتهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ .

وهي صحوة متأخرة لا تنفعهم، لأن الله تعالى قدر عدم الرجوع إلى الوراء، فقد ضيَّع القوم حياتهم في العبث واللعب، الذي ما خلقوا من أجله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾ .

تلك هي الخطوط العريضة الرئيسة لموضوع سورة المؤمنون، كما سيظهر لنا - إن شاء الله - عند الحديث عن تفصيله .



تفسير سورة المؤمنون  
الإنسان من البداية إلى الخلود  
في سورة المؤمنون

المؤمنون هم المفلحون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّعْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ .

• على طريق الفلاح:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ .

أي: قد نال المؤمنون الفلاح، وفازوا به، أو دخلوا في الفلاح، وساروا على طريقه، لأنَّ الإفلاح الدخول في الفلاح.  
ويطلقُ الفلاحُ في لغة العرب على معنيين:  
الأول: الفوز بالمطلوب الأكبر.

والثاني: البقاء السرمدي في الخير واستمرار الوجود، ومنه قول لبيد:  
لَوْ أَنَّ حَيًّا مُدْرِكُ الْفَلَاحِ لَنَالَهُ مُلَاعِبُ الرِّمَاحِ

يعني: مدرك البقاء، ومنه بهذا المعنى قولُ كعبِ بنِ زهيرٍ، أو الأضبطِ بنِ قُريعٍ:  
لكلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمومِ سَعَةٌ      والمَسَا والصَبْحُ لا فلاحَ مَعَهُ  
أي: لا بقاءَ مَعَهُ<sup>(١)</sup>.

ويقال أيضاً في أصلِ الفلاح: الشقُّ والقطع، ومنه سُمِّيَ الأكَارُ فلاحاً،  
لأنه شقُّ الأرض بالحرث، فكأنَّ المفلاح قد قطعَ المصاعِبَ حتى نال مطلوبه.  
قال القرطبي: وقد يُستعمل في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة<sup>(٢)</sup>.  
فالبقاء في الخير والخلود أمنيَّةٌ كُلُّ حي، وقد فاز به المؤمنون، وكانوا  
يتطلَّعون إليه ويرجونه، وهذا ما دلَّت عليه كلمة (قد) فهي تثبت المتوقَّع، وتدلُّ  
على ثباته إذا دخلت على الماضي، فتقرِّبه من الحال، ولمَّا كان المؤمنون  
متوقَّعين ذلك من فضل الله، صدرت بها بشارتهم<sup>(٣)</sup>.

فالفلاح قد ثبتَ لهم في الحال، وهم على طريقه، فالآيةُ حملت البشارة  
الكبرى للمؤمنين، ولعلَّ هذا سر الدعوات الكريمة، التي دعا بها النبي ﷺ،  
بعد أن أنزل الله عليه هذه الآيات:

روى الإمام أحمد [٣٤/١] والنسائي في الكبرى [٤٥٠/١] والترمذي  
[٣١٧٣]: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسولِ الله ﷺ  
الوحي، يُسمَعُ عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعةً، فاستقبل القبلة، ورفع يديه  
وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا  
ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا»، ثم قال: «لقد أنزل عليَّ عشر آيات، من  
أقامهنَّ دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾...﴾ حتى ختم العشر.

#### • الخاشعون في الصلاة:

ثم بينت الآيات الأعمال التي أفلح المؤمنون بسببها، وهي:

(١) انظر: أضواء البيان: ٧٥٧/٥.

(٢) فتح القدير: ٣٧/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٣٢/٤.

## ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ﴾ (٢)

أي: خائفون من الله تعالى، متذللون له.

وأصل الخشوع: السكون والطمأنينة والانخفاض، وجعله بعض العلماء من أفعال القلوب، كالخوف والرغبة، وجعله بعضهم من أفعال الجوارح، كالسكون وترك الالتفات والعبث، ولا شكَّ أنَّ القلب إذا خشع خشعت الجوارح؛ إذ هو أميرٌ عليها، فالخشوع من أعمال القلب يظهر أثره في سكون الجوارح، فالظاهر عنوان الباطن، ولهذا كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة أقبل على أصحابه فوعظهم قائلاً: «هل ترون قبلي هاهنا؟ والله ما يخفى عليَّ ركوئكم ولا خشوئكم، وإنِّي لأراكم من وراء ظهري» [رواه البخاري (٧٤١)].

والخشوع روح الصلاة، يروِّضُ النفس ويهدبها، ويجعلها تتذوق لذة مناجاة الله تعالى وحلاوة ذكره، فتقبل على عبادته وطاعته بهمة ونشاط، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

## ● المعرضون عن اللغو:

## ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (٣)

أي: مبتعدون عن اللغو، ومتجنبون له في جميع الأوقات.

واللغو: الباطل واللهو، وكلُّ ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال. والإعراض عنه يدلُّ على بُعدهم عنه رأساً وتسبباً وميلاً وحضوراً، فإنَّ أصله أن يكون في عرض غير عرضه<sup>(١)</sup>.

فلا مكان في حياة المؤمن للغو واللهو والعبث؛ لأنَّ ميدان عبوديته لله تعالى وطاعته ربح فسيح، فهو أوسع من حياته مهما امتدت، ولو صرف الإنسان كلَّ حياته في طاعة ربه وعبادته وشكره، فإنه يبقى مقصراً في حق شكر

(١) تفسير البيضاوي: ٣٣٣/٤.

نعم الله تعالى عليه، وفي القيام بحق عبوديته له ﷻ، كما في قوله سبحانه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ﴾ [عبس: ٢٣].

فليس في الإسلام لهو وعبث، ويجب أن تكون حياة المسلم حزمًا وعزمًا وجدًا، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وتصرفات المسلم في حياته كلها موصولة بحكمة وجوده، وهي طاعة الله تعالى، وعمارة الأرض والحياة بعبادته، ولا شك أن جده واجتهاده في طاعة ربه يشغله عن اللهو واللعب، ولهذا لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك، الشاقين على الأنفس، واللذين هما قاعدتا بناء التكليف<sup>(١)</sup>.

#### ● الفاعلون للزكاة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

أي: يؤدّون زكاة أموالهم، أو يزكون أنفسهم، ويطهرونها من لوث الكفر والشرك، والعادات القبيحة المذمومة، ولا شك أن تزكية النفس وتطهيرها من أعظم أسباب الفلاح، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ [الشمس: ٩].

ولفظ ﴿فَاعِلُونَ﴾ يدل على المداومة والاستمرار، بخلاف كلمة: مؤدّون، فتزكية النفس عمل دائم يستمر مع الإنسان طول حياته، ولذلك سمّاه بعضهم بالجهد الأكبر، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ودل هذا الوصف على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية، والتجنب عن المحرمات<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير النسفي: ٣٣٣/٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٣٤/٤.



## ● الحافظون لفروجهم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ .

أي: ممسكون لعوراتهم وسوءاتهم عمّا تدعو إليه شهواتهم.  
ثم استنتت الآيات السبيلَ الشرعي لقضاء الشهوة، بقوله تعالى:

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: إلا مع زوجاتهم أو المملوكات لهم ملكاً شرعياً، وهنّ الأسيرات اللواتي أذن ولي الأمر باسترقاقهنّ، فقد أباح الإسلام لمالك الأمة أن يتسرّى بها، بعد أن يستبرئ رحمها بحيضة، وإذا ما حملت منه وولدت أصبحت أمّ وليدٍ، لا يجوز له بيعها، وتصبح حرة بعد وفاته.  
﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: لا لوم عليهم في قضاء شهواتهم مع زوجاتهم، أو ما ملكت أيمانهم.

فالإسلام دينٌ التوسط والاعتدال، وما حرّم الله تعالى على الإنسان شيئاً إلا وأحلّ له ما يُغنيه عنه، فقد حرّم الزنى، وشرع الزواج، وحثّ عليه، ففي الحلال ما يُغني عن الحرام، ولهذا أمر تعالى بالوقوف عند حدود الحلال، وحرّم تجاوزها، فقال:

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وِرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ .

أي: فمن قصد غير الزوجات والمملوكات، فأولئك هم المتجاوزون للحدود المشروعة، الكاملون في العدوان والمخالفة لأحكام شرع الله تعالى، فهم كما قال نبيّ الله لوط عليه السلام لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء].

ودلت الآية على تحريم قضاء شهوة الجنس عن غير طريق الزواج الشرعي الصحيح وملك اليمين الصحيح.

• الراعون للأمانات والعهود:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: قائمون بحفظها.

فالراعي: القائم على الشيء بالحفظ والإصلاح، كراعي الغنم. والمراد من الأمانات والعهود العموم، في كل ما أؤتمنوا عليه وعوهدوا، من جهة الله ﷻ، ومن جهة الخلق<sup>(١)</sup>.

فالإسلام يوجب حفظ الأمانات والوفاء بالعهود، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال أيضاً: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ولهذا قال في صفات المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ [الرعد: ٢٠].

بينما قال في صفات الكافرين: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال عليه الصلاة والسلام في صفات المنافقين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» [رواه مسلم (٥٩)].

• المحافظون على صلواتهم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

أي: يواظبون ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ ويؤدونها في أوقاتها.

(١) تفسير النسفي: ٤/٣٣٤.

وأفاد لفظُ الفعل: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ الاستمرار والتجدد، فالتكليفُ في أداء الصلاة متجددٌ ومتكرر كلما دخل وقتها، والمداومةُ على أداء الصلاة في أوقاتها من أفضل الطاعات وأعظم القربات.

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ: أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «برُّ الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ الله» [رواه البخاري (٥٢٧)].

كما أفاد تصديرُ صفات المؤمنين بالخشوع في الصلاة، وختمها بالمحافظة عليها، تعظيم شأن الصلاة، وبيان أهميتها في حياة المؤمنين، ودورها الكبير في فلاحهم وخلودهم في النعيم.

#### • الوارثون:

### ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠)

أي: أولئك الجامعون لهذه الأوصاف، هم الأحقاء بأن يسموا وراثاً، دون مَنْ عداهم ممن ورث الأموال والأمتعة الزائلة الفانية، لأن أولئك ورثوا الفلاح، وهو البقاء السرمدي في الخير والنعيم في الجنة.

أو ﴿الْوَارِثُونَ﴾ الذين يرثون منازل أهل النار من الجنة، ويؤيده الحديث الشريف: عند ابن ماجه [٤٣٤١] بسند صحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ، وَرَثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ»، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [رواه أيضاً أحمد (١٣٣/١) عن علي رضي الله عنه].

قال القرطبي: يحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثاً، من حيث حصولها لهم دون غيرهم، فهو اسم مستعار على الوجهين<sup>(١)</sup>.

فهي كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

(١) تفسير القرطبي: ١٠٨/١٢.

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ أي: الذين يرثون أعلى الدرجات في الجنة وأفضلها، التي ورد وصفها في قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فاسألوه الفردوسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أراه قال: وفوقه عرش الرحمن - ومنه تفجَّرَ أنهارُ الجنة» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

ويطلق الفردوسُ في اللغة، على البستان الذي يجمعُ كل شيء، وقيل: هو الذي فيه العنب<sup>(١)</sup>.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ما كانوا فيها أبداً، لا يتحوَّلون عنها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [١٧] خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف].

وهذا منتهى فلاح المؤمنين وغايته، وهو الوصول إلى دار البقاء السرمدي، والخلود الأبدي، في نعيم لا ينفد ولا يبيد.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» فذلك قوله ﷺ: ﴿وَتُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. [رواه مسلم (٢٨٣٧)]. أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.

\*\*\*

## البداية والخلود

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ عُلِقَتْ عُلُقَةً فَمَلَأْنَا الْعُلُقَةَ مِزْجَةً فَمَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتَّيُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

### • البداية:

وبعد أن وصفت الآيات طريق الفلاح والبقاء في النعيم، شرعت في الحديث عن بداية الإنسان وأطوار خلقه الأولى، وكيف أخرجه الله تعالى من العدم، ووضعه على أول طريق الحياة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: خلقناه من خلاصة استخلصت من طين.

فالسلالة: فعالة من السَّلِّ، وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول: سللتُ الشعر من العجين، والسيف من الغمد.

والمعنى: خلقنا الإنسان من شيء مستخرج من طين، وهو المني المستخلص من الدم، والدم مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان، والتراب مصدر هذه الأغذية، ومرر معنا في سورة الحج عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [٥] أنه قد ثبت علمياً أنَّ العناصر التي تكون البنية المادية لجسم الإنسان، هي نفس العناصر الأساسية المكونة للتراب.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ .

أي: ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر حصين، وهو الرحم.

والنطفة: هي البيضة الملقحة، المختلطة بالحيوان المنوي، الذي أفرزه الرجل، فهي النطفة الأمشاج، التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

فهذه النطفة هي بداية وجود الإنسان، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة].  
 وَرَحِمُ الْمَرْأَةِ الَّذِي هُوَ الْقَرَارُ الْمَكِينُ، أَحْصَنَ مَكَانَ فِي جَسْمِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكَ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ قَدَرٌ مَّعْلُومٌ ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات].

### • أطوار الخلق:

وبعد أن وصفت الآيات بداية خلق الإنسان، بينت أطوار خلقه، التي يقبله الله تعالى فيها:

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: ثُمَّ حولنا وصيرنا النطفة علقة.

والعلقة في اللغة: قطعة الدم المتخثر الجامد، وكل ما علق أو علق بالشيء، أو دودة في الماء تعلق في حلوق الدواب، وتمتص منها الدم، وكان علماء التفسير يرون أنها قطعة الدم الجامد، لكنَّ المُحَدِّثِينَ من العلماء والأطباء ينصرفون عن هذا المعنى إلى المعنى الآخر للعلقة، المشتقة من العلق والتعلق، فالعلقة هي البيضة الملقحة بعد أن تتعلق بالرحم، وتكتسب صفة العلق<sup>(١)</sup>.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: فصيرنا العلقة قطعة لحم صغيرة قدر ما يُمضغ.

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ وهذه العظام تكوّن الهيكل العظمي الأول للإنسان.

(١) انظر: تفسير سورة الحج، المسمى في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا: (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج).

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ أي: جعلنا للعظام العارية كساء من اللحم، وهي العضلات والأغشية التي تغطي العظام، وقد ثبت علمياً أنَّ الخلايا التي تتكون منها العظام توجد قبل الخلايا التي يتكون منها اللحم<sup>(١)</sup>.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: خلقاً مابيناً للخلق الأول في الصفات.

وذهب أكثرُ المفسرين إلى أنَّ المراد من الخلق الآخر نفخ الروح، ولكن العلامة البيضاوي رحمته لم يقصر الآية على هذا المعنى، فقال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ هو صورة البدن أو الروح أو القوى، بنفخه فيه، أو المجموع، و﴿ثُمَّ﴾ لما بين الخلقين من التفاوت<sup>(٢)</sup>.

ويقرر علماء الطب أنه يتمُّ تصويره وتسويته وتعديله، وتنفخ فيه الروح، في هذا الطور، ومن له أدنى إلمام بعلم الأجنة يعرف كيف أنَّ أجهزة الجسم المختلفة تُهدم ويُعاد بناؤها باستمرار، وتتجلى هذه الحقيقة في أجلى صورها في الجنين، ثم تقل نسبياً بعد الولادة، ثم تقل كذلك بعد البلوغ، ولكنها لا تتوقف حتى في الشيخوخة<sup>(٣)</sup>.

فتصوير الإنسان وتشكيله يتم في داخل الرحم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

والآيات تدل على أن التصوير يتم بعد الخلق، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

فخلق الإنسان يمر بمراحل قدرها العليم الخبير، وأشار إليها بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٣٧٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٣٦/٤.

(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٣٧٤.

ففي الخلق الأول لا تتضح المعالم المميزة لشكل الإنسان، أما في الخلق الآخر فتتضح المعالم، وتظهر الصورة الإنسانية المميزة له، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: تعالى أمره سبحانه في قدرته وعلمه وحكمته، فهو أحسن المصوِّرين والمقدِّرين.

أو: ﴿فَتَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أتقن الصانعين<sup>(١)</sup>.

فهو المستحق للتعظيم والثناء على باهر حكمته وبديع صنعته، الذي صوَّر الإنسان في أحسن صورة وأعدلها وأقومها، كما في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وقد أقسم الله تعالى على تصوير الإنسان في أحسن الصور وأعدل الأشكال، تعظيماً لهذه الظاهرة الدالة على كمال قدرته ورحمته، فقال: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين].

ثم أجملت الآيات ذكر المراحل الكبرى، التي يمر بها الإنسان، وهو يسير على طريق الوجود والبقاء:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾

أي: ثم إنكم بعد المرحلة الأولى من وجودكم، لصائرون إلى الموت لا محالة، ولذلك جاء الخبر عنه مؤكداً بعدد من المؤكدات، فهو أمر محتم مقدر لكم، لا خيار لكم فيه ولا إرادة، كأطوار خلقكم التي سبق ذكرها. ثم تُبعثون بعد انتهاء المرحلة الفاصلة الممتدة بعد الموت إلى الحياة الثانية، والتي ستذكرها آيات السورة باسم البرزخ.



﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٦﴾ .

أي: تخرجون من قبوركم للحساب، وما يترتب عليه من خلود وبقاء في النعيم، أو في الشقاء والعذاب.

\* \* \*

### الإمدادُ بأسبابِ الحياةِ

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَاوَكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِمَا فِي بُطُونِهَا وَالْكَرُ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٢٢﴾ .

جاء في السورة بعد بيان الإيجاد: بيان الإمداد، فالإنسان مفتقر دائماً إلى خالقه في وجوده وفي بقائه، وكما أوجده سبحانه، وأخرجه من العدم إلى الوجود، أمده بكل أسباب وجوده وأسباب بقائه، بفضلله وإحسانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سماوات، بعضها فوق بعض، وكل سماء طريق إلى السماء التي فوقها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

ومع أن الإنسان خُلِقَ من الأرض، ويعيش عليها، فهو محتاج إلى ما في السماوات من أسباب عيشه، واستمرار وجوده، ولهذا سَخَّرَ له تعالى ما في

السماوات، كما سَخَّرَ له ما في الأرض، قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: وما كنا عن تدبير أمر الخلق مهملين، فنحن نعلم كل ما يحتاجون إليه، وما يصلح لهم، فهو الخلاق العليم الحكيم، يخلق الخلق ويدبر أمره.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [١٨].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي: أنزلنا من جهة السماء ماء بمقدار معين، حسب ما تعلق به إرادتنا، وسبق به علمنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له مسكناً ومستقراً في الأرض، لكي يتمكن الناس من الانتفاع به، فالمياه الجوفية التي في باطن الأرض، أصلها من مياه الأمطار.

﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي: وإنا على إزالته، وحرمانكم من الانتفاع به لقادرون، كما نحن قادرون على إنزاله.

فاعرفوا فضله تعالى عليكم، وشدة افتقاركم إلى رحمته، فلا غنى لكم عن فضله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَاوَاكِبٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [١٩].

أي: أنشأنا لكم بهذا الماء بساتين منها تتفكهون وتأكلون.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ [٢٠].

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾ أي: وأنبتنا لكم بماء المطر أيضاً، شجرة

تخرج من جبل سيناء، وهي شجرة الزيتون، ويبدو أنها أول ما نبتت في جبل الطور، في منطقة سيناء، الواقعة بين فلسطين ومصر، وهي شجرة مباركة، أنبتها الله في أرض مباركة، في المكان الذي كلم الله فيه موسى، ولعلها الشجرة التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِفْرَاقًا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

ووصفها أيضاً بالبركة في قوله الكريم: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ومن بركتها: كثرة منافعها للناس، فهي طعام ودواء، أخرج الترمذي [١٨٥١]:  
عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «كُلُوا الزَيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ».

﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي: تنبت بثمر الزيت، وهو الزيتون الذي يستخرج منه الزيت.  
﴿وَصَبِغٌ لِلْأَكْلِينَ﴾ أي: وإدام يأتدم به الآكلون، ففي الزيتون دهن وإدام.

وخص سبحانه هذه الأشجار الثلاثة بالذكر لكثرة منافعها، كما أنه ذكرها في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٦﴾ يُبْتِغُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَعِبْرَةً شَقِيقِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي: وإن لكم في الإبل والبقر والغنم لآية وموعظة تعتبرون بها، وتعرفون فضله تعالى عليكم.

﴿شَقِيقِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي: نسقيكم من ألبانها، وإخراج اللبن مما في بطون الأنعام من أخلاط الطعام والعصارات والدماء من أعظم الأدلة الدالة على

كمال قدرة الخالق العظيم، القائل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فِرْتٍ وَدَمِرٍ بَنَاءً خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: ولكم في الأنعام منافع كثيرة من وجوه متعددة، فصلها تعالى في سورة النحل بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٨١﴾.

وقوله فيها أيضاً: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ﴿١﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٧﴾.

وقوله أيضاً في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَونَ﴾ ﴿٦١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: وكما تنتفعون بها وهي حية، تنتفعون بها بعد ذبحها، فتأكلون من لحومها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾.

أي: وعلى الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تُحْمَلُونَ في أسفاركم. فما أعظم فضله تعالى على الإنسان!.

\*\*\*

## الإمداد بأسباب الهداية

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٣﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا نَشْرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَكُوَّ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزِلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ فَرِيصُوا بِهِ حَتَّىٰ جِئَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿١٧﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَئِينٍ وَأَهْلَکَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿١٨﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَمْتُ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلَکِ فَقُلِ اتَّخَذَ اللَّهُ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزلاً مبارکاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٠﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّإِنِّ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٢١﴾﴾

وكما أمد الله الإنسان بأسباب معيشتة، أمده أيضاً بأسباب هدايته وسعادته، فبين له بواسطة الأنبياء والمرسلين طريق الفلاح والبقاء في الخير والنعيم، وهو ما شرعت الآيات بيانه، من خلال حديثها عن بعض المرسلين:

## • نوح ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٣﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي: اعبدوا الله وحده، فلا معبود لكم يستحق العبادة غيره جل وعلا.

ومر معنا في سورتي الأعراف وهود أن جميع الأنبياء والمرسلين قالوا هذه الكلمة، فهي أساس جميع الرسالات الإلهية، إذ هي سبيلُ الفلاح والفوز بالنجاح والبقاء.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره، وأعرضتم عن دينه وشرعه.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفُضَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: فقال وجهاء قومه ذوو الغنى والترف، الذين سارعوا إلى الكفر به، ومعارضة دعوته؛ قالوا لعامة الناس من قومه: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفُضَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن يكون له فضل عليكم، حتى يسودكم، وتصبحوا له أتباعاً، فالحسد والخوف على مناصبهم جعلهم يبادرون إلى معارضة دعوته ﷺ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: ليكونوا رسلاً.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ وهذا يدل على تحجّر عقولهم، وتقليدهم الأعمى لأبائهم.

ثم انتقلوا من اتهامهم له بحب الرئاسة، إلى اتهامهم له بالجنون:

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَتَّبُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

أي: فانتظروا واحتملوه حتى يفيق من جنونه، أو حتى يموت.

واقترنت الآيات على بيان معارضة قوم نوح لدعوته ﷺ، واتهامهم له بحب الرئاسة والجنون، ولم تذكر ردّ نوح عليهم ومحاورته لهم، كما مر في سورة هود، لأنّ مهمة الآيات هنا بيان فضل الله تعالى على الناس، بتيسير أسباب الهداية والسعادة، كما يسّر لهم أسباب المعيشة والانتفاع، بما خلق لهم وسخر في الكون، ومع ذلك أعرضوا عن عبادته تعالى وطاعته وكذبوا رسله، واتهموهم بأقبح التهم.

وبعد طول معاناة وصبر على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً، دعا نوح

عليهم، وتوجه إلى الله تعالى يستنصره عليهم:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ .

أي: بسبب تكذيبهم وإصرارهم على كفرهم وفجورهم.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ .

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ أي: اصنع السفينة محفوظاً برعايتنا وحمايتنا، على حسب ما نوحى إليك ونعلمك، فقد كان ﷺ يجهل كيفية صنعها، فأوحى إليه الله سبحانه ذلك، وعلمه وأرشده، كما في قوله: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [هود: ٣٧].

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي: جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم، ونبع الماء بقوة وغزارة من التنور، وهو تنور الخبز، فقد جعل الله تعالى نبع الماء منه علامة لنوح على وقت نزول العذاب بقومه، مما يدل على كمال قدرته تعالى بإخراجه الماء من موضع وجود النار.

﴿فَأَسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: أدخل في السفينة، واحمل فيها، من كل أنواع المخلوقات الأرضية البرية زوجين ذكراً وأنثى، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَنْ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ولا بدّ أنه تعالى سخر هذه الأزواج لنوح ﷺ، فجاءته منقادة طائعة، إذ هو سبحانه الأمر والمعين على تنفيذ الأمر، والمعونة تأتي على قدر المؤونة، فلا حاجة بنا إلى الخوض في كيفية الشحن، كما فعل بعض المفسرين.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: واحمل فيها أهلك أيضاً، من النساء والأولاد، إلا من وجب عليه العذاب منهم بسبب كفره، وهما امرأته

وولده الكافران، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبُنِيْ اَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِيْنَ﴾ (٤٢) قَالَ سَوَّيْ اِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ اَمْرِ اللّٰهِ اِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَفِيْنَ ﴿[هود].

وقال أيضاً: ﴿صَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا لِّلَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَمْرَاتٌ نُوحٍ وَاَمْرَاتٌ لُّوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدِيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صٰلِحِيْنَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا وَقِيْلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِيْنَ﴾ [التحریم: ١٠].

﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا اِيْتَهُمْ مُّغْرَقُوْبٌ﴾ أي: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مغرقون لا محالة، بسبب إصرارهم على الكفر والظلم. وشحن ﴿السفينة﴾ كما أمره تعالى، فكانت سبب نجاة نوح والمؤمنين معه، ولهذا أمره تعالى أن يتوجه بالحمد والشكر له وحده:

﴿فَاِذَا اسْتَوَيْتَ اَنْتَ وَمَنْ مَّعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيْ نَجَّانَا مِنَ الْقَوْرِ الظّٰلِمِيْنَ﴾ (٢٨).

﴿فَاِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ أي: إذا تمكنت.

﴿اَنْتَ وَمَنْ مَّعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ من المؤمنين على الركوب في السفينة.

﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيْ نَجَّانَا﴾ يسر لنا سبيل النجاة.

﴿مِنَ الْقَوْرِ الظّٰلِمِيْنَ﴾.

وكما علمه تعالى أن يحمدته ويشني عليه، علمه أيضاً أن يسأله أن ييسر له موضعاً صالحاً ينزل فيه بعد انتهاء الطوفان، يتمكن فيه مع مَنْ كان معه في السفينة، من إنعاش الوجود البشري مرة ثانية في الأرض، فالإنسان مفتقر دائماً إلى الله تعالى في معيشتة وهدايته:

﴿وَقُلِ رَبِّ اَنْزِلْنِيْ مُنْزَلًا مُّبٰرَكًا وَاَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِيْنَ﴾ (٢٩).

لأنك تحفظنا وترعانا وتبارك لنا.



﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن فيما تقدم لعبراً وعظات ودروساً تدل على رحمته تعالى وفضله وإحسانه .

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: مختبرين بهذه الآيات، لننظر من يعتبر ويتعظ، أو يعرض ويعاند، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ﴾ [القمr: ١٥] .

والابتلاء ألوان: ابتلاء للصبر، وابتلاء للشكر، وابتلاء للتوجيه، وابتلاء للتأديب، وابتلاء للتمحيص... وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولذريته من بعده<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

### التوحيد أولاً

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا شَرٌّ مِّثْلَكُم مَّا تَأْكُلُونَ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُم مَّا تَأْكُلُونَ إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْدِيكُمْ أَنتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَّاتِ هَيَّاتِ لِمَا تُوَعَّدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

وبارك الله تعالى في نوح ﷺ وأبنائه الذين كانوا معه، فانتعش بهم الوجود

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٠٦٦ .

البشري في الأرض مرة ثانية، وقدّر تعالى أن يكون نوح الوالد الثاني للبشرية بعد آدم، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصفات: ٧٧].

وبدأت البشرية الجديدة حياتها على طريق الحق والفلاح، كما كانت في بدايتها الأولى في عهد آدم ﷺ، فالتوحيد هو الدين الأول الذي كانت عليه البشرية في مبدأ وجودها، والكفر أمر طارئ عليها.

ومن رحمته تعالى أن رسالات الأنبياء بقيت تتوالى على الناس، مع توالي أجيالهم وقرونهم، تبين لهم أسباب الهداية، وتوضّح لهم معالم طريق الفلاح والنجاح، حتى تمت وخُتِمت برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٣١)

أي: قوماً آخرين، فانحرفوا عن طريق التوحيد والفلاح، إلى طريق الشرك والكفر، ولم تكشف الآيات هوية هؤلاء القوم، إذ المهم أن تظهر الآيات فضله تعالى على الناس، وأنه ما تركهم من غير هادٍ يدعوهم إلى طريق الهداية ويرشدهم إليه.

﴿فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ﴾ (٣٢)

إنها نفس الكلمة التي قالها نوح ﷺ لقومه.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٣٣)

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ونعمّناهم في الحياة الدنيا بسعة العيش، فعاشوا حياة الترف والبطر. ودلّ وصف الآيات لهم بصفة الترف، على أنه من أسباب الضلال والكفر، وغالباً ما يكون رؤساء الضلال والكفر من الأغنياء المترفين.

﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ أي: ما هذا الرسول إلا بشر مثلكم في صفات البشرية. وتقريراً لتمام المماثلة وصفوه بالأكل والشرب.

﴿ وَلَئِنِ اطَّعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ (٣٤).

هكذا أعماهم الترف والبطر عن رؤية الحقيقة الواضحة، حتى جعلوا طاعة الرسول واتباعه في عبادة الله تعالى وحده خسارة ونقصاً.

﴿ يُعَذِّبُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرِجُونَ ﴾ (٣٥).

أي: تخرجون من قبوركم أحياء للحساب والجزاء. وهو استفهام إنكاري، يدل على إنكارهم ليوم القيامة واستبعادهم لوقوعه.

﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴾ (٣٦).

أي: بعيد بعيد ما توعدون. وأرادوا بهذا الاستبعاد نفية مطلقاً، وأنه في نظرهم لا يكون أبداً، فالإنسان في نظرهم ينتهي بالموت، وأنه خلق ليعيش في هذه الدنيا فقط، يأكل ويشرب ويلهو ويلعب، ويبغي ويظلم، ثم ينتهي بالموت، ولهذا أضافوا قائلين:

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣٧).

أي: لا حياة لنا إلا هذه الحياة في الدنيا، يموت الآباء ويحيى الأبناء، وما نحن بمبعوثين بعد الموت.

وهو تكذيب ضمني للرسول المرسل إليهم، أكده قولهم:

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٨).

أي: بمصدقين.

فما كان من الرسول ﷺ إلا أن لجأ إلى الله تعالى يستنصر به على هؤلاء المعاندين المكذبين :

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيحَنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: بعد قليل ليصبحن نادمين على كُفْرهم وتكذيبهم.

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فما عذبهم الله إلا بعدله.  
 ﴿فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً﴾ أي: هلكى هامدين كغثاء السيل، وهو ما يحمله السيل من الحشيش والقصب اليابس المتفتت.  
 ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بُعداً لهم عن رحمته تعالى.

\* \* \*

### مع الأنبياء والمرسلين

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴿٤٤﴾ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٧﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِلشَّرِّينِ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمْ لَنَا عِذُونَ ﴿٤٨﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ هَدْيَهُ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٤﴾﴾

وتكاثر البشر، وانتشروا في الأرض أمماً وشعوباً، ومن سنته تعالى في الناس أنه جعل للأمم والأجيال أعماراً وأزماناً لا تتجاوزها، فالحياة في الدنيا

ممر إلى الآخرة، ولا خلود فيها لأحد، وكما قدر سبحانه للأفراد آجالاً، قدر أيضاً للأمم والشعوب آجالاً، وهو ما دلت عليه الآيات الكريمة:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: لا يتقدمون عن الأجل المقدر لهم ولا يتأخرون عنه.  
وكلما تتابعت الأمم، وتوالت الأجيال، تتابعت رسالات الله تعالى إليها،  
بواسطة المرسلين:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرْتَابًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرْتَابًا﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [النحل: ٣٦].  
وما من رسول إلا وكذبه قومه وعارضوا دعوته، وكان ذلك سبب هلاكهم:  
﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أتبعنا بعضهم بعضاً في الهلاك، فلم يبقَ منهم إلا أخبارهم، يتحدث بها الناس في مجالسهم.  
﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وتوقفت الآيات في أثناء هذا العرض التاريخي السريع المجمل، عند الرسولين الأخوين الكريمين موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنهما من المعالم البارزة في تاريخ الرسالات الإلهية:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾

أي: أرسلناهما مؤيدين بالمعجزات والحجة الواضحة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

أي: امتنعوا عن الإيمان تكبراً وترفعاً.

﴿فَقَالُوا اتُّمِّنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: خاضعون متذللون.

أنكروا بهذا القول بشرية الرسولين، وأنكروا أيضاً اختيارهم من بني إسرائيل، الذين كانوا يعانون من ظلم فرعون وقومه، واستعلائهم عليهم.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ .

أهلكهم الله في البحر، وأنجى بني إسرائيل من ظلمهم وبغيهم.  
ثم أنزل الله سبحانه التوراة على موسى ﷺ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

أي: لعل بني إسرائيل يهتدون به إلى طريق الفلاح.  
وختمت الآيات استعراضها السريع، بذكر عيسى ﷺ وأمه:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ أي: إن الله تعالى جعل عيسى ﷺ وأمه من أعظم الآيات الدالة على كمال قدرته وطلاقة مشيئته جل وعلا، وأنه قادر على الخلق من دون أسباب، فهو خالق الأسباب المسببات.

﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ إلى مكان من الأرض، مرتفع ومنبسط.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ فيه قرار وماء ظاهر يجري تراه العيون.

واختلفوا في هذا المكان، فقيل: موضع في غوطة دمشق، وقيل: بيت

المقدس، وقيل: الرملة من أرض فلسطين، ولعلّه المكان الذي ولد فيه عيسى ﷺ، والذي جعل الله فيه الثمر والماء، الذي قال تعالى فيه في سورة مريم: ﴿فَلَمَّآ هَا أَلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ﴿١٣﴾ فَتَادَبَاهُمَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿١٤﴾ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ الْجَنَّةَ تَسْفُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿١٥﴾﴾.

### • الطعام الحلال والعمل الصالح:

والتفتت الآيات بعد هذا الاستعراض السريع لأهم الرسائل الإلهية، تخاطب جميع المرسلين، كأنهم كانوا مجتمعين في زمن واحد ومكان واحد، عند توجيه هذا الخطاب لهم، مما جعل بعض المفسرين يرى أن المقصود بهذا الخطاب، هو خاتم الأنبياء المرسلين، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وقد يكون المراد الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك ووصي به، ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به، تحقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه<sup>(١)</sup>:

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: كلوا من الطيب الحلال، واعملوا العمل الصالح، وهو العمل المشروع، فلا يكون العمل صالحاً إلا إذا وافق شرع الله تعالى. والأمر للتكليف، لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: فاحذروا عقابي، والتزموا حدود شرعي في ماكلكم وجميع أعمالكم.

ولا شك أن لتطيب المأكل والمشرب تأثيراً كبيراً في صلاح العمل وقبوله، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣٤٧/٤.

ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنتى يستجاب لذلك» [رواه مسلم (١٠١٥)].

ودلت الآية الكريمة على أنّ تكليف الإنسان بالشرائع السماوية لسعادته وإصلاح حياته، لا لإعناته والتضييق عليه، كما أفادت وحدة الرسائل الإلهية، وأنها جميعاً منزلة لرعاية مصالح الناس وهدايتهم إلى طريق الفلاح.

### • الاختلاف والكفر:

وطريق الأنبياء والمرسلين واحد، وهو الطريق المؤدي إلى الفلاح والخلود في النعيم، والسائرون عليه أمة واحدة، مهما اختلفت أجناسهم وأعصارهم وأمصارهم:

﴿وَإِنْ هَدِيَهُمْ أُمَّتَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ .

والدين الواحد أعظم مقومات الأمة الواحدة؛ لأنه يوحد قلوبهم وسلوكهم واتجاههم وطريقهم، يكفي أنهم جميعاً يتجهون بالعبادة والطاعة إلى ربّ واحد، ويلتزمون منهاجاً واحداً: ﴿إِنْ هَدِيَهُمْ أُمَّتَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وهو ما كان عليه الناس في فجر وجودهم الأول، وفي فجر وجودهم الثاني بعد الطوفان، عندما كانوا سائرين على دين التوحيد، الذي بشر به آدم ونوح وسائر الأنبياء والمرسلين بعدهما، وما تفرق الناس إلا عندما طرأ عليهم الكفر والشرك، فانحرفوا عن الطريق، وتشعبت بهم الملل الباطلة والنحل الفاسدة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال أيضاً: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذا ما صرحت به الآيات بعد ذلك بقوله تعالى:



﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: تقطعوا أمر دينهم، وجعلوه نحلاً مختلفة، وقطعاً متباينة، فاختلفوا، وتفرقت بهم الطرق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والعجيب أنه تعالى ذكر مثل هذا أيضاً في سورة الأنبياء فقال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورون مُعْجَبُونَ بما عندهم من الآراء والأهواء.

\* \* \*

### غفلة وغرور

﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ بَيْنَيْنَا وَبَيْنَهُمْ سَخِرَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۗ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

وإعجابهم وفرحهم بما عندهم من ملل باطلة، نابع من سببين:  
السبب الأول: غفلتهم عن الحق وشواهد الساطعة، وبراهينه الواضحة.  
وصورت الآيات هذه الغفلة، وهي تخاطب النبي ﷺ، مواسية له ومثبتة، بقوله تعالى:

﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ أي: دعهم في غفلتهم.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ موعد نزول العذاب بهم.

شَبَّهَ غفلتهم وجهالتهم بالماء الذي يغمر أصحابه، فهم منغمسون في الغفلة، تحيطُ بهم من جميع جوانبهم.

والأمر لا يفيد الإعراض عن تذكيرهم وتبليغهم، فالنبي ﷺ مأمور بذلك، وإنما جاء على سبيل الوعيد والتهديد لهم، ولهذا الأسلوب نظائر في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَنُؤَلِّعُ عَنْهُمْ هَوَاهُمْ وَأَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصفات].

والسبب الثاني: اغترارهم بما في أيديهم من زينة الدنيا ومتاعها وزخرفها، إذ حسبه إكراماً لهم، بينما هو في الحقيقة ابتلاء واختبار، سقطوا فيه، فأصبح مكرراً بهم واستدرجاً لهم إلى سخط الله تعالى وعذابه:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ (٥٥) سُورِ لُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ (٥٥) سُورِ لُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: نعجل لهم في الخيرات؛ إكراماً لهم، لمرضاتنا عنهم.

﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أن ذلك استدرج لهم ومكر بهم، قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ بِهَِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم].

وقال أيضاً: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].

فالدنيا هينة على الله تعالى، يعطيها من يحبُّ ومن لا يحبُّ، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

والإكرام الحقيقي هو بالتوفيق إلى الطاعات، والاستقامة على طريق الفلاح، ومن وفقهم الله تعالى للاستقامة على طريق الفلاح، فقد أكرمهم سبحانه أعظم كرامة.

## المسارعون إلى الخيرات

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَغْرَبِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظَاهُونَ ﴿٦٢﴾﴾ .

فهم المسارعون الحقيقيون في الخيرات، الذين تدفعهم خشيتهم من ربهم إلى الإسراع في طاعته ومرضاته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

أي: حذرون خائفون؛ إجلالاً لربهم وتعظيماً له، بسبب إيمانهم بلقائه يوم القيامة، ووقوفهم بين يديه سبحانه للحساب والجزاء:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

أي: يصدقون بكل ما أخبر تعالى عنه بآياته المنزلة على رسوله. ومن أعظم القضايا التي اشتملت عليها هذه الآيات، يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

فلا يعبدون غيره، ولا يطيعون سواه، وينأون بأنفسهم عن جميع أنواع الشرك الخفية والجلية.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أي: يتقربون إلى الله تعالى بأنواع الطاعات والعبادات.

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ وهم خائفون ألا يتقبلها سبحانه منهم .

﴿أَتَاهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَجْعُونَ﴾ لأنهم يوقنون أن مصيرهم إليه تعالى، وهو عليهم بأحوالهم وما تكنه ضمائرهم وقلوبهم .

وهذا يدل على أنهم غير معجبين بأعمالهم، ولا مغترين بها، يهتمون أنفسهم دائماً بالتقصير في طاعة ربهم وشكره على نعمه وإحسانه .

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: قلت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، أهم الذين يشربون الخمرَ ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون، ويخافون ألا يُقبلَ منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات» [رواه الترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (١١٩٨) وأحمد (١٥٩/٦)].

فيجب على المؤمن ألا يغتر بعمله، ولا يعجب به، حتى يبقى على حذر ووجل من عذاب الله تعالى، فلا يكون كالكفار المغترين بالدنيا وزخارفها، والمطمئنين إليها، أو يكون من المغترين بأعمالهم المعجبين بها، الذين يشعرون بالأمن من عذاب الله تعالى، كما قال سبحانه فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

فالتصديق بالمسؤولية أمامه تعالى يوم القيامة أمرٌ هام في حياة المؤمن، راسخٌ في وجدانه، مؤثراً في سلوكه، يجعله دائماً راغباً في طاعته تعالى أشد الرغبة، غير زاهد فيها، يستكثر منها ويسارع إليها:

﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَكْرِاتِ وَهُمْ لَهَا سَاهُونَ﴾ .

فهم المتسابقون في طريق المكرمات، الواصلون إليها قبل غيرهم، الذين يكرمهم الله تعالى بتعجيل ثوابها لهم في الدنيا، بتوفيقه ومعونته وتيسيره، وفي الآخرة بالخلود في فراديس جنته، فهو سبحانه أسرع بكل خير إليهم منهم إليه، كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول

الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب عبدي مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولاً» [رواه مسلم (٢٦٧٥)].

فالحياة في الإسلام ميدان سباق، يتسابق فيه المؤمنون للوصول إلى الفوز برضوانه تعالى، وهو سباق مشروع محمود، أمر به تعالى فقال: ﴿فَأَسْتَبِقُوا﴾ [البقرة: ١٤٨].  
وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ومن رحمته تعالى أنه جعل المسارعة إلى الخيرات سهلة ميسورة، لا حرج فيها ولا مشقة، لأن أساس التكليف فيها قائم على الوسع:

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كَنْبٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما تتسع له طاقتها، فكل ما كلف به المؤمنون في الإسلام لا يخرج عن حدود طاقتهم، بل هو دونها؛ إذ الوسع هو ما تتسع له قدرة الإنسان، وتتسع لأكثر منه، فلا عذر لأحد في التباطؤ والشاغل عن عبادة الله تعالى وفعل الخيرات، فهو مكلف بها، ومسؤول عنها، وهي مسجلة عليه في صحيفة أعماله.

﴿وَلَدَيْنَا كَنْبٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يبين الحق ويشهد على صاحبه بالصدق.  
﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: وهم عند المسؤولية والحساب لا يظلمون.

\* \* \*

## الصحة المتأخرة

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَحْتَسِبُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُمْ مِمَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ نَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَلَمًا تَهْتَجِرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ حِجَابٌ ﴿٧٠﴾ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧١﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴿٧٢﴾ بَلْ أَيْنَبْنُهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنِ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ورجعت الآيات إلى الكفار تبين أحوالهم، بعد أن بينت أحوال المؤمنين:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ .

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي: بل قلوب الكفار في غفلة عن الشعور بالمسؤولية، وعن الإيمان بأن أعمالهم تكتب عليهم، وأنهم محاسبون عليها يوم القيامة.

ففي الآية إضرابٌ عمّا قبلها، وهي المرة الثانية في السورة، التي تصف فيها الآيات الكافرين بالغفلة الغامرة، المسيطرة على قلوبهم، والمستوطنة في أعماق نفوسهم، وهذا يجعلهم يصرون على أعمالهم الفاجرة الخبيثة.

﴿وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ أي: ولهم أعمال سيئة غير الغفلة الغامرة لقلوبهم، وهم مستمرّون عليها، ومنهمكون فيها، مما يدلُّ على أنّ الفساد قد استشرى وتمكّن في قلوبهم وأعمالهم، بسبب كفرهم بالله تعالى، وإنكارهم لمسؤوليتهم عن أعمالهم وحياتهم يوم القيامة.

فما أعظم الفرق بين هؤلاء المغمورين بغفلتهم، المنهمكين بشهواتهم، وبين المؤمنين الحذرين الخائفين من ربهم، المسارعين إلى الخيرات،

والمتنافسين في الطاعات والمبرّات! فالإيمانُ حين يشرق في القلب، ينير لصاحبه الدرب، ويجعله سائراً عليه في يقظة وحذر وانتباه.  
ولا رجاء في يقظة الكفار، ولا أمل في انتباههم وإدراكهم خطورة الطريق التي يسرون عليها، حتى يصلوا إلى نهاية الحياة، حينئذ يستيقظون من غفلتهم، ويتبهون من سكرتهم، فهم نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: يصرخون مستغيثين. فالجوار مثل الخوار، يقال: جأر الثور يجأر إذا صاح، وجأر الرجل بالدعاء إلى الله تعالى، إذا تضرع بالدعاء<sup>(١)</sup>.  
وخصصت الآية المترفين بالذكر، لأنهم - كما مر معنا - رؤوس الكفر والضلال، وعندما ينزل بهم العذاب، ينزل أيضاً بأتباعهم ومقلديهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

وجاءت صحتهم هذه متأخرة، فلا ينتفعون بها، ويقال لهم عندها تويخاً وتقريباً:

﴿لَا تَجْعُرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا نُنصُرُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: لا تمنعون منا، ولا ينفعكم جواركم.

﴿فَدَكَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ نَكِصُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَدَكَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: تُقرأ عليكم، تنبهكم وتحذركم، وتبين لكم خطر الطرق التي تسرون عليها، وتدعوكم إلى السلامة والأمن.

﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ نَنكِصُونَ﴾ أي: تعرضون مدبرين عن سماعها والاستجابة إليها.

والنكوص: الرجوع إلى الوراء، وهو أقبح مشية؛ لأنَّ الذي يرجع ماشياً القهقري لا يرى ما وراءه.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (٦٧)

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: مستكبرين بالبيت الحرام، وشهرة استكبار مشركي قريش بالبيت الحرام، وافتخارهم بأنهم سدنته وجيرانه، أغنت عن سبق ذكره.

﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي: تسمرون بذكر النبي ﷺ بالقول الفاحش القبيح المهجور. فالهجر: الكلام المهجور لقبحه، وهجر فلان: إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد، وأهجر المريض: إذا أتى بذلك عن غير قصد<sup>(١)</sup>.

وكان مشركو قريش يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامَّةُ سمرهم يدور حول القرآن الكريم والنبي ﷺ، ووصفهما بأوصاف لا تليقُ بهما. ولهذا دعتهم الآياتُ إلى تدبر آيات القرآن الكريم، كما ذكَّرتهم بحقيقة الرسول ﷺ:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨)

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: أفلم يتأملوا معاني القرآن الكريم؟! وهي دعوةٌ لهم بأسلوب الاستفهام، ممزوجة بالإنكار والتوبيخ، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: بل أجازهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، فاستبعدوه، وأعرضوا عنه؟!.

فكلمة ﴿أَمْ﴾ للإضراب، والانتقال من توبيخ إلى توبيخ آخر، فإنزال

(١) روح المعاني: ٥٠/١٨.



الكتب، وبعثه الرسل من سنن الله تعالى القديمة المعروفة المشهورة، التي لا تُنكر، والنبِيُّ عليه أفضل الصلاة السلام ليس بَدْعاً من الرسل .  
 كما أنهم كانوا يعرفونه بشمائله الكريمة الرفيعة، ولهذا تابعت الآيات توبيخهم، بأسلوب الإضراب والانتقال من توبيخ إلى توبيخ، فمواقفهم القبيحة كثيرة، تستدعي زيادة في توبيخهم:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ (٦٩)

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ أي: بالصدق والأمانة والأخلاق الكريمة.

﴿فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ أي: فكيف ينكرونه ويكذبون رسالته، ويعرضون عن دعوته، وقد عرفوه بما عرف به واشتهر من الأخلاق الكريمة، حتى كانوا يلقبونه بالأمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.  
 فإنكارهم له ليس بسبب جهلهم به، وإنما بسبب بغيتهم وحسدهم له عليه الصلاة والسلام.

#### • الحق متبوع لا تابع:

واستمرت الآيات على هذا الأسلوب، توبيخ المشركين، وتدفع عن النبي ﷺ الأوصاف القبيحة التي وصفوه بها، وكانت أحاديثهم تردد وهم يسمرون بجوار بيت الله الحرام:

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ (٧٠)

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، وهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام أرجحهم عقلاً، وأثقبهم نظراً.  
 ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ أي: جاءهم بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحُسنه على عاقل، ومع ذلك فإن أكثرهم يكرهون الحق ولا يتقادون له، لأنه يصادم أهواءهم وشهواتهم.

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ بَلْ أَلَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ  
عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ .

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: لو جاء القرآن الكريم وما فيه من تشريع موافقاً لأهوائهم وشهواتهم لاختلَّ نظام العالم، بسبب قصور عقولهم، وتناقض آرائهم، وتضارب أهوائهم ومصالحهم. فالحق متبوعٌ لا تابع، ومصدره دين الله تعالى وشرعه، وعلى الناس أن يستسلموا لأحكامه، لأنَّ فيه صلاح البلاد والعباد، والإعراض عنه يؤدي إلى الخلل والفوضى والفساد، وما أكثر ما أورثت القوانينُ الوضعية الناس اضطراباً وفساداً وتنازعا واختلافاً، وكلما ابتعد الناس عن دين الله تعالى وشرعه، ازدادوا عناءً وشقاءً وتعاسةً.

فمن الضروري لصلاح العالم واستمرار وجوده، أن يكونَ تشريع الأحكام منوطاً بخالقه ومبدع سننه، حتى يتم التوافق والانسجام بين السنن الكونية، وبين القوانين التشريعية، والله تعالى وحده هو العليم الحكيم بما يصلح عباده ومخلوقاته: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وهذا سرُّ امتياز الشريعة الإلهية على الشرائع الوضعية، فهي شريعة كاملة منسجمة تماماً مع السنن الكونية، ومع أصل الفطرة البشرية التي فطر سبحانه الناس عليها.

وفضلاً عن ذلك، فقد جاء القرآن الكريم بميزة خاصة، خصَّ بها العرب دون غيرهم من الأمم، إذ أنزله سبحانه بلغتهم، على رجل من أوسطهم نسباً، وأكرمهم محتداً، فلماذا يعرضُ المشركون عنه، وفيه عزهم وشرفهم؟! .

﴿بَلْ أَلَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: أتيناهم بما فيه شرفهم وعزهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: فهم لا يكرهون الحق ويعرضون عنه فقط، بل يعرضون عما فيه عزُّهم وشرفهم، فما أغباهم وأجهلهم! .

وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها في تاريخ العالم، حتى جاءها الإسلام، وقد ظل ذكرها يدوي في آذان القرون طالما ظلت به مستمسكة، وقد تضاءل ذكرها عندما تخلت عنه، فلم تعد في العير ولا في النفير، ولن يكون لها ذكر إلا أن تفيء إلى عنوانها الكبير<sup>(١)</sup>.

وبهذا الأسلوب الرائع بلغت الآيات الغاية العظمى في توبيخ وتقريع المعرضين عن دين الله وشرعه، وفي الوقت نفسه أظهرت مزايا الشريعة الإسلامية، وما فيها من خير عام للعباد والبلاد، ومن خير خاص بقوم النبي ﷺ، الذين بادر أكثرهم إلى معارضتها، وحاولوا طمس معالمها.

وبهذا بلغت الآيات أيضاً الغاية العظمى في توبيخهم وتقريعهم، وأظهرت في الوقت نفسه مزايا الرسالة الإسلامية، وما فيها من خير عام للعباد والبلاد، وخير خاص بقوم النبي ﷺ، الذين أنزل الله القرآن الكريم بلغتهم.

\* \* \*

### إعراض وعناد

﴿أَمْرٌ تَسْلَمُهُمْ حَرَجًا فَخَرَجَ رِبَاكَ حَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴿٧١﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُوكَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُؤَ فِي طُعَيْنِهِمْ بَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾﴾

ومن مزايا الرسالة الإسلامية أيضاً: أنها رسالة منزهة عن أي غرض دنيوي وكسب مادي، فما جاءت إلا لإصلاح العباد، ودفع الخلل والفساد عن البلاد، فلا

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٤٧٥.

عذرَ لمشركي قريش في الإعراض عنها، ولهذا تابعت الآيات الكريمة توبيخهم، وهي تنزه دعوة النبي عليه الصلاة والسلام عن أي كسب مادي ونفع دنيوي:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة أجرًا ومالاً، ولهذا يعرضون عنك.

﴿فَخَرَجَ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ أي: فرزقُ ربك وثوابه خيرٌ، لأنه أفضل المعطين في الدنيا والآخرة، فالرزقُ في الحقيقة رزقه، والعطاء عطائه، والغنى والفقر بمشيئته تعالى وتدييره، وهو القائل: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾

أي: وإنك حقيق بالاتباع، لأنك تدعوهم إلى طريق الفلاح والفوز والنجاح، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى الخلود في الجنان، كما تقدّم في صدر السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

ومع أنه عليه الصلاة والسلام حقيق بالاتباع فقد أعرضوا عنه:

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابِتُونَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: عادلون ومنحرفون عن طريق الفلاح، لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، ويرون أن حياتهم تنتهي بالموت.

وبينت الآيات أن سبب إعراضهم، نابع من سوء اختيارهم، وشدة تمسكهم بباطلهم، وإعجابهم بالطرق الضالة المنحرفة التي يسرون عليها:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لو أرحنا عنهم الضر الذي يغلف قلوبهم، ويحجبهم عن رؤية الحق، لتمادوا في ضلالهم وعنادهم، واستمروا على كفرهم وطغيانهم، يترددون متحيرين، دون تمييز بين الحق والباطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فالقوم لا خيرَ فيهم أبداً، ولا يوجد فيهم أدنى استعداد لقبول الحق والإذعان له، ومما يدل على ذلك: أن البلايا والمصائب التي نزلت بهم، لم تنبهم من غفلتهم، ولم تزل قسوة قلوبهم:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: أخذناهم بالمصائب والمحن، كنقص الأموال والأنفس، فما وجدت منهم استكانة وخضوع لله تعالى، وظلوا غافلين عنه لا يعبدونه ولا يدعونه خاشعين متضرعين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

ويبقى القوم في غمرة غفلتهم، منمكين بشهواتهم، لا ينتبهون إلا عند نزول الموت وسكراته بهم:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: حتى إذا نزل الموت بآلامه وسكراته فيهم، أو عند رؤيتهم للعذاب

يوم القيامة، إذا هم آيسون من النجاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

وقوله أيضاً في سياق ما استشهدنا به من آيات سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾. فالإبلاس، وهو اليأس والقنوط من النجاة، يسيطر عليهم في الدنيا عند الموت، وفي الآخرة عندما يُساقون إلى جهنم.

\* \* \*

### تقرير والزام

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَعُودُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِصُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، وبسبب غفلتهم وعنادهم، لم ينتفعوا بوسائل التمكين التي زودهم الله تعالى بها، والتي تمكن الإنسان من العلم والمعرفة والتمييز، وهي من أعظم النعم التي تفضل الله بها على الإنسان. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما شكرتم الله تعالى عليها، لأنكم لم تستعملوها في الاستدلال على عظمته ووجوده ووحديته، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ

فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ إِذَا نُنِئُوا لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولو أنهم استعملوا وسائل التمكين هذه أدنى استعمال، لعرفوا أنهم في قبضة قدرته تعالى وحده، وأن مصيرهم إلى حكمه يوم القيامة.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: هو وحده الذي خلقكم وبثكم في جنات الأرض، فلن يترككم، وإليه وحده تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

فحياتكم وموتكم بيده جل وعلا، والسنن الكونية المحيطة بكم بتقديره وتدييره:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

ومع كل هذه الدلائل الظاهرة الواضحة المحيطة بهم، لم يعقلوها ولم يفهموا مدلولها:

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾

أي: بل قال المشركون المعاندون، مثل ما قال الأولون من الأمم السابقة الكافرة المعاندة:

﴿قَالُوا أَإِذَا دُئِنَّا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وهو سؤال إنكار، يدل على أنهم أنكروا قدرة الله تعالى على بعثهم بعد موتهم وتفتت أجسامهم.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء محمد عليه الصلاة والسلام، ولم يأتنا ما وعدنا به من العذاب.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين المسطورة في كتبهم.

وردَّ الله تعالى عليهم، بأن جعلهم يقرؤون بكمال سلطانه، وتمام قدرته، وأنه وحده الخالق المالك المدبر:

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ .

ولا يخفى ما في السؤال من استهانة بهم، وتعريض بجهلهم، ولهذا أخبر سبحانه بجوابهم قبل أن يجيبوا، فإنَّ بديهية العقل تلزمهم بالاعتراف بأنه تعالى هو الخالق والمالك، فهو تعالى يطوقهم بالحجج من طريق المسلمات العقلية الفطرية، التي لا يمكن إنكارها؛ لأنها ثابتة راسخة في أصل خلقتهم وجبلتهم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والمعرفة.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ .

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: الأرض ومن فيها لله تعالى وحده خلقاً وتديراً.

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتذكرون أن خالق الأرض ومن فيها قادرٌ على إعادتها وإعادة من فيها بعد موتهم وتفتتهم؟! .

وتابعت الآيات إلزامهم بأسلوب السؤال التقريري، وانتقلت من الأدنى إلى الأعلى:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ .

أي: مَنْ خالق ومالك ومدبر هذه المكونات الكبيرة، السماوات السبع



والعرش العظيم؟ . . وأَعِيدَ ذَكَرُ الرَّبِّ تنويهاً بشأن العرش، ورفعاً لمحلّه عن أن يكون تبعاً للسموات وجوداً وذكرًا<sup>(١)</sup>.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ (٨٧)

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: له وحده خلقاً وملكاً وتدبيراً، وجاء الجواب ﴿لِلَّهِ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال، فمن ربه؟ ولمن هو؟ في معنى واحد، وفي قراءة ثانية هنا وما بعدها، جاء الجواب موافقاً للفظ: (سيقولون الله).

﴿قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ أي: أفلا تنفقون عذابه فلا تشركوا به أحداً، ولا تنكروا قدرته على إعادتكم إلى الحياة بعد الممات.

وتابعت الآيات أسلوب السؤال التقريري الملزم، وانتقلت هذه المرة من الخصوص إلى العموم:

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٨)

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما ذكر ومما لم يذكر، فملكه تعالى أعظم من السماوات والأرض وما فيهما، وأعظم أيضاً من العرش العظيم، وهو وحده جلّ وعلا المالك لكل شيء، وملكه تام كامل، سلطانه عزيز غالب قاهر، ولهذا جاء التعبير عنه بكلمة ﴿مَلَكُوتُ﴾ إذ هي أبلغ في الدلالة على المعنى من كلمة (ملك)، ولا شك أن زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، ولهذا ذكرها تعالى في معرض بيان تمام سلطانه على جميع المخلوقات فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم في ملكه، الذي يجير، ولا يجار عليه، فله سبحانه الخلق والأمر والملك والحكم، لا معقّب لحكمه،

(١) تفسير أبي السعود: ١٤٨/٦.

ولا راداً لأمره. وكانت العرب إذا كان السيد فيهم أجار أحداً، لا يُحْفَرُ جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لثلا يفتات عليه<sup>(١)</sup>.  
﴿إِن كُنتُمْ تَعْمُونَ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩).

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيعترفون ويقرّون بأنه تعالى هو الرب العظيم، الذي له الأمر والحكم، كما أقروا بأنه الخالق المالك.  
﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: كيف تُخدعون وتُصرفون عن توحيدِه وطاعته؟! فيخيّل لكم الحق باطلاً.  
تدلُّ كلمة ﴿سُحْرُونَ﴾ على مدى الاضطراب والخلل والتخبط في تفكيرهم، كما تدل على شدة القلق والحيرة في نفوسهم.

\* \* \*

### إثبات التوحيد ونفي الشرك

﴿بَلْ أَدَّبْتُهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩١).

وبعد أن أثبتت الآيات، بأسلوبها التقريري الملزم، التوحيد بالدلائل القطعية، نفت نفيّاً قاطعاً جازماً أن يكون لله تعالى ولد أو شريك، وبينت كذب أصحاب هذه الدعاوى الباطلة:

﴿بَلْ أَدَّبْتُهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠).

أي: الدين الحق القائم على التوحيد والتكليف والمسؤولية، وإنهم لكاذبون

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧٣/٢.

في إنكارهم لحقيقة التوحيد، ولمسؤوليتهم يوم القيامة، وقدرته تعالى على بعثهم وحسابهم .

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿٩١﴾ .

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لأنه منزه عن الاتصاف بصفات المخلوقات، فهو الواحد الأحد، المنزه عن الصاحبة والولد.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ أي: وما كان معه من إله يشاركه في استحقاق العبادة والطاعة، فهو أيضاً منزه عن الشريك، وهو سبحانه وحده المعبود بحق .

﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، واختل نظام الكون، وما وجد التعاون والتناسق بين سننه .

والمشاهد أن للمكونات كلها، الأرضية والسماوية، نظاماً متناسقاً غاية التناسق والكمال، وهذا ما تؤيده الكشوفات العلمية الحديثة، مما يدل على وحدانية الخالق المدبر جل وعلا، كما في قوله الكريم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] .

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٦﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء] .

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: يتنزه الله ويتقدس عما يصفه المشركون بصفات لا تليق بجلاله وكماله ووحدانيته .

﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ .

أي: له سبحانه كمال العلم، يعلم ما يغيب عن العباد، وما يظهر لهم، فهو أعلى وأعظم من صفات الشرك التي يصفه بها المشركون .

## تذكير وتأديب

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ .

فالإشراك بالله تعالى أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وهو ذنب لا يُغفر لمن مات عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وشؤم الشرك في الدنيا كبير، قد يتعدى بسبب ذلك إلى غير المشركين، ولهذا توجهت الآيات إلى النبي ﷺ تأمره أن يلجأ إلى ربه تعالى، مستعيذاً به أن يصيبه شيء من العذاب الذي ينزله تعالى بالمشركين:

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

أي: إن قدرت لي أن أرى ما وعدت المشركين من العذاب.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ .

أي: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي﴾ قريناً معهم في العذاب، ولا تعذبني بعذابهم. ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شر» [رواه مسلم (٢٧٢٠)].

وورد من دعائه أيضاً: «وإذا أردت بقوم فتنه فتوفني إليك غير مفتون» [رواه أحمد (٢٤٣/٥) والترمذي (٣٢٣٥) وصححه].

ولا يخفى ما في الآيات من موعظة قوية مؤثرة في المؤمنين، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، وشدة خوفه من ربه، فكيف ينبغي أن يكون حال المؤمنين؟! أسأل الله تعالى أن يلفظ بنا، ويجنبنا الفتن الظاهرة والخفية.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُثَبِّتَكَ مَا نَعُدُّهُمْ لِقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أي: ولو شئنا لأريناك العذاب الذي ننزله بهم، فإننا قادرون على ذلك، لكننا نؤخره عنهم، ونأمرك أن تصبر على أذاهم، وأن تقابله بالصفح والإحسان، لعل ذلك يكون سبباً لهدايتهم.

﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ أي: قابل السيئة بالحسنة، وعامل المسيء بالإحسان، فهو تأديب كريم رفيع، أدب الله به نبيه عليه الصلاة والسلام، وأمره به في سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وكان هذا من أخلاقه الكريمة الشريفة ﷺ، فعَلَهُ عليه الصلاة والسلام حتى مع ألد أعدائه من مشركي قريش، فعندما فتح مكة، وتمكّن من الانتقام منهم، عفا عنهم، وقال لهم كلمته المشهورة: «يا معشر قريش، ما ترون أنني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «ذهبوا فأنتم الطلقاء»<sup>(١)</sup>.

والجدير بالذكر أنه تعالى وصف المؤمنين بهذا الخلق الكريم في معرض الثناء عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ٢٢].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: نحن أعلم بالذي يصفونك به، ويذكرونك به

من السوء، وقد مرَّ معنا حكاية بعض أوصافهم له في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم بِالْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٧٠).

ولا شكَّ أنَّ هذا الخلق الكريم، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان، إذا فشا بين الناس، يؤدي إلى المحبة والسلام، ويدفع كثيراً من أسباب الخصام والنزاع، ويفوِّتُ على الشياطين فرصاً كثيرة لإثارة الفتن والمنازعات بين الناس، ولهذا أضافت الآيات الكريمة تبيين السبيل المُنجي من وساوسهم ومكرهم وكيدهم:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٩٧).

أي: من وساوسهم ونزغاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَرَعْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].  
والهمز في اللغة: النخس، ومنه مهماز الرائض الذي يهمز به الدابة، حتّى لها على المشي.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨).

أي: أن يكونوا معي حاضرين، فإنَّهم عند حضورهم يتمكنون من الوسوسة والمكر.

وفي الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللَّقْمَةُ، فَلْيَمِمْطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى، ثُمَّ لْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَعٌ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبُرْكَةُ» [رواه مسلم (٢٠٣٣)].

ولهذا يُسَنُّ التَّعَوُّدُ مِنَ الشَّيْطَانِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَالْحَالَاتِ، وَخَاصَّةً عِنْدَ النَّوْمِ، رَوَى عَمْرُو بْنُ شَعِيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَعْلَمُنَا كَلِمَاتٍ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَرْعِ: «بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ» فكان

عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده، أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها، كتبها له فعلقها في عنقه. [رواه أبو داود (٣٨٩٣) والترمذي (٣٥٢٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٥) والحاكم (٢٠١٠) وصححه].

والجدير بالذكر أن الشيطان لا تسلط له على النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى عصمه من الإنس والجن، وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإيائي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» [رواه مسلم (٢٨١٤)].

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ بالاستعاذة من الشيطان، تعليم لأمته ومبالغة في التوقي من شر الشيطان ومكره.

\* \* \*

### سؤال الرجوع إلى الدنيا

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ .

وبعد أن بينت الآيات مواقف المشركين من دعوة النبي ﷺ عادت مرة ثانية تصف أحوالهم عند الموت بنفس الأسلوب الأول، ففي المرة السابقة قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وفي هذه المرة قال تعالى أيضاً:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ .

أي: ردوني إلى الحياة الدنيا.

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ هنا، كما هي هناك؛ لبيان غاية لمقدّر محذوف دل عليه

ما سبق، وتقديره في المرة الأولى: ولا يزال القوم في غمرتهم وغفلتهم وأعمالهم المترفة الفاسدة، حتى نأخذهم بالعذاب، فإذا هم يجأرون. وتقديره هنا: لا يزالون متمسكين بعنادهم وإعراضهم، ووصفهم للنبي ﷺ بما لا يليق به من الأوصاف المذمومة، حتى يأتيهم الموت، فحينئذ يقول كل واحد منهم: ربّ ارجعون. والمراد من مجيء الموت مجيء مقدماته وسكراته.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي: فيما ضيعت، وهي حياته الدنيا التي ضيعها في غير طاعة الله تعالى، فهي فرصة لا تعوض ولا تتكرر، وقد سبق في علم الله وتعلقت به إرادته ومشيتته، أنه عندما يخرج الإنسان من العدم، ويضعه على طريق الحياة، أن يكون هذا الطريق في اتجاه واحد، لا رجوع فيه إلى الوراء أبداً، وأن يمتد إلى الخلود في الجنة أو في النار. وسؤال الرجعة إلى الدنيا يتكرر منهم أكثر من مرة:

- عند الاحتضار، كما في قوله تعالى هنا، وفي قوله أيضاً: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

- وكذلك عند الحساب في أرض المحشر، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

- ويتكرر أيضاً منهم وهم يعدّبون في جهنم، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وسياتي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧].



﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: لا رجعة له أبداً، وسؤاله الرجعة كلمة لا بد أن يقولها في مثل هذا الموقف، بسبب ما يعاين من الهول والفرع. إنها كلمة الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب، كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب رصيد<sup>(١)</sup>.

وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

[الأنعام: ٢٨].

﴿وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرَزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: ومن أمامهم حاجز بينهم وبين الرجعة، إلى يوم يبعثون من قبورهم، وهذا الحاجز هو البرزخ الممتد من موتهم إلى يوم بعثهم من قبورهم، وهو إقناط كلي لهم عن الرجوع إلى الدنيا، إذ هي دار الفناء، والله تعالى خلقهم لدار الخلود والبقاء.

\*\*\*

### في يوم الخلود

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَأَيْتِي تُنزِّلُ عَلَيْنَا مَاءً غَيْرًا فَيَسْقِيهِمُ اللَّهُ مِمَّا صَالَىٰ ﴿١٠٥﴾ رَبَّنَا عَلَبْنَا عَلَىٰ مَا عَلِمْنَا بِسُوءَاتِنَا وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ أَحْسَبُوْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُوْنَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوْا رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِيْنَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَتَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وماذا يحدث إذا ما انقضى البرزخ، وجاء يوم الخلود؟:

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٤٨٠.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١)

أي: إذا نُفِخَ في الصور نفخة النشور، وبعث الناس من القبور، لا يتساءلون سؤال تواصل، كما كانوا يتساءلون في الدنيا، فلا تنفعهم أنسابهم ولا أرحامهم، ولا يسأل أحد عن أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٢٤) ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ (٢٥) ﴿وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ﴾ (٣٦) ﴿لِكُلِّ أَرْبٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

ولا تناقض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: ٢٧]، فللقيامة مواطن، ففي موطن يشتدُّ عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون<sup>(١)</sup>.

﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١١٦)

أي: من ثقلت موازينه بالحسنات، فرجحت على سيئاته، أو: من ثقلت موازوناته من الأعمال الصالحة، لأنَّ لها قدراً ووزناً عند الله تعالى، فأولئك هم الفائزون بالخلود والبقاء والخير والنعيم، كما في أول آيات السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١).

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١١٦)

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: من خفت موازينه بالحسنات، فرجحت عليها سيئاته.

أو: لم يكن معه من الأعمال الصالحة ما يكون له وزن وقدر عند الله تعالى.

(١) تفسير النسفي: ٣٥٩/٤.

﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فأولئك غبنوا أنفسهم، وعرضوها لخسارة لا عوض لها.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ فهم ماكثون أبداً في جهنم، لا يخرجون منها.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي: تحرق وجوههم النار.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ وهم فيها عابسون قد بدت أسنانهم، وتقلصت شفاههم، كالرأس المشوي على النار.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تشويه النار فتقلص شفاه العليا، حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي السفلى حتى تضرب سرتة» [أخرجها الترمذي (٢٥٨٧) وصححه].

وتخصيص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، وإلا فالنار تحرق جميع أجسامهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].  
ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً:

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَّا عَلَيْكَ فَنَكَّبْنَا بِهَا تُكْدِبُونَ﴾

فما يملكون في الجواب إلا أن يعترفوا بسوء اختيارهم:

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: سيطرت علينا أعمالنا التي شقينا بها، فصدتنا عن الحق وأبعدتنا عنه. ولا شك أن أعمالهم من كسبهم واختيارهم.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: وكنا بعيدين عن طريق الحق والصراف المستقيم. ولا يخفى ما في كلماتهم من مرارة وندم وخوف.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: أخرجنا من جهنم.

﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فإن عدنا إلى الكفر والتكذيب، فإننا حينئذ متجاوزون الحد في الظلم عريقون فيه.

ولكنهم سألوا أمراً مستحيلاً كما مر معنا في الآية: (١٠٠).

﴿قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾.

أي: اسكتوا سكوت هوان في جهنم، وانزجروا انزجار الكلاب، ولا تكلموني في رفع العذاب عنكم، أو لا تتكلمون مطلقاً.

ثم ذكّرهم سبحانه ببعض مواقف عنادهم وظلمهم، التي كانوا عليها في الدنيا؛ ليبين لهم أنهم يستحقون هذا العذاب، وأنه تعالى ما ظلمهم:

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾  
﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾  
﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ أي: سخرتم منهم واستهزأتم بهم، لأنهم آمنوا بي وسألوني المغفرة والرحمة.

﴿حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي﴾ أي: من فرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم، نسيتم ذكري وأعرضتم عن طاعتي وعبادتي.

﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: تضحكون منهم؛ استهزاء بهم وسخرية، كما

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ [المطففين].

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١١﴾﴾.

أي: إني جزيتهم وأنعمت عليهم بسبب صبرهم على أذاكم، وثباتهم على إيمانهم، فوزهم بالفلاح والخلود في النعيم. وهذا على قراءة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بالفتح، وأما على قراءة ﴿إِنَّهُمْ﴾ بالكسر، فالمعنى: قد فازوا حيث صبروا<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### الأعمار والخلود

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١١﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١١٢﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ولما كان اغترارهم بالدنيا، وانهماكهم بشهواتها، سبب إعراضهم عن الآخرة وإنكارهم لها، كما مر معنا فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون]، سألهم تعالى عن مقدار حياتهم التي عاشوها في الدنيا، ليبين لهم أنهم اغتروا بشيء قليل حقير:

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١١﴾﴾.

أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ وكم كان عدد السنين فيها؟  
فأجابوا مستقصرين أعمارهم في الدنيا، بالنسبة إلى خلودهم في العذاب،

(١) تفسير النيسابوري: ٣٤/١٨.

فالزائل المنتهي مهما طال قصيراً جداً بالنسبة للخالد الذي لا ينتهي، فكيف إذا كان خلوداً في العذاب؟! والإنسان عادةً يستطيل أيام المحنة، ويستقصر أيام الرخاء والراحة:

﴿قَالُوا لِنَبَأِ يَوْمًا أَوْ بَعْضِ يَوْمِ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ .

أي: فاسأل الحفظة المهتمين بإحصاء الأعمار، فإننا لا ندرى مقدار ما سلف من أعمارنا، بسبب ما نحن فيه من ألم وشقاء وعذاب.

وقولهم: ﴿فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ يدل على شدة ضيقهم وتبرمهم وأساهم.

وجاء تقديرهم لأعمارهم في آيات أخرى متفاوتاً، بسبب تفاوت أحوالهم، فعندما يحشرون من قبورهم، يتفاوت تقديرهم ما بين عشرة أيام إلى يوم واحد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ وَيَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١١٦﴾ يَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٦﴾ [طه].

وكلما اشتد بهم العذاب وتمادى، زاد استقصارهم لأعمارهم، حتى تصبح في نظرهم ساعةً من نهار، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

ويأتي قسّمهم هذا تصديقاً لما سبق في الآيات الكريمة، وهي تثبت النبي ﷺ في مواجهة عنادهم، وكما أخبر تعالى في سورة الأحقاف في قوله الكريم: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ .

صدّقهم سبحانه على استقصارهم لأعمارهم، وويّخهم على اغترارهم بهذه الأعمار القصيرة الحقيرة، وجهلهم بحقيقتها.

## تنبيه وتقرير

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ .

والحياة الدنيا - مهما امتدت - ساعة من نهار أو أقل بالنسبة للخلود والبقاء، ويتعالى الله الحكيم العليم أن يخلق الخلق على هذا النظام البديع المحكم، لهذه الأعمار القصيرة الحقيرة الزائلة الفانية، فالإنسان لا ينتهي بالموت. هكذا مهدت الآيات الكريمة لهذا التقرير الحازم الجازم، الذي يواجه الناس بقوة وصراحة وصرامة لا نظير لها:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ .

فكان الآية تقول لهم: انتبهوا أيها اللاهون العابثون المغترون بحياتكم وأعماركم، فحياتكم قصيرة زائلة، ومصيركم ومرجعكم إلى خالقكم، إلى واهب الحياة ومبدع الكائنات.

﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزهه وتقدس أن يخلق الملك الحق شيئاً عبثاً ولعباً، فهو الملك الحق الذي لا يزول ملكه، المستحق للعبادة والطاعة. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ وهو رب العرش الكريم، فكيف يعبد ويلهو مالك وخالق العرش الكريم، أعظم المكونات وأكبرها، وقد مر معنا وصفه بالعظمة بجانب ذكره مع السماوات السبع: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

فالعرش كريم لجماله وكماله ولنسبته إلى أكرم الأكرمين، وعظيم لضخامته

وفخامته وسعته، جل جلال خالقه ومبدعه.

ولا بد للملك الحق المستحق وحده للعبادة والطاعة، أن يحاسب عبده الذين يعبدون غيره:

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي: لا حجة له ولا برهان بدعوة غيره تعالى، فهي صفة لازمة لكل عبادة باطلة جيء بها للتأكيد، فلا يمكن وجود آلهة غير الله تستحق العبادة، يؤيدها دليل أو برهان، والتدين بما لا دليل عليه ممنوع، فضلاً عما دل الدليل على بطلانه<sup>(١)</sup>.

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: إنما حسابه وجزاؤه عند ربه في الآخرة، وفي هذا الحساب لا فلاح للكافرين، وهو ما قرره تعالى في ختام هذه السورة الكريمة. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: فلا فلاح للكافرين أبداً، بينما هو مقرر وثابت للمؤمنين، كما سبق في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة، الفاتحة التي تقرر الفلاح للمؤمنين، والخاتمة التي تنفيه عن الكافرين.

ثم علمنا جلّ وعلا أن نتوجّه إليه دائماً بسؤال المغفرة والرحمة، لنبقى على طريق الفلاح، فلا غنى لنا عن مغفرته ورحمته جلّ وعلا:

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

فرحمته سبحانه تغني عن رحمة غيره، بينما رحمة غيره لا تغني عن رحمته. اللهم آمين، وصلِّ وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣٦٢/٤.



# فهرس الموضوعات

## تفسير سورة الكهف

### العواصمُ من الفتنِ في سورة الكهفِ

- المقدمة ..... ٥
- الفصل الأول: مُقدِّمة في الفتنِ: تعرِيفُها، المرادُ منها، أسبابُها، سُبلُ الوقايةِ منها ٧
  - تعريف الفتن ..... ٧
  - المراد من الفتن ..... ٨
  - أسباب الفتن ..... ٩
  - أسباب السلامة من الفتن ..... ١٠
  - باب الفتن ..... ١٥
  - خبير الفتن يتحدث ..... ١٦
  - هلاك المسلمين بالفتن فيما بينهم ..... ١٨
  - فتنة الدجال ..... ١٩
- الفصل الثاني: سورة الكهفِ: فضائلُها، سببُ نُزولِها، مَوْضُوعُها، وَصِلَتُها
  - بأسبابِ السَّلامَةِ والعِصْمَةِ مِنَ الفتنِ ..... ٢١
  - فضائل سورة الكهف ..... ٢١
  - سبب نزول السورة ..... ٢٣
  - موضوع سورة الكهف ..... ٢٤
  - الحياة في الدنيا ابتلاء واختبار ..... ٢٦
  - كهف السلامة ..... ٢٧
- الفصل الثالث: قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ ..... ٣٠
  - مصادر القصة ..... ٣١

- ٣٢ - فوائد وحكم .....
- ٣٣ - الآيات البيّنات .....
- ٣٤ - صفات أصحاب الكهف .....
- ٣٥ - رَبُّطُ الله على قلوبهم .....
- ٣٧ - الخروج إلى الكهف .....
- ٣٩ - منطق المغرورين .....
- ٣٩ - في داخل الكهف .....
- ٤٠ - نومهم في الكهف .....
- ٤٢ - الحكم لله وحده .....
- ٤٣ - من آيات الله سبحانه .....
- ٤٤ - الحارس الأمين .....
- ٤٦ - البعث من النوم .....
- ٤٧ - محاورة بعد النوم .....
- ٤٨ - النقود الفضية .....
- ٤٩ - إظهار الحقيقة .....
- ٥٠ - مسجد على الكهف .....
- ٥١ - تأديب وتعليم .....
- ٥٣ - تعقيب .....
- ٥٥ • الفصل الرابع: قِصَّةُ الغَنِيِّ والفَقِيرِ .....
- ٥٦ - تمهيد: فتنة الغنى وفتنة الفقر .....
- ٥٨ - الغفلة عن ذكر الله .....
- ٥٩ - القصة الثانية: رجلاَن وجنَّتَان .....
- ٦٠ - الجنَّتَان .....
- ٦١ - المحاورة .....
- ٦٢ - عزة الإيمان .....
- ٦٣ - حسرة وندم .....
- ٦٥ - التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا .....
- ٦٥ - زينة الحياة الدنيا .....

- ٦٧ - الباقيات الصالحات .....
- ٦٧ - مشاهد من يوم القيامة .....
- ٦٩ - فتنة الشيطان .....
- ٧١ - سبيل النجاة .....
- ٧٢ - أمثال القرآن الكريم .....
- ٧٣ - أسباب الضلال .....

#### • الفصل الخامس: قِصَّةُ مُوسَى وَالْحَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .....

- ٧٦ - موقع القصة في سورة الكهف .....
- ٧٧ - فتنة العلم .....
- ٧٩ - القصة في كتب السُّنَّةِ النبوية الشريفة .....
- ٨٢ - رحلة العجائب، مجمع البحرين .....
- ٨٣ - الحوت العجيب .....
- ٨٤ - العبد الصالح .....
- ٨٦ - موسى أفضل من الخضر .....
- ٨٧ - أدب ولطف .....
- ٨٩ - الجولة الأولى .....
- ٩٠ - الجولة الثانية .....
- ٩١ - الجولة الثالثة .....
- ٩٢ - كشف الأسرار .....
- ٩٥ - تعقيب .....
- ٩٥ - العمل بالإلهام غير جائز .....

#### • الفصل السادس: قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ .....

- ٩٩ - فتنة الحكم .....
- ١٠١ - ذو القرنين ليس ملكاً من ملوك الفرس .....
- ١٠٢ - ذو القرنين ليس الإسكندر المقدوني اليوناني .....
- ١٠٤ - هل ذو القرنين أحد ملوك اليمن الأولين؟ .....
- ١٠٦ - السائلون عن ذي القرنين .....
- ١٠٧ - التمكين والأسباب .....

- ١٠٨ - رحلات ذي القرنين .....
- ١٠٨ - الرحلة الأولى: إلى مغرب الشمس .....
- ١٠٩ - الرحلة الثانية: إلى مطلع الشمس .....
- ١١١ - الرحلة الثالثة: إلى ما بين السدين .....
- ١١٢ - ما مَكَّنِّي فيه ربي خير .....
- ١١٣ - فأعينوني بقوة .....
- ١١٤ - بناء السد .....
- ١١٥ - هذا رحمة من ربي .....
- ١١٦ - سؤالان هامان .....
- ١١٧ - «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ» .....
- ١١٨ - يأجوج ومأجوج .....
- ١٢١ - هل يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد؟ .....
- ١٢٢ - فتحت يأجوج ومأجوج .....
- ١٢٣ - تحقيق في حديث .....
- ١٢٤ - موقع السد .....
- ١٢٧ • خاتمة السورة: التَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ .....
- ١٢٨ - أعين وقلوب .....
- ١٢٩ - تهكُّم وإنكار .....
- ١٣١ - كلمات الله تعالى .....

### تفسير سورة مريم

### التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ فِي سُورَةِ مَرِيَمَ

- ١٣٣ • المقدمة .....
- ١٣٥ • الفصل الأول: قِصَّةُ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .....
- ١٣٥ - الحروف المقطعة التورانية .....
- ١٣٧ - موضوع سورة مريم .....
- ١٣٧ - زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ .....
- ١٣٨ - الولادة والولد من صفات النقص .....

- ١٣٩ - ملاحظة هامة .....
- ١٤٢ - الرب سبحانه والعبد .....
- ١٤٣ - في محراب مريم .....
- ١٤٥ - دعاء خفي .....
- ١٤٦ - من آداب الدعاء .....
- ١٤٧ - الدعاء بالولد الصالح .....
- ١٤٨ - ميراث الأنبياء .....
- ١٤٩ - البشارة بيحيى .....
- ١٥٠ - تعظيم قدرة الله تعالى .....
- ١٥٢ - علامة الحمل .....
- ١٥٣ - يحيى عليه السلام .....
- ١٥٥ • الفصل الثاني: قِصَّةُ عِيسَى وَمَرْيَمَ عليهما السلام .....
- ١٥٦ - المعجزة الكبرى .....
- ١٥٨ - الاعتزال إلى المشرق .....
- ١٥٩ - لقاء مع الروح .....
- ١٦٠ - المحاورة .....
- ١٦٢ - الحمل والولادة .....
- ١٦٣ - تمثي الموت .....
- ١٦٤ - رحمة الله تعالى بمريم .....
- ١٦٦ - المناادي من تحتها .....
- ١٦٧ - المواجهة .....
- ١٦٩ - إني عبد الله .....
- ١٧١ - حقيقة عيسى وأمه .....
- ١٧٢ - الصراط المستقيم .....
- ١٧٣ - الاختلاف .....
- ١٧٥ - يوم الحسرة .....
- ١٧٧ • الفصل الثالث: التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ .....
- ١٧٨ - ملَّة التوحيد .....

- ١٨٠ - الضعفاء المتألّهون .....
- ١٨١ - أدب الولد مع والده .....
- ١٨٥ - المهاجر الأول .....
- ١٨٧ - موسى وهارون عليهما السلام .....
- ١٨٧ - إسماعيل عليه السلام .....
- ١٨٩ - صفتان متلازمتان .....
- ١٩٠ - أتباع الشهوات .....
- ١٩١ - الوعد المآتي .....
- ١٩٢ - خضوع الملائكة لله تعالى .....
- ١٩٣ - الإيمان بيوم القيامة والتنزيه .....
- ١٩٤ - استنكار واستبعاد .....
- ١٩٥ - الجاثون حول جهنم .....
- ١٩٧ - القضاء المحتم .....
- ١٩٩ - سؤال وجواب .....
- ٢٠١ - سُخرية وجزاء .....
- ٢٠٢ - الاعتزازُ بغير الله ذلٌّ .....
- ٢٠٣ - ألعوبة الشيطان .....
- ٢٠٤ - نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم .....
- ٢٠٦ - عهد عند الرحمن .....
- ٢٠٧ - القول الثقيل المنكر .....
- ٢٠٩ - الولد رحمة من الرحمن .....
- ٢١٢ - الخاتمة .....

تفسير سورة طه

سَبِيلُ السَّعَادَةِ فِي سُورَةِ طه

- ٢١٥ - المقدمة .....
- ٢١٧ - تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ .....
- ٢١٩ - الفصل الأول: عَظَمَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَظَمَةُ مُنْزِلِهِ صلى الله عليه وسلم .....

- ٢١٩ ..... - الحروف المقطعة النورانية
- ٢٢٠ ..... - القرآن سعادة لا شقاء
- ٢٢٢ ..... - سبيل السعادة
- ٢٢٣ ..... - كمال صفاته جلّ وعلا
- ٢٢٥ ..... - كمال أسمائه سبحانه

• الفصل الثاني: قِصَّةُ مُوسَى ﷺ مَعَ فِرْعَوْنَ

- ٢٢٧ ..... - تمهيد
- ٢٢٩ ..... - أعظم حوادث القصة
- ٢٢٩ ..... - ضعف وافتقار وحيرة
- ٢٣١ ..... - آنتس ناراً
- ٢٣٢ ..... - في مقام النداء والنجوى
- ٢٣٣ ..... - معرفة الله تعالى
- ٢٣٤ ..... - عبادته سبحانه
- ٢٣٤ ..... - ذكّره سبحانه
- ٢٣٦ ..... - المسؤولية والجزاء
- ٢٣٨ ..... - تحذير
- ٢٣٨ ..... - تأنيس وتسكين
- ٢٣٩ ..... - المعجزة الأولى
- ٢٤٠ ..... - المعجزة الثانية
- ٢٤١ ..... - الرسالة
- ٢٤٢ ..... - سؤال المعونة
- ٢٤٥ ..... - سوابق الفضل الإلهي
- ٢٤٧ ..... - الحب من جنود الله تعالى
- ٢٤٨ ..... - تحريم المراضع
- ٢٤٩ ..... - الابتلاء بالقتل
- ٢٤٩ ..... - موعد وقدر
- ٢٥٠ ..... - عدة الداعية وأسلوبه في الدعوة
- ٢٥٢ ..... - تثبيت وتطمين

- ٢٥٣ ..... مواجهة الطاغية -
- ٢٥٤ ..... حوار الإيمان مع الكفر -
- ٢٥٦ ..... جواب مُفْجَم ..... -
- ٢٥٧ ..... من دلائل وُجُوده سبحانه وُجُوده ..... -
- ٢٥٩ ..... الزوجية في المخلوقات ..... -
- ٢٦٠ ..... الإنسان والأرض ..... -
- ٢٦١ ..... عناد وجحود ..... -
- ٢٦٣ ..... الاستعداد ورسم الخطط ..... -
- ٢٦٥ ..... الجولة الأولى ..... -
- ٢٦٦ ..... الجولة الثانية ..... -
- ٢٦٦ ..... السجود لله تعالى ..... -
- ٢٦٧ ..... القمع والإرهاب ..... -
- ٢٦٨ ..... الإيمان يتحدى الطغيان ..... -
- ٢٧٠ ..... عاقبة الطغيان ..... -
- ٢٧١ ..... تحذير وترغيب ..... -
- ٢٧٤ ..... الفصل الثالث: قِصَّةُ مُوسَى ﷺ مَعَ السَّامِرِيِّ صَاحِبِ العِجْلِ الذَّهَبِيِّ ..... •
- ٢٧٥ ..... تمهيد ..... -
- ٢٧٦ ..... قبضة السامري ..... -
- ٢٧٧ ..... اعتذار كاذب ..... -
- ٢٧٨ ..... عبادة العجل الذهبي ..... -
- ٢٧٩ ..... موقف هارون ..... -
- ٢٨١ ..... شقاء وطرد وحرمان ..... -
- ٢٨٣ ..... حاملو الأوزار ..... -
- ٢٨٤ ..... النفخ في الصور ..... -
- ٢٨٦ ..... نسف الجبال ..... -
- ٢٨٧ ..... تلبية الدعوة ..... -
- ٢٨٨ ..... خيبة الظالمين ..... -
- ٢٩٠ ..... القصة عبرية والتنزيل عربي ..... -



- ٢٩١ - الملك الحق سبحانه .....
- ٢٩٢ - فضل العلم .....
- ٢٩٤ • الفصل الرابع: قِصَّةُ آدَمَ ﷺ مَعَ الشَّيْطَانِ .....
- ٢٩٦ - الأكل من الشجرة .....
- ٢٩٧ - توبة وهداية .....
- ٢٩٨ - الشقاء في الدنيا والآخرة .....
- ٢٩٩ - الجزاء من جنس العمل .....
- ٣٠٢ • الخاتمة: التَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ .....
- ٣٠٢ - الاتعاظ بالأولين .....
- ٣٠٣ - الصلاة والرضا .....
- ٣٠٤ - الرضا والغنى .....
- ٣٠٧ - الصلاة وطلب الرزق .....
- ٣٠٨ - القرآن الكريم أعظم المعجزات .....
- ٣٠٩ - قامت الحجة وأنزل القرآن الكريم .....

### تفسير سورة الأنبياء

### كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَأُمَّةُ التَّوْحِيدِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ

- ٣١١ • المقدمة .....
- ٣١٣ • تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ .....
- ٣١٥ • الفصل الأول: الْمُسْلِمُونَ وَكَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَمَوَاقِفُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهَا وَالْأَدِلَّةُ عَلَيْهَا .....
- ٣١٦ - اقترب الحساب .....
- ٣١٨ - والقلوب لاهية .....
- ٣١٩ - والنفوس مضطربة حائرة .....
- ٣٢١ - الردود .....
- ٣٢٣ - العرب والقرآن الكريم .....
- ٣٢٤ - إفناء وإنشاء .....

- ٣٢٦ ..... سقوط المترفين -
- ٣٢٧ ..... سؤال الأطلال -
- ٣٢٨ ..... إيمان اليأس -
- ٣٢٩ ..... تنزُّهه سبحانه عن اللعب -
- ٣٣٠ ..... قذف الحق على الباطل -
- ٣٣١ ..... تسبيح وتمجيد -
- ٣٣٣ ..... دليل التوحيد العقلي -
- ٣٣٥ ..... دليل التوحيد النقلي -
- ٣٣٦ ..... كلمة التوحيد -
- ٣٣٧ ..... براءة الأنبياء مما نُسب إليهم -
- ٣٤٠ ..... من أدلة التوحيد المحسوسة -
- ٣٤٢ ..... الماء والحياة -
- ٣٤٤ ..... الجبال أوتاد الأرض -
- ٣٤٥ ..... السماء سقف الأرض -
- ٣٤٦ ..... الليل والنهار والشمس والقمر -
- ٣٤٦ ..... ناموس الموت والحياة -
- ٣٤٩ ..... الفصل الثاني: حَامِلُو كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَرَوَّادُهَا
- ٣٥١ ..... تمهيد -
- ٣٥٢ ..... الفاتح الخاتم -
- ٣٥٣ ..... المستعجلون للعذاب -
- ٣٥٥ ..... مواساة وتثبيت وتحذُّر -
- ٣٥٧ ..... دفع التوهُّم -
- ٣٥٨ ..... الإنذار بالقرآن العظيم -
- ٣٥٨ ..... نفحة عذاب -
- ٣٦٠ ..... التوراة والقرآن -
- ٣٦١ ..... إمام الموحِّدين إبراهيم عليه السلام -
- ٣٦٤ ..... تحطيم الأصنام -
- ٣٦٥ ..... المحاكمة -

- ٣٦٨ ..... - الحكم والتنفيذ
- ٣٦٩ ..... - حسبي الله ونعم الوكيل
- ٣٧٠ ..... - نجات إبراهيم ؑ من النار
- ٣٧٠ ..... - الهجرة إلى الأرض المباركة
- ٣٧١ ..... - فضل بلاد الشام
- ٣٧٣ ..... - إسحاق ويعقوب ؑ
- ٣٧٤ ..... - لوط ؑ
- ٣٧٥ ..... - نوح ؑ
- ٣٧٦ ..... - داود وسليمان ؑ
- ٣٧٩ ..... - تسبيح الجبال والطيور
- ٣٨٠ ..... - تسخير الريح والجن لسليمان ؑ
- ٣٨١ ..... - أيوب ؑ
- ٣٨٣ ..... - صاحب الحوت يونس ؑ
- ٣٨٦ ..... - زكريا ؑ
- ٣٨٧ ..... - رجاء وخوف
- ٣٨٨ ..... - مريم وابنها عيسى ؑ
- ٣٩٠ ..... - أمة التوحيد
- ٣٩١ ..... - اختلاف الناس
- ٣٩٣ ..... - بطلان مزاعم التناسخ والتقمص
- ٣٩٤ ..... - يأجوج ومأجوج
- ٣٩٥ ..... - الوعد الحق
- ٣٩٧ ..... - السابقة الحسنی
- ٣٩٨ ..... - الفرع الأكبر
- ٣٩٩ ..... - طبي السماوات
- ٤٠٠ ..... - كيفية الحشر
- ٤٠١ ..... - تمكين الصالحين من الأرض
- ٤٠٣ ..... - البلاغ والرحمة
- ٤٠٦ ..... - لا إله إلا الله محمد رسول الله
- ٤٠٨ ..... - آذنتكم على سواء

٤١٠ ..... الخاتمة

### تفسير سورة الحج الطَّرِيقُ إِلَى الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ

- ٤١١ ..... المقدمة
- ٤١٥ ..... تمهيد: مَوْضُوع السُّورَةِ
- ٤١٧ ..... الفصل الأول: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
- ٤١٨ ..... - زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ
- ٤١٩ ..... - ذَهُولُ الْمُرْضِعَاتِ وَالْحَامِلَاتِ
- ٤٢١ ..... - أَصْنَافُ الْكُفَّارِ
- ٤٢١ ..... - الصنف الأول من الكفار: المقلِّدون
- ٤٢٣ ..... - تقرير الأدلة
- ٤٢٣ ..... - الإنسان والتراب
- ٤٢٤ ..... - النطفة
- ٤٢٥ ..... - الأربعينات
- ٤٢٦ ..... - العلقة
- ٤٢٧ ..... - المضغة
- ٤٢٨ ..... - تحريم قتل الأجنَّة المعوقين
- ٤٢٩ ..... - القدر المعلوم
- ٤٣١ ..... - من الأشدُّ إلى أرذل العمر
- ٤٣١ ..... - الزوجية في المخلوقات
- ٤٣٣ ..... - الصنف الثاني من الكفار: المتكبرون
- ٤٣٤ ..... - الصنف الثالث من الكفار: الماديون النفعيون
- ٤٣٥ ..... - فِي حِمَى الْإِيمَانِ
- ٤٣٦ ..... - الضلال البعيد
- ٤٣٧ ..... - الفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ
- ٤٣٧ ..... - حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى
- ٤٣٩ ..... - الخضوع والانقياد لله تعالى

- ٤٤٠ ..... - الخصمان
- ٤٤١ ..... - ثياب من نار
- ٤٤٢ ..... - ثياب من حرير
- ٤٤٣ ..... - القول الطيب
- ٤٤٥ ..... • الفصل الثاني: البيُّت الحرامِّ وفريضة الحجِّ
- ٤٤٦ ..... - الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
- ٤٤٧ ..... - الصَّدُّ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
- ٤٤٩ ..... - الإلحاد في الحرم
- ٤٤٩ ..... - الأمة المسلمة والبيت الحرام
- ٤٥٠ ..... - تلبية الدعوة
- ٤٥١ ..... - منافع الحج
- ٤٥٢ ..... - الأيام المعلومات
- ٤٥٣ ..... - من مناسك الحج
- ٤٥٤ ..... - تعظيم حُرُمَاتِ اللَّهِ
- ٤٥٦ ..... - التحذير من الشرك وشهادة الزور
- ٤٥٧ ..... - تعظيم شعائر الله
- ٤٥٨ ..... - التحلُّل من الإحرام
- ٤٥٩ ..... - الإسلام لله تعالى
- ٤٦٠ ..... - البُدن من شعائر الله
- ٤٦١ ..... - التقوى والإحسان
- ٤٦٣ ..... • الفصل الثالث: الجِهَادُ
- ٤٦٤ ..... - تَمْهِيدٌ: سُؤَالٌ وَجَوَابٌ
- ٤٦٥ ..... - مشروعية الجهاد
- ٤٦٦ ..... - وعد ووعد
- ٤٦٧ ..... - الإذن بالقتال
- ٤٦٧ ..... - قاعدة الانطلاق
- ٤٦٩ ..... - الإخراج من الديار
- ٤٧٠ ..... - من سماحة الإسلام

- ٤٧٠ - بشارة وثناء .....
- ٤٧١ - نبي الرحمة .....
- ٤٧٢ - الاعتبار بالآثار .....
- ٤٧٣ - الأجل المُسمَّى .....
- ٤٧٤ - النبيُّ النذير .....
- ٤٧٦ - جدال وضلال .....
- ٤٧٧ - قسوة القلب .....
- ٤٧٩ - اليوم العقيم .....
- ٤٨٠ - قصة الغرائق .....
- ٤٨١ - عصمة النبي ﷺ من الشيطان .....
- ٤٨٢ - السجود لله تعالى .....
- ٤٨٤ - اتهام باطل .....
- ٤٨٥ - أمثلة مردودة .....
- ٤٨٧ - مصلحة الدعوة .....
- ٤٨٧ - فضل الهجرة .....
- ٤٨٨ - مواجهة العدوان .....
- ٤٩٠ • الفصل الرابع: الاصطفاء والاختيار للأمة المسلمة .....
- ٤٩١ - الأرضُ المُحضَّرة .....
- ٤٩٢ - النواميس الكونية .....
- ٤٩٣ - إحكام واتِّساق .....
- ٤٩٥ - المنازعة في الدين .....
- ٤٩٦ - كمال علم الله تعالى .....
- ٤٩٨ - كمال قدرته سبحانه .....
- ٤٩٩ - اصطفاء الرُّسل .....
- ٥٠٠ - اصطفاء الأمة المسلمة .....
- ٥٠١ - الصلاة والتكليف بالجهاد .....
- ٥٠٣ - خير الأمم .....

تفسير سورة المؤمنون  
الْإِنْسَانُ مِنَ الْبِدَايَةِ إِلَى الْخُلُودِ  
فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ

- المقدمة ..... ٥٠٥
- تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ ..... ٥٠٧
- تفسير سورة المؤمنون: الْإِنْسَانُ مِنَ الْبِدَايَةِ إِلَى الْخُلُودِ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ ..... ٥٠٩
- المؤمنون هم المفلحون ..... ٥٠٩
- على طريق الفلاح ..... ٥٠٩
- الخاشعون في الصلاة ..... ٥١٠
- المعرضون عن اللغو ..... ٥١١
- الفاعلون للزكاة ..... ٥١٢
- الحافظون لفروجهم ..... ٥١٣
- الراعون للأمانات والعهود ..... ٥١٤
- المحافظون على صلواتهم ..... ٥١٤
- الوارثون ..... ٥١٥
- البداية والخلود ..... ٥١٧
- البداية ..... ٥١٧
- أطوار الخلق ..... ٥١٨
- الإمدادُ بأسبابِ الحياة ..... ٥٢١
- الإمداد بأسباب الهداية ..... ٥٢٥
- نوح ﷺ ..... ٥٢٥
- التوحيد أولاً ..... ٥٢٩
- مع الأنبياء والمرسلين ..... ٥٣٢
- الطعام الحلال والعمل الصالح ..... ٥٣٥
- الاختلاف والكُفر ..... ٥٣٦
- غفلة وغرور ..... ٥٣٧
- المسارعون إلى الخيرات ..... ٥٣٩
- الصحوة المتأخّرة ..... ٥٤٢

- ٥٤٥ ..... - الحق متبوع لا تابع
- ٥٤٧ ..... - إعراض وعناد
- ٥٥٠ ..... - تقرير وإلزام
- ٥٥٤ ..... - إثبات التوحيد ونفي الشرك
- ٥٥٦ ..... - تذكير وتأديب
- ٥٥٩ ..... - سؤال الرجوع إلى الدنيا
- ٥٦١ ..... - في يوم الخلود
- ٥٦٥ ..... - الأعمار والخلود
- ٥٦٧ ..... - تنبيه وتقرير
- ٥٦٩ ..... • فهرس الموضوعات

